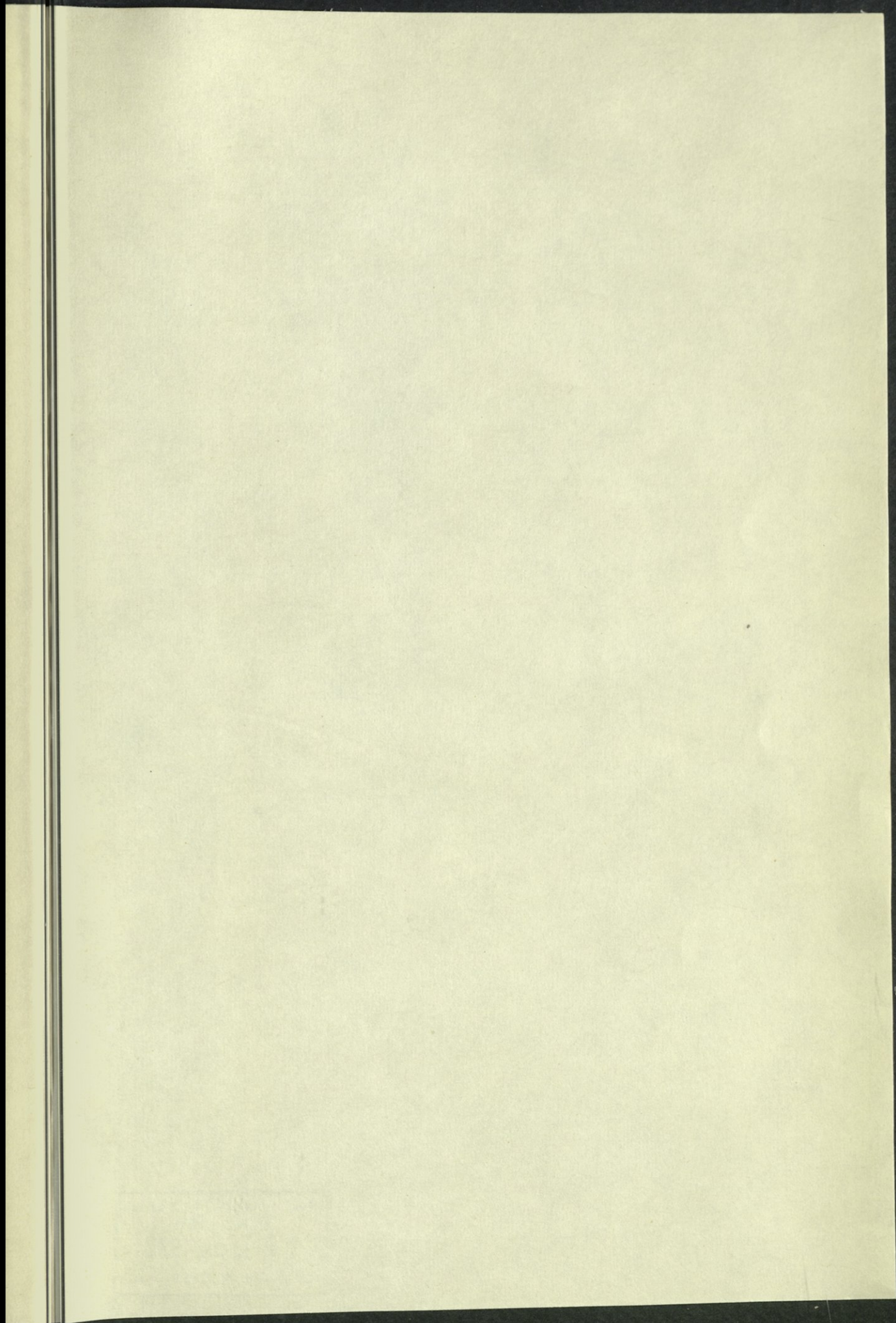
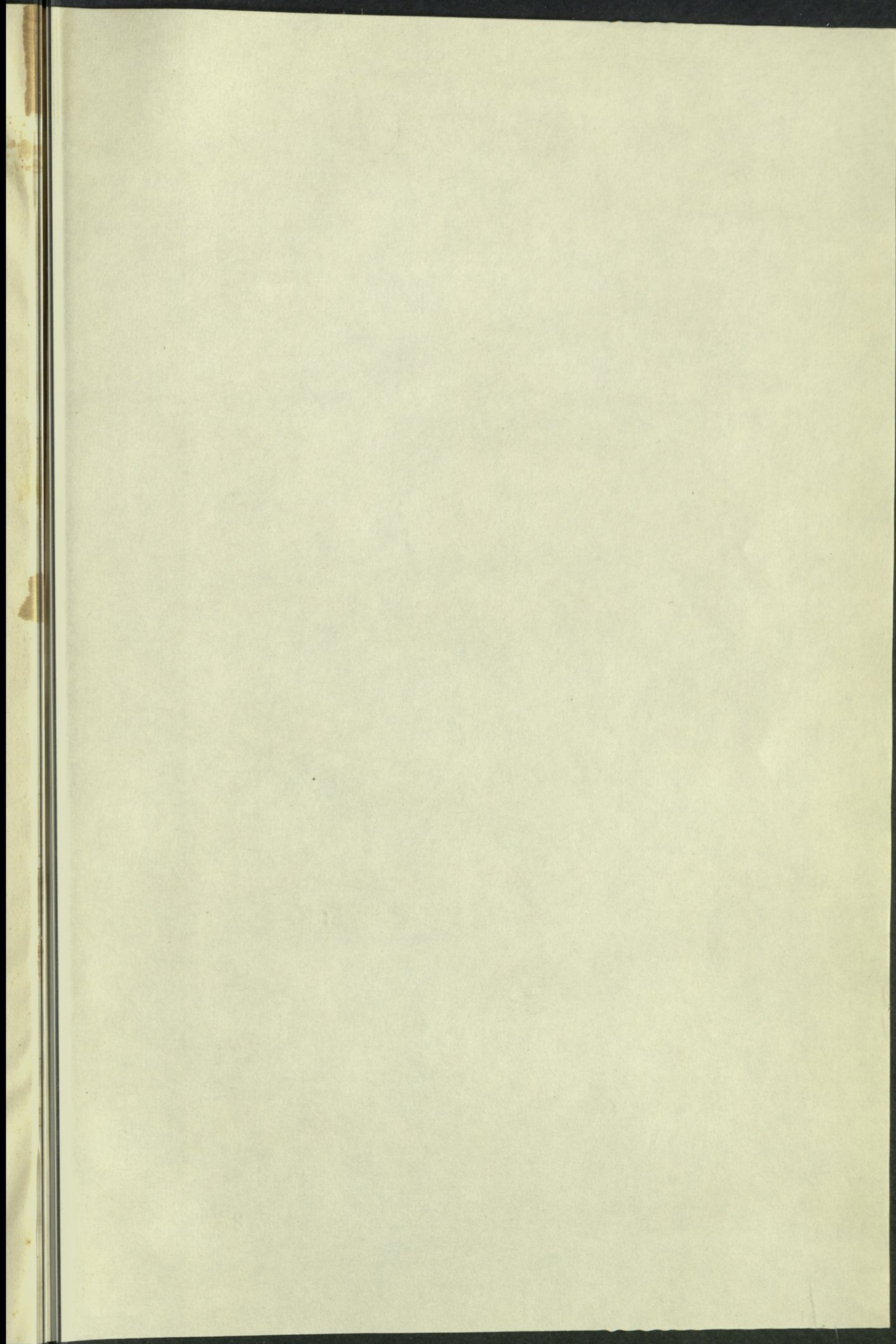


N. MAKHOUL
BINDERY
22 JUL 1972
Tel. 260458





الزناضل المحرر عليه

في السبابة الإنسانية

أو

فضل ما خطه قلم في الأخلاق والحكم

تأليف من تألفت القلوب على حبه وولائه ، وترنمت الألسن بحمد آلائه ، وشكر فضله ونعمائه ، رشيد هذا الزمان بأقباله وعلائه ، ومعين الأحسان بفيض عطائه ، وقس بن ساعدة بفصاحة بيانه وأدائه ، عميد العرب العرباء ، وقرة أعين الشعراء والادباء والعلماء ، ومظهر جلال المجد بين الملوك والشيوخ والامراء

معز السلطنة سردار اقدس صاحب العظمة

الشيخ محمد علي خان

مولوي

امير نويان وسردار عربستان

المجلد الاول

وقف على طبعة وعلم مؤلفه

عبدالله بن محمد

عبدالمسيح انطياكي

صاحب جريدة الزمان بمصر

الطبعة الثالثة

مطبعة العمران

مولوي



معز السلطنة سردار اقدس سمو الشيخ خزعل خان

سردار عربستان وأمير نويان

هذا هو الملك الذي في عهده نالت رعيته البشائر والنعم
 هذا الذي فيه لقد بلغ الاعا رب سؤلهم اذ كان أفضل من حكم
 هذا الذي ساس الرعية حازماً ومشى بها للرفي تحدوه الهمم
 يمينه السيف الصؤول على العدى حتى اذا أفناهم مسك العلم
 ويساره لليسر قد خلقت وللسردار اقدس خزعل خالق الكرم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة الكتاب

بقلم العبد المملوك الواقف على طبعه

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على من اختار واصطفى ، وبعد فبينما كنت أتجول بين العرب لحدة العرب ، وأقصد رحاب ملوكهم وأمرأهم باسم العلم والأدب ، فطويت اليهم المراحل ، وأتمت المنازل ، برحلات متوالية ، وزيارات متتالية ، وجدت فيها ماشاء الله من الاحياء العامرة ، والوجوه الزاهرة ، والمآثر الباهرة ، والاخلاق العالية الفاخرة ، فعرفت أن القوم لا يزالون على مكارم أخلاق ، في نفائس أعلاق ، قد حافظوا وهم الاحفاد ، على تراث مجد الالباء والاجداد ، رغم معاكسة الزمان القهار ، وعوادي الليل والنهار ، وأن في هذه الامة الكريمة من الملوك والامراء ، من جدّ دوا بهذا العصر عهد الرشيد والمأمون وغيرها من أعظم الخلفاء ، وأن العراق كان ولا يزال مظهر مجد العرب العرباء ، علمت هذا فخدمت الله المتعال ، وقلت في مثل هؤلاء الاقيال ، لا بد وأن تتبدل الاحوال ، وتنال أمة الرسول العربي بعيد الامال

سعت الى العرب ، وأنا في باكورة الشباب ، وعانيت في سبيل خدمتهم من الوصيب ، ما يتحدث به الآن ذوو الالباب ، وأقول والثناء لله مع الاقتضار ، اني كنت في مقدمة من ناشد العرب ان يهبوا الى ارجاع ما كان لهم من قديم المجد والفخر ، وأوقفت على خدمة هاته الامة الكريمة هذا القلم ، واستسهلت في سبيل نهضتها كل صعب بلا سأم ، وتحملت لاجلها كثيراً من التعب والالم ، واني لأحمد الله الذي ما أضاع لي تعباً ، ولا خيب لي مأرباً ، اذ رأيت وأنا في الكهولة ثغور الامال باسمه ، وبوادر النجاح بادية ، فالحمد لله الذي حقق أملي ، وأنجح عملي ، حمداً اردّده في كل بكرة وعشية ، ويدوي صدهاء في ربوع أمي الكريمة العربية

وكان من حظ هذا العبد المملوك ، ظفري برضاء أفضل الامراء وأكرم الملوك ، الجناب العالي ، صاحب المجد المتتالي ، مولاي وولي نعمتي ، معز السلطنة ، سردار



﴿ معز السلطنة سردار أقدس عظمة الشيخ خزعل خان ﴾

﴿ أمير نويان وسردار عربستان ﴾

أمعز سلطنة الالكاسرة الذي
 يهنيك انك في السلام أبو الندى
 حتى اذا خضت الوغى نادى القضا
 أفديك من ملك يباهر مجده
 فاهناً بانك شمس أمة يعرب
 ما زلت في روض المفاخر ترتع
 والجود فضلك لا يعد ويجمع
 بالنصر «ياسردار اقدس» ترجع
 فخر الاعارب والاعاجم أجمع
 وبأرضها زاهي ضياؤك يسرني

أقدس، عظمة الشيخ خزعل خان، أمير نويان وسردار عربستان، وحاكم الحمرة
الرفيع الشأن، فوقفت ببابه، ونزلت برحابه

فوجدت مجداً جاوز الجوزاء في علم وآداب واحسان عميم
ومكارماً ومائراً ومفاخرأ في جیدهذا العصر كالدرّ النظيم
ومحمداً يعيا النصيح بحمدها تجلى على الاعراب من ملك رحيم
فأنحت في ذاك المقام مطيبي وثويت في ظل المعز على نعم

وجدت صدراً رجباً ما كثر القاصدون، وثغراً باشاً بمجموع الوافدين، وجوداً
كالغيث الهتون، ودلاء وسع الاعداء والخصمين، وذكاء يعرف به مما كان ما قد يكون،
ودهاء أدهش السياسيين، ومجداً تجاوز السماكين، وفضلاً فضل به الاتياء الصالحين،
وعلاءاً حتى يفرق بين الشك واليقين، وأدباً يضول بجانبه أدب المناديين، وشاعرية
تسخّر لجلال المعاني القوافي والموازن، واستسلاماً الى ارادة الله عز وجل استسلام
المتقين، ونمسكاً بحب محمد الهادي الامين، وآل بيته الخيرين، صلوات الله عليهم أجمعين

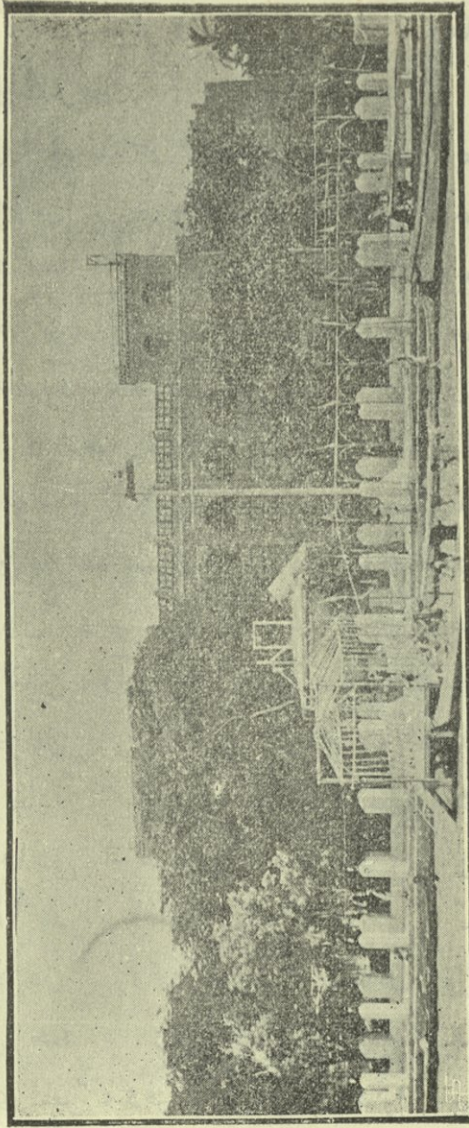
فما عت أن أحياء لخدمة خزعل مبايعة فيها الرشاد مع الهدى
وأقسمت أن لا أبرح الدهر صادقاً بخدمة أروي المدايح ونشدا
فقد شمت فيه خير من ساد واعتلى حزوماً حلماً أرواؤ سودا
وأفضل من يرجى لالة أحمد اذا طابت عزاً ورامت تمسدا
وما العرب العرباء الا بخزعل وقد كان فيها بالفضائل فردا
فلا غرو ان قيادت نفسي بحبه «ومن وجد الا احسان قيداً قيداً»

وبعد ان اتصت بخدمة مولاي المعز، وفزت برضوانه، وفيه انتهى السؤدد
والعز، عرفت أن في العرب رجالاً تحط بحضرتهم الرجال، ويحج الى روعهم بالامال،
وأن في الخلف للسلف الصالح أفضل مثال، فمن يأسف على عهد دمشق وبغداد،
ومن نشأ فيها من الملوك الصيد، والسادة الامجاد، فليبشر بأن في الحمرة ملكاً أحياء
مجد أولئك الاقطاب الاجواد، وجدد عهدهم الازهر للناطقين بالضاد

اذا مارأيت المجد في دار خزعل وفيها تجلى بالمواهب للناس
حسبت به هارون في أوج مجده ونحن به في عصر دولة عباس

لا جرم أن هذا الملك العظيم، والاب الرؤوف الرحيم، قد أنعش آمال العرب
بأعماله البواهر، وأحياء موات الامال باناره الزواهر، وتقرّد بحميد الشمايل، وكريم

المائر ، وعظيم البودار ، مما
لا يحصيه شعر شاعر ، أو نثر
ناثر ، فبارك الله في الملك الذي
نفاخر العالمين بمعاليه ، وأدامه
الله للعرب والإسلام بحميد
مآتيه ، فان المعول بعد الله لربي
العرب عليه ، والمرجع لاهل
العلم والادب اذا ما جار الزمان
اليه ، أهلنا الله لتقضي فروض
الحمد لعظيم مآتيه .



« العصر الحزلي المار كما هو اليوم »

وبعد ، فها أنا ذا كرت عن
عظمة المردار أقدم ، ما فيه
البيان الشافي لقاريء هذا
الكتاب الانفس ، ليعرف ان
عظمة المزلف هو حامل السيف
والقلم ، وأنه في ملوك وأمراء
العرب الملك الاعظم ، والاير
الانتم ، والسيد المحترم ، والعالم
العلم ، واني لملي ما شهدته بنفسي
وعرفته بعد طول اختباري

ودرسي ، غير دبانغ بالرواية ، ولا متجاوز حد الرشد والهداية ، ليعلم منه العرب أن
عظمة المليك المعز قد جمع بين الحزم والعلم ، وأصاب من كل منهما بخير سهم ، وكذلك
فتمكن الملوك والامراء ، اذا أراد العرب ان يسترجعوا نثار الاجداد والاباء .

عربستان

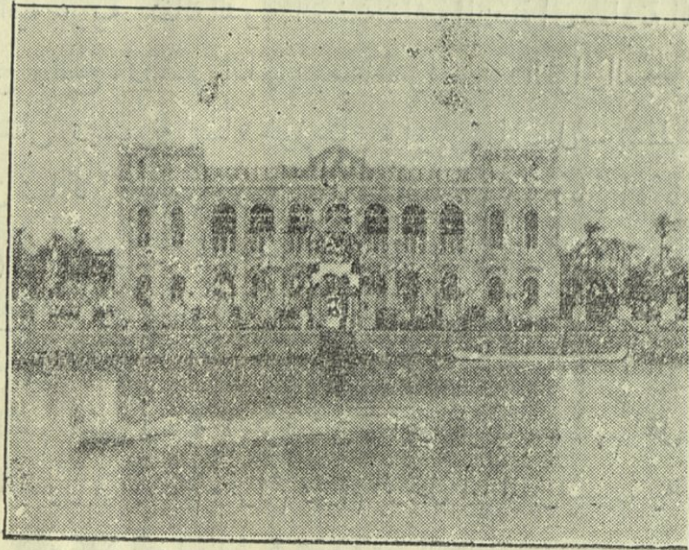
يقسم العراق الى قسمين احدهما العراق العربي وهو يمتد من الفاو الى الموصل
وكان في حكم الدولة العثمانية ثم فتحه الانكليز في سنة ١٩١٥ في اثناء الحرب الاوربية
العامة ووهبوه استقلاله حسب القرار العام المعلن في مؤتمر فرساي فصار مملكة

دستورية عراقية عربية بكفالة الدولة الفخمة الفاتحة المنتدبة الى معاونة الدولة العراقية الجديدة لنتجج وتفلح . والقسم الثاني يسميه الجغرافيون «العراق العجمي» ويسميه الفرس «عربستان» ويسمونه ايضاً «خوزستان» أو ان ما اتصل منه بشط العرب يعرف باسم عربستان وما كان على نهر قارون سموه «خوزستان» وكان الاكاسرة يطلقون على هذا القسم اسم «شوشتر» باسم حاضرتة شوشتر الواقعة على نهر قارون فوق الاهواز حتى اذا ما فتح المسلمون مملكة الاكاسرة أطلقوا عليه اسم «الاهواز» نسبة لا كبر مدنه المعروفة بهذا الاسم

وهذا القسم الذي نسميه «عربستان» أهله عرب معظمهم اهل بدوة فهم قبال وفيهم المقيمون في بلادهم وقراهم وفيهم الرحل اما المدن الشهيرة فيه فمعظم أهلها من الفرس ويقل فيهم عدد العرب لفقرة هؤلاء من التجارة

وهذا القسم داخل في حكم الدولة العلية الايرانية وأنت تعلم ان هذه الدولة لاتزال على قديم عهدا تحكم المدن وتترك ابراري العشائر التي تسكنها وفي هذه العشائر العرب والبختيارية والأتراك والارمن والاكراد وغيرهم ولكل عشيرة منها زعيم يتولى شؤونها السياسية والادارية ولكل مجموع متجانس من الزعماء رئيس أو بضع رؤساء هم واسطة الصلة بين حكومة طهران والعشائر التي حولهم وهم رؤساؤها الاعلون. وأعظم هؤلاء الشيوخ قدراً وأكبرهم نفوذاً وأمرأ هو عظمة مولانا السردار أقدس معز السلطنة الشيخ خزعل خان ابن نصرت الملك ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان الجاسبي المحيبي الكعبي العامري ذي المجد الطريف التالد والوارث المجد عن آبائه الصيد الامجد

أما حدود «أماره عربستان» المتشرفة بحكم عظمة مولانا الشيخ المعز العلي الشان فيحدها من الشمال شرق لارستان. ومن الجنوب الشرقي جبال فارس ومن الجنوب خليج فارس. ومن الغرب العراق العربي أو المملكة العراقية الحديثة الممتدة من الموصل الى الفاو. ومساحة هذه الامارة تسعة وثلاثون الف ميل مربع. وفيها نيّف وأربعمئة ألف نسمة عدا القبائل الرحل التي تنسابها للكلأ وأهم مدن هذه الامارة المحمرة «وهي العاصمة» والاهواز «ويطلق عليها اليوم اسم ناصرية الاهواز بعد ان جدّ عمرانها سادتنا آل البيت الجاسبي العظام وفيها كثير من المدن والقرى العامرة أهمها عبادان مركز الغاز الذي يسمونه «النفط»



« كما كان سنة ١٩١١ »

« القصر الخزعلي البامر »

وأهم أنهارها قارون والسكرخ وتمرّ بحدودها الدجلة فشط العراق الكبير وأهم محصولاتها الباج « التمر » وهو يباع في أسواق أوروبا وأميركا والقمح والشعير والادره وغير ذلك .

واذ كان المجال لا يتسع لنا لوصف كل مدينة من مدن اماره عربستان أو نشير الى قبائرها الباسلة المستظلة بظل عظمة السردار أقدس الشيخ خزعل خان الملتفة من حوله النفاف الهالة بالقمر والا كمام بالثمر فان من الواجب علينا أن نذكر شيئاً عن حواضرها الشهيرة مبتدئين من القصر الخزعلي المهور الذي هو مهبط السؤدد والعز في حمى عظمة الشيخ المعز

القصر الخزعلي العامر

ان البواخر التي تقصد البصرة ثغر العراق من أوروبا بطريق السويس او من الهند تدخل في خليج فارس المشهور وتنتهي الى صدره حيث تنتقل من الماء المالح هو ماء الخليج الى الماء الحلو هو ماء « شط العرب » في موضع اسمه البويات سموه كذلك لاختلاف شكل المائين فالحلو لونه احمر والمالح لونه ازرق وعند ما تدخل هذه البواخر شط العرب تصبح بين أرضين قائمة عليهما اشجار النخيل فالارض التي هي الى يمين الباخرة الداخلة هي تابعة لایران تحت حكم عظمة مولانا الشيخ المعز حفظه الله والتي هي الى شمالها هي اراضي المملكة العراقية .

وتظلّ الباخرة ماخرة كالعروس بين اشجار النخيل الحامية العرائس في ذلك الشطّ العظيم نحو بضع ساعات فتتمرّ بجزيرة عبادان ومنها على نحو ساعة تمرّ بالحمرة ومنها على نحو نصف ساعة تنتهي الى موضع يسمى «الكهالية» وهناك قصر عامر شاخ البنيان عالي الاركان امامه اليخوت والبلاد هو القصر العالي لعظمة مولانا السرदार اقدس حيّاه الله

وهذا القصر العظيم بناه عظمة ولي النعم على شطّ العراق بالقرب من حدود امارته والمملكة العراقية على أنخم طراز وأجل نظام وكان ذا طابقين عظيمين في الطابق الاول صاعة الاستقبال وهي مفروشة بأثمن وأجل الرياش وفيها من التحف والنقائس الشيء الكثير ومزدانة بالثريات الفاخرة التي تضاء بالكهرباء وفيها رسوم أعظم الملوك المهداة لعظمته منهم وفيها صوراً كاسرة الفرس العظام بأجل تصوير وأبدعه وهي مفروشة بسجادة عجيبة من أثمن وأفضل مانسجه الناسجون وبجوار هاته الصاعة العظمى «غرفة المائدة» وهي واسعة على الطراز الاوربي بمائدة وكراسي وخزانات للواني الذهبية والفضية والخزفية وفيها كان يقيم عظمة مولانا مادبه الشهيرة للولاية والقناصل والاعيان من الاجانب والوطنيين . وهناك غرف عديدة هي مكاتب رجال المعية وموظفي القصر ومستخدمي الخاصة

وكان القسم العالي من هذا القصر المعمور يقسم الى قسمين كبيرين أحدهما للحرم وفيه من نقائس الرياش ما لا يوجد مثله الا في دور الملوك وفي القسم الثاني صاعة كبرى لجلوس عظمته الى ندمائه من العلماء والادباء والشعراء الذين لا يفارقونه في سمره الليلي وفي هذه الصاعة «المكتبة الخزعية» وهي أثمن واغنى مكتبة في العراق بغير جدال وكان بجوار هذه الصاعة غرف خاصة بهؤلاء الكرام يأوون اليها ويقيمون فيها طالما هم في ضيافة وليّ النعم حفظه الله وكان في جوار تلك الصاعة الكبرى التي حولها غرف الندماء المشار اليها ساحة عظيمة كنا نسمر فيها في الصيف حيث يستحيل السمر في غير الخلاء كما هو الحال في العراق المعروفة بشدة حرّها

وتحت هذين الدورين العظيمين من ذلك القصر المعمور سرايب واسعة جميلة البناء مزدانة بالنقوش والرسوم التاريخية يقيم فيها عظمة ولي النعم وضيوفه في أيام الحرّ ويتصل الهواء اليها بمناقب عالية متصلة بأعلى سطح القصر تلمقى الهواء من الجوانب الاربعة بشكل هندسي معروف في العراق ويسمونه «باتنج» على ان عظمته حفظه الله بعد أن استحضر الكهرباء



« الحجرة حاضرة الامارة »

لقصره المعمور استعاض عنها بالمرآح الكهربائية الكثيرة فرطبت الحرارة في أشد أوقات القيظ وجعلت تلك السرايب مقرّ رطوبة تنعش النفوس وهذه السرايب مفروشة بشمين الرياش وغالي الاثاث وكنا كلما ندخلها نتذكر مارواه المؤرخون عن السرايب المشهورة التي بناها هارون الرشيد في قصر الخلد في الكرخ بل كنا نقول هيهات لسرايب الرشيد ان تكون كسرايب المعز بما فيها من جاه وعزّ ومجد وطيد

هذا ما كان عليه القصر الخزعلي العالي الى سنة ١٩١١ وفي أواخر هذا العام أضاءه بالكهرباء بالآلات مخصوصة استحضرها عظمة وليّ النعم خصيصاً لخدمة قصوره واستحضر معهم من زاهر الثريات والمصابيح ما يستهوي الابصار حتى اذا ما انبعثت منها الانوار كان الليل فيها أضواً من النهار ولا سيما الانوار الشمسية المقامة على الساحة السطحية وفي ساعات القصر الكبرى وأهم هذه المصابيح مصباح كبير أقيم على أعالي القصر ونوره كالنجم الثاقب ويصل الى مسافات بعيدة أقامه عظمة مولانا خصيصاً ليستضيء به قاصدوه اذا وصلوا الى رحابه ليلاً ولي الشرف أنا عبده المملوك ان اكون واسطة مشترى هذه الآلات والثريات في سياحتي الاولى في أوروبا ابتعتها لعظمته من عروس الدنيا باريس

كما صار لي الحظ ان اكون في خدمة عظيمة في الكالية المحروسة عند ما اضاء القصر المعمور
بالانوار الكهربائية المرة الاولى فقلت وقتئذ اؤرخها :

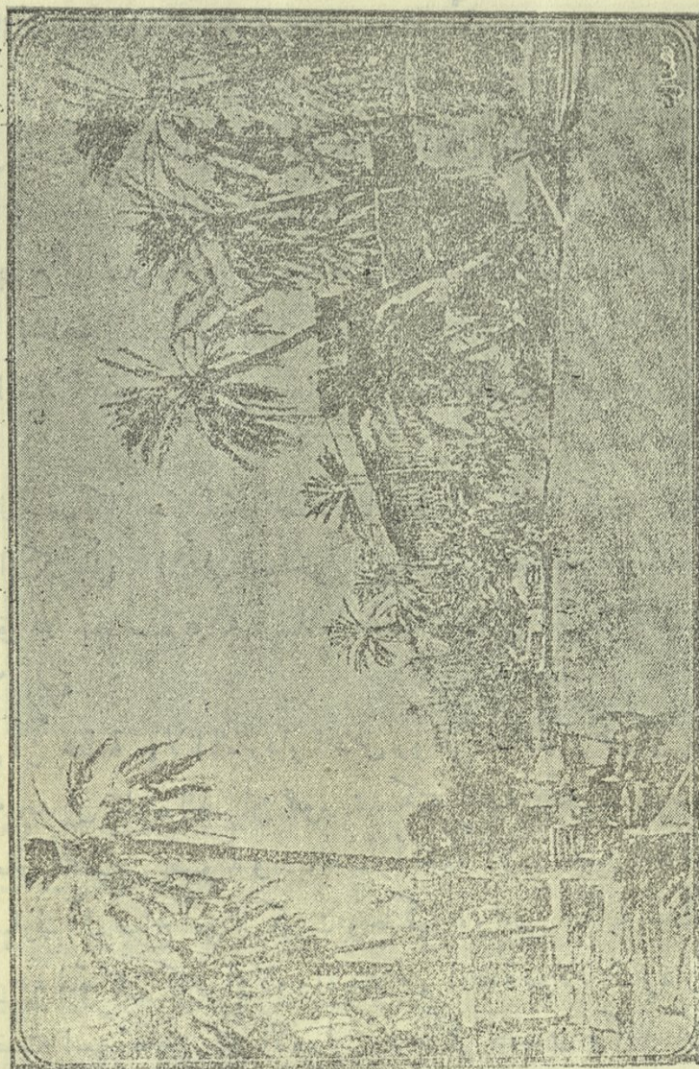
يا من يرى بديار مولانا المع	ز سناً يشابه بالفاخر نوره
ان رمت تعرف ما يضي بقصره	عالي لينظر كل مرء بره
فاعلم بأن سناءه متشمع	من مجده السامي فيرفع قدره
ويذيع ما بين الاعارب والاعا	جم في المشارق والمنارب شكره
ذا جابه بنهاره باد كنو	ر الشمس يولي بالتلاي ذكره
ولاميه عند المؤرخ منور	بالكهرباء اثار خزل قصره

سنة ١٩١١

أقول وقد كان هذا اول عهد اناس في الراق بالكهرباء وما كانوا يعرفون
« النور الكهربائي » الا في البواخر التي كانت تراد البصرة وما انتشرت الكهرباء
في العراق الا بعد سنة ١٩١٥ عند ما فتحتها الجيوش البريطانية المنصورة في الحرب
العامة الاوربية .

على أن عظمة مولانا السردار اقدس روعي فداه لم يرض ان يبقى قصره الامام
على حاله بعد ان تنازل العمران عموم مملكته العلية فآخذ بتوسيته فأشاد بجوار
القسم العالي المخصص بضيوفه وندائه داراً فخمة لاميير الجليل الخالد الذكر المرحوم
الشيخ مبارك آل صباح أمير الكويت وحاكمها ورئيس قبائلها ذلك ان هذا الامير
الجليل رحمه الله كان كثير الولاء والاخلاص لعظمة مولانا السردار اقدس وكذلك
كان عظمته لسموه حتى كان الاميران روحاً في جسدين وكانا يتزاوران مراراً في
كل عام ويعملان بالتضامن في سبيل خير رعايتهما في عربستان والكويت فربما بعد طول
الصحبة ان يبني كل منهما قصراً لصاحبه في بلده ليستكمل اسباب راحته فبنى عظمة السردار
اقدس بجوار قصره قصرأ المرحوم الشيخ مبارك آل صباح كما تقدم وبنى الشيخ المرحوم
قصرأ لعظمة مولانا في الكويت بجوار قصره (١) وهكذا كانت الصداقة بين الاميرين

(١) ورأى عظمة مولانا السردار اقدس حفظه الله أن هواء الكويت يلائم صحته
التمينة فاكتمفى بالقصر الذي بُني لعظمته بجوار قصر اخيه المرحوم الشيخ المبارك داخل البلد
بل بادر فبنى قصرين فخمين خارج الكويت على ضفاف البحر من الجهة الشرقية أحدهما
للحرم والاخر للنساء والاعوان والضيوف وحسب عادته الشريفة اتشهما بفاخري



« الشارع الخزعي في الحجرة »

وطيدة الأركان وظلت كذلك الى ان فرق بينهما الدهر الخؤون بداعي البين فلا حول ولا قوة الا بالله ولقد نال رعايا الاميرين من وراء هذه الصدقة الوثيقة العرى من جلب المنافع ودفع المضار الشيء الكثير فتعسماً للزمان الندار الذي فرق بينهما ووقع الكريهيتين بعد الشيخ المبارك بمصائب عرفوا معها فضل ذلك للشيخ الجليل بارتباطه الأثاث فكانا أنخم وأجمل أبنية الكويت بالاجماع وهي ما حلّ بهما عظمتهم باتنا كبة الزائرين من الشيوخ ووجهاء القوم وسراهم وعلماهم وفضلاهم وهم يحسبون زيارة عظمتهم لكويتهم نعمة من نعم الدهر أو عيداً من اعيادهم يتبادلون به كؤوس الغبطة والبشر

بعظمة اميرنا النبيل نعم عرفوا ذلك على عهد ولده المرحوم الشيخ سالم المتوفي سنة ١٩٢١ على انهم عادوا الى مثل ذلك الخير على عهد اميرهم الحالي حفيد المبارك سمو الشيخ احمد بن جابر الذي رجع الى مودّة عظمة السردار اقدس متبعا حسن سياسة جدّه رحمه الله فرجع الكويتيون بذلك الى ماضي عهد الخير الذي فقدوه حيناً من الدهر وذكروا به شيخهم المبارك اطيب الذكر ذا كرين قول الشاعر :

سيد كرنى قومي اذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يتمتد البدن
ثم رأى عظمة مولانا السردار اقدس أيده الله أن استقبال ضيوفه الكرام وهم
كما علمت من الامراء والوزراء وكبار الحكماء في الدور الاول من قصره المعمور
لا يتفق مع مكاته العليا ومقامه السامي فصدرت ارادته السنية في سنة ١٩١٣ ببناء
قصر خاص ملاصق لقصره وقصر اخيه المرحوم الشيخ مبارك الصباح وسرعان ما نفذ
أمره السامي وأقيم ذلك القصر على طراز عجيب جمع بين الاسلوب الاوربي والذوق
الشرقي الفارسي وهاك وضعه :

اقم هذا القصر العجيب على علو ستة أمتار فيصعد اليه بسلم مرمرية وهناك تدخل
الى فسحة واسعة الجوانب مستطيلة تسع نحواً من ألف نفس وقوفاً على الاقدام ونقش
بناة الفرس على أعلى جدران هاته الفسحة عوراً تاريخية تمثل المشهورين من قياصرة الفرس
القدماء وبعضهم وقوف والبعض على خيولهم والبعض يصارعون الاسود والبعض يحاربون
اندياهم وتشيد على جانبي هاته الفسحة غرف عديدة بعضها كبيرة وبعضها صغيرة وجعلت
لكون للضيوف الكرام الذين يقصدون عظمة وليّ النعم والبعض الآخر للخاصة من رجال
عظمتهم واقتخر ان اقول ان احدى هاته الغرف قد خصصها عظمة دولاى بهذا العبد
المملوك اقيم فيها عند ما اتشرّف بخدمة عظمتهم

وفي وسط هاته الفسحة الى يمين الداخل ممرّ ينتهي الى قصر عظمة وليّ النعم
وقصر المرحوم اخيه الشيخ مبارك الصباح ومن هذا المدخل الى قصر الشيخ المرحوم
صاعة كبرى يعجز القلم عن بيان ما فيها من بديع النقوش التي اشتغل بتصويرها
ابرع مصوري الفرس وتمثل هذه النقوش مواقع تاريخية مشهورة لا كاسرة فارس
القدماء وقد زاد هذه الصاعة جمالاً نثر مصابيح الكهرباء الصغيرة الملونة في أعلى
جدرانها عند الصقف بين نقوش الزهور وكروم العنب حتى اذا ما أضئت ارسلت
الى أعين الرائيين منظراً يحير العقول وهذه الصاعة المباركة كانت مثوى جلالة الشاه



«حضرة الأمير الجليل صاحب السمو سردار أرفع أرفع»

احمد خان سلطان دولة ايران العلية عند ما زار عظمة مـلانا في ربيع سنة ١٩٢٠
وقد اظهر جلاله اياه ببديع صنعها وترصيع مصابيح الكهراء في جاراتها
وانتم على كهر باني النصر الاسطى داود ينوط الصناعة الذهبي لاجلها

وفي صدر هاته الصاعة غرفة واسعة ايضاً مفروشة بشمين الرياض في صدرها
صورة زيتية على طول ولي النعم تشرّفت باستصنائها في مصر وحماها الى ذلك القصر
المعمور في خريف سنة ١٩٢٠ وترى صورتها في هذا الكتاب وفي هذه الصاعة من فاخر
السجاد الايراني ما يسي باتقان صنعه الالباب وهذه الصاعة جعلها عظمة ولي النعم

لاقامة الولائم لكرام ضيوفه وأعظم قاصديه على الطريقة الاوربية كما يشاهد في قصور ملوك اوروبا وامراتها وسراتها

وفي جوار هذه الصاعة الى يمين الداخل دائرة واسعة ذات غرف عديدة تخصصت بكبار موظفي الخاصة منها غرفة حضرة الشيخ الوقور صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان كبير الوزراء وغرفة حضرة النبيل الذكي صاحب السعادة جلالة الملك ميرزا عبد الصمد خان كاتم أسرار الامارة وغرفة حضرة النبيل الفاضل صاحب السعادة الحاج ابي الحسن خان مشير تجار عربستان كاتم أسرار الامارة في الشؤون الخارجية وغرفة حضرة الماجد صاحب السعادة مغيث الدولة كبير مستشاري الامارة وغرفة حضرة الهمام وقار الملك مهمندار الامارة وغرفة حضرة الكاتب المتضلع صاحب السعادة معاون الممالك رئيس التحريرات الفارسية وغرف بقية الموظفين والامناء والمقر بين

ومن جوار هذه الصاعة الى شمال الداخل ممر يخرج منه الى شرفة مستطيلة تشرف على حديقة القصر الغناء وعلى شمال الداخل في هذا الممر غرفة السيد المملوك تعينت لي عند ما اكون حائزاً على شرف مواصلة وليّ النعم روعي فداه اما الشرفة فمستطيلة وقد ارتكز صقفها على أعمدة عظيمة مستديرة لها تيجان منقوشة على نحو ما يشاهد بالهياكل الاثرية في بلاد فارس ومصر وهذه النقوش الفارسية تدهش الناظرين وتزيدها جمالا المصاييح الكهربائية المثورة على هاتيك التيجان بين نقوشها البديعة وقد فرش هذا القصر الجديد بفاخر السجاد وجيء اليه بالاثاث الثمين على الطراز الاوربي فكان أعظم بناء في انخم ريش تقع عليه العين في اطراف العراقيين وتحيط بالقصر الخزعلي العالي روضة غناء فيها من كل فاكهة زوجان وهي مستطيلة على نفس شط العراق فيزيدها مرأى الشط والبواخر الماخرة فيه زهواً وبهاءاً وفي هذه الروضة من أنواع الزهور والرياحين ما يعبق شذاه وتستهوئ النفوس رؤياه ولعظمة مولانا السردار اقدس عناية خصيصة بهذه الحديقة وقد جاء لها ببستاني من بني الروم يسهر على تنظيم ماشيها وترتيب مغارش أزهارها على نحو ما نعرف من حدائق مصر واوروبا الجميلة . والحديقة ذات ماشي وادغال وفيها المقاعد لراحة روادها . وفي كل مساء تأتي اليها الموسيقى الخزلية فتشغف الاسماع بنغماتها الشجية . وفي صدر هذه الحديقة ضربت خيمة جميلة يأوي اليها عظمة المعز وليّ النعم روعي فداه عند الضحى واحياناً



« حفرة الأمير الجليل صاحب السمر سردار اجل الشيخ عبد الحميد خان »

كان حفظه الله يتناول في هذا المضرب طعام الغذاء مع ندمائه والمقربين اليه من أصحابه .

وامام القصر وحديقته ترسو يخوت عظمة مولانا السردار اقدس التي سنأتي على ذكرها فيما بعد وترسو أيضاً « بلانم » عظمته وأهمها البلم الخاص بخدمة ولي النعم في حال انتقاله الى يختيه الكبيرين ونحو ذلك والبلانم جمع بلم وهو الزورق

الفيلة

وهذا القصر الفخم العظيم يبعد عن الفيلة نحو ٣٠ دقيقة للماشي والطريق بين القصر والفيلة عبارة عن مجموع أبنية متجاورة اولها قصر فخم بجانب النصر العالي وهو واسع

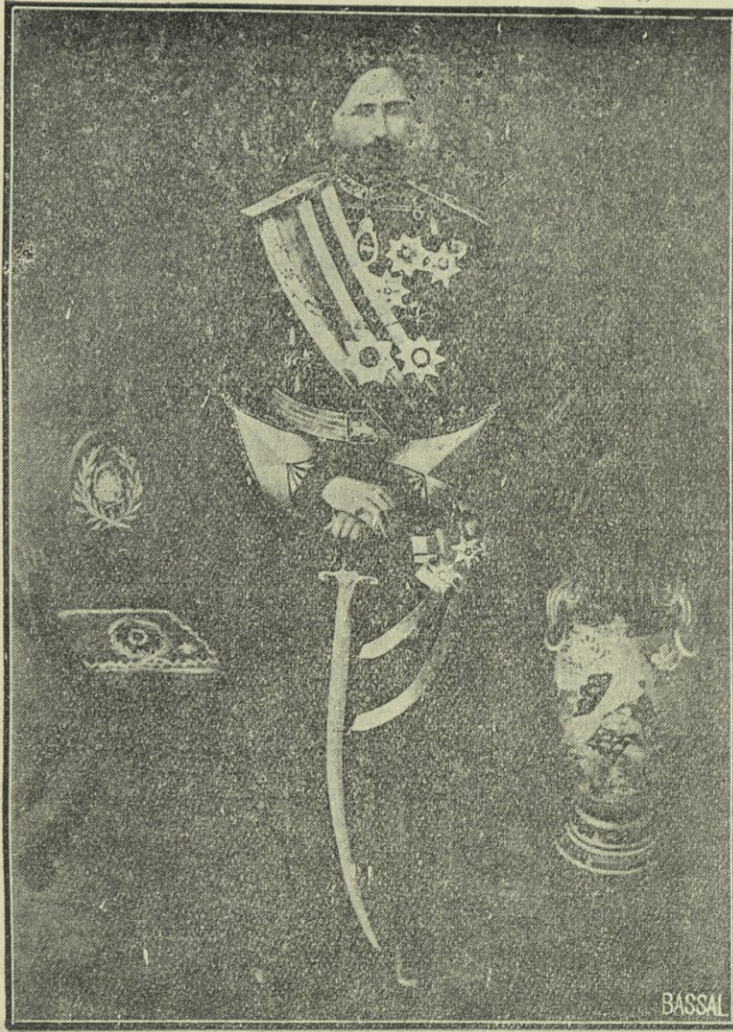
الاطراف ذو طابقين كبيرين يقيم فيه اليوم سموّ مولاي السردار ارفع الشيخ جاسب خان كبير الانجال وحاكم المحمرة مع حاشيته الكريمة فبنية اخرى للالات الكهر بائية التي ترسل نورها الى القصر الخزعلي العامر وقصور الفيلية وبجواره بناية اخرى يقيم فيها عمال الكهرباء فقصور اخرى كثيرة اعدّها عظمة مولانا السردار اقدس لاقامة كبار ضيوف عظمته الذين يطيلون الاقامة في خدمته العلية من امراء العرب والفرس وفي آخر هذه الابنية الديوانية الشهيرة التي سيأتي ذكرها وكل هذه الابنية على شط العرب ومنارة بالكهرباء وقائمة حولها اشجار النخيل الباسقة

لا جرم ان هذه الابنية الفخمة القائمة على شطّ العرب من حدود الفيلية حيث « الديوانية » الى القصر الخزعلي العامر في « السكالية » هي سورّ لما ورأها من بلد « الفيلية » الخاص بالخاصة الملوكة الخزعية فهناك يسكن كل من له نصيب في المائدة الخزعية من غلمان وعمال ومعاملين وهناك سوق لهؤلاء الجماعات يتعاملون فيها وهناك « الحسينية » الكبرى المشادة لاقامة التعازي في الايام السوداء التي يذكر فيها المسلمون ما لقيه من الخطوب آل البيت النبوي عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام وكانت الفيلية مقرّاً لشيوخنا العظام من القدم وباني قصورها هو ساكن الجنان المرحوم نصرت الملك الحاج جابر خان وظلت هذه القصور على حالها الى أن تشرف عرش الامارة بعظمة مولانا ولي النعم فزاد في عمران هاتيك القصور وجدّد كثيراً من أبنيتها وأدخل في الاخير اليها الانوار الكهر بائية

وبجوار هاته القصور قصر المرحوم ميرزا حمزه خان وزير الامارة بُني على عهد المرحوم الشيخ مزعل خان ويسكنه اليوم كبير ائجاله صاحب السعادة جلاء الملك ميرزا عبد الصمد خان وقد زاد حضرته في بناء هذا القصر وترميمه وجمّله بالنقوش والرسوم وفلنتر الرياش

وكما سبقت الاشارة الى وراء قصور ساداتنا الشيوخ بيوت مواليتهم وهم « الحرس الخاص » وفي هذه الكورة ايضاً « الديوانية » وهي عبارة عن دار واسعة الاركان شاحخة البنيان مشرفة على شط العراق بناها عظمة مولانا ولي النعم المعزّ المعظم لاضافة ضيوفه الكثيرين الذين يقصدونه من كل صوب وحذب فينزلون على الرحب والسعة ويقيمون ما شاء الله ان يقيموا برغد وهناك حتى اذا أرادوا الانصراف غمّهم بالمنح والالمانف فيصدرون عنه حامدين شاكرين بعد أن قصدوه آمليين .

« منقولة عن الصورة الزيتية الكائنة في القصر العالي »



« عظمة مولانا السردار أقدم الشيخ خزل خان »

وكانت عادة ولي النعم المعزّ المعظم زيارة الفيلىمة هذه في أكثر الايام التي يكون فيها في قصره العامر في السكالية ولكن أبطل حفظه الله بعد الحرب العامة عادته تلك وصار يجلس الى الناس في قصره العامر ويرسل حضرة كبير انجاله سمو السردار ارفع الشيخ جاسب خان للاهتمام براحة الضيوف وتقديم من يجب تقديمه منهم الى حضرته السنية ولقد لقي الضيوف من كرم سمو الامير نجدهما حقق لهم المثل المشهور « الولد سر أبيه »

وكانت « ديوانية الفيلىمة » مقرّ الاحكام التي ينظر فيها عظمة مولانا السردار اقدس روعي فداه فكان يجلس للناس في صاعتها لينصف المظلوم من الظالم ويرفع

عن اعناق الناس المغارم ولكن بعد الحرب العامة حول ادم الله علاه مجلسه ذاك الى
القصر المعمور ايضاً

الحمرة

اما الحمرة فواقعة على ملتقى شط العراق ونهر قارون ويمر بها نهر بهمشير ومبينة
دورها بين اشجار النخيل القائمة فيها كالعراس وفيها نيف وثلاثون ألف ساكن
وتحيط بها وتنتثر امامها أي ما وراء شط العرب «كور» جمع «كورة» يباع سكانها
نحو من مئة ألفاً فيكون مجموع سكان الحاضرة بكورها مئة وثلاثين ألفاً (١)

اما نفس الحمرة فهي مدينة قديمة كانت كغيرها من مدائن الخليج الفارسي فلما
علا عرش الامارة عظيمة مولانا السردار أقدم أعزّه الله صدرت ارادته السنية بتعميرها
على الاسلوب الحديث واذ كان هذا يثقل كواهل الاهلين أمر حفظه الله بان تكون
النفقات من حبيبه الخاص وهكذا جاء بالمهندسين من البصرة والهند وجدّد بناء
الاسواق على طراز حديث بحيث أصبحت الدكاكين والمخازن فيه متناسقة متشابهة
وشوارعها واسعة وكذلك أمر بتنظيم وتوسيع شوارع عموم البلد وفرشها بالحجر
الصلد والسهر على تنظيمها وغسلها فأصبحت ولا جدال أجمل ثغور الخليج الفارسي وأعمرها
وأهم شوارع هذا البلد الشارع الخزعلي العالي وفيه السكر ودور المعتمد الإيراني
والقنصل الانكليزي والسراي الجاسبية الكبرى التي شيدها صاحب السوء السردار
أرفع الشيخ جاسب خان كبير أنجال الحضرة السنية الخزعلية وحاكم الحمرة الان وهذه
السراي ذات دورين خمسين واسعين أحدهما لاستقبال الضيوف «سلامك» الذي يسميه
العراقيون «ديوانية» وفي هذا القسم غرف كثيرة لضيوف سمو الأمير ينزلون فيها
على الرحب والسعة كلما أتوا ساحته وهناك غرفة خاصة جعلها سموه «داراً للعلم»
وفيه مكتبة كبرى جميعها من مقتني سموه واما القسم العالي من السراي فهو للحرم
وهناك الغرف الواسعة والصاعات الكبرى المفروشة بأنعم الرياش على آخر طراز

(١) ومعظم هذه الكور منشورة في الجهة المقابلة للفيلىة والحمرة وما وراءها
وأمامها أي من الفاو الى ما وراء البصرة من املاك المملكة العراقية وتسكن هذه
الكور قبائل الحيسن وهي عمومة عظيمة مولانا السردار أقدم أما النخيل التي في
منازلها تلك فقسم كبير منها ملك خاص لعظمة مولانا وبعضه ملك روساء هاتيك القبائل
وبعضه ملك أهل البصرة



« سمو السردار أرنع »

« الشيخ جاسب خان »

« حاكم الحمرة »

« سمو السردار أجل »

« الشيخ عبد الحميد خان »

« حاكم الاهواز »

عصري أوربي اعتنى سمو الأمير بتشيدها وتأثيثها على ما هو معروف عن ذوقه السليم
ويرسو امامها يختا سموه المرصدين لخدمته والسراي منارة بالكهرباء بالات خصيصه
استحضرها سموه على ما يليق بمجاه عظمة مولانا ابيه السردار اقدس وجاهه

وفي هذا الشارع دار كبرى لشركة الغاز واخرى واسعة لحضرة الشيخ الجليل
صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان وهو وزير الامارة الاكبر
المشهور باخلاصه وتفانيه في خدمة مولانا ولي النعم وفي هذه الدار مكتب تجارة سعاده
في دائرة مخصوصة وسعاده اكبر تاجر في عربستان وله علائق مالية كبرى مع الهند
وأوروبا ويدير متجره الواسع حضرة نجله الماجد الهام صاحب السعادة الحاج أبو الحسن
خان مشير تجار عربستان

وفي هذا الشارع أيضاً دار البنك الايراني الشاهاني وكثير غيرها من الدور العامرة
وأشجار النخيل تمتثلها جميعها وتختال بينها كالعرائس على ما ترى في أحد الرسوم المنشورة
في هاته التوطئة .

ولقد أصبحت الحمرة في العهد الخزعلي الانور ثغراً تجارياً عظيماً تستورد اليه
البضائع من أوروبا والهند فيحملها التجار الى داخلية عربستان ويصدر منه لاوروبا
وأمریکا والهند الباج على أنواعه مع أنواع الحبوب والسمن والصوف فكثرت في ذلك
الارباح وعمت المكاسب وقد كان هذا بفضل ولي النعم عظمة الشيخ خزعل خان المعظم
الساھر بنوع خاص على ترويض المتاجر وحماية التجار علماً منه حفظه الله بأن معول
العالم كله في هذا العهد على التجارة التي هي أساس الاقتصاد المرتبطة به سياسة
الممالك والدول .

وفي الحمرة خليط من الناس أكثرهم مسلمون من عرب وعجم وفيهم النصاري
واليهود والبنيان وهم عبدة الاوثان الهنديون وقد ساوى بينهم عدل عظمة الشيخ
وشملتهم جميعاً رحمته ولذلك لا يوجد في سكان الحمرة أحقاد وضغان كما يوجد في
غيرها من المدن التي انحرف حكمها عما انزل الله في كتابه العزيز

وفي الحمرة عدة « حسينيات » مشادة للتعازي التي اعتادها الشيعة بعضها
شيدها عظمة مولانا السردار اقدس وبعضها شيدها الاهلون وفيها مساجد كثيرة
وكنيسة لللاتين وكنيس لليهود ومدرسة عامرة تعرف باسم « المدرسة الخزعلية »
تيمناً باسم عظمة مولانا السردار اقدس روجي فداه ويتعهد بها عظمته دائماً بعطفه



« سمو السردار أشرف » « سمو السردار أرفع » « سمو السردار كشور »
« الشيخ عبد الله خان » « الشيخ جاسب خان » « الشيخ عبد المجيد خان »

وماله فلا غرو اذا ازهرت وربت الناشئة أحسن وأفضل تربية عصرية
وقد لقيت المحمرة في حكم حضرة الامير الجليل سمو السردار أرفع الشيخ جاسب
خان رقياً عظيماً وعدلاً شاملاً وأمناً طيباً وتلك نيات عظمة مولانا السردار أقدم
نحو رعاياه نفذها سمو الامير كبيراً بحالة على ما أطلق اللسان بالحمد والثناء وصادق الدعاء
وينتظر المحمرة مستقبل عظيم باهر من وجهتي التجارة والزراعة في العهد الجديد
الذي دخلت فيه بلاد العراق في قسميه العربي والعجمي لان الاسباب التي كانت
تحول دون رقي هذه البلاد قد اضمحلت والحمد لله ولم يبق الا أن ينصرف عظمة
ولي النعم السردار أقدم المعظم بهممة الوضعية الى تعمير مملكته العلية بما أوتي من
رغبات طيبة وذكاء مدهش ورأي سديد وانه لفاعل ان شاء الله تعالى

✽ ناصرية الاهواز ✽

اما الاهواز فهي تلك المدينة الأثرية العظيمة على نهر قارون وكانت قبل الاسلام
مقرّاً للصرانية ورئيسها الديني كان عنده نيف واربعماية كنيسة وصارت بعد الاسلام
بلداً عظيماً عامراً بالعلم والعلماء ثم أخفى على هاته المدينة الزمن فناها الدمار واصبحت
قرية صغيرة قليلة السكان عديمة العمران والاطلال البالية التي حولها كانت باقية لتندب
زمناً فات هو زمن اليسر والعمار

وقد انصرف الى تعمير خرائب هاته المدينة ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان
بعد ان استتب له الامر في عربستان فبنى قصرأ له على نحو غلوة من الاهواز جعله
نقطة عسكرية ولم يمض الا الزمن اليسير حتى أخذ الناس من العرب والفرس يبنون
حول ذلك القصر بيوتاً يسكنونها فصارت بلداً صغيراً أطلق عليه ساكن الجنان
الحاج جابر خان اسم «الناصرية» تيمناً بالمرحوم المبرور ساكن الجنان ناصر الدين
شاه شهنشاه الدولة العلية الايرانية وكان بين الناصرية هذه ومدينة الاهواز مسافة
يقطعها الماشي بنحو ٢٠ دقيقة

وعند ما تولى الامارة عظمة مولانا السردار أقدم توجه بنظره العالي الى هاته
المدينة شأنه مع جميع ممالك السعيدة فأخذت بالعمران والتقدم ووجد عمال «شركة
الغاز الانكليزية» ان يجعلوا هذا البلد مقرّاً لهم لتوسطها بين منبع الغاز في
«بركة سليمان» وعبادان التي جعلوها مركزاً عاماً للشركة ومستودعاً للغاز ينقلونه
منها الى البلاد البريطانية وهكذا أخذت «ناصرية الاهواز» نصيبها من التقدم والعمار



« نصرت الملك سمو الشيخ عبد العزيز خان »

حتى اتصلت في هاته الايام الناصرية بالاهواز واصبحت المدينتان مدينة كبرى واحدة وقد أتى لي الحظ أن ازور الاهواز مراراً فزرتها في سنة ١٩١١ وكان يحكمها وقتئذ سمو مولاي السردار أرفع الشيخ جاسب خان كبير انجال الحضرة الفخمة الخزلية وسرني ما رأيته وقتئذ من سهر سموه على راحة الاهلين وغبطتهم ورفاههم وفي ذلك العهد تأسست « المدرسة الجاسبية » بمعونة سموه تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا والده العظيم وفي عهده السعيد ايضاً تأسست في الاهواز كنيسة للطائفة الكلدانية الكاثوليكية ومدرسة بجانبها (١) وكنت اسمع الثناء على سموه من جميع السكان من عرب وعجم

(١) عند ما اشتعلت الثورة الاهلية في البلاد الارمنية العثمانية وهُدِرت دماء الارمن وأبيحت امواهم واعراضهم فيما يسمونه « المذابح الارمنية » على عهد السلطان عبد الحميد من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٨٩٧ أصيبت بلاد الارمن وما جاورها

وكلدان . وزرت هاته المدينة في سنة ١٩٢٠ غير مرة ويحكمها سمو مولاي السردار أجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني انجال الحضرة السنية الخزعية وشهدت من آيات آلاء سموه على هاته المدينة وسكانها ما يقل عنده كل حد وثناء ولقد سار سمو الامير على خطوات سمو أخيه السردار ارفع في تعمير الراحة والأمن ومساعدة الاهلين على الرفاء واليسر تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا وملاه الوالد الكثير المحامد السردار أقدم اطل الله في حياته السعيدة ولقد علمت أن في نية سموه حفظه الله استجلاب الآلات اللازمة لرفع المياه ليستقي بها أراضي الاهواز الخصبة وهي فكرة لا بد من

بمقرر عام شأن جميع البلاد التي يضطرب فيها جبل الامن ويثور سكانها بعضهم على بعض ونال وقتئذ المسيحيين الكلدان في ارمينيا وما جاورها ولا سيما ولاية الموصل بعض ما نال الارمن من المصائب والخاوف فجعلوا يفرّون من مواطنهم وقد وجد قسم منهم في ناصرية الاهواز رباعاً آمناً بظلال عظمة مولانا السردار أقدم اطل الله بقاءه فسكنوها واذ كثير عديدهم تقدموا من علمته طالبين ان يحسن اليهم بأرض يننون عليها كنيسة لهم ومدرسة يربى بها أطفالهم فقابلهم عظمته حفظه الله بما عهد فيه من رحابة الصدر وسماحة الكف وأحسن اليهم بالارض التي طلبوها ومدّهم فوق ذلك بهباته فشادوا هنالك كنيسة واسعة وأقاموا بجوارها قلاية لسكنى قسيسهم ومدرسة لتعليم أولادهم وكان ذلك على عهد سمو مولاي السردار ارفع الذي كان يتعهدهم بنفسه ويعني براحتهم بسهره الدائم تحقيقاً لنوايا عظمة مولانا ومولاه السردار أقدم روي فداء . ووجد الكلدان في الاهواز من العدل والامن ما باتوا به محسودين من اخوانهم المتعيين في مواطنهم ولا يزالون كذلك واذ كان شكر المنعم واجب فقد رأى حضرة الشيخ الجليل صاحب الغبطة السيد عما نوئل يوسف بطريرك بابل للكلدان الكاثوليك عند ما قصد رومه في نهاية الحرب الاوربية العامة سنة ١٩٢٠ أن يذكر هذه النعمة السنية الخزعية لدى عرش قداسة الحبر الاعظم البابا بناديكطوس الخامس عشر ذا كراً ان الذين ظلوا سعداء من ابناؤه الروحانيين في الشرق هم اولئك الذين هاجروا الى ناصرية الاهواز وعاشوا في ظلال عظمة السردار أقدم فتأثر قداسة البابا من احسان عظمة الشيخ خزعل خان الى هؤلاء المنكوبين من ابناء البيعة واهداه وسام القديس غريغوريوس من رتبة فارس قومندور اعلاناً لشكر قداسته ومعرفته جميل هذا الملك العربي العظيم الكريم وهكذا « فالفضل يعرفه ذووه »



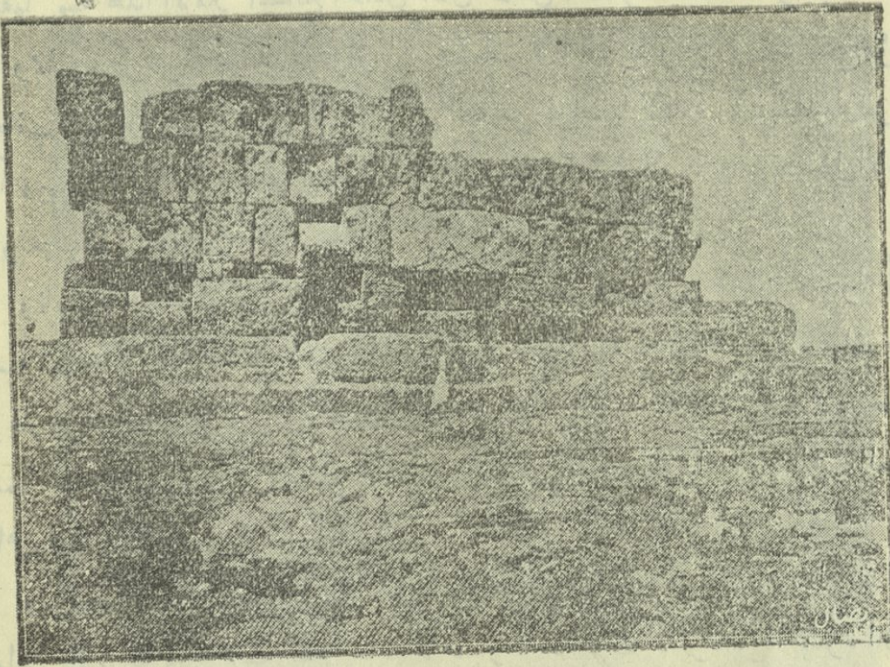
« سمو السردار لشكر الشيخ عبد الكريم خان »

تحقيقها. مهمة هذا الامير المصلح الجليل بظل ظيل الحضرة السنية الحزلية .
ومما يذكر عن ناصرية الاهواز ان عظمة مولانا السردار اقدس قد سمح مؤخراً
للجانب النازلين فيها بمشترى ما يحتاجون اليه من اراضيها لاقامة الابنية عليها وللزراعة
ايضاً وبهذا الامر العالي الذي اقتضته حكمة عظمة ولي النعم لا بد وأن تدخل الاهواز
بدور جديد من العمران تحسد عليه .

وناصرية الاهواز بلد تجاري زراعي يروج فيه مصنوعات ايران وحوله أرض
خصبة تصلح لزراعة القطن والتوت الذي يربى على ورقه دود الحرير وناهيك بارض
نهر قارون وانا لمنتظرون في العهد الحزلي الانور وبهمة حضرة مولاي صاحب
السمو السردار اجل أن تصبح الاهواز بعد زمن يسير مظهراً من مظاهر العمران
الزاهي في العراقين ام شاء الله تعالى .

وترتبط الاهواز بالحمرية بطريقتين احدهما طريق نهر قارون وهي طريقة لا بد
للبواخر النهرية من خمسة عشر ساعة لاجتيازها اذا كانت سائرة من الحمرية للاهواز
واما الرجوع فيحتاج الى نحو العشر ساعات على الاقل ونهر قارون هذا لا بد له
من النزع والتطهير للملاحة لكثرة ما فيه من الرمال وهذا قيد نظر عظمة مولانا ولي
النعم السردار اقدس المعظم . اما الطريق الثانية فهي طريق السيارات وتتم محاذية
لأنايب الغاز الممتدة من « بركة سليمان » موضع النبع الى جزيرة عبادان وفي هذه
الطريق محطات لشركة الغاز وتستفيد منها السيارات وركابها اذا يأخذون منها ما قد
يحتاجون اليه من البنزين او الماء كما يأخذون منها ما يحتاجونه من الاطعمة عند الحاجة
والمسافة بالسيارات بين الاهواز والحمرية من ٣ الى ٤ ساعات اذا كان النصل صيفاً والطريق
خالية من الوحول اما في الشتاء ولا سيما على أثر وقوع المطر فان اجتياز هذه الطريق
بالسيارات ضرب من ضرر المستحيل . وبما ان هذه الطريق تهم كثيراً شركة الغاز
مثلما تهم الامارة السنية كان لا بد من اتفاق الامارة والشركة على تصايحها . وهذا
ما ينويه عظمة مولانا السردار اقدس حفظه الله

وما زال القصر الذي ابتناه ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان في ناصرية
الاهواز في موضعه وامامه الميدان الواسع الذي يطلق عليه اليوم اسم «ميدان الحكومة»
غير أن هذا القصر قد تبدلت معالمه وتجدد عمرانه ويقع فيه لهذا العهد حضرة الامير
الجليل الكريم صاحب السمو السردار اجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني الانجال



بقايا قلعة الاهواز القديمة

وحاكم الأهواز وهو ذو طابقين في الطابق الارضي « دائرة الحرم » والطابق العالي معد للحكم وفيه صاعة كبرى تسع نحو الاربعائة شخصاً وفي هذا الدور غرف عديدة اجمال سمو الامير وغرفة خاصة للعلم فيها مكتبة نفيسة اقتناها صاحب السمو الميردار اجل الشيخ عبد الحميد خان وقد خصها سموه بهذا المخلص في رحلاتي الى الاهواز في خلال سنة ١٩٢١ فكنيت ائدس بهاتيك المكتب في اوقات الفراغ التي كنت أخلو فيها الى نفسي ووقت في هذه المكتبة العامرة وصاحبها الجليل :

يا صاحب الاهـ	وازي	يا رب العلى عبد الحميد
يهنيك انك للـ	دى	والجود والعليا العميد
قديت من دون الكرا		م الى الورى بيت القصيد
جددت في الاهواز محـ		دا كان من هه الجود
وغدا بظلك كل من		فيها بوارفة السرد
وازنت قصر ك بالـ	لو	م من التديم الى الجديد
بخزائن ضمت من الـ		كتب العزيز مع الشرود
من كل مسطور ومط		وع وممـوم فريد

فلنكم أنست بها ولم طالعت من فصل مفيد
ولقد أزينت باسمك ال سامي ومعناك الحميد
فذكرت فيها فضلك ال زاهي ومسعاك الرشيد
فالله أسأل ان تدو م بظل والدك الحميد
ويدوم خزعولنا لنا لنظل في العيش الرغيد

وصاحب السمو السردار أجل هم بتشييد قصر فخم بجوار هذا القصر القديم على بعد بضعة عشرة متراً وقد وضع أساسه ليكون أعظم قصور الاهواز وقد ظهرت جدرانها ولاحت غرفه الواسعة على أحسن عمران هندسي يلام ما اشتهر عن سوره من الذكاء وحسن الذوق وسيكون بعد قليل قصراً فخماً بديعاً ان شاء الله تعالى

القصور الخزعية في الاهواز

ومن عادة عظمة مولانا السردار أقدس الشيخ خزعل خان حفظه الله انه يزور الاهواز غير مرة في كل عام للاشراف على قبائله النازلة على ضفاف نهر قارون والاهتمام بمصالحهم ولاحكام عرى الولاء مع حيرانه امراء البختيارية وكان من عاداته في زيارته تلك ان يقيم في أحد اليخوت التي كانت تسعى بظلمته مع الحاشية الى الاهواز ثم رأى بفضل العميم ان يشيد في هذه المدينة التي عمرت في ظله الغليل قصوراً يتم فيها مع حواشيه وحرمة المصون عند ما يشرف الاهواز بزيارته فبنى لهذا الغرض ثلاثة قصور شامخة أحدها على ضفاف نهر قارون مباشرة وهو ذو طابقين وفيه غرف واسعة عديدة وقد خصصه بكرام ضيوفه من البختيارية واليرانيين وجبل امام هذا القصر روضة غناء فيها الاشجار الباسقة ذات الثمار الشهية والزهور البهية ذات الروائح الزكية وأقام في هذه الروضة امام مدخل القصر جنديين من الحجر الصاب يملان حرسه الخاص وفي يد كل منهما بندقيته وقد رفعها لأخذ السلام

ووراء هذا القصر الفخم أقام عظمة ولي النعم قصرين فخمين متصل أحدهما بالآخر وكل منهما ذو طابقين جميل أحدهما لمقام عظمته وكبار رجال حاشيته وفي هذا القصر صاعة كبرى تسع نيفاً وخمسة زائر والغريب في أمر هذه الصاعة انها فرشت بسجادة جميلة الصنع ما رأيت في كل رحلاتي أجمل منها لا في العراق ولا في بلاد ايران فضلاً عن سعتها حتى ملأت أرض تلك الصاعة على اتساعها فكانت هذه السجادة كمثل لبديع صنع « السجاد العجمي » المشهور في الدنيا بأسرها

« رئيس تجار عربستان ووزير الامارة »



« صاحب السعادة الحاج محمد علي خان »

وبجوار هذه الصاعة الكبرى على الجانبين غرف واسعة كثيرة يقيم في القسم الداخلي منها الحرم المصون وفي القسم الخارجي كبار حاشية وليّ النعم وأكبر موظفي الامارة الذين في معيته

وفي هذا القصر شرفة واسعة اعتماد عظيمة وليّ النعم حفظه الله ان يقيم فيها في كلّ صباح من أيام الحرّ فيستقبل ضيوفه فيها وينظر في شؤون رعاياه وفي أسفل هذا القصر سرايب عجيبة الصنع بديعة الهندسة كثيرة العمق انست الناس ما رواه المؤرخون عن ابهة سرايب الخلفاء العباسيين ووالله ما كنا نشعر بأثر الحرّ في هاتيك السرايب الجميلة في الهاجرة المحرقة التي كانت تلفح وجوه الناس في الصيف ولا سيما في صيف سنة ١٩٢١ اذ كنت في الخدمة وكان الحرّ شديداً جداً شكا منه الناس في كلّ الارض

اما القصر الثاني فهو ملاصق لهذا القصر الفخم وهو ايضاً ذو طابقين كان الارضي منهما للغلمان والحرس والعالي للضيوف ايضاً من روساء العرب وشيوخهم وفي هذا القصر المطبخ الخزعلي المشهور الذي لا تطفأ ناره والذي يقدم الاطعمة الشهية للذين يأكلون على المائدة الفخمة الخزعلية والالوف من فقراء الاهواز الذين ينالون نصيبهم من الكرم الخزعلي في كل ظهر ومساء من الايام السعيدة التي يشرف بها عظمة ولانا ولي النعم مدينه الاهواز

وهذه القصور الثلاثة مضاة بالكهرباء بالة خضيفة استحضرها عظمة ولي النعم لهذا الغرض وفي جميع غرفها وسرايها أقيمت المراوح الكهربائية لترطيب الهواء في اثناء الحر الذي يشتد كثيراً في الاهواز . واما اثاث ورياش هذه القصور العظيمة فهو على أبداع طراز اوربي كما هو الحال في جميع القصور الخزعلية في الكمالية والفيلية والكويت

الخرزعلية

وفي سنة ١٣٢٦ اختط ولي النعم عظمة الامير المعز حفظه الله « كورة » في نقطة متوسطة ما وراء المحمرة والفيلية أطلق عليها اسم الجناب العالي « الخزعلية » وكان تخطيطها على الاسلوب الهندسي الحديث فجيء لها بالمهندسين فخططوا شوارعها ثم بوشروا ببنائها فبنى سموه فيها قصراً فخماً وتقدم روساء العشائر والاعيان فبنوا فيها قصوراً شاحخة بديعة الصنع فكانت مدينة جميلة تروق للناظرين

وقد دُمد الى هذه « الكورة » ترعة بطول ثمانية آلاف متراً وعرض عشرين متراً وعمق ثمانية أمتار ووصل أحد طرفيها بشط العراق الكبير والطرف الثاني بنهر قارون وبهذا توفر لها الماء للاستسقاء وللمسير اليها بالبلاليم ايضاً

ولهذه الكورة موقع صحي بديع يشرح الصدور وينعش النفوس بطلاقة هوائه وحسن مناظره ولذلك بات المأمول في وقت قصير ان تتسع بناياتها اتساعاً عظيماً وتصبح مصيفاً جميلاً لاهالي المحمرة يرتادونها للانس والسرور

ولقد اتيج لي في سنة ١٣٢٧ وقد كنت في خدمة عظمة مولاي ولي النعم السردار أقدم المعظم في المحمرة زيارة هذه المدينة الجميلة وقد كانت على بدء عمرانها فشاقني موقعها الجميل ونسيمها العليل وهواؤها البليل وما حوالها من الاشجار الباسقة والزهور المتناسقة فقلت أورخها :

« رئيس سكرتارية اماره عربستان »



« جلالة الملك سعادة ميرزا عبد الصمد خان »

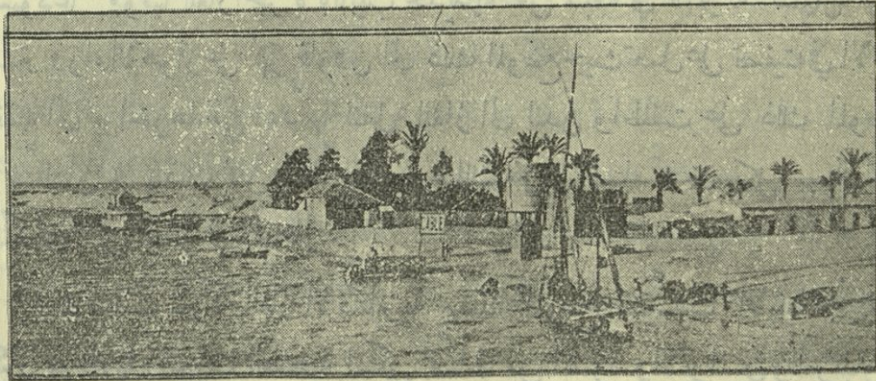
قد بنى خزر على بشرى بلدة حسنا بهيه
فغدت حنة مدن بمخانيها السنيه
بين اغراس باعما ر و ازهار شهيه
فوقها الاطيار تشدو بأناشيد شجيه
بشروا من قد أوها بمناوينا الهنيه
فيل أين الصفو أرخ قلت ما « بالخزعليه »

سنة ١٣٢٦ هجرية

عبدان

ومن مدن اماره عربستان المشرفة بحكم عظمة مولانا السردار أقدس الشيخ
خزر على خان مدينة « عبدان » الشهيرة في قدميتها والتي يشمل بها العراقيون فيقولون

« ما بعد عبادان قرية » اشارة الى الشيء الذي ما بعده بعد تناهياً في الوصف المدحي وكانت عبادان جزيرة قديمة في أسفل شط العرب عند دنوة من مصبه في « خايج فارس » وكان الشط اذا قارب خليج فارس انفرج فرجتين احدها تسيل الى ناحية « ابو شهر » وما والاها من ثغور ايران والفرجة الثانية تسيل في جهة الكويت والبحرين وكان بين هاتين الفرجتين قطعة من الارض سبخة التربة ذات ماء اجاج لكثرة اختلاط ماء الخليج الملح بماء الشط العذب بفعل المد والجزر وكان في هذه الارض مشاهد ورباطات وكان فيها قوم منقطعون الى العباداة ويعيشون من اوقاف فيها أو من نذور الناذرين من المتدينين وكان يعول هؤلاء في معاشهم على الاسماك التي يصطادونها وكان يقصدهم الناس في المواسم للزيارة . تلك كانت حال هذه الارض وأكواخ العباد الذين يأوونها وكان الفرس يدعونها « ميان رودان » اي « ما بين الأنهر » وعند ما فتح العرب العراقيين في صدر الاسلام دعوها « عبادان » نسبة الى اولئك المنقطعين للعبادة الذين يسكنونها نقول هذه رواية البعض عن هذه الجزيرة ووجه تسميتها أما آخرون فقالوا ان هذه الجزيرة كانت لحران بن أبان مولى عثمان ابن عفان أقطعها له عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي أو زياد عامل الأمويين في العراق . وكان حران هذا من سبي عين التمر الا انه كان يدعي انه من التمر بن قاشط قالوا فاغظت هذه الدعوى الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على العراق فقال يوماً في مجلس كان فيه عباد بن حصين الجبتي ان ائتمى حران الى العرب ولم يعترف انه مولى عثمان لأضرب عنقه . فخرج عباد من عند الحجاج مبادراً الى حران فأخبره بقول الحجاج قوهبه القسم الغربي من تلك الجزيرة وحبس الشرقي لنفسه فصار يعرف القسم الغربي باسم « عبادان » نسبة اليه ثم عمت التسمية الجزيرة بجملة : وقيل في



« عبادان الجديدة »

الاخير ان عبّاد بن الحصين المشار اليه
كان اول من رابط بهذه الجزيرة فنسبت اليه
اما وجه نسبة البلد الى « عبّاد »
أو « عبّاد » بزيادة الالف والنون
فذلك على قاعدة البصريين وقد اصطالحوا
على هذا الشكل من النسبة مع مخالفتها
لقواعد اللغة العربية بمجازة لجيرانهم الفرس
ولهم في ذلك كثير مثلها

وكانت « عبّادان » على عهد
العباسيين عامرة بالعلم والعلماء وينسب اليها
جماعة من الرواة والمحدثين وظلت كذلك
الى ان نكبت العراق وهاتيك الاطراف
بالتتر بعد غزوة هولاكو فاضمحلت مع
غيرها من مدن العراق على ما هو مدوّن في
التاريخ وفي الاخير اجتاحت ماء شط العرب
الجزيرة بجملتها فاندست تماماً ولم يبق



« مشير التجار الحاج ابو الحسن خان رئيس شكري قرية عظيمة السردار اقدس »

لها عين ولا أثر وما عاد لها بين أهل العراق من ذكر الا عند الذين يردّدون مثلها
المشهور « ما بعد عبّادان قرية » وظلت كذلك الى ما قبل ٢٠ سنة من هذا التاريخ
حيث اتخذت شركة الغاز الانكليزية في الموضع القريب من جزيرة « عبّادان »
مستودعاً عمومياً للغاز تجرّه بانابيب حديدية من منبعه في « بركة سليمان » بجوار
شستر وراء الاهواز على نهر قارون الى ذلك الموضع حيث تعمل على تصفيته في الاحواض
ونقله الى بواخرها التي اعدتها لنقل الغاز الى لندن واطلقت على ذلك الموضع اسم
« عبّادان » وذلك لان شط العرب هنالك غزير الماء تدخله بكل سهولة البواخر
الكبرى التي تمخر في البحار .

وتد اعتنت شركة الغاز الانكليزية بهذا الموضع فشيّدت الابنية الجميلة لسكنى
كبار موظفيها والبيوت الصحية لسكنى عمالها من الهنود والبرانيين والعرب وبطبيعة

الحال أقبل الناس من ايرانيين وعرب على سكنى هذا البلد للارتزاق من عمال الشركة
الكثيرين ومن اعمال الشركة فكثير عدد السكان حتى أصبح اليوم قريباً من عشرين
ألفاً وبُنيت هذه المدينة على طراز المدن الانكليزية ذات المايل بشوارع عريضة
فيها الاشجار الباسقة وتمخل شوارعها الميادين والجنان

وقد وجدت الشركة من عناية عظمة مولانا السردار اقدس الشيخ خزعل خان
أيّد، الله ما جعلها ان تردّد أي الحمد واثناء مراراً وتكراراً على أيديهِ البيضاء ذلك
انه وهب للشركة بغير مقابل جميع الاراضي التي احتاجت اليها في عبادان وقد فل
معها مثل هذا في جميع النقط التي اتخذتها لتأمين طريق أنابيهما من عبادان الى
بركة سليمان مع ان امتياز الغاز اخذته الشركة من الحكومة الايرانية في طهران
جميع المنافع المادية هي للدولة العلية الايرانية

ورأى عظمة مولانا السردار اقدس بحكمته ان يسهر على نوع خاص على راحة
الشركة وعمّالها وتأمين خطوطها ففعل ومرت الاعوام العشرون وحدث فيها من
الاضطرابات الناتجة عن الثورات والحروب ما هو معلوم ومع ذلك ما شكت الشركة
ولا مرة واحدة من حصول اي اعتداء على انابيب الغاز او على خط التليفون التي
اقامها بين عبادان وبركة سليمان او على احد مأموري الشركة وبما لها كثر هذا اعترف
به دائماً عمّال الشركة الانكليزية فمقابلته حكومة جلالة ملك بريطانيا بالاعجاب
والامتنان والشكر وأهدت لاجله اكبر اوسمتها لبطمة الشيخ المعزّ صانه الله

وهكذا اليوم يجد السائح في العراق في مدينة « عبادان » بلداً أفرنجياً على نحو
ما يهدهد الناس في اوربا ويدهش اذ يرى فيها عامل عظمة السردار اقدس العربي
يحكم باسم عظمتهم البلد على ما يرضي العدل والامن والتمدن العصري وقد ساوى بين
الناس جميعهم من هنود وعرب واعجم .

﴿ ختام القول ﴾

وختام القول ان الافاضة اكثر مما تقدم عن امارة عربستان وأهلها مما نحتاج معه
الى اسهاب ليس هنا محلّه فهناك مدن عامرة وقرى كثيرة منتشرة في الامارة وعشائر
وفيرة هائلة العيش مطمئنة ثوابها في الظل الظليل الخزعلي وقد خيم عليها الامان
ورفعت عليها اعلام العمران وهي تذكر دائماً ابداً مليكها المحبوب المعزّ بآي
الحمد والشكران

النبالة الفخمة الجاسدية

ان العائلة الفخمة الجاسدية هي من أشهر بيوتات النبل والشرف في شيوخ كعب الذين كانوا يحكمون مقاطعة « دورقستان » في ولاية « خوزستان » وهم من بني عامر من أشهر قبائل العرب العرباء وقد هبطوا العراق منذ الفتح الاسلامي وتوارثوا المجد كبراً عن كبر ورويت عنهم محامد المآثر وغرر المفاخر ولهم على عهد العباسيين وقائع مشهورة في سبيل الاسلام وطالما عضدوا الدولة « ناصر الدين شاه » العلوية الفارسية بعد ان دخلوا في حكمها وحاربوا تحت لوأها وأخلصوا لها في السر والجهر كما كانت تخصمهم بعالي الالقب وسامي الرتب



وفي أواسط القرن الثالث عشر الهجري أي حوالي سنة ١٢٥٠ فما بعد حدثت قلاقل وفتن بين شيوخ عربستان من كعب وغيرهم فعظمت الحنة واتسع الخطب حتى أمي الدولة الفارسية أمرهم وعز عليها اخضاعهم ولم يغل على ولائها منهم سوى العائلة النبيلة الجاسدية وعلى رأسها ساكن الجنان المرحوم الحاج جابر خان وهذا الشهم الجليل أبي ان يشترك في الفنة وجعل يعمل على تأييد سطوة الدولة الفارسية بكل ما في طوقه من ذكاء ودهاء وحول وطول إلى أن توفق إلى تسكين القلاقل والاضطرابات ببياسته الحكيمة وسيفه البتار فعرفت له رحمه الله الدولة الفارسية هذه المنة وأنعم عليه ساكن الجنان السلطان ناصر الدين خان برتبة « أمير تومان » ولقبه بلقب « نصره الملك » مكافأة على ذلك واذا رأى هذا السلطان الحكيم انه يتعذر على الحكومة المركزية في طهران المحافظة على الحدود والامان في عربستان لبعده الشقة وصعوبة المواصلات وضعف العسكر النظامي الايراني واستفحال نفوذ العشائر كما هو الحال حتى الآن سمي السلطان الناصر المشار إليه المرحوم الحاج جابر خان حاكماً على القبائل العربية في اماره عربستان وجعل مركزه المحمرة

ثم صدر الفرمان الشاهاني سنة ١٢٧٣ هجريه إلى هذا الملك العظيم باستقلاله في داخلية امارته لتكون له ولائائه من بعده على شكل الاقطاعات فكان هذا الفرمان بدء عهد هذه الامارة بالاصلاح والعمران كما هو معلوم



« عظمة مولانا السردار اقدس معز السلطنة في يوم ولايته السعيد »

ملكته لقد خلت له العلواء واذ صاعت لحكمته بغير مرأه
ولذلك أصبح عرشه مجلي الجلا ل ومرجع الامراء والعلواء

وقد قام الحاج جابر خان رحمه الله باعظم الاعمال في اماره عربستان فنشر رايات العدل والامان وسكن القلاقل والفتن ورد غارات المغيرين على الحدود وبلا جمال كان قوة عظيمة على الحدود الايرانية لحماية هذه السلطنة ولا تزال هذه الامارة الجايضة حصنها الحصين .

وكان ساكن الجنان الحاج جابر خان مشهوراً بالشجاعة والكرم والسياسة والدهاء مهيب الطلعة وقور المجلس عظيم الجاه واسع الساطة نافذ الكلمة بعيد مرامي النظر ولذلك استطاع أن يؤسس هذا الملك اراثاً خالداً لابنائيه وأحفاده وأن يخدم الدولة العلية الايرانية بسيفه ودهائه رحمه الله رحمت واسعة

وللمرحوم نصرت الملك الشيخ جابر خان من النوادر والاخبار عن حزمه وعزمه وقوة ارادته وعدله وفضله ما يروي مثله عن داود باشا في بغداد ومحمد علي باشا في مصر والامير بشير الشهابي في لبنان فهو من الاربعة نجوم التي اضاءت في سماء الامة العربية في القرن التاسع عشر فنجمان تلالاً نورهما محمد علي باشا في مصر ونصرت الملك الحاج جابر خان في عربستان او العراق العجمي وضوى النجمان الاخران وخبا نورهما وهما داود باشا في بغداد والامير بشير الشهابي في لبنان

وفي سنة ١٢٩٩ استأثرت رحمة الله بهذا الزعيم العظيم الملك الحكيم شهماً من الايام محموداً بكل شفة ولسان فتولى الاريكة من بعده ثاني أجياله ساكن الجنان المرحوم الشيخ مزعل خان فصدر له الفرمان الشاهاني بالامارة مع لقب ابيه «نصرت الملك» وظل رحمه الله حاكماً على هذه الامارة الى سنة ١٣١٥ حيث استأثرت به رحمة الله تعالى فبويع بالامارة عظيمة أخيه خامس أجيال الحاج جابر خان سيدنا ومولانا الشيخ خزعل خان أطال الله بقاءه وخلد ملكه مدى الدوران

الخطبة السنوية الخزعية

ذاتٌ مقدّسة مجالّة بأس	حي الحميدات الزهر والالاء
لو صوّرت كانت كنور الشمس في	رأد الضحى في القبة الزرقاء
سبحان من سوى المعزّ أعزّ من	فوق الثرى من سائر الامراء
هذا هو المردار أقدر خزعل	نحر الملوك الصييد في العرباء
هو شمس امتنا المنير به اهدت	لنور بعد التيه في الظلماء



« مظفر الدين شاه »

هو معز السلطنة سردار أقدس عظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار
 عربستان خامس أنجال المرحوم المبرور ساكن الجنان نصرة الملك الحاج جابر خان
 مؤسس إمارة عربستان خلد الله ملكه مدى الدوران ووقفه الى رفعة شأن الاسلام والقرآن
 أضاء هذا الوجود بأنوار عظمة ولي النعم أطال الله عمره في سنة ١٢٧٩ للهجرة
 النبوية على صاحبها أزكى سلام وأشرف تحية فكان يوم مولده السعيد بدء عهد إمارة
 عربستان بهذا الاقبال والسودد والسعود
 وقد استبشر أهالي إمارة عربستان بمولده عظمة ولي النعم وتيمنوا به اذ أن عظمة

فضلاً عن نسبه العظيم لأبائه وأجداده وهم أشرف شرفاء قبائل كعب العامرية فإن أمه من قبيلة الباوية المعروفة بشديد بطشها وعظيم جاهها وحافظتها على بداوتها في خيامها وهي القبيلة التي تخرج خمسة آلاف محارباً كلاً منهم بطل بأسل يهزأ بالوت وهـ كذا كان عظمته شريف الجدين كريم النبعين وقد ترعرع أيده الله في مهد المجد والجلال كريم الأعمام والأخوال وللنسب شأن عظيم بغير جدال في سياسة العرب وتأثير كبير على إدارة شؤونها واعتبار ناسها

وقد ظهرت مخائل النبابة على عظمتها منذ نعومة أظفاره فتوسم المتوسمون فيه المستقبل الذي وصلت إليه إمارة عربستان من السؤدد وال عمران على عهده وكان في مقدمة المتوسمين بهذا الخير العظيم ساكن الجنان المرحوم المبرور الوالد الكثير المحامد نصره الملك الحاج جابر خان الذي كان لا يطيب عيشه إلا إذا رأى نجمة المحبوب « خزعل » وهو طفل بين يديه وكان رحمه الله يذهب عنه الغم والحزن كلما أقبل عليه عظمتها وهو في طلعه الصبوحه وثغره الباش ويناديه « وليّ النعم »

وقد سمعت من أفواه بعض شيوخ الحيسن الشيوخ ممن عاصروا المرحوم الحاج جابر خان عند ما كنت في خدمة وليّ النعم في عربستان أن ذلك الملك الكريم رحمه الله كان في بحر ان الارتباكات الأخذة بعضها برقاب البعض سيّان بين خصومات العشائر أو بين الدسائس التي كانت تعشى عربستان في الدوائر السياسية في طهران وكان رحمه الله قد أرسل إلى حاضرة السلطنة الإيرانية كبير أجباله المرحوم الشيخ محمد وأرسل هذا إليه من سيء الأنباء ما لا يبعث على ارتياح خاطره الشريف وبينما هو يفكر بالمصاعب التي ينبغي له أن يجتازها فلا يرتاح له بال نام ذات ليلة فرأى في الحلم شيخاً وقوراً مهيب الطلعة كث اللحية فقال له أنت في التفكير والله في التدبير فاعلم أن نجمك عال يتلأأ وأن كل ما يعترض من المصاعب سياتي ولا يمضي عليك الحول إلا وأنت الحاكم المطلق على عشائر العرب في عربستان إلا أن ملكك لا يكل إلا بمن يخرج من صلبك في غمنا هذا فانك ستُرزق ولداً ذكراً طالعه في برج السعد وعلى وجهه امارات المجد فمن يوم مولده السعيد ستصبح قرير العين مرتاح خاطر على أحسن ما تحب ولكن عند ما سيخلفك سيصبح له الملك الذي لا نحلم به الآن وسيكون بين يديه من المال ما لا يخطر لك على بال قال الشيخ هذا واختفى وانتبه المرحوم نصره الملك من نومه ومثال نحيبه نصب عينيه ولم يشك أنها رؤية صالحة



« الحاج مصطفى فهمي معتمد عظمة السردار أقدس في البصرة »

وكان قد انبثق الفجر نخباً الى الصلاة ثم جلس الى الناس فاجتمع عليه كبار شيوخ
الحسين وكعب فحدثهم بمناجاة فتفاءلوا جميعاً خيراً وانصرفوا اليه يهنئونه ولم يمض الحول
على هاته الرؤيا المباركة الا وكان في حجره طفل رضيع هو عظمة مولانا الشيخ
خزعل خان فاستبشر بولادته السعيدة ودعاها باسم « خزعل » وهو من الاسماء المحبوبة
في كعب وجعل يتعهد به بنفسه . قال الذين رووا لي هذا الخبر : ومنذ ولادة عظمة
السردار أقدس انصرف المصاعب من امام والده العظيم الحاج جابر خان وأخذت
السعود تلتفت حواليه وذلك توفيق الله يؤتیه من يشاء

وعند ما باع عظمة ولي النعم السنة الخامسة من ربيع عمره سلمه سواكن الجنان
والده الى المربين من علماء المنجف الاشرف وكر بلاء فعكفوا على تأديبه باداب القرآن

الشريف قراءة وحفظاً حفظ الذكر الحكيم على لوح صدره منذ صغره وتأدب بادابه
العالية وطبقها في سياسة دنياه والعمل لأخراه

ثم أخذ يتقن آداب اللغتين العربية والفارسية فبرع في الصرف والنحو والمعاني
والبيان والبديع ونظم الشعر وتوسع في الاحكام الشرعية وأصبح عالماً يشار اليه بالبنان
ويرجع اليه لحل المشاكل وهو بعد في مقتبل الشباب

وتعود عظمته الفروسية وركوب الخيل منذ نعومة أظفاره واعتاد خوض المعامع
ومنازلة الاعداء حتى نال النصيب الاوفر في فنون النضال وأصبح يعول على سيفه
الفتاك في حومة القتال وتهاجم منازلته الابطال وما زال كذلك حتى اعتمد على شجاعته
ساكن الجنان نصرة الملك المرحوم الحاج جابر خان والده الكثير المحامد في قيادة
جنوده في أواخر أيامه فقادها في سبيل النصر مراراً وكذلك بقي عظمته بوظيفة
القائد الاكبر لجيوش عربستان على عهد أخيه ساكن الجنان المرحوم نصرة الملك
الشيخ مزعل خان وكان في الحروب التي خاض معامعها ظافراً منصوراً كتبت الاقدار
على سيفه البتار « نصر من الله وفتح قريب »

وامتاز عظمة شيخنا المحبوب أعزاه الله بعد النظر وسداد الرأي حتى أصبح المرحومان
أبوه وبه أخوه يعولان عليه في سياسة الملك ولا سيما اذا دعت الامارة الخطوب
وانتابت البلاد الشدائد وكان ولا يزال عظمته ممتازاً بثاقب الرأي وحسن السياسة
ووفرة الدهاء وبعد مواقع النظر الى ما يدهش العقول ويحير الالباب

وكان مجلس عظمته مجلس العلم والادب والشعر من قبل جلوسه على اريكة الامارة
فكان يجتمع حوله نوابغ الشعراء والعلماء والادباء فيخصهم بهباته الكثيرة اذ كانوا
يقصدونه من بعيد الامصار وينالون من رفده وافر الاموال

ولنشأة عظمة ولي النعم حفظه الله تعالى تذكارات في نفوس أهالي الامارة وما
جاورها من بلاد فارس والعراق يذكرونها بالاعجاب حتى الآن أيد الله سلطانه فقد
كان وافر العطف على الموالي والعميد كثير الاهتمام بنصفه المظلومين واغاثة المستغيثين
منهم بعرض المرحوم أخيه جم البر والاحسان شقيقاً رحيماً على الضعفاء والمساكين
ولذلك أجلته شيوخ القبائل واحترمه العلماء وامتدحه الشعراء وخطب ودهه الادنون
والبعداء وانصرفت اليه القلوب بشعائر الحب والولاء وخصته الألسنة بالحمد والثناء
وصادق الدعاء



« شاعر عظمة السردار أقدس وندبه »

« سيد المسيح انطاكي بك »

هذا شباب عظمة ولانا المعز وهذا عهد الناس به قبل أن يتولى الامارة ويسير
بها الى ما بلغت اليه اليوم من الرقي والعمران والسؤدد والسمة بارك الله فيه وحقق
آمال العرب الكرام على يديه

إدارة عظمة السردار أقدس

خلقت لسؤدده الامارة فهو
ومعزز أملاكها ومهيئ
اليه سائم البلاد قيادها
هذا المعزز الارمحي المرتجى الـ
لي قدرها وموطئ أركانها
اسعادها ومؤن سكانها
برضى فأعلى بالذكا سلطانها
سردار أقدس ملائ ايوانها

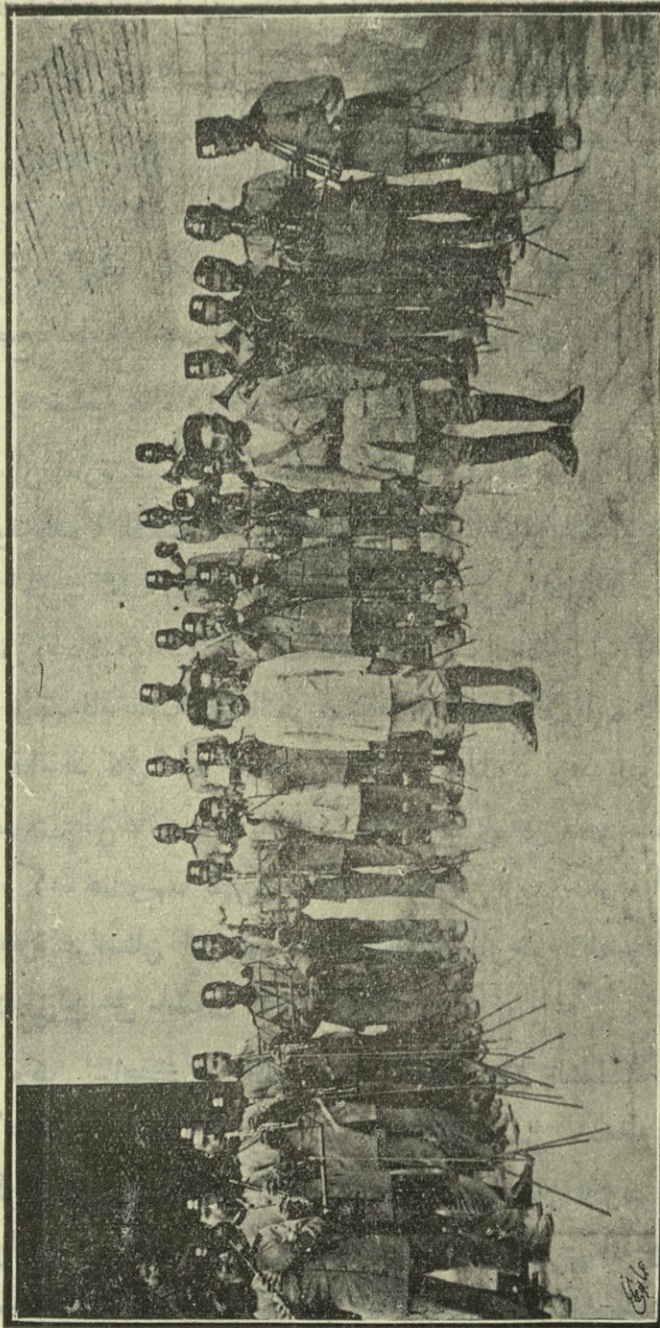
انتقل لرحمته تعالى المرحوم المبرور ساكن الجنان الشيخ مزعل خان سنة ١٣١٥ هـ
فأجمع آل البيت الجاسبي الكرام وروساء القبائل والعشائر في عربستان على مبايعة

عظمة مولانا معز السلطنة سردار أقدم الشيخ خزعل خان خير الله ملكه مدى الدوران
فترجع على سرير أخيه وأبيه وانصرف الى تعمير البلاد واسعاد العباد بحسن مآتيه
وكان يوم جلوسه المسعود يوم فرح شامل وبشر عام أقيمت فيه المظاهرات من
أقصى الامارة الى أقصاها برهاناً على ما لعظمته أعزّه الله من المكانة العالية في نفوس رعيته
المحبوبة في حضارتها وبدائها وأقيمت الزينات في عموم المدن والقرى فرحاً وابتهاجاً
وتسابق الناس للبيعة والتهنئة أفواجاً أفواجاً وجلوا يهنئون بعضهم بعضاً بامارته ويدعون
لعظمته بطول البقاء ويتبادلون باسمه كؤوس الهناء

وما اتصل نبأ جلوس عظمته المأموس بالبصرة وبغداد وكرلاء والنجف الاشرف
والكاظم حتى تبادل الناس الافراح والمسرات ولا سيما أهل العلم والادب والشعر منهم الذين
كانوا يرجون بعظمته أن يكون النصير الاعظم لهم وأسرعوا زرافات للحمرة لقضاء
واجب التهنئة والتبريك بقصائدهم وخيلهم وهم مستبشرون فرحون بولايته

وما اتصل بالدولة العلية الايرانية نبأ ولاية عظمته حتى أسرعت باصدار فرمان
الشاهاني بالتصديق على اختياره وأنعمت على عظمته بسيف مرصع بأثمان الجواهر
والالاي ولقب « معز السلطنة » وهو من أعلى الالقاب مع رتبة « سردار أرفع »
وهي أسنى الرتب العسكرية وبوسام شير رخو رشيد من الدرجة الاولى فكان لهذه
الانعامات الشاهانية أجمل وقع في نفوس أهالي عربستان تلقوها بالحمد والشكران

وكانت أمارة عربستان عند تولي عظمته ولي النعمانية النطاق كما كانت أكثر قبائلها
منتقضة على البيت الحاسبي مظهرة البغضاء والعدوان فانصرف عظمته حفظه الله بما أوتي
من ذكاء ودهاء وحسن دراية لاصلاح الفاسد ومدارة المعتل والتدبير في اخضاع القبائل
لسلطانه باللين تارة وبالشدة أخرى شأن الحكيم الحازم وفتح مهدد الشريف بالسرور
على تعميم العدالة في البلاد وبين العباد والضرب على أيدي الاشقياء العابثين بالفساد
ثم جعل يستدني القلوب المتنافرة ويؤلف بين الميول المتباينة حتى اجتمعت القبائل
حول عرشه وتحت رايته والقبائل التي أبت الخضوع أعلن عليها الحرب العوان
فأخذها عنوة أخذ عزيز مقتدر وهكذافي مدة قصيرة دانت لحكمه العادل القبائل جميعها
وساد في الامارة كلها الامان فاطمأنت القلوب الواجفة وصفت من الاحقاد القديمة الى
أن أصبح روساء عشائر عربستان يعترفون جهرة وعلى رؤوس الاشهاد بأنهم لولا
أبو جاسب لافنى بعضهم بعضاً فهم مدينون لعظمته بما يرتعون فيه من بحاج الرغد



والرفاه والسلام وأنهم
يقولون هذا جبهة
وهم مفتخرون بامتريته
مستعزون بملكه
مستبشرون بولايته
مؤتمرون بأمره وهي
نتيجة محمودة عزيزة
المنال لا يدركها الا
النوابغ من الأمراء
والاقيال

ثم عكف عظمة
على رقية مملكته
ففتح فيها المدارس
وروج بمعاوناته
الجدية المتـاجر
والصانع حتى أصبحت
التجارة في الحمرة
خصوصاً والامارة
عموماً وافرة المكاسب
كثيرة الارباح زاحم
ماجاورها من النغور
والبلدان كما تفاخرها
بالعدل والامان

« الموسيقى الخزعية »

هذا ما أجمله عن اماره ولي النعم عظمة الشيخ خزعل خان المعظم الذي يحقّ لسائر
أمراء العرب أن يتخذوه قدوة حسنة لسياسة اماراتهم وادارة شؤون قبايلهم وبعدها

سأفصل للقراء الكرام حياة عظمته السياسية والاقتصادية والادبية بما اختبرته بنفسه
لاما تلقينه عن طريق السماع ولا ينبعث مثل خبير

سياسة عظمة السردار أقدم

بني عظمة مولانا الشيخ خزعل خان سياسته على قاعدة الشورى عملاً بقوله تعالى
« وشاورهم في الامر » مع انه حفظه الله الحاكم المطلق في امارته العلية وليس فيها الا
الخاضع المطيع والمحب الخاص وسار بسياسته في امارته العلية على الشكل الاتي
« سياسة عظمته الخارجية »

ان اماره عربستان ترتبط من حيث السيادة بالدولة العلية الايرانية ومن حيث
النفوذ بالدولة الفخمة الانكليزية ومن حيث الجوار بالعراق العربي العثماني هذا كان
قبل الحرب العامة أما بعدها فأصبح العراق العربي بحمد الله مملكة عربية وطنية مستقلة
دستورية ديموقراطية باشراف صديقة العرب الصدوق بريطانيا العظمى
ولقد قام عظمة ولي النعم بمعاونة الدولة العلية الايرانية بما تقتضيه حقوق السيادة
خير قيام اذ كان الحصن الحصين لها على الحدود وقد وفر عليها كثيراً من المتاعب
والمصاعب التي عانت أشباهها في حدودها الاخرى على ما هو مشهور في التاريخ فلا حاجة
الى ذكره هنا وبهذا ظهرت الحكمة العالمية من تأييد حكومة ايران الاستقلال العربي
في اماره عربستان على عهد ساكن الجنان المرحوم ناصر الدين خان شهنشاه دولة
عليه ايران على ماسبقت الاشارة

وكان ساكن الجنان مظفر الدين خان الشهنشاه الاسبق كثير العطف
والاكرام لعظمة الشيخ المعز اعترافاً بحسن خدماته للدولة العلية الايرانية
فأكرمه في حال جلوسه المأموس بلقب « أمير نويان » وهو أنخم القباب الامراء
الايرانيين ليس فوقه الا « الجالس على العرش » بمعنى انه لو اجتمع اراء الفرس
في حضرة الشاه المعظم كان عظمة مولانا السردار أقدم الشيخ خزعل خان صاحب المرتبة
الاولى لدى جلالة الشاه فيجلس عن يمين جلالتهم ما كتفى الشاه مظفر الدين بهذا بل أنعم أيضاً
على كبير أنجال ولي النعم سمو الشيخ جاسب خان بلقب جده العظيم « نصره الملك » مع سيف
مرصع بالجواهر وكان ذاك السلطان العادل في كل فرصة سانحة يهديه تحياته الشاهانية
بفرمانات مخصوصة وفي الاخير أهدى الى عظمته الملوكية نوط « تمثال هابيون » وهو

مدالية مرصعة بالماس « البرلانت » وفي وسطها صورة جلالة الشاه بالفوتوغرافيا ويعلق بالعنق ولا يديه شاهات الفرس الا الملوك وأعظم الامراء

وعند ما تولى الاريكة الايرانية محمد علي خان الشاه السابق جدّ عهد آية وجدّه لعظمة مولانا السردار أقّس وأهداه مجدّداً « تمثال هيايون » بصورته الشاهانية ونوط آل قاجار وهو أيضاً يعلق بالعنق وفي وسطه الاسد والشمس وحوله دّاع الماس الثمينة وهذا النوط يندر ان ينعم به الشاهات على غير افراد امراء العائلة المالكة « الناجارية » فكان لهذه النعمة الملوكية وقع عظيم في الدوائر العليا الايرانية

وحدث أن الشاه محمد علي خان الذي أوصاه أبوه مظفر الدين شاه وهو على سرير الموت بالدستور خيراً أبي أن يماشي الدستوريين ورجع عن الدستور الذي كان قد اعلنه أبوه قبيل وفاته فثارت عليه ثورة الدستوريين ونصرهم البختيارية النازلون في جوار امارة عربستان اما عظمة مولانا السردار أقّس الدستوري بطبيعة نفسه الذي يحكم شبهة بالقسط الذي يتطلبه الدستور فانه نظر الى الثورة الايرانية بين الحصيف الحكيم فما اشترك مع القبائل الثائرة احتفاظاً باستقلاله الداخلي وتحاشياً من ادخال رعاياه العرب في ثورة الفاعون بها هم جماعة الايرانيين على انه في الوقت نفسه أيّد الدستوريين بماله بما دفعه لرجال البختيارية وبنفوذ ذ طاب من جلالة الشاه أن يرجع الى « الدستور » لتماشي به الامة الايرانية غيرها من الامم الحية المتمدينة ويؤكدون ان تيلغراف عظمة السردار أقّس هذا هو الذي فلّ عزيمة محمد علي شاه وسهّل على الجيش البختياري دخول طهران وانجبت الثورة عن خلع الشاه وجلس ولده احمد خان ميرزا على العرش تحت وصاية الوزير الكبير القدير البرنس فرمان فرما أخي ساكن الجنان مظفر الدين شاه

ونخامة البرنس فرمان فرما أعرف الادراء والوزراء الايرانيين بقدر عظمة مولانا السردار أقّس وجيل ما ثره وبواهر أعماله وسبق له ان عرفه شخصياً « وما را، كمن سمع » ولذلك كانت اول اعماله في تسلمه زمام الحكم في ايران العمل على اكرام واجلال عظمة مولانا السردار أقّس ففعل من هذا الشيء الكثير وكانت في عهد وصايته جميع مصالح عربستان تنفذ في الحال من طهران

وفي سنة ١٩٢٠ ذهب الشاه أحمد خان الى اوروبا وهو يقصد على الخصوص زيارة بريطانيا العظمى لان جلالته على رأس السياسيين الايرانيين القائلين بان سلامة



« جلالة الشاه احمد خان في موكبته عند وصوله الى القصر الحزعلي الدامر »

بريطانيا العظمى وسيرها في سبيل النجاح متوقفان على صداقة هذه الدولة العظيمة في حولها وطولها العظيمة في ثروتها ويسارها العظيمة في رجالها النوابغ المصاحين وبعد عودته أحب جلالته ان يقصد العتبات المقدسة في النجف الاشرف وكر بلاء لزيارة سيدنا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب وزيارة سيدنا الحسين ثم يمر ببغداد فيزور سيدنا الكاظم عليهم وعلى المصطفى واخيار أهل البيت الصلاة والسلام وبالفعل جعل عودته بطريق خايج فارس ورأى بعطفه السامي ان يمر بعظمة مولانا السردار اقدس فيستضيفه في قصره العامر في الكمالية وما بلغت هذه الارادة الشاهانية مسامع عظمتها حتى أخذ لها عدتها على ما يابق بقدر الضيف العظيم والمضيف الكريم فجعل القصر آية من آيات الزينة والبهرجة وأعد جلالته الشاه عرشاً من الذهب الوهاج مرصعاً بالجواهر وبذل في استقبال الجالس على أريكة الاكاسرة كل مرتخص وغال ويضيق المجال دون استيعاب ما كان من الحفاوة في استقبال جلالته الملوكية حتى كان يومئذ سروراً عظيماً راعياً لما خامر فؤاد جلالته من الامتنان والانشراح نزع عن صدره

صاحب العظمة
سردار اقدس
مولانا الشيخ خرمعل خان
نصرت الملك
سردار اشراف
سمو الشيخ عبد العزيز خان
سمو الشيخ عبد العزيز خان

الوسام الاقدس وهو الوسام الذي يحمله الشاهات وعلقه يمينه على صدر عظمته الملوكية ودعاه باسم « السردار الاقدس » وهو لقب لم يعرف ان شاهات الفرس أعطوه لاحد من امراء وعظماء السلطنة الايرانية وفي الوقت نفسه صدرت ارادته السنية بالانعامات التالية على ساداتنا اصحاب سمو الامراء انجال عظمته والاختصاص اللائذين بعظمته الملوكانية فكانت هكذا :

السردار ارفع سمو الشيخ جاسب خان والسردار اجل « ابقاء » لسمو الشيخ عبد الحميد خان (١) ونصرة الملك لسمو الشيخ عبد العزيز خان (٢) والسردار كشور

(١) ان سمو السردار اجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني الانبال وحاكم الاهواز قد أبدى من الحكمة وسداد الرأي وسعة الصدر في حكمته ما أطلق السنة أهالي الاهواز بالحمد والثناء ونال رضا الاجانب ولا سيما موظفي شركة الغاز الانكليزية ووصل صدى ثناء الناس على سموه الى طهران في سنة ١٩٢٠ فأحب صاحب الجلالة السلطان أحمد شاه ملاطفته مكافأة على عدله وفضله فأنعم عليه بلقب « سردار اجل » وبسيف مرصع بالاحجار الكريمة ومما يذكر هنا ان جلاله الشاه عند ما وقع نظره العالي على سموه في القصر العامر تلفظ به قائلا : « لقد سمعت عنك ما يسر خاطر فانا راض عنك كرضاء ابيك عليك »

(٢) ان لقب « نصرة الملك » عزيز على هذه الاسرة النبيلة لانه كان لقب

اسمو الشيخ عبد المجيد خان والسردار لشكر «عسكر» اسمو الشيخ عبد الكريم خان والسردار أشرف اسمو الشيخ عبد الله خان ووسام شير وخورشيد من الدرجة الاولى لحضرة الشيخ الجليل الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان ووزير عظمة السردار أقدم ولقب جلاء الملك لحضرة الماجد ميرزا عبد الصمد خان رئيس سكرتيرية عظمة السردار أقدم ووسام شير وخورشيد من الطبقة الثانية لحضرة النبيل الحاج ابي الحسن خان مشير تجار عربستان وكاتم اسرار عظمة السردار أقدم وهذا الوسام من الدرجة الثالثة لحضرة صاحب السعادة الحاج مصطفى افندي فهمي معتمد عظمة السردار أقدم في البصرة وبالدالية الذهبية لحضرة الخواجه داود ماهور الكهر بائية والاعمال الميكانيكية في القصور المالية الخزعية لاعتجاب جلالاته بدنة صناعته في اشاهده من بدائع الكهرباء في صالة الاستقبال وسار غرف القصر الخزعي العالي في الكمالية

وبعد رجوع جلالة الشاه الى حاضرة مملكته طهران رأى عظمة مولانا السردار أقدم ان يوجه اليها حضرة كبير وزرائه الشيخ الجليل صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان لشكر جلالاته على تفضله بزيارة قصره المعمور وصحبه بالهدايا التي أحسن ما يقال فيها انها « هدايا خزعية » فوَقَّعت لدى جلالة الشاه واكابر وزرائه موقع القبول والرضى وتفضل جلالاته فأهدي الى عظمة السردار أقدم مدالية « تمثال هابون » برسمه العالي الملوكاني في اطار من الماس الوهاج على أبدع ما أوجدته الصناعة من هذا الحجر الكريم وانعم جلالاته ايضاً على كبير انجال عظمته صاحب اسمو السردار أرفع الشيخ جاسب خان بسيف مرصع بالجواهر الكريمة كالسيف الذي سبق لجلالاته ان اهداه الى ثاني الانجال سمو السردار

هؤسستها العظيم الوالد الكثير المحامد ساكن الجنان الحاج جابر خان ولهذا أنعم به جلالة مظفر الدين شاه على كبير الانجال سمو الشيخ جاسب خان ولما رأى جلالة الشاه اهداء عظمة ولي النعم الشيخ خزعل خان « الوسام الاقدس » وتلقيه باسم « السردار أقدم » وكان لقب « السردار أرفع » عزيزاً على هذه الاسرة النبيلة لانه بقي مسددة طويلة اسماً علماً لعظمته احواله جلالاته الى سمو الشيخ جاسب خان واحال لقب « نصرة الملك » الى سمو الشيخ عبد العزيز خان وهكذا ظل هذان اللقبان الكريمان باقيين في البيت الخزعي المعمور



« ثلة من الجيش الحزلي المنصور »

أجل الشيخ عبد الحميد خان وحسن سعادة الحاج رئيس من تحياته الشاهانية الى
عظمة مولانا السردار أقدم ما يشير الى ما لعظمته من فؤاد الشاه العظيم من عالي
المسكان ورفيع القدر

وعند ما حدثت الحركة الرجعية ضد الدستور على عهد الشاه السابق محمد علي خان
المشار اليه أسعف ولي النعم قيمة الاختيارية أدبياً ومادياً على إعادة اعلان الدستور
الى ايران فكان لعظمته في ذلك اليد البيضاء التي يحفظها التاريخ بالشكر جيلاً بعد
جيل كلما ذكر تاريخ ايران

وأفضل خدمات عظمته الدولة العلية الإيرانية انه حفظ امارته العلية من انثورات
التي انتشرت في جهات ايران عمومًا شمالاً وجنوباً فبينما كانت المخاوف والتعديت منتشرة
في عموم ايران كانت اماره عربستان في ظل الحضرة الفخمة الحزلية راتعة في مجامع
الامان والاطمئنان الأمر الذي أدهش العالم بأسره ووجه أنظار أهل السياسة في أوروبا
الى عظمة السردار أقدم الذي يحكم هذه الامارة ونشرت صحف أوروبا والهند من
الامادج لعظمته الشيء الكثير ووصفته بالامير « العاقل الحازم » واذا عرفت أيها
القارئ الكريم أن هذه القلائل التي عمت ايران بجملتها الا اماره عربستان قد أفضت
الى احتلال روسيا الجهات الشمالية وانكسرت الثغور الجنوبية على خليج فارس ظهر

لك مبالغ فضل واقدار هذا الامير العظيم بمحافظته على استقلال امارته حياه الله
 أمعاء لثق عظمة ولي النعم مع الدولة الفخمة الانكليزية فهي علائق صداقة واخلاص
 وطمتها الحكمة وايدتها « المصلحة » ورجال هذه الدولة أعلنوا مراراً وتكراراً من
 قبل الحرب بزم من طويل امتنانهم من عظمته وسرورهم من حسن سياسته اعلاناً حمل
 الدولة الانكليزية على اهداء عظمته وسام نجمة الهند من الطبقة الاولى وأرسلته
 لعظمته مع وند خاص على مدرعة حربية في سنة ١٩١٢ وهو اكرام عظيم يابق
 بأميرنا الجليل ثم توالى الاوسمة الانكليزية على عظمته بمد هذا الدارخ حتى بات صدره
 العالي المزدان بالاخلاص يحمل ارفعها مكانة واعظها تيمية وذلك بعد ان اتسعت العلائق
 بين اماره عربستان والدولة الفخمة الانكليزية ولا سيما بعد تعديب السياسة واستعمار
 الحرب العامة وليمان ذلك نقول :

ان الدولتين الانكليزية والروسية كانتا قد اقتسمتا النفوذ في ايران فكان الشمال في
 منطقة نفوذ روسيا والجنوب في منطقة نفوذ انكلتره وفيه اماره عربستان وكان الفرق
 بين بريطانيا العظمى وروسيا كالفرق بين النور والظلمة او الديموقراطية والاولوقراطية
 وما كانت الدولة الانكليزية ترمي من اقتسام النفوذ في ايران الى أكثر من المنافع
 التجارية لقومها وحماية شركة الغاز التابعة لها ولضمان سلامة حدودها الهندية فهي
 كانت تطلب حفظ النظام وتعميم الامان في المناطق الايرانية الداخلة ضمن دائرة نفوذها
 ولذلك لم تعجل في احتلال الجهات الجنوبية من ايران كما فعلت روسيا في الشمال بل اكتفت
 بأن أرصدت في مياه الخليج الفارسي اثنتي عشرة مدرعة حربية وفيها السكثير من
 الذخائر والجنود اتقاء للغوائل وظلت هنالك الى أن اعلنت الحرب الامة وتبعها من
 الانقلاب العام ما تناول هذه الاطراف أيضاً

واذ كان الامان في عربستان على أحسن حال في ظل عظمة ولي النعم بحيث كان
 يسافر في اطرافها التجار ومعهم الاموال والنصار آمنين مطمئنين وكانت شركة الغاز
 الانكليزية آمنة على مخازنها وانايبها واعمالها ولم يكن لانكلتره ما تقول الا اعلان شكرها
 وامتنانها من هذا الامير العظيم الذي لا يوجد في كل امارته من يشكو ظمناً من جميع
 التجار الهنود والانكليز وغيرهم وفوق هذا فان شركة الغاز الانكليزية التي مدت
 الأنايب في أراضي عربستان لتصل بين الينايب في جبال البختيارية وعبادان على شط
 العرب الكبير كانت ولا تزال محدة وراء عملها من غير أن تحتاج مرة واحدة الى مراجعة



« ثلة من الجيش الحزلي المنصور »

القنصل الانكليزي في المحمرة ولا شاكية من تعدي أو افعال فهدا كله جعل الدولة الفخمة الانكليزية كثيرة الامتنان من حكم نظامه والاعجاب بحزمه وعدله والقرار بفضلته وشكره من غير ان تعرض للامارة كما اضطررت ان تعرض لثغور خبيج فارس الايرانية على اثر انتشار الثورة في هاتيك الاطراف

ولما اعلنت الحرب العامة في اغسطس سنة ١٩١٤ واطر الاتحاديون الذين كانوا مسيطرين على تركيا ميلهم نحو الالمانيين وعداءهم للحلفاء وفيهم بريطانيا العظمى وجدت هذه الدولة العظيمة ان ارسادها بعض مدرعاتها في الخليج الفارسي كان بحكمة لانه يحميها جداً سلامة هذا الخليج لضمان سلامة شطيه العربي والفارسي الداخلين ضمن منطقة نفوذها . اما عظمة مولانا السردار اقدس فكان ككل عاقل من المسلمين كان كأكبر الوزراء العثمانيين وكجلالة شريف مكة وغيرهم يتوقع الفشل للاتحاديين من مناصرتهم للالمان في تلك الحرب المشؤومة وما فيه من الضرر الكبير للاتراك لان عظمته كان على علم تام بقوي بريطانيا العظمى التي لا تقهر على انه في ذلك الوقت حذا حذو الدولة الايرانية ذات السيادة على امارته بالتزم الحياد التام بكل معنى الحياد اما عمال الاتحاديين في البصرة فقد كانوا والدولة العثمانية لم تخض الحرب رسمياً يميلون الى اجتذاب عظمة السردار اقدس اليهم فما أفلحوا بل اسمعهم عظمته بانته

يريد منهم هم ايضاً ان ينصحوا لدولتهم بالتزام الحياد التام فما أصغوا اليه وطابت منه ولاية البصرة وقتئذٍ ان يحتج على وجود المدرعات الانكليزية في مياه الحمرة فاجابهم كسياسي صريح بان ذلك من شأن الحكومة المركزية في طهران وليس من شأنه لانه تابع في سياسته للدولة الايرانية ومع قانونية هذا الجواب وصراحتها أبى الاتحاديون الاصغاء الى قوله واضمروا البغضاء له وطالما أضمروها وكادوا لعظمته وما أفلحوا وعند ما دخلت تركيا الحرب بجانب الالمان رسمياً في اكتوبر سنة ١٩١٤ من غير ان تكون لها فيها ناقة أو جمل رأت بريطانيا العظمى ان تتقدم لانقاذ العراق من الازراك الذين باتوا وقتئذٍ في عرف السياسة عدواً للالمان فارسلوا بعض قواتهم الى (الناو) عند مصب شط العرب في خليج فارس وابتدأ القتال بينهم وبين الجيش التركي اما عظمة مولانا السردار أقدر فلبث على الحياد رغم كل الوسائل التي توسل بها الاتحاديون لوجهه معهم في هاتيك النار الملتهبة لاسباب جوهرية أولها وأهمها ان الدولة الايرانية محتفظة بحيادها في هاتيك الحرب فلم يكن لا مير مخلص كعظمته مرتبط بربط معها وعلمه علمها ومصلحته في مصلحتها ان يدخل في حرب هوجاء مخيفة دونها وثانيها لانه كان يرى ان الحرب الحقيقية هي بين المانيا وانكلترا والنمسا وفرنسا وروسيا وكل هاته الدول مسيحيات فقول بعضهم ان الانتصار للاتراك الاتحاديين المأجورين من الالمان هو انتصار للاسلام قول باطل ومردود ويمكن القول مثله في الانتصار لبريطانيا العظمى بصفتها تحكم ثماناً ومائة مليون من المسلمين ومعظم الجيش الذي ارسلته الى العراق هو اسلامي هندي وثالثها هو رغبة العرب في تركيا في التحرر من الحكم الاتحادي التركي وهم قومه فاذا لم يكن في طوقه مناصرهم فلا أقل من التزامه الحياد لكي لا يعرقل مساعيهم وعظمته معهم على حد قول الشاعر :

وما أنا الا من غزيرة ان غوت غويت وان ترشده غزيرة أرشد

الى غير ذلك من الاسباب الجوهرية التي دفعت هذا الأمير الحازم الرشيد الى التزام الحياد في كل الحرب التي استعر لهبها بين الانكليز والاتراك في العراق ونجم عن حياده الخير الكثير لولاية البصرة وامارة عربستان معاً فلم ينلها الاذى الذي نال البلاد التي كانت ميادين للقتال وقد عرف عقاء البصريين ولو في الزمن الاخير لعظمة السردار أقدر بعد مواقع نظره عند ما وجدوا انفسهم واملاكم ونجيلهم وسائر مقتنياتهم في أمن وغيرهم عرضة المصائب والاحن كما ان الذين اساءوا الظن بعظمته



« ثلة من الجيش الحزلي المنصور »

من غير روية لالتزامه الحياء وفيهم من حاربه بلسانه ومن حاربه بسيفه لقد وجدوا أنفسهم أخيراً على خطأ ميين فعادوا الى عظمته مستغفرين واعترفوا له بالحكمة وسداد الرأي ولو بعد حين على ان عظمته كما حفظ حياده بشرف وشهم واعاد الى امارته الامن بعد ان جاسها الذين استخدمهم الاتحاديون لا يغار صدور المتعصبين على عظمته باسم الدين على سبيل المغالطة كذلك كسب اولئك الذين عادوه ظالماً وعدواناً بعفوه وصفحه فعرف له الناس هذا الفضل العظيم والمنة الخالدة واصبحوا يعطرون الاندية بشكر عظمته والثناء على سداد رأيه والدعاء له بطول البقاء وقلوا فيه ما يقوله عارفوه بانه (رجل العرب في هذا العصر بغير جدال)

أما علائق ولي النعم بالعراق العربي العثماني فكانت علائق جوار وأهمها في البصرة وحواليها حيث لعظمة السردار أقدس أملاك ونخيل ورعايا كثيرون وكانت هذه الملائق تتوطد تارة وتفتت أخرى تبعا للسياسة التي كان يتبعها الولاة العثمانيون مع عظمته والكل يعلم أن ولي النعم حفظه الله بعواطفه العربية والاسلامية كان وافر العطف على مجاوريه العراقيين وفي مقدمة العاملين على تأييد الحكومة العثمانية بمجواره ومعاونتها على حفظ النظام بماله وجاهه فممن اعانة فتحت في البصرة الا وكان عظمته في مقدمة المتبرعين فيها وما من موقف تخرج بالحكومة الا وأجلاله بما له من الكلمة النافذة

بين الاهلين ومع ذلك كله فقد أساء بعض ولاية البصرة الاتحاديين بغضب ولي النعم في احواء شتى مع انهم في كل فسادهم كانوا يجنون على أنفسهم على حد المثل المأثور (جنت على نفسها براقش)

على أن الدولة العثمانية في أخريات هدها بالعراق قد حورت سياستها بعد ان اتضح لها فساد حركات عمالها السابقين واختطت مبدأ التترّب من عظمة ولي النعم فأهدت اليه الوسام العثماني وطبقته الاولى وأرسلته اليه مع مأمور خصيص من كبار وزرائها وكان الاحتفال بتعيينه على ذلك الصدر المزدان بمكارم الاخلاق عظيماً مهيباً

ومما يذكر هنا أن عظمة ولي النعم حفظه الله مع كل ما كان يشاهده من بعض الولاة والحكام العثمانيين من المغايرات ظل على ولائه للدولة العثمانية باعتبار انها دولة اسلامية يجب تعضيدها وكان ينسب تلك المفاصد الى شخصية الولاة الاتحاديين الذين أساؤا استعمال مناصبهم لا في البصرة وحدها بل في عموم البلاد العثمانية على ما هو معروف ومشهور وكان يقول ان الدولة العثمانية تتعرض لخطر الدمار بعاملها الفجار وكان كما أشار والأسفاه . اما بعد ان استقلت العراق واصبحت مملكة عربية عراقية صرفاً بضمانة واشراف بريطانيا العظمى فقد أصبحت علائقه معها علائق ولاء واخلاص ثابتة راسخة لا ترزعها الايام ان شاء الله تعالى

ومما نذكره هنا هو ان رجال بريطانيا العظمى العسكريين والاداريين عند ما احتلوا البصرة اخذوا بعض دور ولي النعم لسكناهم وعظمته من اكبر اصحاب الاملاك في البصرة وأبى عظمته ان يتقاضى اجراً عليها من عهد الاحتلال الى غاية سنة ١٩٢٢ فعرف المصلحون البريطانيون لعظمته هذا الجليل فوق ما يحفظون لعظمته من صادق المودة والاخلاص فوهبوه يخبثاً نهرياً جميلاً لركوبه وتجوّاله في شط العرب ونهر قارون واسموه هم انفسهم باسمه العالي « خزعلي » وقد سبقت الاشارة الى هذا البيت النفيس الذي زاده جمالا انه هبة من الدولة البريطانية كعربون مودة واخلاص أما أهالي البصرة فكانوا ولا يزالون موضع عطف وعناية ولي النعم أعزّه الله يكرم أكبرهم ويسعف أصغرهم واذا وجد في البصرة من يضمّر غير الولاء لعظمته فأولئك نفرّ ساءت نواياهم وساؤا اخلاقاً وقليل ما هم ولا غرو ان يكون لعظمة السردار أقدس هذا الاهتمام بالبصرة والبصريين وهو يعدّ من اكبر اصحاب العقارات والنخيل في منصرفية البصرة وانك يهيمه مصاحتها ويذل كل عناية في سبيل رفاهها



« فصيلة من الجيش الخزعلي العربي »

« سياسة عظمته الاقتصادية »

وقد انصرف ولي النعم للعمل على ترقية أمارته اقتصادياً بالتجارة والصناعة والزراعة أما التجارة فقد عرف عظمته أن رواجها يتوقف على الأمان وكما سبق القول أن الأمان من يوم تولية ولي النعم حفظه الله ساد الأمانة كلها بدوها وحضرها وفوق ذلك أن عظمته يهتم اهتماماً كبيراً بسماع شكاوي التجار فيحققها بنفسه ويزيلها مهما كانت وبأقرب وقت وبهذا باتت تجارة عربستان اليوم كثيرة الرواج أما الصناعة فمع قلة رغبة القوم وأكثرهم من العرب الرحل بها فهي بتقدم ونمو بفضل عناية ولي النعم والمأمول اتساع نطاقها بفضل مجهودات عظمته الذي بكرمه الحاتمي ولجورد معاونته الأهالي أسس على نفقته الخاصة معملاً للحداثة وما زال يرقيه حتى قام بتعمير السفن البخارية ونحوها وهذا المعمل يقوم بحاجة الأهالي فيما يحتاجون إليه من الحداثة لسفنهم البخارية وادرات مزارعهم وهي خدمة جليلة

يقدرها قدرها كل من عرف حاجة الامارة الى المصانع الميكانيكية في نهضتها الجديدة في ظله الظليل .

وأما الزراعة فمن المعلوم ان امارة عربستان كسكل العراق ذات اراض زراعية وافرة الخصب غير ان تدهور هذا القطر في العمران اضر بزراعته أيضاً فلم يبق مورد للكسب غير اشجار النخيل وعدا ذلك فان الاهلين يزرعون من أنواع الحبوب ما يقوم بأودهم فتوجهت عناية ولي النعم لتحسين الزراعة حيث استجلب من مصر طائفة من المزارعين لزراعة القطن واستخدم معهم بذرة القطن المصري وأجرى التجربة الاولى فنجح نجاحاً اولياً عظيماً غير ان هنالك عقبات لنجاح زراعة القطن لابد من تذليلها بظل عظمته حفظه الله اولها ان المزارعين المصريين يجهلون طقس البلاد وحالتها الجوية فلا بد لهم من درسها عاماً بعد عام وثانيها ان الاراضي تحتاج الى تصليح وثالثها انها تحتاج الى أدوات زراعية حديثة وآلات لرفع المياه وهذا ما يعنى به عظمة مولانا السردار أقدس اليوم ومتى زالت هذه العقبات وهي سهلة بجانب صدق عزيمة ولي النعم تصبح الامارة وافرة الثروة بحيث تسكون وارداتها من زراعة القطن وحدها نيفاً ومليون ليرة في العام بعد بضع سنوات ان شاء الله

ويهتم عظمته أيضاً بتجربة تربية دود الحرير والمتدبراتها تفاح فلاحاً عظيماً لان شجر التوت ينمو بكثرة في هاتيك الديار ولا سيما لان المياه متوافرة لنموه

وانت ترى من قليل ما تقدم مبالغ الجهد الذي يبذله هذا الامير الجليل في سبيل امارته العلية فلا عجب اذا أصبحت رعيته في حالة من الرغد ورفاه العيش تحسد عليها ولذلك تراهم مجمعين على محبة عظمته يترنمون بالدعوات الصالحات بطول بقائه

« سياسة عظمته الادبية »

لم تنس مشاغل الملك عظمة ولي النعم عن الادب والعلم فضل عظمته بعد أن علا باليمن والاقبال عرش الامارة العضد الاكبر للعلماء والادباء والشعراء فخصهم بهباته ومنحه حتى أصبح القصر الخزعي العالي كعنتهم يحجون اليها وهم يسمونها « سوق عكاظ » وعدا ذلك فقد أسس في الامارة كثيراً من المسكاتب للتعليم ويقوم حيناً بعد حين بتعديدها باحساناته المالية وبتشجيعه الادبي وبهذا وذاك خدم عظمته دولة العلم ليس في امارته الامة و-دها بل وفي العراق العجمي بمجملته أشرف وأفضل خدمة



« ثلة من الحرس الحزلي »

ولعمري لو توفق العرب في بلادهم وماراتهم الى مثل هذا الامير العظيم المحب للعلم والعمل على نشره وتعميمه لتقدم العرب تقدماً عظيماً في زمن يسير لانه من المعلوم لا تتقدم أمة بغير العلم وقد قال الله سبحانه في كتابه العزيز « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وعلى هذا فيكون العرب مدينين لعظمته بهذه النهضة الادبية القائمة في عربستان بظله الظليل

ومن فضل عظمة وليّ النعم على أهل العلم والادب والشعر وفقني الله الى نظم « العلوية المباركة » وهي قصيدة من نوع « الشعر القصصي » الذي قلما نسج الشعراء العرب على منواله فجاءت في ٥٥٩٥ بيتاً على قافية واحدة وبحر واحد وتضمنت تاريخ صدر الاسلام بجملة وقد طبعها في ظلّ عظمته الظليل بحواشيها فكانت آية الايات بحيث كل من تلاها يتجلى امام نظره فضل هذا الامير العظيم وتمثل له « العوارف الحزمية » على أعمها فينطق لسانه بالدعاء لذاته السنية

ومن فضل عظمة وليّ النعم على العلم والادب والشعر ايضاً هذا الكتاب النفيس الذي افضل ما يقال في تقريره انه جامع لاشتات الادب وفيه من طليّ المباحث ما يعي بيانه الفصحاء وهو وحده يكفي لتخليد فضل عظمته بغير مرأ

ومن فضل عظمته على العلم والادب والشعر انه اغنى المتصلين به من العلماء والشعراء والادباء عن بذل ماء الوجه الى الاشحاء من اهل الامارة وارباب الثراء ومجالس عظمة ولي النعم مشهورة بانها مجالس علم وأدب وشعر على نحو ما كانت عليه ايام زهوة الحمد العربي الاسلامي وطالما ذكرها اذنا كرون بلاعجاب كما يذكرون ايام الخلفاء العباسيين العظام في غابر الاحقاب ولا عجب في ذلك فابو جاسب رب المواهب وابو حميد اهل لكل عمل حميد

احكام عظمته

يحكم عظمة ولي النعم الامارة حسب المربعة المطهر الغراء على أيدي قضاة عادلين نزهاء يثق بدينهم وعلمهم وينظر عظمته حفظه الله في القضايا الكبرى بنفسه قبل تنفيذها مخافة أن يؤخذ أحد رعاياه بظلم واذ كان عظمته معروفاً بالعدل والرحمة معاً كان اطمئنان الناس الى احكامه العادلة عظيماً

ومما نذكره بالاعجاب لاحكام عظمته انه حفظه الله مع عدله في الدعاوى الجنائية وشدته على الذين يعيشون في الارض فساداً عملاً بقوله تعالى «ولسكن في القصاص حياة» حتى انه توفيق الى نشر رايات الامان حول امارته العلية الائمة ينظر في القضايا الحقوقية بشفقة وحنو أبوي بحيث تحسبه أباً للمتقاضين لاحكام عادلا فقط فاذا رأى مديوناً يعجز عن سداد دينه فعلاً لا احتيالا وكان المدين مما يضر به تأخير دينه بادر عظمته بدفع ذلك الدين من جيبه الخاص واذا رأى أن الدائن في سعة يستطيع معها الصبر على مديونه وأن المديون يستطيع دفع الدين اذا تقسط عليه حكم بالتقسيت وهذا من احسن انواع القضاء في نظر القضاة المقيدين بالقوانين فيحكمون حسب بنودها بغير شفقة على المتخاصمين والنظر الى حالة الدائن منهم والمدين وبالاجمال نقول ان القضاء في امارة عربستان بظلم ولي النعم لا حيف فيه ولا تسويف ولا ضرر ولا ضرار وهكذا فليكن القضاء العادل والا فلا

العسكرية في عربستان

ليس في امارة عربستان عسكرية منظمة وليكن كل رجل مكلف عند أول اشارة أن يلبي طلب عظمة المليك المهيب في حمل السلاح والسير للقاء الاعداء وهم يتسابقون برغبة وسرور الى خدمة ولي النعم والسير تحت لوائه ومن متع الطرف برؤية هذه الجنود وهي محتشدة ورأى اخلاصها وتقانيها في سبيل المحافظة على الامارة ومرضاة

« فرقة الحرس الحزلي »



سيدنا وسيدها والطاعة لاوامره عرف حينئذ قوة العرب المعنوية وتضامنهم المستحيح
بالحفاظة على استقلالهم وسر محافظتهم على قوتهم كل هذه السنوات الطوال بالرغم عن
معاكسات الاقدار وطالما استبشرنا بهذه الجيوش وسررنا السرور الجيم ببسالها ودعونا
بالسؤدد والنصر لهذا القائد الباسل والسرदार الحازم والملك العظيم
أما الحرس الخاص فهم الموالي الرابضون حول ولي النعم كالاسود في غاباتها وهم
عرب وعجم وليس فيهم الا الخالص الامين الذي يبذل حياته فداءً عن مولاه وفيهم
رجال الموسيقى الحزلية وأفرادها من العرب والعجم ايضاً وهؤلاء يلبسون الزي العسكري
ويشفون الاسماع بالانغام الشجيرة في القصر الحزلي العالي في كل صباح ومساء وفي
الاحتفالات الرسمية

معيشة عظيمة

أما معيشة عظيمة حفظه الله فهي هكذا ينهض عظمتها باكراً قبيل الفجر فيتوضأ
ويصلي ثم ينعكف بمكتبته بالحرم لمطالعة الاوراق التي تعرض عليه فيقيم فيه نحو الساعين

ثم يتفضل فيخرج الى الناس في قصره العامر فينظر في حوائجهم وبعد ذلك يتوجه بالين والاقبال على « بلمه » الملوك الى الفيلىة يحيط به الحرس الخاص وهناك يتصدر صاعة الاستقبال في الديوانية للنظر في حوائج الناس وشكاويهم وقبل الظهر يدخل الحرم حيث يصلي ثم يتناول طعام الغداء ويقضي القيلولة وبعد أن يصلي صلاة العصر يخرج فيجلس للناس حتى قبيل الغروب فيعود بالين والاقبال الى قصره العامر فيصلي صلاة الغروب ثم يتناول طعام العشاء على مائدته السنية مع ضيوفه ثم ينهض فيصلي صلاة العشاء ويخرج لسمره فيستدعي من في الباب من العلماء والشعراء والادباء ويسمر معهم بمحاورات أدبية وشعرية ومذاكرات علمية وفقهية وهذا هو سوق عكاظ الذي تعرض فيه نتائج العقول وفيه تتوزع هبات ولي النعم وجوائزه الوفيرة

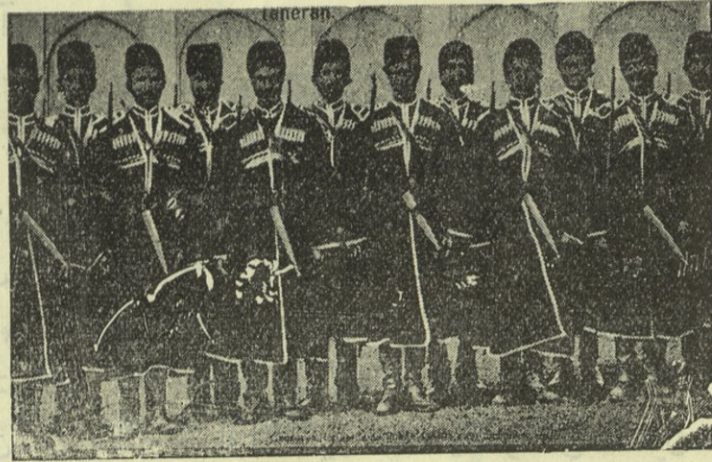
نقول هذا هو اسلوب معيشة عظمة مولانا السردار أقدم منذربع على اريكة الامارة ولم يتبدل منه غير اعراض عظمته عن الذهاب اليومي الى الديوانية بعد الحرب اذ حسن في نظره العالي ان ينظر في شؤون رعاياه في قصره المعمور في السكالية بعد ان زاد اتساعه على ما سبق لنا وصفه

وعظمة ولي النعم يخرج عند الاقتضاء واحياناً مرتين في العام لتفقد رعاياه ومواصلة زعماء عشائره وروساء قبائله حيث يرى من ضروب الحفاوة والاخلاص ما فيه الدلالة الساطعة على تعاق أمة المحبوبة بشخصه العظيم وفي هذه الرحلات الملكية يتجلى كرمه الحائمي على رعاياه كما تتجلى عواطف رعيته الشريفة نحو أميرها المفدى بالنفوس والنفاس أدام الله علاه

الامراء الانجال العظام

ولولي النعم حفظه الله ثمانية أنجال أنجاء تمثلت فيهم مكارم أخلاق هذا الملك العالي الجناب وقد تربوا أفضل تربية بالعلوم والآداب وهم السردار ارنع الشيخ جاسب خان والسردار اجل الشيخ عبد الحميد خان ونصرة الملك الشيخ عبد العزيز خان والسردار كشور الشيخ عبد الحميد خان والسردار عسكر الشيخ عبد الكريم خان والسردار أشرف الشيخ عبد الله خان والشيخ منصور خان والشيخ مسعود خان ولكل من هؤلاء الشيوخ النجباء قصر عامر وحاشية خاصة وهم مع ذلك منعكفون على طلب العلوم والآداب وركوب الخيل ومعروفون بالأخلاق السكريمة والشمائل الطيبة جعلهم الله قرة عيني ولي النعم ومظهر مجده في امارته العامرة وأدامهم في ظله الظليل مظهر الجود وحميد الشيم

« الحرس الخزعي الإيراني »



اخلاق عظيمة ومناقبه

أما أخلاق عظيمة فيصدق فيها قوله تعالى « وانك لعلى خفي عظيم » فان عظيمته حفظه الله يظهر دائماً أبدأ للناس وهو بادي الاساريين باش النغر لائحة على بحياه الازهر لوائح السرور والرضاء لا يذكر أحد من حاشيته انه رآه مرة غاضباً وهو يتعالى علواً كبيراً عن الحقد كثير الصفح والحلم عن محض قدرة ومن مزاياه الكرم بحيث ينزعج اذا مر به يوم ولم يسد فيه يدأ بمحروف وهذا نادر الحدوث واذا جاد أفاض العطاء بسخاء من غير أن ينتظر كلمة شكر ممن يحقق أمنيتهم من وفود قاصديه الذين يقابلهم برحابة صدره ويبادروهم بالاحسان قبل السؤال عن حب بالنوال وتمنئ لساأليه باسعاد الاحوال ومن مميزات عظيمته عطفه على اللائذين به حتى لتحسبهم أبناءه وهم عبيده الامناء فلا يسمع عليهم وشاية ولا يسمح لمن يعرض بهم بلام وهو الملك الوحيد الذي سلم عبيده من السنة الواشين وفوق كل ذلك فان عظيمته لا يغفل عن واحد منهم ويشاركهم بعطفه وعواطفه في سرأهم وضرأهم فلا عجب اذا افتدوه بأنفسهم وأخلصوا في خدمة عظيمته اخلاصاً نسمعه من أفواههم وتشاهده في حركاتهم وسكناتهم

ومن مميزات عظيمته حفظه الله انه يتغاضى عن اساءة المسيئين منهم تغاضياً يحملهم على التوبة من أنفسهم واذا رأى موجباً لتوبيخ أحد منهم عرّض بذلك تعريضاً ومن مميزات وداعته وحنوّه بحيث يتفقد بنفسه العالية من اصيب من عبيده بمكروه وهذا قلما روي عن ملك عظيم مع عبيده

وعظيمته ذو ذكاء متوقد في نظره الى بعيد الامور وفراصة نادرة لا تخطي في معرفة

الرجال وآداب عالية أدهشت الناس حتى الاوربيين الذين يتصدونه ويفوزون بالمثل لديه
وأما في برّه وتقواه فعظمته مثال السلم الصالح المتأدب بأداب القرآن السام بالفروض
والنوافل وهو كثير الاخلاص لمحمد وآله عليهم الصلاة والسلام تشيع لهم بالسر والجهر
مؤيد بهم في الخير والبر

ومن مناقبه حفظه الله انه يحفظ حقوق أعوانه ويكفهم أحياءاً وأوتاً فبين هو
يصدق عليهم عطايا ويتولاهم بكرمه اذا هو ينظر ايمان الذين يتوون منهم ويرعاهم بين
عنايته ويتولاهم برحمته جعلنا الله جميعاً فداه وأداه ذخراً ونفراً الى ابد الابد
وبين ترى عظمته حفظه الله كثير الشفقة والحنو على المخلصين لعرشه والمخلصين
حوله تراه وقد خرج للقتال وشهر سيفه في مواقف النضال ببطش الاسد الرئبال
وكم له من مواقف في مغازيه تشيب لها الاطنال وقد فنيت فيها الرجال
وبالاجمال فقد جمع من مكارم الاخلاق ما لو اجتمع لامة لسكانت مظهر السؤدد
والفخار وذكرت بمحمد الاثار والامري :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
هذا قليل من كثير من المناقب الحسنة المعروف بها هذا الملك الباهر الالاء نشير
اليها مع الفخر وزدّها بالشكر والثناء في السر والجهر
الرياض الخزعية

أما وقد ذكرنا خلاصة تاريخية عن اماره عربستان وترجمة عظمة المليك المحبوب
مؤلف الرياض فالتنا نرى من المييد أن نذكر كيفية تأليف هذا السكتاب النفيس
وكيف انتهى اليها الامر بطبعه فسنذكره بالتفصيل الوافي في توطئة المجلد الثاني ان
شاء الله تعالى وهنا لك سنذكر تفصيلاً من مناقب عظمة وليّ النعم وكلها مفيد وسار
ان شاء الله تعالى

هذا ما انشره مع الافتخار عن عظمة مولانا السردار أقدم المغوار الذي تفضل
على العالم العربي بكتابه النفيس على ما فيه من البدائع وهو يتم عن فضل عظمته
باعطر من المسك الفيّاح في المجالس والجامع والله المسؤول ان يديم عظمته فخر العرب
وذخراً للاسلام وان ينعم علينا بمعرفة قدر فضله على عالم العلم والشعر والادب وفي
ذلك مسك الختام
مملوك المعز

عبد المسيح انطاكي

مصر في ربة ربيع الاول سنة ١٣٤٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

ان أحسن ما يوشح به صدر كلام ، وأجمل ما ينظم به عقد نظام ، وأفضل ما يفتح به مقال في مقام ، حمد الله عز وجل الذي ميز الانسان عن الحيوان ، بالفصاحة والبيان ، ووفقه الى اظهار ما في الجنان ، بنطق اللسان ، ومدسكه عقلا العقل ليتم بصروف الحدثنان ، ويتحلى بحلى العلم والعرفان ، أحمد حمد الرياض للسحاب الهتان ، وأرد في هديه موارد الاخلاص للاخوان ، وأسأله العصمة من الدليل في البيان ، والصلاة والسلام على النبي العربي الامي محمد المصطفى ، مظهر العلم والهدى لمن اصطفى ، المتنادي بمعاشر المؤمنين ، اطابوا العلم ولو في الصين ، الذي نزلت عليه آية « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » بلسان عربي مبين ، وعلى آله الامجاد الصالحين ، الذين شادوا معالم الدين ، ووطدوا أركان اليقين ، وباتوا غياث المتقين ، وعلى رأسهم سيدنا المرتضى أمير المؤمنين ، وفاطمة الزهراء سيدة الطاهرات وولديها الحسن والحسين ، والائمة الهداة المعصومين ، اللهم فصل وسلم عليه وعالمهم أجمعين ، واجعلنا لهديه وهدىهم متبعين ، وبجبه وحبه صادقين ، ووفقنا بشفاعتهم الى خدمة العرب والمسلمين ، وأهلنا للنفع والانتفاع في الدنيا وفي الدين ، اللهم آمين

وبعد فيقول راجي النصر والتأييد ، من الملك العزيز المجيد ، خزعل ابن نصرة الملك الحاج جابر خان السكعي العامري ، اني بعد أن انصرفت الى العلم أطلبه على حد قوهم من المهدي الى الابد ، وأرجو من ورائه الوقوف على ما يمكن الوقوف عليه من الهداية والرشد ، فسكرت في قضاء خدعة عامة أنفع بها قومي العرب ، جامعة بين الحكمة والفكاهة وصنوف الفنون والادب ، دائرة حول الطباع النفسية ، والاحكام العقلية ، والسياسة الانسانية ، مما لا يستغني عنه الملك على عرشه ، والعالم وراء مكتبه ، والاديب في واسع مطلبه ، والتاجر في متجره ، والصانع في صناعته ، والزارع في

حقه ، والطفل في مدرسته ، واذ كنت أعلم أن الإنسان يرغب عن الجد في الهزل ، ولا ينصرف الى صرف العقليات لبعض من عقل ، وأن أكثرين يميلون الى الفكاهات ، وينصرفون الى تلاوة القصص والحكايات ، حتى انصرف كتاب هذا العصر في أوروبا الى نشر العلوم والآداب في سلك الروايات ، تلافياً لاعراض العامة عن المفيد ، ورغبة في نشر العلم بين السواد العديد ، وقد كان هذا شأن السلف الصالح من كتاب العرب ، فيما خلفوه لنا من شتات الكتب ، نعم ما فكرت بهذا أردت أن اتحوهذا المنحى السديد ، وأسلك هذا المسلك الرشيد ، بكتابي هذا الذي وصفت فيه البيانات العلمية ، مؤيدة بالشواهد والامثال الشعرية والنثرية ، والمنقولات الفكاهية ، المأثورة عن أسلافنا الصالحين الذين اشتهروا بالحضارة والمدنية ، وقد تسامحت باضافة شيء من الاحماض فيه ، تسليمة لقارئيه ، مع الاشارة الى أن الزنجة في هذا العصر قد ساروا على طريق أسلافنا بالتصريح بمثل هذا الاحماض ، بعد أن كانوا ينكرونه على أدباء العرب من قبل ويجهلون ما فيه من بعيد الاغراض ، ولقد ألفت في فراغ الوقت من المهام ، وفي الساعات التي انتهزتها من مشاغل الاحكام ، وأنت تعلم ما لذي الرئاسة من المشاغل ، وما يعرض له من جلائل الحوائل ، مما يجعل البال في بلبال ، والفكر في اشتغال ، بين النظر في كشف المظالم عن العباد ، والاهتمام باسعاد البلاد ، وارضاء الله عز وجل فيما ناط به من أمر الناس ، وتوطيد أركان الملك بالعدل وهو لخير أساس ، وسميته « الرياض الخزلية في السياسة الانسانية » فجمعت بتسميته بيني وبين الكتاب ، ليتذكرني بالخير طلاب العلوم والآداب ، واني لا سأل الله العزيز العليم أن يجعل في كتابي النفع لقارئيه ، كما أتوقع منهم الرضاء بحسناته والاعضاء عن مساويه ، سبحانه على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير

فهذي رياضي انني قد غرستها يميني فليها بهن الاداجد
هي عبر شتى وفيها مواظ وفيها فكاهات وفيها فوائد

أقول وقد تم لهذا الكتاب طبع مجلديه الاولين في مصر في مطبعة هندية الشهيرة سنة ١٣٢١ هـ على يد أحد أعواننا المرحوم ميرزا عبد الحميد البهبهاني ، فنال المجلدان المشار اليهما حظ القبول من أرباب الذوق السليم ، من اخواننا الناطقين بالضاد ، وجعلوا يلحفون علينا بانجاز المجلدين التاليين ، وطبعهما ، فليتنا الطلب وأنجزنا العمل ، واذ كان المجلدان الاولان المطبوعان قد نفذوا ، أقررنا على طبع المجلدات الاربعة مرة واحدة بعد أن أعدنا النظر على المجلدين المطبوعين ، وسلمنا الكتاب بمجلداته الاربعة الى شاعرنا اليبب ،

وتابعنا الحبيب النجيب ، عبد المسيح انطاكي بك صاحب جريدة العمران المصرية وأمرناه أن يقف على طبعه بنفسه ففعل وطبع الكتاب ووزعه هدية على الاخوان والاحباب ، وقد أرخ ولدنا المشار اليه تلك الطبعة بأبيات من الشعر تثبتناها قال :

أنشر الحمد عطوراً بالازاهير الشذوية
وأنظم الشكر عقوداً بالاناشيد السنية
لمليك قد تعالى في مآتيه الوضيه
وأمر قد تسامى في سجاياه الرضيه
خزعل الشهم المفدى خير من ساس الرعيه
من به الاعراب باتت في مغايرها هنيه
غرست يمانه روضاً ذات أشجار زهيه
أزهرت أزهار نصيح لم تزل حسناً زكيه
وأنجحت باليمن أرخ في معانيها غنيه

١٣٣٢ هجرية

وزعت أرخت حسناً الرياض الخزعليه

١٩١٤ مسيحية

ثم عاد الناس اليها ما حنين بطلب الكتاب المذكور ملحين علينا باعادة طبعه فعادنا اليه منقحين مصححين وسامناه الى تابعنا الامين الوفي عبد المسيح بك انطاكي المشار اليه اذ كان بين يدينا في العام الماضي « ١٣٣٩ » وأمرناه باعادة طبعه ونشره تلبية لاطاليه والله المسئول أن ينفع به قارئيه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الاخيار ما تلاأت في الرياض الازهار

خزعل

عن قصرنا في الكمالية في غرة محرم الحرام سنة ١٣٤٠ هجرية

الرياض الخزعية

﴿ المورد الاول ﴾

﴿ في الطبائع الانسانية ﴾

« وهذا المورد يشتمل على مقدمة وثلاث رياض وخاتمة »

المقدمة - في حقيقة النفس من حيث هي وبيان الطبائع بشكل اجمالي

الروضة الاولى - فيما يختص بالقوة الشهوية

الروضة الثانية - فيما يختص بالقوة الغضبية

الروضة الثالثة - فيما يختص بالقوة الروحية

الخاتمة - في بيان امرين : اولهما فيما يعم النفس البشرية ولا اختصاص له بقوة من

القوى الثلاثية . والثاني في بيان ما يؤثر في نفس الانسان وهي امور سبعة ستأتي

مفصلة ان شاء الله

﴿ المقدمة ﴾

في الحديث المشهور « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وقد ذكر المحققون في

معناه وجوهاً وكلها وجهة الا أن الذي يترلق به غرضنا منها وجهان اولهما ان النفس

محركة للبدن ومديرة له فاذا كان هذا البناء الحقير يحتاج الى مدبر ومحرك فكيف

لا يحتاج اليه عالم الكون فتكون معرفة النفس من الدلائل الموصلة الى معرفة الله عزَّ

وجل ولعله قسم دليل الافاق في قوله تعالى « في الافاق وفي أنفسهم » وأما الوجه

الثاني فهو ان من عرف ان له نفساً واحدة وانه لو كان معها غيرها للزمه الفساد في

تدبير بدنه علم ان مدبر هذا الوجود واحد هو الله الاحد « لو كان فيهما آلهة الا

الله لفسدنا » : وقد قلنا في هذا المعنى :

ويدبر الاجسام أنفسها ولو لا النفس ضل الجسم عن طرق الهدى

ان كان للجسم الضئيل مدبر هاد فكيف الحال في هذا المدي

ووجود هذي النفس اصدق مخبر لوجود رب حق أن يتمجدا

آمن! ربك ثم بالنفس التي وجدت لتبقى للمعاد وتخلد

« وحدة النفس »

ولقد اختلف الفلاسفة في النفس فقال بعضهم : انها وحدة بالذات ولها أفعال ثلاثة الفكر والغضب والشهوة . وقال آخرون : بل ان هذه هي ثلاثة أنفس وكل واحدة منها مستقلة بنفسها تعمل عملها ولهم في ذلك أقوال مأثورة

زعم ارسطاطليس : ان النفس واحدة ولها ثلاث صفات هي الفكر والغضب والشهوة

وان القلب هو الصلة بين النفس وسائر الاعضاء ينقل القوى النفسانية منها واليها

وقال بقراط وتبعه افلاطون وجالينوس : ان للجسم ثلاث أنفس وكل واحدة

مستقلة بنفسها تعمل عملها وزعموا : ان لكل واحدة من هذه الانفس الثلاثة عضواً تحل

فيه فالنفس المفكرة تستقر في الدماغ والنفس الغضبية مقرر في القلب والنفس الشهوانية

محلها الكبد . وحجتهم في قولهم هذا هي انهم وجدوا النفس الشهوانية في النباتات دون

الغضبية والغضبية في الحيوان دون النطقية وأما في الانسان فقد وجدوا الانفس الثلاثة

مجمعة وعلى هذا الاستدلال قالوا : ان كل واحدة من هذه الانفس الثلاثة جوهري

مستقل بنفسه منفرد بذاته

هذا ما ذهب اليه هؤلاء الفلاسفة على ان نقضه من الهنات الهيئات فقد ثبت في

أصول المعقولات ان الماهيات المختلطة يجر اشتراكها في آثار متساوية وعلى هذه القاعدة

يجوز أن تكون النفس الانسانية مساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وللنفس النباتية

في فعل التغذي والنمو وهي فوق ذلك متميزة دون سائر الانفس بالنطق فهي واحدة

بالذات الا أنها مبدأ الافعال الثلاثة الشهوة والغضب والنطق على ما قال ارسطاطليس وهو

ما أقره القرآن العزيز والحديث الصادق والخيار عند أصحابنا

« ماهي النفس ؟ ؟ »

ان النفس هي الجوهر الملائكي الروحاني الذي يستخدم هذا البدن الجسماني في حاجاته

مسخرأ له تسخير المولى لخدمه . بل هي ذات الانسان وحقيقته العاملة بالمعلومات ولها

في هذا البدن جنود جسمانية وجنود روحانية هي القوى . قال الله تعالى « وفي أنفسكم

أفلا تبصرون ؟ ؟ »

وقد يسمى هذا الجوهر الملائكي الروحاني « روحاً » لتوقف حياة البدن عليه

« وقلباً » لتقلبه في الخواطر

وتوصف النفس بأوصاف مختلفة حسب اختلاف أحوالها . فإذا سكنت تحت

الامور والنواهي سميت مطمئنة . قال الله تعالى « يا أيها النفس المطمئنة أرجعي الى ربك راضية مرضية »

واذا لم يتم سكون النفس وصارت مدافعة للشهوة والغضب سميت لومة قال سبحانه « ان النفس لا مارة بالسوء »

« شوائب النفس الانسانية »

ولقد اصطبج النفس الانسانية بعامل تركيب جسم الانسان وخلقه اربع شوائب أولاً - السبعية فان الانسان من حيث تسلط الغضب عليه يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بضروب الايذاء

والثانية - البهيمية فان الانسان من حيث تسلط الشهوة عليه يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق ونحو ذلك

والثالثة - الربانية فان الانسان من حيث في نفسه أمر رباني كما قال تعالى « قل الروح من أمر ربي » فقد يتمادى بالغرور حتى يدعي الربوبية أو ماهو بمعناها من حب الاستيلاء والتعالي والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالحرية والتخلص من رتبة العبودية والتواضع وتمني الاطلاع على العلوم كلها بل ويدعي لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بمحتائق الامور والاستيلاء قهراً على جميع الخلق وكل هذا من أوصاف ومميزات الربوبية .

والرابعة - الشيطانية فان الانسان من حيث أنه يمتاز عن البهائم بالذكاء مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه الصفات الشيطانية فصار شريراً يتعمد ذكاءه في استنباط وجره الحيل . ويتوصل لاغراضه بال المكر والخداع واطهار الشر في معرض الخير وهذه اخلاق الشيطان . وكل انسان فيه أثر من هذه الشوائب الاربعة التي سنفصلها ونوضح معانيها باخبار وأمثال وقصص كما ستري

« في الاحوال النفسية »

ثبت لدى أهل الدراية والذكاء ان الانسان وان كان نوعاً من الحيوان فهو العالم الاصغر فان الله سبحانه خلق خلقه على ارقى مثال وجعل فيه من القوى المختلفة والاخلاق المتناسبة والشهوات الغالبة ما يقتضي خروجه في أكثر الاوقات عن الاستمرار على حالة واحدة .

ألا ترى الانسان اذا ما رأى نفسه متمكناً في الارض مستغنياً عن العبد تظهر عليه

دلائل الطغيان ومخائيل الخيلاء والتجبر والكبرياء كما جاء في القرآن الكريم « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وقلنا في ذلك :

عجبت لمن يطغى اذا شعر الغنى عن الناس أو ان نال من دهره المني
واسفه هذا الخلق من ساء خلقه اذا فاز بالعلياء أو سمع الثنا
على أن هذا الانسان الذي يطغى اذا ما استغنى سرعان ما تظهر عليه دلائل الضعف
والاستكانة اذا رأى في نفسه ضعفاً وفي حاله عجزاً كما قال الله تعالى « وخلق الانسان
ضعيفاً » وقد قلنا في ذلك :

أنظر لرب العنقوان وقد عرته نكبة في الجسم أو في المال
فاذا هو الرجل الضعيف وقد أطاع قواهر الاقدار بالاذلال
أما اذا رأى الانسان في عقله رزاة وفي رأيه سداداً وفي فكره يقظة خدعته
مواقع تدبيره وقد توقعه افكاره في الوسوس والتقدير والتلقيه أو هامه في أودية
الخيالات والتصورات لاستعمال المخادعات وفي مثل هذا قاله الله جلّ جلاله « ولقد خلقنا
الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » وقلنا في ذلك :

وكم خادع للنفس في قوة الذكا وحسن سداد الرأي قدخاب حدسه
وخالقه أدري بباطن أمره وظاهره أو ما توسوس نفسه
أما اذا رأى الانسان في نفسه العجز عن تكميل اراداته وتخوفه من خيبة آماله
تظهر عليه مخائيل التفتيش فتسرع به الى التلبس بالامور قبل تحين تمامها وتحمله على
مباشرة الاشياء قبل ابرامها . وبهذا الاعتبار قال الله سبحانه : « خلق الانسان من عجل »
وقلنا في ذلك :

وما خاب من يسعى لادراك سؤله بحزم اذا ما كان يسعى على مهل
ولكن يخيب المرء في كل مبتغى اذا ما ارتجى نيل الاماني على عجل
وباعتبار هذه الاسباب والقوى يكون الانسان في حالات متضادة من سرور وحزن
وانبساط وانقباض ويأس وأمل وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه
الى بيان ما عاينه الانسان من اختلاف حالاته وتضاد صفاته على الوجه الذي قدمناه
فقال : « أعجب ما في الانسان قلبه ، له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها ، ان
سبح له الرجاء أذله الطمع ، وان هاج به الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعف به الرضا
نسي التحفظ ، وان ناله الخوف نضح الجزع ، وان استفاد مالا أطفاه الغنى ، وان

عضته الفاقة شغله الفقر ، وان جهده الجوع أقعده الضعف ، وان أفرط بالشبع كظته البطنة ، وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد » وحسبنا في قول أمير المؤمنين هذا برهاناً على صحة ما ذكرناه من استعداد النفس البشرية لأنواع الاخلاق والشم خيرها وشرها . وقد جعل الله سبحانه لكل صفة منها سبباً يحدثها وموجباً يقتضيها . مما ستقف على تفصيله قريباً ان شاء الله

« الملكات النفس »

الخلق ملكة مصاحبة للنفس تستصدر أفعالها بلا تفكير وروية . وفي الحكمة النظرية ان الكيفيات النفسانية منها ما هو سريع الزوال ويسمونه حالا ومنها ما هو بطيء الزوال ويسمونه ملكة

والملكة كيفية من الكيفيات النفسية وهي ماهية الخلق ويتسبب وجودها عن شيئين : أحدها طبيعي والاخر اعتيادي . أما الملكة الطبيعية فهي تنجم عن أصل المزاج الشخصي وتكون كامنة في صاحبها الى ان يظهرها ما يعرض لها من الاحوال فاذا حصل سبب يحرك غضب الغضوب مثلاً ظهرت ملكة الغضب فيه أو اذا سمع الضعيف خبراً مكروهاً ظهر عليه الخوف ، وأما الملكة الاعتيادية فهي ما يكتسبها الانسان بالعادة والمزاولة فتكون باديء بدء اختيارية ثم تصبح قهرية كاعتياد التدخين والسكر والميسر في الشر واعتياد الصلاة والعفاف والنزاهة في الخير وقس عليه . فولى الانسان ان يعتاد الخير ويكثر منه وينفر من الشر ويتعد عنه والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفضمه ينظم

الروضة الاولى

في الاخلاق المتعلقة بالقوة الشهوية

« بين العاجل والاجل »

من طبائع هذا الانسان حب العاجل وترجيحه على الاجل بصرف النظر عن الاصلح الانفع اذا ان النظر الى الاصلح الانفع راجع للعقل وهيئات أن يتغلب العقل على العواطف الا عند أرباب العقول النيرة والارادة الحازمة قال الله تعالى « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة » وقال سبحانه ايضاً

« ان هؤلاء يحبون العاجلة و يذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » وقال أيضاً تبارك اسمه
« فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبغهم من الم » وفي
شطرة لاحد الشعراء مقتبسة من الآية الاولى (والنفس مولعة بحب العاجل) ولقد
ضمن شاعرنا الانطاكي هذه الشطرة معرض طلب أسداء الينا ذات يوم فقال :

عجبت لي كرمًا بهض مطالي وتركت بمضاً للزمان الآجل
فلك انشاء على المعجل عاجلاً نقداً بحمدٍ مستطابٍ شامل
واذكر بما أجأت قول الله ان النفس مولعة بحب العاجل

وقنا في مرض غزل :

سألها الوصل قالت ان كنت تهوى تمهل
فقلت ينفذ صبري من كل وعد يؤجل
والخير أبقي اذا ما قد كان نقداً معجل

وقال أحد الشعراء :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
وما رضى هؤلاء الرجال بأدنى الدين ونفروا من العيش الدون الا لحبهم العاجلة
ونفرتهم من النعمة الآجلة . وأنت تعلم أن نعمة الدين وان كانت أهناً وأبقى الا انها
مؤجلة وأبصار أكثر الخلق ضئيفة مقصورة على الآجلة لا تمتد نورها الى مشاهدة
العواقب ولذلك قال الله تعالى « بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة وأبقى » الآية
وهذا هو السبب في التمهيل بطلب ملاذ الدنيا والتسوين بالعمل الصالح ابتغاء الآخرة
ومن أمثال ذلك والامثال تقرب الى الافهام ان من كان له ولدان غائبان ينتظر
قدوم أحدهما في غده والثاني بعد شهر أو سنة فيستعدّ طبعاً للقاء القادم القريب ويسوّف
الاستعداد للقاء القادم البعيد حيث ان الاستعداد يكون المنتظر القريب وليس المنتظر
البعيد وكذلك من ينتظر زيارة حميم أو كسب مال أو نيل جاء بعد قليل من الزمن
يستعد له بكل قواه واما انتظار المرء الموت فهو انتظار بعيد يرجو أن لا يقرب أجله
فلا يستعد له لانه يرى دائماً ابداً لنفسه متسعاً عن دوز أجله فيؤخر العمل لما بعد
الموت بطول أملة تأخيراً تدفعه اليه رغبته بالعاجلة ونفرتة من الآجلة

ومن ثمرات حب العاجلة الاصرار على الذنب وذلك لان اللذات الباعثة على الذنوب ناجزة
معجّلة وهي آخذة بالخطا بحكم الاعتياد والعادة طبيعة خاسرة كما يقولون وقد قلنا في هذا المعنى :

أيها الراغب الملائذ فكم ر
انها عاجلاً تزول وترحل
انما اثمها يظل ويبقى
بعدها مرصداً عليك مؤجل
ومما يقال في هذا الموضوع ايضاً ان العقاب الموعود به المذنبون غائب والنفس
تتأثر بالخيف العاجل أكثر مما تتأثر بالخيف الاجل لما طبعته عليه من سعة الادل
وتناسي الاجل

« ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل »

ومما جلبت عليه النفوس طول الأمل وهو نتيجة حب العاجلة . والأمل خلق
جلبت عليه النفوس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يشيب المرء وتشيب
معه خصلتان الحرص وطول الأمل » فكان هاتين الخصلتين زردادان بنقص الانسان
وتقويان بضعفه وقال أبو عثمان النهدي : (قد أتت علي ثلاثون ومئة سنة وما من شيء
الا وأجد فيه نقصاً الا الأمل فاني وجدته كما هو أو يزيد) وقيل في الامثال : (لولا
الامل خاب العمل) . والحكمة في ذلك ان الانسان يعمل وهو يحجل حسن النتيجة
من وراء عمله ولكنه يؤمل بالنتيجة الحسنة ولولا أمله لما أقدم على عمله وقلنا في الامل :
ما أضيق العيش والايام متعبة الانسان لو لم يرج فسحة الأمل
لو لم يؤمل بفوزي في قضا وطري ما كنت أنشط في جهدي الى عمل
والامل في الانسان لا يتقيد بسبب ولو تقيد لصاق ذراعاً بحياته فهو من هذه الوجهة
يمتاز عن الامنية التي لا تكون بدون سبب فالانسان مثلاً يؤمل بالاثراء وان كان لا يرى
سبباً موصلاً له وبطول الحياة حتى ولو كان عليلاً سقيماً ولكن لا يتمنى الاثراء أو طول
الحياة الا اذا وجد سبباً اليهما

والناس في الامل على مراتب فمنهم من يؤمل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر
الذي يعهده لحرصه على البقاء ولو رأى من قبله من عاش الخلود لامل فيه وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وآله : (الشيخ شاب في حب طيب الدنيا وان التفت رقبته
من الكبر) وهكذا حال أكثر الناس الا الذين اتقوا وقليل هم
ومنهم من يؤمل العيش الى أجل معين فلا يهم بما وراءه على ان مثل هؤلاء
يوسعون في آملهم يوماً بعد يوم وقليل هم مثل هؤلاء . والاقول من هؤلاء من يقصر آمله
على يومه فلا يهم الغده . وبالجملة فالامل لا ينتزع من البشر وان تفاوتت مراتبه في النفوس
على حسب قوة الايمان وضعفه وزيادة عقله ونقصه وأما اليأس فيدعو الى أسوأ النتائج

وآخرها الانتحار ولذلك حرمت الأديان بأجمعها اليأس وعدته من نتائج الكفر والعياذ بالله
والأمل ثمرات ونتائج منها انه سبب العمران قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
(الأمل رحمة لامتي لولا الأمل ما أرضعت والدته ولدها ولا غرس غارس شجيراً)
وقال حكيم : « لو عقل الناس وتصوروا الموت بصورته خربت الدنيا ولولا ان الآخر
يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنياً لافتقر أهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون
اليه من منازل السكنى وأراضي الحرث وأغراس الزرع وفي ذلك من الاعواز وتعذر
الامكان ما لا خفاء فيه » فلذلك أرفق الله تعالى خلقه باتساع المال حتى عمر به الدنيا
فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها قرناً بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الاول من عمارتها
ويتم الثالث ما أحدثه الثاني من شعها لتكرن أحجارها بيدي الاعصار ملتئمة وأمورها
على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الا مال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى
ضرورة وقته ولما كانت تنتقل الى من بعده بأسوأ من ذلك حالاً حتى لا ينمو بهانبت
ولا يمكن فيها لبث

ومنها خراب الآخرة قال أمير المؤمنين عليه السلام : (من أطال الأمل أساء العمل)
وسببه التسويف الذي هو نتيجة الأمل فيبدأ بالسيئة حباً بملاذه قبل الحسنة اغتراراً
بالأمل في اماله ورجاء تلافي ما سلف من تقصيره واخلاقه فلا ينتهي به الأمل الى غابة
ولا يفضي به الى نهاية فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : (من يؤمل أن
يعيش غداً فإنه يؤمل أن يعيش أبداً) ولامري هذا هو الحق الصراح لان لكل يوم غداً
فالأمل يفضي به الأمل الى الفوت من غير درك ويؤدي به الرجاء الى الاهمال من غير
تلاف فيصبح الأمل خيبة والرجاء يأساً وذكر الحلبي في البحار عن ثعلبة عن معمر
قال قلت لابي جعفر : ما بال الناس يعقلون ولا يعلمون . قال : ان الله تبارك وتعالى حين
خلق آدم جعل أجله بين عينيه وأمله خلف ظهره فلما أصاب الخطيئة جعل أمله بين
عينيه وأجله خلف ظهره فمن ثم يعقلون ولا يعلمون . أقول : ومهراد السائل بالعقل
عقل المعاش وتدبر أمور الدنيا فكأنه يقول ما بال الناس في أمر دنياهم عقلاء لا يفوتون
شيئاً وفي أمر آخرتهم سفهاء لا يعلمون شيئاً والجواب على ذلك هو ان السبب نسيان
الموت أو تناسيه بدافع طول الأمل بحيث يترك الانسان ما ينفعه بمعاده ويقصر همته على
تحصيل معاشه ومرة أمور دنياه لكانها نصب عينيه دائماً ومن ثم ينجم الحرص على
الدنيا وحب المال والاحتفاظ به والعمل على تنميته على ما سيجي

ومما حُبَّت عليه النفوس بطبيعتها حب المال قال الله تعالى : « وانه حب الخير
 لشديد ويحبون المال حباً جماً » ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات العاجلة التي
 لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم انه يموت بعد يوم أو أسبوع
 أو سنة قصر أمله فيجود بماله بعد أن يدخر لنفسه ما يكفيه ليرمه أو أسبوعه أو سنته
 ولا يكن من الناس يعتبر ويقتنع بدنو أجله حتى ولو كان مدنفاً على فراش الموت ؟
 وفوق هذا فان الانسان لطبعه بالخلود وعجزه عن نياله ينزل ولده من نفسه
 منزلة الخلود ويحسب انه يخلد بهم ولذلك يضمن بماله بهما كان كثيراً وان وجد عمره قصيراً
 ليورثه الى عقبه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله (الولد بمخلة مخفلة مجفلة)
 واذا أضفنا الى هذا وذاك ما هو متأصل بالاكثر من صنوف الفقر وقلة الثقة
 بالارتزاق قوي البخل في الانسان لا امة خلافاً لمن أحسن الظن بالله وأيقن بالخلف
 المتيد. قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من أيقن بالخلف جاد بالطيبة » اذ ان من يوقن
 بالخلف يعلم ان الجود شرف لصاحبه وأن الجواد محمود عند الناس وعند الله حيث يجد
 من نفسه الداعي الى السماح ولا صارف له عنه لعله ان مادته دائمة وعلى ذلك يجود
 بالعطية وهو مسرور منشرح الصدر وفي ذلك قلنا من تميل « وتحدثوا بنهم ربكم » :

من بات يرقن ان الله رازقه يوماً ييؤم لأطى المال عن كرم
 والبخل من شيم المأيوس يمسك ا في كفه خوف أن يمسي أخا عدم
 لا كنت ان كنت لأولي المطاء لمن يسي الى وليس البخل من شيمي
 والله برزقي ما دمت أرزق من يرجو نالي ورزق الناس بالتسم (١)

(١) والسبب الذي نظم فيه عظمة مولانا المردار أقدم حفظه الله هذه الايات هو
 ان عظمته كان مرّة في الاهراز يتغمد بكرمه رايه الخصى واذا بابرابي رندو عظمته في
 صدر نخته يحب به روساء قبائله وكرام حاشيته وعند ما وقعت عيناه على لي النهم أشد :
 مه لاي رزقي عليك اليوم أطابه حقاً صريحاً فخذ لي وارتب الله
 وأنت أكرم من تسعى العناية له فلم تدع صاححاً من دهره آها
 وآها لدهره ولكن بعد زورة مر لانا الممز فلا آها ولا وآها
 اني لأطعم أن أجني بفضل ما يحبي العيال فأجني المال والجها
 فسر مولانا بهذا الاعرابي وتلفظه بمسئلته وأولاه ما فوق آماله وأشد بعد ذلك
 لك الايات الايات التي يحق أن يقال فيها كلام الملوك ملوك الكلام

ولله در الشاعر الذي يقول :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله

والسبب الثاني حب المال لنفسه فمن الناس من يقنى ما فوق حاجته بل ما يكفيه لو عاش الخلود وليس له ولد يرثه ومع ذلك يقتري على نفسه في مآثبه ولا يحجود بقليل من ماله وهو يعرف يقيناً أنه مائت لا محالة وان ما بين يديه سيصير الى الوارثين نبيد وانه تبديداً فان مثل هذا البخيل الشحيح الذي لا تسبح نفسه بصرف قليل من ماله في مصالح دنياه وآخرته حتى ولا في سبيل مداواته اذا اعتل لا يفسر حرصه بأكثر من انه لنفس ماله . ولذته أن في صناديقه القناطير المظطرة من الاضرار أو انه يملك الكثير من النخيل والمقار وما مثل هذا الا مثل عاشق اشتغل عن الحبيب برسول الحبيب اذا أن المال للانسان رسول يبالغ به حاجاته من دنياه وآخره ولذلك هام به وجد في سبيل كسبه ولو لا انه كذلك لما فرق الناس بين الذهب والفضة وغيرها من المادن التي لا قيمة لها

وحب المال مما لا يخالو منه أحد وهذا الحب قد يسكن ويكمن في النفس وقد يهيج وظهر تباعاً امروض بهر اسباب فمن جملة الاسباب المسببة لتهيج هذا الحب مناعة أهل النعمة في ترثهم بشاهدتها المحروم المدوم فتيج في صدره عاطفة الحب لا ما فينداع ثارها في نفسه فيتمنه لآلم الحرمان الذي كان غالاً عنه ومنه تأتي الفرض التي نسمع بأنبائها السرداء في بلاد الغرب حيث يقتل الفقراء الاغنياء وتكثر حوادث التتسار لدى المعسرين وهذا نادر في الشرق حيث الناس على خشونة من العيش والاعنياء يكثر فيهم الكرم فيشاركون بأموالهم المترين

ولا ينجو من حب المال الا أهل القناعة من تصبهم الله من أوليائه الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً حيث انه من مقتضيات الطبيعة البشرية والهواجر النفسية حب الذات والرغبة في الذات وقد قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في وصف الدنيا وحب الانسان لها : « فهو عبد لها (للدنيا) ولمن في يديه شيء منها فحيثما زالت زال عنها وحيثما أقبلت أقبل عليها » وأخذ هذا المعنى ابن دريد فقال :

عبيد ذي المال وان لم يطمعوا من ماله في نفعه تشفى الصدى

وهم لمن ألقى أعبداء وان شاركهم فيما أفاد وحوى

وقال أحد الشعراء في هذا المعنى :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلب يوماً به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا فان وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا
وقلنا في هذا الموضوع :

ترى الناس قد هملوا بذي المال وانتنوا لاكرامه من غير فائدة تجنى
كأنني بهم مثل الزمان بأهله يسرون بالدنيا لمن معه الدنيا
وقال شاعرنا الانطاكي :

عبد الناس ذوي المال فان مر فيهم مؤسر شقوا الطريق
ليت شعري هل دروا أن الذي عبدوه في الاهانات حقيق
انما يكرم من أهل الغنى كل شهيم محسن ندب شفيق
يبذل المال بجد وسخا فينال الحمد كالمسك الفتيق

وقالت العرب في امثالهم : « من ذهب ماله هان على اهله » وانما الامثال حكمة الشعوب
فكم نرى غنياً والناس حوله اذا مضى بالنقر ارضوا من حوله ونسوه ان لم يطرده و يهينوه
وذكروا أن مؤسر أمر يوماً على عالم زاهد فنض هذا اجلاً له فقيل أكان لك به
حاجة ؟ فقال لا والله ولكني رأيت المال فتهبت
هذا وان من ثمرات حب المال وتناجحه الشح عليه والبخل به والحرص عليه اذا
وجد والشوق اليه ان كان مفقوداً كل ذلك لحاجة الانسان اليه ولاستكمال راحته به
« في الشح »

ومما جلبت عليه النفوس البهيمية الشح لقوله تعالى « وأحضرت الانفس الشح »
أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه والشح هو أن يرى الانسان القليل من الانفاق اسرافاً
وما ينزقه على حاجياته التي لا بد له منها لقوام حياته اتلاًفاً والشح يزيد وينقص وقد ينتهي
في بعض الناس الى أن يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال فلا يسخر
بالتقليل منه لكروته أو لغذائه أو لمداواته وهو عليل الى أن ينتهي به بخله هذا الى الموت
فيجود بحياته حرصاً على ماله ؟؟ وكم من الناس من يشتهي أنواع الشهوات فلا يمنعه
عنها الا الحرص على ماله حتى اذا ظفر به مجاناً ما عف عنها

ومن ثمرات البخل التقاطع والنداب قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اياكم والشح
فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم
فقطعوا أرحامهم » وقال أيضاً عليه وعلى آله الصلاة والسلام : « تهادوا تحابوا » وفي
هذين الحديثين الشريفين العبرة البالغة للاشياء لو كانوا يعتبرون وقال بعض الحكماء :

« جود الرجل يحببه الى أصداده وبخله يبغضه الى أولاده » وهذا ما نشاهده عياناً في كل يوم فكم من كريم تكاد الناس تعبده تبجيلاً وحباً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وتكاد النفس تعبده من أحسن اليها » وكم من أولاد يبغضون آباءهم لشحهم ويتمنون لهم الموت والهلاك بل إن بعضاً من أولاد الأشحاء يعملون على إهلاك آبائهم للتخلص من شحهم والله درّ ابن عبد القدوس حيث يقول :

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطي بثوب من سخاء فاني أرى كل عيب فالسقاء غطاؤه
وقال شاعرنا الانطاكي :

الجود يدفع بالكريم لان يكون ن محبباً تالله من أصداده
والبخل يجعل للبخل كراهة ممزوجة بالبغض من أولاده
وقلنا في هذا المعنى :

ان السخي بماله لمداشتري الا حرار اذا أمسوا عبيد نواله
لكما القدم البخل بيخله قد باع في الاسواق حب عياله
والشع يكسب صاحبه مذموم الاخلاق اذ يكون الشحيح كذوباً ومملقاً ووضعاً
بين أمثاله وعشرائه كما قيل في الامثال (عز مالك عز مالك وذل مالك ذل مالك) وحسبنا
بهذا الان وسنعود اليه

« التشوق الى المال »

ومما جُبلت عليه النفوس التصبي الى المال والشره له أما التصبي فهو شدة الكدح والاسراف في طلب المال وكسبه قال رسول الله صلى الله عليه وآله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بغي لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب) وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا هو الفرق بين التصبي والشره وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله : (من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد من العيش ما يغنيه) وأخذ هذا المعنى شاعرنا الانطاكي فقال :

من ليس يجزيه من العيش القليل تعففاً ورضى بما يكفيه
فلعمر ربك ملك كسرى كله لو كان في كفيه لا يغنيه

وقال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : (من هو مان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) ونقول ولكن شتان بين النهم بالعلم من حيث صاحبه يستفيد ويفيد والنهم بالمال وصاحبه

يضر نفسه وسواه وفي خبر عنه عليه السلام انه قال : (طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً) وكان يقال : (الناس رجالان طالب لا يجدوا واحداً لا يكتفي) أخذ الشاعر فقال :

وما الناس الا واحد غير قانع
وقنا في تضمين هذا البيت :

وراء المال لا تعني بملقى الشدائد
فهل أنت الا مائت وابن مائت
(وما الناس الا واحد غير قانع)
فكن قاناً فيما اكتسبت من الغنى
وللنفس حق لا تضعه بمطمع
وقال بعض العلماء : (لا تخرج نفس من الدنيا الا وصاحبها بحسرات ثلاث : انه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد مما هو قادم عليه) ونعم القول قوله وبالجملة فالشره بانك والتصبي الى جمعه من الغرائز الطبيعية اللازمة لبقاء الانسان وهاتان الخلتان تقويان في كل من غلبت عليهم القوة البهيمية قال أمير المؤمنين عليه السلام : (احسانك الى الحرير كره على المكائنة ، واحسانك الى الذليل كره الى معاودة المسئلة ، وبه يعلم الكريم من اللئيم) وقال في ذلك أبو الطيب المتنبّي :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
ووضع الندى في موضع السيف في العلى
وقد جاء في القرآن الشريف عن الشره قوله تعالى : (وقالوا يا موسى ان نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها) الآية والشره لا حد له ألا ترى الفقير المذموم يتمنى أن يرى في يده ديناراً ؟ فاذا بلغ أمنيته طمع بعشرة دنائير ، فاذا انتهت اليه صبت نفسه الى المئة والالف وهلم جراً ، وهو بينما كان يتمنى أن يستر عورته ، ويشبع كرشه الخاوي ، بما تيسر ، أصبح ولا يرضى بغير الديباج كساءً ، والفالودج طاماً ، والقصور الشاخمة مأواه ، والخيول المطهمة لركوبه ، ما لم يكن يطمع به من قبل ، عند ما كان يتمنى على الله كسب الدينار الواحد ، وهكذا يقع الشره في هاوية آخرها عمق جهنم . وما أحسن ما قيل :

تموت مع المرء حاجاته
وحاجات من عاش لا تنهي

وقال آخر :

والنفس كالطفل ان تطعمه شب على حب الرضاع وان تفضمه ينظم
وقال ثالث :

مق تنقضي حاجات من ليس بالغاً الى حاجة حتى تكون له أخرى
وقال رابع :

زوح ونعدو لحاجتنا وحاجات من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
وقلنا في هذا المعنى :

أرى الناس والحاجات لا تنتهي لهم كأنهم أهل الخلود بنى الدنيا
فهل علموا أن الفناء مصيرهم وآمالهم يفنون فيها ولا تبقى
وقال شاعرنا الانطاكي :

وآمالنا لا تنقضي ان نعبس السخود ونسعى باجتهاد لا جلهما
فكيف بنا والعمر اقصر ما نرى وننقضي ولم نبلغ منال أقلها
هي النفس لم تعقل وكان طموحها وأطماعها الكبرى نتائج جهلها
وقد علم مما ذكرناه أن الحرص والشره هما الفقر الحاضر لان معنى الفقر هو الاحتياج
ولذلك قيل (ان الله هو الغني المطلق) فاذا كان الحرص فقراً فالقناعة غنى وقد قال
في ذلك وأجاد ميني الشعراء :

ومن يقطع الايام في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
وقيل لبعض الحكماء ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . ومن أمثال العرب
(وما غلب الايام الا من رضي) ومن أمثالهم الشعرية :

والعيش لا عيش الا ما قنعت به قد يكثر المال والانسان مفتقر
وقيل ونعم ما قيل : (استغنأوك عن الشيء اذا عدم ، مثل استغنأوك به اذا حضر)
وقال الشاعر :

ما كل ما فوق البسيطة كافياً فاذا قنعت فكل شيء كافي
وقلنا في هذا المعنى :

اذا رمت أن تحيا سعيداً فلا تكن طموحاً وحاذر من معاندة الدهر
وكن راضياً عما به أنت ظافر من العيش رضواناً به رغد العمر

وقال امير المؤمنين عليه السلام : (الزهد روة) وهذا حق لان الثروة هي ما استغنى به الانسان عن الناس ولا غنى عنهم كالمزهد في دنياهم فالزهد والقناعة على الحقيقة هما الغنى الاكبر وسئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قول الله عز وجل (فلنحيينه حياة طيبة) فقال عليه السلام : ان الحياة الطيبة هي القناعة ولا ريب ان الحياة هي حياة الغنى وقد بينا ان الغنى هو القناعة لانه اذا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى الناس أقلهم حاجة الى الناس والى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله : (ليس الغنى بكثرة العروش انما الغنى غنى النفس) وقال الشاعر :

غنى النفس ما يكفيك عن سدّ خلّة
فان زاد شيء عاد ذاك الغنى فقرا
وقال شاعرنا الانطاكي :

اذا رضيت بحال أنت واجدها وما نظرت الى ما فوقها أبدا
أنت الغنى وما أنت الفقير ولو لم تلق عندك الا عيشك الرزدا
« الحرص على الممتنع »

ومما جلبت عليه النفوس الحرص على الممتنع وقيل : النهي عن الشيء داع الى تعاطيه وفي الامثال « المرء حريص على ما منع » ويستدل على هذا الحرص بفعل آدم وحواء لما نهيا عن أكل الشجرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء » وقال بعض العلماء « اذا ورد من الشارع نهى عن شيء كان داعياً الى تعاطيه » وفي الامثال « الشيء يرغب فيه حين يمتنع » وقد أخذ شاعرنا الانطاكي هذا المعنى فقال :

لقد صبت لبنت الحان أشربها من دنسها لست بالكاسات أقتنع
وما بها لذّة تحلو ومنفعة تُرجى سوى اني أضوى فاضّ جمع
شربتها رغبة في كل ممتنع والشيء يرغب فيه حين يمتنع
وقال بعض الشعراء :

منعت شيئاً فأكثر الولوع به أحب شيء الى الانسان ما مُنع

وذكر ابن الجوزي في كتابه الاذكياء قال قدمت على عمر بن الخطاب حائل من اليمن فقسمها بين الناس فرأى فيها حلة رديئة فقال كيف أصنع بهذه اذا أعطيتها أحداً لم يقبلها لمعها نال فأخذها وطراها وجعلها تحت مجاسه وأخرج طرفها ووضع الحبل بين يديه فجعل يقسم بين الناس قال فدخل الزبير بن العوام وهو على تلك الحال فجعل ينظر الى

تلك الحلة فقال له ما هذه الحلة ؟ قال عمر دع هذه عنك قال ماهيه ماهيه ما شأنها؟ قال دعها عنك قال فاعطينيها قال انك لا ترضاها قال بلى قد رضىتها فلما توثق منه واشترط عليه أن يقبلها ولا يردّها رمى بها اليه فلما أخذها الزبير ونظر اليها اذا هي رديئة فقال لا أريدها فقال عمر هيات هي نصيبك

والخلاصة أن الحرص على الممنوع من الطباع اللازمة للنفس وهي في النساء أشدّ وكان يقال ما نهيت امرأة عن شيء الا أتته وفي هذا المعنى يقول طفيل الغنوي :

أن النساء كاشجار نبتن معاً هنّ المزار وبعض المزار ما كول

ان النساء متى ينهين عن خلق فانه واجب لا بدّ من مفعول

ولهذا الحكم علة في العالم العقلي وذلك ان النفس عندهم غنية بذاتها مكتفية بنفسها غير محتاجة الى شيء خارج عنها وانما عرضت لها الحاجة والفقر لما قارنت الهوى وذلك أن أمر الهوى بالضد من أمر النفس في الفقر والحاجة ولما كان الانسان مركباً من النفس والهوى عرض له الشوق الى تحصيل العلوم والمقتنيات لا تنفاه بهما والتداوة بمحصروهما فاما العلوم فانه يحصلها في شبيهه بالخزانة له يرجع اليه متى شاء ويستخرج منه ما أراد أعني أن القوى النفسية هي محل الصور والمعاني التي تدرك على ما هو مذكور في موضعه وأما القينات والمحسوسات فانه يروم منها مثلما يروم من تلك على انه يريد ايضاً ان يودعها خزانة محسوسة خارجة عن ذاته وهذا ما أوجب له الحرص

وأما حرص الانسان على ما منع فهو لانه انما يطلب ما ليس عنده وأما ما هو حاصل عليه فلا ضرورة للسعي اليه وهكذا بطبيعة الحال يتوجه الى المعدوم لا يجاده فاذا حصل عليه سكنت شهوته وعلم أنه قد ادّخره ومتى رجع اليه وجدّه (ان كان مما يبقى بالذات) وقد لا يرجع اليه لا طمأنينه من حصّره عليه على انه لا بدّ من أن يشغل نفسه بشيء آخر مفقود ليحصل عليه ايضاً ويظلّ هذا رأيه بعامل الطمع الغريزي في نفسه

هذا وأما المبتذل والرخيص والكثير الوجود فمما يرغب الناس عنه لسهولة الحصول عليه حيث يعلم كل انسان أنه يحمد ذلك الشيء عند ما يلتمسه وانما يرضن بالرضين . وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من وثق بماء لم يظمأ » يريد بذلك الظمأ الذي يكون عند شعور الانسان بفقد الماء وعدم الثقة بالحصول عليه وليس يريد النفي المطلق حيث الواقع بالماء يظمأ ويرتوي ومثل هذا قول أبو الطيب المنذبي :

وما صباة مشتاق علي أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل

وقلنا في هذا المعنى :
لا عيش الا لمن آماله كثرت والموت غاية ما يؤس من الامل
لولا التعلل بالآمال لانتحر المحروم من خيبة المسعى على عجل
والصحيح هو أن الانسان يحبب الامل ويقتله اليأس ولذلك كثرت آمال الناس حتى
أصبحوا منها في وسواس

ونرجع الى مسألة الرغبة بالمنوع فتري المرء قد يقضي يومه طياً ومن غير سحور
فلا يهتم لطعام ولا يشكو من أوام على أنه وهو صائم ممنوع عن الاكل والشرب يكون
شديد الرغبة فيهما ينتظر غروب الشمس بسأم وضجر وفروغ صبر وما ذلك الا لانه
ممنوع عن الشيء فيشتهيه وكذلك يقال عن الانسان في شهراته الاخرى التي يزهد فيها
وهي ميسرة له ويشتهيها وهي متعذرة عليه ممنوعة عنه وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام :
« اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » والسبب في ذلك هو ما قدمناه ولان القليل القدرة
على ما يشتهيه لا تزال تحدته الشهوة بنيل ما هو محروم منه لعدم ثمنه بنواله وتأكده
من فواته فيكون ذلك الحرف معاقباً لذته به فلا تزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله
على مشتهاه وتبعث شهوته عليه أما اذا تمت قدرته عليه فانه يأمن قوته فيضف البأس
لشهوته يزهد فيه ومن ذلك قيل لأعرابي كان يمشق قينة وقد برح به هواها ما
يضررك لو اشتريتها ببعض ما تنفق في سبيل هواها ؟ فقال فمن لي ببلدة الخلسة ولقاء
المسارقة وانتظار الموعود وتمثل بقولهم في الابل (تمنعي أشهى لك) وهذا المثل
يضرر للكثيرات الابل ذال القليلات الدلال وأصله أن أعرابياً قال لامرأته وقد كثرت
من التبذل عليه تمنعي لاغازلك فاشتهيك فان كل مبتذل رخيص

ومن هذا القبيل ما قرأناه في كتب الأدب فقد روي أن امرأة حسناء شعرت
أن زوجها يخونها وينتاب اما كمال الفسوق فاستدلت على تلك الاماكن وقصدت زوجها
فيها كواحدة من المومسات وكنته من نساءها وهي مغطاة لوجهه يدوي خونها من
الرقباء حتى اذا ما قضى منها وطره كشفت عنها فقال لها « ما احرك في الحرام
وابردك في الحلال » فذهب قوله مثلاً وتاب عن فجوره

« التهاون بالكثير المبتذل »

ومما جُبلت عليه النفوس التهاون بالكثير المبتذل ولذلك ترى الناس في شرقنا لا
يفرحون بنور الشمس مع كثرة الحاجة اليها لانها قل أن يجدها الغمام خلافاً للإوربيين

ولا سيما سكان المدن الشمالية المتبددة سماءها غالباً بالغيوم كلندن ونحوها فإن القوم هناك اذا
أشرقت عليهم الشمس في يوم تركوا فيه أشغالهم وجعلوه عيداً وخرجوا زرافات الى
حدائقهم وأقاموا في نورها الوهاج فرحين مستبشرين
ومن هذا القبيل قلة فرح الناس عندنا بالسماء وهي مرصعة بالنجوم وقل أن ينظروا
اليها وهي أجمل من كل ماتقع عليه العين من مناظر الطبيعة البهجة وما زهدهم فيها الا
لابتذالها وكذلك قل عن سائر الاشياء النادرة بنفسها والناس قليلو النايبة بها لابتذالها
وقد قال شاعرنا الانطاكي :

أحرص على آدابك النراء أن تمنى بشرّ الابتذال لدى الورى
فالناس تهمل كل مبتذل ولو كان الخلق بأن يعزّ وينذرا
فبهمّة بأعوا الحياة وانها لعزيزة ما أن تباع وتشتري
والماء قد تركوه وهو العذبوا — خذوا بديلاً بالنضار المسكرا
سدوا المنافذ بالاطالس كي تر د الشمس وابتاعوا الضياء المنورا
وصبوا الى الذهب العقيم فكان — بوداً لهم ما ان يرد مقدراً
وقلنا في هذا الباب :

حاذر هو ان الابتذال اذا أردت معزةً وتعالى على الاقران
فالناس تحتقر القريب مناله وتخصه بالزهد والاهوان
وتجد في طلب البعيد نواله جداً وان يك واضح الحسran
وعلى هذا فنفسا الاشياء لا تكرر لذاتها بل لما يبرز لها من الانفراد أو الندرة أو
الضياح فمن الاول قول الشاعر :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفرّدي بالسؤدد
وقال جاهع ديوان الشريف المرتضى سمعت بعض مشائخنا يقول ليس لشعر المرتضى
من عيب الا أن الشريف الرضي أخوه فانه لو كان منفرداً بشعره كان أشعر أهل زمانه
ومن الثاني قول بعضهم :

تري الفتى ينكر فضل الفتى مادام حياً فاذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب
ومن هذا القبيل ما هو معروف عن مصوري الصور الزيتية في أوروبا فان أكثرهم
ان لم نقل كلهم عاشوا متريين ولم يهتم أحد ببراءتهم الصناعية حتي اذا مات أحدهم أخذ

الناس يهتمون بصوره ويتنافسون باقتنائها ويتفاخرون بتزيين بيوتهم بها وقد روى لنا شاعرنا الانطاكي قصة فكهة من هذا القبيل قال ان أحد ماهرة هؤلاء المصورين اهلكه الفقر فاتفق مع امراته على ان يختفي وتذيع هي نبأ موته وتلبس الحداد عليه وما كاد يملن بين الناس نبأ موته حتى أقبل الناس على صورته يتنافسون باقتنائها حتى اغتنت المرأة فظهر المصور بعدئذ وطفق يضحك على اولئك الغواة الذين لم يقبلوا على صناعة يده الا بعد ان سمعوا بموته

وقيل دخل واعظ على هرون الرشيد فقال له حظي فقال يا أمير المؤمنين انك لو صنعت شربة ماء عند عطشك بمكنت تشربها؟ قال بنصف ملكي قال ولو حُبست عنك عند خروجها؟ قال بالنصف الآخر فقال لا يغرنك ملك قيمة نصفه شربة ماء وقيمة النصف الآخر اخراج تلك الشربة من جوفك

ومن هذا القبيل تنافس الناس باثار الاقدمين وبذلهم في سبيلها داعز وما هان مع وجود ما هو اصاح منها واجمل وما ذاك الا لندرتها

ففي العالم المتدين تشتري هذه الاثار بالقناطير المقنطرة من الاموال والولون بالمناخرة فيها وما وقف هذا التنافس عند الافراد بل تعداه الى الحكومات فتراها تبذل الكثير من النفقات للمثمر على قدرة فخار قديمة العبد أو قطعة خشب من آثار من غير الخ ومن امثال قول الشاعر:

ستذكرني اذا جرت غيري وتعلم اني نعم الصديق

وقول الآخر:

سينذكرني قومي اذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

وقالت الامة في أمثالها « لا تعرف خيري حتى تجرب غيري » وكان بعض الحكماء

« انما تعرف قدر النعمة بقياسها على ضدها » فأخذها ابراهيم وقال:

والحادثات اذا أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وقال الشريف الرضي:

ولا بدّ من ذلّة للفقّي تعرّفه كيف قدر النعم

وروي عن أحد الاولياء انه كان يدعو نفسه بالكذاب لبيت قاله وهو:

فليس لي في سواك حظّ فكيف ما شئت فامتحنني

وعلى أثر نظمه هذا البيت رأى نفسه في حاجة الى الخلاء فضجر وقال ما كذبني

وروي مثل ذلك عن عمر بن الفارض القائل :

وبما شئت في هوائك اختبرني فاختياري ما كان فيه رضا كما
فابتلي بحاجة الى الخلاء فجعل يعدو الى مكتب الصبيان متضجراً وهو يقول لهم
ادعوا لعمكم الكذاب وقال بعضهم :

ومن لم يذق للهجر طعماً فإنه اذا ذاق طعم الوصل لم يدر ما الوصل
وقلنا في هذا الباب :

قضيت مع الحبيب دهرًا بغبطة فكدت أملُّ الحب من كثرة الوصل
ولما افترقنا جدد البعد حيناً وبتُّ ولا أرجو سوى مجمع الشمل
فلا خير في حب إذا لم يكن نوى ونيرانه في الصدر دأمة الشعل
وقال شاعرنا الانطاكي :

لم يدر ما الحرمان من ورث الغنى ارثاً وشبَّ منعمًا بالمال
وكذاك لم يدر الهوى من لم يذق كأس البعاد ولوعة الاملال
فمن اغتنى من بعد فقر كان في نعمائه في غبطة وجلال
ومن اکتوى بلظى الجوى بعد النوى يلتذُّ من محبوبه بوصول

وبالاجمال نقول أن النفائس لا تعرف الا بالقياس على اضدادها ولا يدرك كنه النعمة
الا بعد معاناة النعمة والا فالقوز بالملاذ على هينتها مفض للجهل النفوس بقدرها ولذلك
ترى أكثر الناس لا يشكرون الله سبحانه على كثرة النعم التي انعم بها عليهم وما ذاك الا
لانها وصلتهم عفواً ومن غير أن يعانوا مرارة الحرمان منها

وكذلك الناس لا يشكرون الله على نعمائه العامة المشتركة للجميع فلا يشكرونه على
الهواء الذي لولا تنفسه لما اتوا خنقاً ولا على الماء الذي لولا شربه لما اتوا عطشاً ولكن اذا
ابتلي أحدهم بفقد الهواء والماء ولو مرةً بالعمر وكاد يقضى عليه لفقدانها لقدّر قدر
نعمة الله على خلائقه بهما وترطب لسانه بشكر الله كلما شرب نهلة ماء أو استشفق
نسيم هواء وهذا والله غاية في كفر نعمة الله بحيث لا يكون الناس شكورين الا اذا سُلبت
عنهم النعم ثم رُدَّت اليهم على أن النعمة في جميع الاحوال أولى بأن تشكر لتدوم وقد
قيل « بالشكر دوام النعم » ألا ترى البصير لا يشكر الله على صحة بصره الا اذا ابتلي
بالرمد وخاف ان يظلم ضياء عينيه ثم عاد فصيح والصحيح لا يشكر الله على صحته الا
اذا ابتلي بمرض عضال أقعده عن معاطاة الاعمال وخالفه أسير الاوجاع والاسقام . ألا

قُتِلَ الإنسان ما أَكْفَرَهُ (١) وما مثل الذين لا يشكرون الله على نعمائه إلا مثل عبد السوء
حقه أن يُضْرَبَ دائماً حتى إذا ارتفع عنه الضرب ساعة حسب ذلك منة لمولاه فيشكره
أما لو دُئِنَ عنه الضرب لا خذه البطر فاستكبر وما شكر

ومما يؤلم نفوس الذين يدرسون أحوال للناس ما زارهم فيه من التمتع بنعم الله المباحة
للجميع وقل فيهم من يشكره تعالى على نعمائه إلا إذا أصاب مالا كثيراً وجاهاً وفيراً
كانه بحسب أن الخير كله في الجاه والمال وياليت شعري ما ينفع المال والجاه لمن أضع
بصره أو بات عليلاً مقعداً على فراشه ؟

حكى عن روتشد غني اليهود في أوروبا أنه دخل مرة مخبأ خزانة أمواله وكان
ذا أقفال تتسلسل في دهاليز متداخل بعضها في بعض فحدث أن أغلقت الابواب وأقفلت
الاقفال خطأ فمات الرجل جوعاً وهو بين كوم الذهب وقرطيس المال المتراكمة فما أغنته
جميعاً عن نهلة ماء أو كسرة خبز

وحكى أن فقيراً شكوا سوء حاله إلى بصير حكيم فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة
آلاف درهم ؟ فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال لا فقال
أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال لا فقال أيسرك أنك مجنون
ولك ثلاثون ألفاً فقال لا فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض قيمتها
ستون ألف درهم ؟ فاشكر الله على صحة العقل وسلامة الحواس والنظر واجهد لتكسب
رزقك بعرق الجبين

ولسوء الحظ أن الجاهل بنعم الله يكاد يكون عامماً في الناس لا يتنبه إليه إلا القليلون
وقد قال الله تعالى « وقليل من عبادي الشكور » وقد قلنا في ذلك :
لله عن نعمائه الكثير التي أعطاكها كن شاكراً دوماً ذكوراً

(١) نقول من عرف عظمة شيخنا السردار اقدس اطال الله بقاءه وفاز بالمثول بين يديه
الفاه وشكر الله عز وجل ملء فيه فهو يشكره إذا اكل ويشكره إذا شرب ويشكره
كلما يرى نعماءه متجلية عليه فلا غرو إذا أتم الله نعمه على عظمة الأمير وجعله مظهر المجد
العربي والجاه الكثير وقد قلت في ذلك :

رايتك تولى الله شكرك دائماً على النعم الكثير التي فيها ترتع
فلا غرو أن تسي وعيشك وارف وحمدك متلو وقدرك موسع
فان تشكر الرحمن دوماً فانا بشكر معز العرب نصحو ونهجم

ولقد رأيت الناس قد كفروا بنعماءه وقلَّ المؤمن العبد الشكور
« الملal من الوجود »

ومما جُبلت عليه النفس الملal من الوجود مع الرغبة فيه مفقوداً من ذلك المثل العربي
المشهور « ان نكح الحب فسد » وأنشد ابن وكيع :

قالوا عشقت كثيراً كان ممتنعاً فقلت هيهات عنكم غاب مطلبه
لوجدان هان وقلت الجود غايته وانما عز لما عز مطلبه
وقال شاعرنا الانطاكي :

عشقتها وتمنيت البعاد لها خوف الملal من اللقيا بغير نوى
ان الهوى كامن في الصدر حتى اذا ما أنكح الحب قل أضحي الوصال هوا
وحكى أبو بكر الصولي أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها وكانت به أكثر
شغفاً وكانت تتجافاه كثيراً فدس اليها من عرف ما في نفسها فقالت ان واصلته يملسني
ويهجري أموت فأنا أمنع نفسي بعض لذتها لا عيش في البعض الاخر فقال المهدي :

ظفرت بالقلب مني عادةً مثل الهلال
كلما قد صحَّ حبِّي قابله باعتلال
لا تحب الهجر مني والتناي عن وصالي
بل تسوم البعد عني للهوى خوف الملal

وقلنا في مثل هذا :

سألتها الوصل وهي بي مدلهمة تخفي الغرام وتبدي صدها تها
فقلت حتى متى هذا الجفا وأنا أراك تخفين ما في القلب تمويها
قالت أخاف بأن يدعو الوصال الى امال من في جفاها راغب فيها
ومما جُبلت عليه النفوس أيضاً الملal من الشيء لكثرة ومنه قيل « كثرة التعاهد
تدعو الى التباعد وقلة الزيارة أمان من الملالة » وقال الشاعر :

اني كثرت عليه في زيارته فقل والشيء مملوء اذا كثرا
ورابني منه اني لا أزال أرى في طرفه قصراً عني اذا نظرا
وقال آخر :

أقلل زيارتك الحبيب تكون كالثوب استجدّه
ان الصديق يمل من أن لا يزال يراك عنده

وكان للبخاري وهو أبو السعادات صاحب انقطع عنه فعاتبه بكتاب رقيق فأجابه صاحبه بهذين البيتين :

لا تزر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون اليه

وقال ابن الوردي :

غيب وزر غيباً تزد حباً فمن أكثر الترداد أضناه الممل

وقال شاعرنا الانطاكي :

أقلل زيارتك الحبيب مخافة من أن تمل ولا تطل حبيباً
يكفيك يوم كل شهر ان أردت بأن تكون الراغب المرغوباً
أو لم تجد يوم الهلال تحفه الا انظار ثم تعافه ليؤوباً

وقلنا في هذا المعنى :

لا تزر مكثراً تسأل فتشقي انما مكثرت الزيارات يزي

غيب وزر غيباً فتزداد حباً عند أهل النهى وتعتز قدرا

ومما جُلبت عليه النفوس أيضاً الملال من شدة القرب والسر في ذلك أن البعد موجب للعزة والمحبة والقرب مفض الى الهوان والملال من قبيل الاستمرار قل أكرم ابن صيفي : (تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة) ومن أمثال العرب : (الهوى من النوى) يعني أن البعد يورث الهوى ومنه يتولد فان الانسان اذا كان مبتذل لدى اخوانه وأصدقائه هان عليهم فلو له ولو كان ممن يرغب فيه ولذلك قيل (اغترب تتجدد) وفي الامثال (رب ثاور يمل منه الثواء) وقيل لعطاء بن مصعب كيف تغلبت على البرامكة وكان عندهم من هو أوفر منك أدباً قال كنت بميد الدار منهم غريب الاسم عظيم الكبر صغير الجرم كثير النوى فقر بني اليهم تباعدي عنهم ورغبهم بي رغبتهم وليس للغرباء ظرافة القرباء وفي ذلك قلنا :

اذا رمت ان تسي حبيباً معزراً فأبعد عن الاحباب حيناً وواصل

فان الذي يلقي أحبته بلا نوى وهو ثاور بينهم غير راحل

يهون عليهم قدره ولقاؤه وينزل منهم مريعاً غير أهل

ومما جُلبت عليه النفوس الملال من طول العبد والمعاشرة قال زهير :

اعمرك والامور مخبترات وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مظهر أم أوفى ولكن أم أوفى لا تبالي
وروى بعضهم أنه خاصم زوجته وعزم على طلاقها فقالت له اذكر طول الصبغة
فقال والله مالك ذنب سوى ذلك

وقيل لرجل لماذا تكثر من الزواج والطلاق والزوجة الاولى اذا كثرت معاشرتها
كالمصاحب لا يفارق؟ فقال نعم ولكن ان النفس بشهوتها شهت بالكلب والكلب لا يطعم
الا بأخذ الخريب على انه يزهد بالمصاحب والصديق ومن هنا قيل السقنقور هو
المرأة الغريبة

وقيل في الامثال (لسلّ جديد لذة غير اني) ولما حضرت الحطيئة الوفاة اكتبته أهله
وبنو عمه فقيل له أوص فقال اخبروا أهل ضائي بن الحرث أنه كان شاعراً مقلماً
حيث يقول :

لسلّ جديد لذة غير اني وجدت جديد الموت غير لذيذ
وقال بعض العقلاء :

اذا تحدثت في قوم لتؤنسهم من الحديث بما يمضي وما يأتي
فلا تعاود حديثاً أن طبعهم موكل بمعادات المعادات
وقال شاعرنا الانطاكي :

دع من تحب ولو كرهت هنيئة تشنقه وتروم عود لقائه
فاعلمه يوماً يمل ثواك ان تصبر ولم تزهد بطول ثوائه
وقلنا في هذا المعنى :

أقلل زيارات الأحبة خوف أن تلقى بمجلس من تحب هوانا
وأطل ثواك بقعر بيتك تاركاً من قد هويت الى اللقاء وهانا
« الدفع والجذب »

واعلم زادك الله علماً ان لسلّ نفس قوتين احدها جاذبة والاخرى دافعة وكل
منهما تعمل عملها باضطراد ولولا ان الله تعالى أناط بالقوة الدافعة اظهار ما عندها لما
أتاك بالاخبار من لم تزود وهذا هو السبب في افشاء الاسرار وأما القوة الجاذبة
فظاهرة من رغبة الانسان بمنافع نفسه وجذب الخير اليه وهو ما يسمى الانانية أو
محبة الذات وقد نقل صاحب مجمع الامثال أن يزيد بن مروان ضاع له جمل فأمر المنادي
أن ينادي بأن من لقيه فهو حلال له فقيل له فما الفائدة اذن من النداء؟ فقال : لذمة

الوجدان وحلاوة العطية وإراحة البال

ونقل عن حماد الراوية قال كنت محباً للوليد بن عبد الملك فلما تولّى أخوه يزيد الخلافة هربت خوفاً منه إلى الكوفة ومكثت فيها فبينما أنا ذات يوم في المسجد الأعظم واذ برسول محمد بن يوسف الثقفي يدعوني إليه فأسرعت ودخلت عليه فقال لي أجب الخليفة ودفع لي كيساً فيه ألف دينار وقال لي هذه نفقة عيالك وفي الباب جوادان نحيبان أرسلهما يزيد لركوبك فركبت في طريق الشام إلى أن بلغت دمشق في اليوم الثامن وأسرعت إلى دار الخلافة وأنبت الحاجب باسمي فاستأذن لي فأذن ودخلت على الخليفة فاذا هو جالس في دار مبلاة بالرخام الأحمر وفيها سراق خزٍ أحمر وسط قبة حمراء من خزٍ أحمر أيضاً وأثاثها ورياشها وكل ما فيها أحمر اللون وكان على رأسه جاريّتان مرتديتان ثياباً حمراء ويبد أحدهما ابريق فيه نبيذ أحمر ويبد الأخرى ابريق فيه نبيذ أبيض فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فرد عليّ السلام وقال لي ادن مني يا حماد أدري فيما بعثت إليك ؟ قلت لا يا أمير المؤمنين قال في بيت شعر ذهب عني أوله قلت من أي عروض ومن أي قافية ؟ قال لأدري إلا أنه بيت فيه لفظة ابريق فقلت في نفسي ان لم تغن الرواية يوماً فالآن وقتها وطفقت أعمل فكري نحو ساعة ثم قلت نعم يا أمير المؤمنين لعله قول التبّع اليماني أو عدي بن زيد العبادي وهو :

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابن بنت عبيد الله والقلب عندك مرهوق
لست أدري إذ يكثّر العذل فيها أعدو يلومني أو صديق
ودعوا بالصباح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينه وشرب وقال يا جارية اسقيه فسقتني فقلت يا أمير المؤمنين ذهب ثلثا عقلي فقال سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر فقلت إحدى هاتين الجاريتين فقال هما لك بما لهما وما ليهما وهمة ألف دينار تحسن بها حالك ثم ناولتني الجارية كأساً فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلي فدخلت بي إلى دار الضيافة فانتبهت في آخر الليل وإذا بشمع يوقد والجاريّتان ترصان أمتعتهما والبغال تحمل ما لهما من أثاث وغيره ولما أصبحت قبضت المال وانصرفت وأنا أسير أهل الكوفة (١)

(١) أقول كنّا مرّة في خدمة مولانا الشيخ خزل خان روهي فداه في مجلس أدب وعلم من مجالس عظمت المشهورة وبين يديه طائفة من الشعراء والادباء والعلماء

أقول انظر أيها الأديب إلى هذه الأريحية العربية وما هي الأثمة ما ذكرناه من لذة الوجدان وما تترك من عظيم الأثر في النفس

ثم أعلم أن رواج سوق الأدب على حسب ملائمة الطبع وطبائع ملوك العرب وامرائهم عالية تهتز للأدب وتتأثر فيه تأثر النفوس الطربة بالانعام الشجية

وتلذذ النفس بوجدان الشيء على قدر احتياجها اليه والانسان كلما كثر جوعه كان التناذه بالطعام أتم وكلما كثر ظمأه كان التناذه بالشراب أكمل ألا ترى ان الانسان اذا كان في الهاجرة وقد اشتد عليه الحر ثم هبّ النسيم عليه لم يلا ووجد من هبوبه لذة ما عهد مثلها في أيام الشتاء الباردة وما ذلك الا من شدة حاجته الى البرودة وترى الفقير يستلذّ خبز الشعير ويمتّع منه أشدّ من لذة الغني وهو يتمتع بطيبات الطعام

فتتفاوت اللذات باختلاف التمتع بها بالنسبة الى الحرمان والنيل أو القدرة والعجز

من أهل النجف الاشرف وسائر العراق فروى لنا عظمتهم هذه القصة ثم قال هكذا كان الملوك والامراء يصلون أهل الأدب والعلم بالمال الكثير والخير الوفير فلا غرو اذا ازهرت دولة الأدب في عهدهم أما الان فإين الذين يمتنون بالأدب والادباء ويعطون على بيت من الشعر مثل هذا العطاء؟ وأنشد:

أولئك آباي فخيني بمأثم اذا جمعنا يا جبرير المجامع

فصاح من في المجلس بلسان واحد عفواً أيها الملك المنعدي فقد جدّدت دولتهم بدولتك وأحييت مجدهم بمجديك وأنت الذي تصل الشعراء وتبذل الادباء وتسعف العلماء فيحتجون اليك من كل صوب وحذب وعندك يحمد القوم السرى أقول: أما أنا وأنا أكثر الناس علماً بفضل عظمة مولانا المعز فقد أنشدت في الحضرة مرتجلاً:

أباجاسب ما دمت مظهر مجدنا	وسؤددنا انا بك الدهر نفخر
فليس لنا نبكي زماناً قد انقضى	ومعه انقضى ذاك الجلال المدثر
فأنت الذي أحييت مجداً لي عرب	وهيهات ما قد فات للدهر ينشر
وعنك روايات المكارم والندى	مع الحمد والشكر ان تروى فتشكر
فأي نثار عند فخرك يؤثر	وأي جلال عند جاهك يذكّر
فان كان قد أعطى يزيد لشاعر	عطاءً كثيراً فضله ليس ينكر
فما كان الا دون فضلك فضله	وان عطاياك العميمة أكثر
وما عرف الاعراب مثلك محسناً	جواداً لمنظوم المواهب ينثر

وقالت العرب في أمثالها (والجوع يرضي الاسد بالحيف)
وتعجبني قصة اتفقت لبعضهم مع أحد المترفين والمترفين بطريق كربلاء قال الراوي
قصدت زيارة سيدنا الحسين عليه السلام مع جملة من الاخوان مشاة فنزلنا يوماً ماضياً
على بعض الاعراب فقدم لنا صاحب البيت خبزاً من دخن على ما هي عادتهم فأكل
الجميع الاي اذ لم آكل عمري من ذلك الخبز ولا رأيته قبل ذلك اليوم الا اني بعد قليل
اشتد بي الجوع فصرت أتمنى أن يعود الضيف الينا بنخبز الاسود وقلت لرجل كان
بحواري لو حصل لي من ذاك الخبز كسرة لاكلتها شاكرًا وكان صاحبي هذا قد استدرك
ما فاتني فخبأ لي كسرة من الخبز حتى اذا ما أنبأته بندمي على الاستكبار عن مناولة ذلك
الخبز الاسود تبسم وأخرج لي كسرة الخبزة فأكلتها بسرور ونهم لم أشعر بهما منذ سنين
وأشبه هذه الاحاديث كثيرة يعرفها كل من ركب متن الاسفار واجتاز القيا في القفار
ومن مثل هذه الحوادث قال العرب في أمثالهم « خير الادام الجوع »

الروضة الثانية

في القوة الغضبية وما يتفرع عنها من الطباع النفسية

« توطئة »

ألم ان الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضاً للفساد والموت افتقر هذا الحيوان الضيف
الى قوة وحمة تدفعه من باطنه فيدفعان المهلكات عنه وهكذا كانت طبيعة الغضب
النارية غريزية في الانسان معجونة بطبيعته فتقضي ما صدر عن غرض من اغراضه
أو قصد من مقاصده اشتعلت نار الغضب في صدره وثارت به ثوراناً يغلي به دم القلب
وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار أو كما يرتفع الماء الذي
يغلي في القدر فلذلك ينصب في الوجه فيحمر الوجه وتتقد به العينان وانما ينبسط
الدم في الانسان الغاضب على من دونه المستشعر بالقدرة عليه فان كان غاضباً على من
فرقه وكان ما يؤسأ من الانتقام تولد فيه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف
القلب وتحول الغضب به الى حزن ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير
مشاكل يشك في التغلب عليه تردد الدم بين الانقباض والانبساط فيحمر الغاضب
مرة ويصفر أخرى ويضطرب اضطراباً مقلقاً وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب

ومعناها غليان دم القلب بطالب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورتها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها والانتقام فوق هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به

ثم ان الناس بفطرتهم على درجات ثلاث في القوة الغضبية وهي التفريط والافراط والاعتدال اما التفريط فيفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم ويقال لصاحبه لاهمية عنده ولذلك قال بعض الحكماء : (من استغضب فلم يغضب فهو حمار) وبالاجمال نقول من فقد قوة الغضب والحمية بطبعه كان ناقصاً جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله بالشدّة والحمية فقال (أشدّاء على الكفار رحماء بينهم) وقال لنبيه صلى الله عليه وآله (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) الآية وانما الغلظة والشدّة من آثار قوة الغضب والحمية

واما الافراط فهو أن تغلب طبيعة الغضب على الانسان حتى تخرج به عن سياسة العقل والدين ولا يبقى له معها بصيرة ونظر وفكرة واختيار بل ويصبح في صورة المضطرب المغلوب على أمره وسبب غلبته هذه أمور غريزية وأمور اعتيادية فربّ انسان كان بطبعه الغريزي مستعداً لسرعة الغضب حتى كأن صورته بالفطرة صورة الغاضب ويزيد في سرعة غضبه حرارة مزاج قلبه لان الغضب من النار كما قال النبي صلى الله عليه وآله وانما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته ويزداد هذا الغضب غضباً بعشرته قوماً يتشجعون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المكر والحال ولا احمل من أحد أمراً ومعنى قوله هذا لا يفسر بأكثر من الجنون (والجنون فنون) كما يقول العرب ثم يذكره في معرض الفخر بحمله فمن سمعه رشح في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بهؤلاء القوم المجانين والطباع سرّاقة فيقوى فيه

والناس على اختلاف في الغضب فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الحمد وبعضهم كالغضى بطيء الوقود بطيء الحمد وبعضهم بطيء الوقود بطيء الحمد وهو الأحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود بطيء الحمد وهذا هو شرهم بالاجماع بل هذا هو المجنون الواجب تجافيه والبعد عن تصافيه وفي الخبر (المؤمن سريع الغضب سريع الرضى)

وربما يشتد الغضب في بعض الناس فيتعدى الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بها وتسمود بنظره الدنيا بأسرها وربما تتوى نار الغضب في صدره فتنفني

الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق
وتنهذ أعاليه على أسفله وذلك لا بطل النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة
لاجزائه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغيير اللون وشدة الرعدة في الاطراف
وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد
على الاشداق وتحمر الاحداق وتصلب الاظافر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان
نفسه في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من نفسه واستحالة خلقته
وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن
أولاً ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانياً فتغير الظاهر هو ثمرة تغير الباطن
هذا أثر الغضب في الجسد وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام
الذي يستحي منه ذوالعقل ويستحي منه قائله عند فتور غضبه وذلك مع تحبط النظم
واضطراب اللفظ

وأما أثره على الاعضاء فالضرب والهجم والتمزيق والجرح ثم القتل عند التمكن
من غير مبالاة بالعواقب فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز الغاضب عن
التشفي رجع غاضباً على نفسه في زق ثوبه ويلطم نفسه وقد يلطم برجله الارض وييده
الحائط وقد يكسر المائدة اذا غضب على الطاهي أو يشتم البهيمة والجمادات كأنه يخاطب
عاقلاً حتى ربما اذا رفسته دابة يرفسها وربما عض القفل اذا تعسر عليه فتحه وربما
كسر القلم اذا تعلقت به شعرة من الدواة ولم تزل لساعتها وبالاختصار مثل هذا والمجنون
سواء وفي ذلك قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به الا الحماقة أعت من يداويها

حكى عن أحد ملوك اليونان الاقدمين انه كان يغضب على البحر اذا هاج واضطرب
وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه فيقسم بمعبوده وآلهته وكل عزيز ليطرحن الجبال فيه
حتى يصير أرضاً ويقف بنفسه على البحر ويهدده بذلك ويزجره زجراً عنيفاً حتى
تدرأ أوداجه ويشد احمرار وجهه فهل مثل هذا الملك الغضوب يصح أن يحصى بين العقلاء
ومهم من لا يسكن غضبه حتى يُصب على راسه ماء بارد يربط ثوران الدم المنصب
من قلبه الى دماغه فيهدأ نأثره

واذا اردنا ان نحصى الاضرار التي تنجم عن الغضب لضاق بنا المقام فكم من حق
ضاع لغضب صاحبه وكم من عزّة ضاعت بغضبه من صاحبها وقد قال الشاعر :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب
أما الألى يتأثرون بغضب الغاضب من المغضوب عليهم فهو لاء يضمررون لاولئك
الناضيين حقدًا وحسدًا واضمار السوء مع الشماتة بالمسآت والحزن بالسرور والعزم
على افشاء الاسرار وهتكها والاستهزاء بالناس ان غابوا وبالاجمال فان الكثير الغضب
قليل محبوه كثير أعداؤه

وأما الاسباب المهيبة للغضب فهي الزهو والعجب والمزاح والهزاء والهزل والتعير
والمهارة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه الخ
« الحقد »

اعلم ان الغضب اذا لزم كظمه بسبب عجز الغاضب عن التشفي في الحال رجع الغضب الى
باطنه واحتقن فيه فصار حقدًا ومعنى الحقد ان يلزم قلب المبعض استئصال المبعوض والبغضة
له والنفاق عله وأن يدوم ذلك ويبقى فالحقد ثمرة الغضب
وأما ثمرات الحقد ثمانية وهي الهجران والمصارمة والاستصغار والاعراض
والايذاء باللسان كالغيبة والنميمة والكذب وافشاء السر والايذاء باليد كالضرب وما
يؤلم البدن ومنع الحقوق من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظالمه والحسد والشماتة
فهذه ثمان ثمرات للحقد والذي يتعلق بغرضنا منها ذكر الحقد والشماتة لان المورد
مورد الاخلاق

وأما الفرق بين الحسد والشماتة فان الحسد هو المساءة بمسار الغير والشماتة السرور
بمسائته وقد أشار اليهما القرآن الشريف بقوله « ان تمسككم حسنة تسوءهم وان تصبكم
سيئة يفرحوا بها » وهذا الفرع شماتة وذلك السوء حسد
والحسد والشماتة يتلازمان على الغالب وقد يفترقان فيكون بعضهم قليل الشماتة
كثير الحسد وبالعكس

والشماتة خلق غير يزي في النفوس لا يخلو منه أحد الا من نزهه الله تعالى من أوليائه
والشماتة كما تقع بالمسآت الكلية تقع أيضاً بالمسآت الجزئية من ذلك نكتة ظريفة لسكران
قيل ان سكراناً مرّ بمؤذن رديء الحنجرة قيسح الصوت فجلد به الارض وجعل
يدوسه برجليه فاجتمع عليه الناس وسألوه عن سر غضبه على مؤذنه فقال والله ما
كنت لا بألي برداءه صوته لولا خوفاً من شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين
ومن الامثال « مصائب قوم عند قوم فوائد » ويقال ان أهل الجنة ليمتضاعف

فرحهم بما يروونه من آلام أهل النار ويعدون ذلك نعمة عليهم
وأما الحسد فهو خلق اكتسابي مصدره الانانية وحب الذات بحيث يتمنى الانسان
النعمة لنفسه فيسوءه ان يراها على سواه

ولاحد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وهو خلق لازم لكل نفس بشرية
ولقد سأل أحدهم بعض العلماء هل يحسد المؤمن؟ فقال ما أنساك بني يعقوب ثم تلا قوله
تعالى «اذ قال يوسف وأخوه أحب الى أينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين
اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم» وأنت ترى من هذه الآية أن
بني يعقوب حسدوا أخاهم يوسف لحب أبيهم له فمكروا له ما مكروا والله لا يهدي كيد
المالكين

وأعلم أنه لا حسد الا على نعمة فاذا أنعم الله على أحد بنعمة فلاغير فيه حالتان أما
أن يكره تلك النعمة ويحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً والحالة الثانية أن لا يحب
زوالها ولا يكره وجودها ودوامها ولكن يشتهي لنفسه مثلاً وهذه الحالة تسمى غبطة
وقد يطلق عليها اسم المنافسة غلطاً لان المنافسة هي التزاحم على النعمة وتعني مثلاً
فهذه هي حقيقة الحسد والفرق بينه وبين الغبطة كالفرق بين الخير والشر فتأمل
وقد يكون الحسد منبعثاً عن الحقد والعداوة فيكون عارضاً على نفس صاحبه لان
الانسان بالطبع اذا كان يكره انساناً أو يحقد عليه أو بينهما عداوة يسوءه أن يرى عدوه
بنعمة فيتمنى زوالها وقد يكون الحسد طبعاً بالنفس ألا ترى كثيرين يحسدون ذوي
النعم حتى ولو كانوا لا يعرفونهم ويسوءهم ما يسر الناس ويسرهم ما يسوءهم وإلى مثل
هؤلاء أشار الله تعالى بقوله «ان تمسك حسنة تسوءهم» وقوله سبحانه أيضاً «ود كثير
من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم» الآية
واعلم أن الانسان في الحسد مراتب منها أن يودّ انتقال نعمة غيره إليه من قبيل
التغالي في حب النفس كرهته في دار حسنة أو جارية رائعة الجمال أو ولاية نافذة
أو ثروة واسعة الخ ومطلوبه في الاصل نوال تلك النعمة لا زوالها عن غيره فيقول
ليتها لي وهذه المرتبة أدنى مراتب الحسد

ومنها أن يحبّ زوال النعمة عن غيره وان كانت لا تنتقل إليه وهذا غاية الحبث
ومنتهى اللؤم قال صاحب كتاب الادب في نكت العرب «اجتمع ثلاثة نفر من
المهدودين في الحسد فقال أحدهم لصاحبه ما بانع من حسدك قال ما اشتبهت أن أفعل

لأحد خيراً قط حسداً له فقال الثاني أنت رجل صالح أنا ما اشتبهت أن يفعل لي خير قط حسداً لنفسه فقال الثالث كلا كما صالحان أما أنا فما اشتبهت أن تبقى نعمة على أحد حسداً له فاعترف الاثنان انه شررها

وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة في الحسد فقال رجل منهم ان الناس ربما حسدوا على الصلب فانكروا عليه ذلك فسكت ثم جاءهم بعد أيام فقال ان الخليفة قد أمر بصلب الاحنف ومالك بن مسمع وحمدان الحجام فقالوا يا لله كيف هذا الحديث حمدان يصلب مع هذين الرئيسين فضحك وقال ألم أقل لكم ان الناس يحسدون حتى على الصلب قال المأمون ما حسدت أحداً قط كحسدي لابي دلف على قول الشاعر فيه :

انما الدنيا أبو دلف
بين يديه ومحتضره
فاذا ولي أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

وروى أبو الفرج الاصبهاني عن عبدوس بن أبي دلف قال حدثني أبي قال قال لي المأمون يا قاسم أنت الذي يقول فيك علي بن جبلة انما الدنيا أبو دلف الى آخر البيتين فقلت مسرعاً وما ينفعني قوله يا أمير المؤمنين مع قوله :

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم
سواي فاني في مدحك أكذب
ومع قول بكر بن البطاح في :

أبا دلف ان الفقير بيته
أرى لك باباً مغلقاً متمحاً
كأنك طبل هائل الصوت معجب
من يرتجي جدي يدريك ويأمله
اذا فتحوه عنك فالناس داخله
خلياً من الخيرات تعساً مدخله

قال فلما انصرف قال المأمون لمن حوله لله دره حفظ هجاء نفسه حتى انتفع به عندي واطفاً لهيب المنافسة

والحسد أسباب كثيرة تزيد على ثمانية فلنشرح بعضاً منها وهو ماله مدخل في المورد فمن أسبابه العداوة والبغضاء وهو أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرضه بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فان عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه ممن يبغضه أحب أن يتشفى منه الزمان وربما أحال ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنّها مكافأة له من جهة الله تعالى على بغضه لذلك الشخص وانما لاجله ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه كان ضد ارادته وربما يخطر

له انه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه
وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقى أن لا يبغى وأن
يكره ذلك من نفسه فاما أن يبغض أحدهم انساناً ثم تستوي عنده مسرته ومساوئته فهذا
غير ممكن وهذا مما وصف الله الكفار به أعني الحسد بالعداوة اذ قال تعالى « واذا
لقوكم قالوا آمنا واذخلوا اعضاءكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عالم
بذات الصدور وان تمسك حسنة تسوهم » الآية وكذلك قال تعالى « ودوا ما عنكم
قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » الآية

والحسد بسبب البغض ربما يفضي الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في ازالة
النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر وما يجري مجراه

ومن أسباب الحسد استشعار النفس بفوت مقاصدها وذاك يختص بالمتزاحمين على
مطلب واحد فان كلا منهما يحسد صاحبه على كل نعمة توصله الى مقصوده دونه ومن
هذا الجنس تحاسد الضرائر على مقاصد الزوجية وتزاحم الاخوة على نيل المرتبة الاولى
في قلوب الآباء والامهات للتوصل الى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلامذة
على نيل الانضلية من قلوب أساتذتهم وتحاسد ندماء الملك ورجال بطاقته على نيل
الحلوى برضاه توصلوا الى المال والجاه الخ وهذا شأن الغوم المتناظرين في كل فن
ومطلب اذ كل واحد منهم يريد المنفعة لنفسه ولهذا السبب قيل القاص لا يحب القاص
وقيل لبعض العقلاء ما بال فلان يبغضك قال لانه شقيقي بالنسب وشريكي في الصنائة
وجاري في البلد فذكر بجوابه هذا أشد دواعي الحسد

ومن أسباب الحسد خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد كثيراً
من الناس اذا وصف عند واحد منهم حسن حال آخر أنعم الله عليه ببعض نعمه شق
ذلك عليه حتى ولو كان لا يعرفه ولا يتضرر من الخير الذي هو فيه واذا وصف له
اضطراب أمور بعض الناس وادبارهم في دنياهم وفوات مناصدهم وتفرغ عيشهم فرح
به فهو أبداً يحب الادبار لغيره ولو لم ينله من وراء ذلك تنعم ويبخل بنعم الله على عباده
كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه وهذا ليس له سبب ظاهر الا خبث في النفس
ولؤم في الطبع وما أحسن ما قيل في هذا الباب :

ان يحسدوك على علاك فانما متسافل الدرجات يحسد من علا
وقال شاعرنا الانطاكى في الحسد :

على م يحسد الحساد مثلي ولا خير لهم مني وشرهم
 ألوم الطبع يحجهم حزاني على ما فيه من دهري أسرى
 والحسد كما قلنا لا يكون الا على نعمة قال النبي صلى الله عليه وآله (استعينوا على
 قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود) وقال صلى الله عليه وآله (ان
 لكل نعمة أعداء) فقل ومن هم يارسول الله؟ قال (الذين يحسدون الناس على ما آتاهم
 الله من فضله)

« حسد الاقربين والمتناظرين »

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التي ذكرناها وانما يتقوى
 بالاكثر في صدور قوم تجمعهم روابط القربى أو التناظر على المنفعة لكثرة اجتماعهم
 في مجالس المحادثات والمناظرات فاذا حالف أحدهم صاحبه في غرض من الأغراض
 وأسباب الخلاف كثيرة - نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه فمد ذلك يريد
 احتقاره ومجازاته بالسوء على مخالفته له بغرضه ويكره تمكنه من النعمة التي توصله الى
 أغراضه وهذا قلما يكون بين القوم الذين ليس بينهم مناصرة أو مجاورة أو قرابة إذ
 لا رابطة بين شخصين في بلدين متباينتين أو في مصالحتين مختلفتين أو ليس بينهما قربي
 تكثر من اجتماعهما في أمورهما ومقاصدهما

وعلى هذا فان المتناظرين أو ذوي القربى تكثر في صدورهم ثائرة التناغص والتنافر
 والتباغض ومنه تكثر بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد
 والعابد يحسد العابد دون الصانع والتاجر وهلم جرا ويحسد الرجل أخاه أو ابن عمه
 أكثر مما يحسد الغريب والمرأة تحسد زوجها أكثر مما تحسد أم زوجها أو غيرها من
 النساء والسر في ذلك كله هو المزاخمة على المنافع والأمر بدبي لا يحتاج الى زيادة
 بيان ومنشأ جميع ذلك هو حب الدنيا فان الدنيا هي التي تضيق في وجوه المتزاحمين
 فيتحاسدون أما الآخرة فلا تضيق فيها ولا تزاحم وانما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم
 من يحب معرفة الله تعالى ورسوله وأهل بيت رسوله لم يحسد غيره اذا عرف ذلك
 أيضاً لان المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف عالم ويفرحون
 بمعرفته جميعاً ويلتذون به وتنشج صدورهم فيه ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره بل
 بالعكس تزداد فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ما دام مقصدهم معرفة الله تعالى
 وهي بحر خضم واسع لا تضيق فيه وبغيتهم المنزلة عند الله تعالى وهي تسع الجميع الا

إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال أعيان وأجسام اذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف بالطبع عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لاحالة فيكون ذلك سبباً لحسده والفرق بين العلم والمال ان المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلب معلمه فان فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين « ونزعنا ما في صدورهم من غل » اخواناً على سرر متقابلين « فهم اخوان بغير تحاسد كما عرفت أنه لا حسد الا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة السموات وجنان الارض وما يقع تحت أنظارهم من بدائع الطبيعة لان ليس في ذلك اختصاص وانما يتحاسدون على ما يمكن فيه الاختصاص فعليك أيها القاري الكريم ان كنت بصيراً أن تطلب نعمة لازمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله تعالى فان كنت لا تشاق الى معرفة الله ولم تذق لذتها فانت في ذلك معذور لان الاعمى لا يدرك وهج النور نقول وقد تمثلنا هذا بالعلماء دون غيرهم لما نعلم من أنهم يجب أن يكونوا أبعد الناس عن التحاسد

هذا وقد يكون الحسد منها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال أبو تمام الطائي :
 وإذا أراد الله نشر فضيلة طريت أتاح لها لسان حسود
 لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
 لولا التخيوف للعراقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود
 وقيل كان واضط في بغداد كثير التبول عند الناس فحسده بعض الوعاظ وأرسل اليه رجلاً وهو على كرسيه نأسر اليه بما يكره من فحش القول ظناً منه انه يقابله بلأمل قدسقط كرامته من عيون السامعين أما الوعاظ فتبسم وقال ما أحوج الذي أرسلاك الى الحلم قبل العلم ولم يزد على ذلك فازدادت بجوابه هذا منزلته رفعة عند الناس ومثل هذا ما نقله بعض الثقة من أن رجلاً من العلويين من أهل النجف الأشرف وفد على الميرزا حسين قلي خان المروفي بأبي غداره فاعطاه خمسمائة درهما فحسده بعض الحاضرين من الوافدين وقال للميرزا ان هذا السيد لا يستحق ما أعطيته لانه يشرب الخمر فقال ياسبحان الله ما علمت بذلك اذن هذا يحتاج الى أكثر مما أعطيناه

فلا تكفيه الخمسمائة ثم أمر له بخمسمائة أخرى فكان الحسد موجباً لزيادة عطائه (١)

(١) أورد عظمة مولاي السرदार أقدم هذه الرواية عن صاحبه أبي غداره حسين قلي خان بنفس تطهرت من رجاسات الحسد مع انه حفظه الله أتى كثيراً من أمثاله وأبي أن يذكرها عن نفسه تواضعاً وهي خطته العليا في سياسته مع عبيده الملتفين حوله المتناظرين في خدمته المتنافسين على نيل رضاه فكما قرر اعزّه الله في المتن من تحاسد المتناظرين حول الملك فإن حاشية سموه الواسعة لم تتسكب عن هذه القاعدة ولكن التحاسد في حاشيته أقل بكثير من التحاسد في حواشي الملوك الآخرين والفضل في ذلك لعظمته حفظه الله فإنه من جملة المميزات التي تفرّد بها على ملوك هذا العصر انه لا يترك مجالاً لتحاسد حاشيته وتنافسها لاهماله كل ما يسمعه من بعضها ضد البعض الآخر

وقيل لعظمته يوماً وكنت بحضرته ان خادمك فلان (وسماه) أصبح اليوم بفضلك غنياً واسع الثروة حتى تبلغ أملاكه ونقوده نصف ومئة ألف من الليرات فقال عظمته حفظه الله ولم لا يصبح كذلك وهو أمين في خدمتي؟ وهذا الجواب الملوكي وحده يكفي لحذل ذلك الحاسد المعرّض بخادم أمين لافضل المحسنين عظمة الشيخ خزل خان وقيل لعظمته مرة ان خادمك فلان يتمتع بأموالك في بلد كذا وينفق عن سعة فضحك عظمته وقال سأزيده من نعمتي لاني أحب من اتباعي ان تظهر عليهم نعمتي كما يحب الله من عبده أن تظهر نعمته عليه وكان هذا الجواب أيضاً رادعاً لذلك الحاسد اللئيم خزاه الله

وقيل لعظمته في مجلس ان عبدك فلاناً قال لي كيت وكيت تعريضاً برفيع قدرك فعبس لا كدّره الله وقال ان كلامك هذا هو العيب الذي أنبى سماعه فعبيدي الذي تعنيه أخلص لي منك وأنا أوفر ثقة فيه وهكذا تصاغر بنفسه ذلك الحاسد النمام ولم يعد الى مثل هذه الدسائس التي لا يأتيها غير اللئام

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ومأثورة عن عظمة مولانا معز السلطنة ولذلك ترى جميع حاشيته مطمئنة على مستقبلها في خدمته اذ لا تخاف وشاية حاسد أو نعمة حقوق ولذلك لا تعجب اذا قلت لك أن جميع أفراد الحاشية مخلصون لعرش مليكهم المقدس ويتمنون لو يضيف الله من أعمارهم الى عمره السعيد ليعيش الخلود فأين عظمة وليّ النعم المرّ دار أقدم بمكارم أخلاقه وسعة صدره من أولئك

« حب المائلة »

ومما جُبلت عليه النفوس حب المائلة والمشاكلية أي المرء يجب دائماً أن يساوي غيره في السراء إذا لم يستطع أن يفضله كما يحب أيضاً أن يماثله غيره في الضراء وهذا نوع من أنواع الحسد والمنافسة واليه أشار القرآن الشريف إذ قال تعالى (ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) وقوله تعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً) الآية وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال (ما زلت مظلوماً إذ كنت صبياً إذ كان عقيل ليرمد فكان يقول لا تذرّوني حتى تذرّوا أخي علياً فأضطجع وما بي رمد) ومن هذا قال بعض العلماء من آفات البذل والعطاء أن إيصال الخير إلى الكل محال فلا بد من إيصاله إلى البعض دون البعض فيفضي ذلك إلى العداوة لأن المحروم يقول في نفسه لماذا منع فلان الحسن عني خيره وأوصله إلى فلان وهكذا تقوم له في نفسه عداوة) وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

عدوّك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما يراه يكون من الطعام أو الشراب

وذكر ابن خلدون في تاريخه أن تاجراً أدخل مدينة الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ومعه حمل من الخمر السود فكسدت عليه ولم يجد لها طالباً فضاقت صدره فقيل له ما ينفعها لك إلا مسكين الدارمي وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالخلاعة والظرف فقصده فوجده قد تنزه وانقطع في المسجد فقص عليه قصته فقال وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت على العبادة فقال التاجر ولكي غريب وليس لي بضاعة سوى هذه الخمر ثم تضرع إليه فخرج مسكين من المسجد ولبس لباسه الأول ونظم بيتين وأذاعهما وهما :

قل للمليحة في الحمار الأسود ماذا صنعت بزاهد متعبّد

قد كان شمّر للصلاة رداءه حتى وقفت له بباب المسجد (١)

فشاع بين الناس أن مسكين الدارمي قد رجع إلى ما كان عليه بغواية كهوب مرت

الملوك الذين يصغون للحساد والوشاة فينكسون بالآبرياء ويقصون الخالصين الأوفياء فلا يخلص لعرشهم عبد ولا يصدق في خدمتهم خادم لعالمهم أنهم في كل ساعة معرضون لغضب المليك بوشاية حسود ولذلك قيل في الأمثال « مجاور السلطان كمجاور الأسد » هذا بعض مميزات عظمة شيخنا السردار اقدس حيّاه الله وبيّاه وجعلنا فداه

(١) كنّا مرة في مجلس عظمة الأمير السردار اقدس الشيخ خزن علي خان في القيلية

عليه وهو في المسجد وكانت لابسة خمار أسود فلما سمعت النساء القصة أسرع عن دلب الخمر السود وباع التاجر بضاعته بأضعاف ثمنها . أما مسكين الدارمي فرجع بعد ذلك لنوبته وانقطاعه في المسجد . وما كانت رغبة النساء في الخمر السود إلا حب الممالة ومن ظرائف الروايات أن رجلاً كانت لحيته سوداء قد خالطها الشيب وكان له امرأتان شابة ومسننة فكان إذا حضر عند الشابة تنفت من لحيته الشعر الأبيض وإذا حضر عند المسننة تنفت من لحيته الشعر الأسود فما مضى عليه شهر إلا وقد تنفتا لحيته فراحت شهيدة الممالة

ومن هذا القيل قول أمير المؤمنين عليه السلام « لا تصحب المائق فإنه يزين لك فعله ويورد أن تكون مثله والمائق هو الشديد الحق وإنما يزين لك فعله لتمائله وبالجملة فحب الممالة والافتداء طبع لازم لسائر النفوس وكذلك بعض الخالفة والتباض بين المتخالفين

« الغيرة »

ومما جُبِلت عليه النفوس الغيرة وهو ألم حاصل عند استشعار المشاركة في المحبوب وهو خلق لازم يهيج عند عروض أي سبب من استشعار الرغبة في المشاركة والنفوس كما تحب أن تشترك مع غيرها في المرغوب المحبوب وأن يشاركها غيرها بما تمنى به من المنفوس المكروب كذلك تحب اختصاصها بمحبوبها وتفتر عن المشاركة فيه من قبيل الانانية وحب الذات على حد قول الشاعر :

أحب من الاحباب من كان لي وحدي وأهوى من الحلان من لم يخن عهدي
وبناء على هذا الاختصاص المطبوع في النفس قال أحد العقلاء « إذا خدمت رئيساً

الحمية وكان عظمته حفظه الله يحدثنا عن آداب العرب فنصفى ونستفيد ثم ذكرت في حضرته العلية عناية الفرنجة بالاعلانات حتى أن تاجرهم يصرف نصف رأسماله على الاعلانات عن بضاعه وإن العرب مازالوا حتى بمصر أقل عناية من الفرنجة بالاعلانات عن بضائعهم ولذلك كانوا أقل نجاحاً منهم فتبسم أعزّه الله وقال ولكن أتدري أن الاعلانات هي من اختراع العرب وإن الفرنجة أخذوها عنا كما أخذوا غيرها فدهشنا لهذه الرواية واستزدنا عظمته البيان فقص علينا القصة التي تراها في المتن وقال أليست هي اعلان عربي يوم كان الفرنجة لامدنية عندهم ولا يعرفون الاعلانات ؟ ؟

فلا تلبس مثل ثوبه ولا تركب مثل مركوبه ولا تستخدم كخدمه فعساك تسلم منه « (١)
وما نكبة البرامكة الا من هذا القليل
وذكر ابن الجوزي في تاريخه لما تزوجت ليلى جاء المجنون الى زوجها وهو يصطلي
في يوم شتاء فوقف وقال :

بربك هل ضمنت اليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الاقحوانة في نداها
فقال اللهم اذ حلفتني فنعيم فقبض المجنون بكاتي يديه قبضتين من الجمر فما كان
فارقهما حتى سقط مغشياً عليه فسقط لحمه مع راحتيه
قلنا والغيرة لاحمد الا في موضع واحد وهو أن يغار الوضع من الرفيع فيعمل
ليرتفع نظيره وفي ذلك قلنا لولدنا جاسب وكان يترعرع في واقعة حال
أجاسب قد عددتك للمعالي فكُن في المقبل الاتي فتاها
وانك فوق طلاب الملاهي ونفسك لا يسرك مشتهاها
وأطمع ان طمعت بذات يوم بأن تعدوذوي التيجان جاها
فاني لم أر عمري سوى من معالي لست أبلغ منهاها
واعلم أن الغيرة في النساء والصبيان أشد منها في الرجال وذلك للضعف الفطري
الموجود في النسوة والفتيان

ومن فكاكات الغيرة في النساء المستماعة ما ذكره ابن الجوزي في كتاب الاذكياء
عن خالد بن صفوان التميمي انه أدخل يوماً على الخليفة السفاح وليس عنده أحد فقال
ياأمير المؤمنين والله ما زلت منذ قلدك الله الخلافة أطلب أن أصير الى مثل هذا الوقت
في الخلوة فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بأمسك الباب حتى أفرغ فليفعل فأمر

(١) كنا يوماً في خدمة عظمة مولانا الشيخ المعز حياه الله وكننا طائفة من الادباء تتأدب
بأدب عظمته فاتتقل بنا الحديث الى هذا القول المأثور فضحكنا جميعاً وقال مبتسماً ما
الذي يضحككم قلنا ان صاحب هذا القول لو عرف عظمته لما قاله فاننا نراك تؤثر
عبيدك وخدمك على نفسك فنحن في ثرف ورغد أكثر من ولي نعمتنا على أننا نتفق من
فضلك ونجود من كرمك ومع ذلك ليس منا من يتوقع غير السلامة في رضاك والعيشة
في طاعتك فقال روي فداه وقوله من الفرر «كل سروري أن أرى كل من حولي مسرورين»
فقلنا والله انك لعلی خلق عظيم

الحاجب بذلك فقال يا أمير المؤمنين اني فكرت وأجلت الفكر فلم أرَ أحداً له قدرة
 واتساع على الاستمتاع بالنساء مثلك ولا أضيّق فيهنّ عيشاً منك انك هكت نفسك
 امرأة من نساء العالمين فاقتصررت عليها فان مرضت مرضت معها وان غابت غابت لاجلها
 وان عركت عركت وان حزنّت حزنّت وحرمت نفسك يا أمير المؤمنين التلذذ باستطراق
 الجوّاري ومعرفة اختلاف أحوالهنّ والتمتع بما يشتهى منهنّ فان منهنّ الطويلة التي
 تشتهى جسمها والبيضاء التي تحبّ لرؤيتها والسمراء اللامعاء والصفراء الذهبية ومولدات
 المدينة والطائف والجمامة ذوات الالين العذبة والاجوبة الحاضرة وبنات سائر الملوك
 وما يشتهى من نضارتهم ونظافتهم وتحلل خالد بامسانه فأطنب في صفات ضروب
 الجوّاري وشتات محاسنهنّ والسفاح يسمع وهو ساكت حتى اذا ما انتهى قال ويحك
 ملأت سمعي بما شغل خاطري والله ما طرقت أذني كلام أحسن من هذا فأعد عليّ
 كلامك وقد وقع مني موقعاً حسناً فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه ثم قال له
 انصرف فانصرف وبقي السفاح يفكر فدخلت عليه أم سلامة زوجته وكان قد حلف لها
 أن لا يتخذ عليها زوجة ولا سرية ووفي لها بذلك فلما رآته مفكراً مهموماً قالت اني
 لانكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث شيء تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له قال لا هذا ولا
 ذاك فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد فقالت وما قلت لابن الفاعلة فقال لها أينصحيني
 وتشتميه فغضبت وخرجت الى موالها وأمرتهم بضرب خالد قال خالد فخرجت من عند
 أمير المؤمنين مسروراً ولم أشك بالصلة فيبينها انا واقف أتظنها اذا قبل قوم يسألون عني
 فحقت انهم جاؤوا اليّ بالجائزة فقلت لهم ها انا ذا فاستبق اليّ أحدهم بخشبة فغمزت برذوني
 فلمحتني وضرب كفّل البرذون فركضت ففهم واستخفيت في منزلي اياماً ووقع في قلبي
 اني أوتيت من أم سلامة فيبينها انا ذات يوم جالس في بيتي فلم أشعر الا بقوم قد هجموا
 عليّ وقالوا أجب أمير المؤمنين فسبق الى قلبي انه الموت فقلت انا لله وانا اليه راجعون
 والله لم أرَ دم شيخ أضيع من دمي فركبت الى دار السفاح فأصبته جالساً ولحظت في
 المجلس بيتاً عليه ستور رقاق وسمعت حساً من خلف الستر فأجلسني ثم قال ويحك
 يا خالد وصفت لأمير المؤمنين صنعة فأعدها فقلت يا أمير المؤمنين أعلمك أن العرب جعلوا
 اسم الضرة من الضرر وان الرجل لا يكون عنده عن النساء أكثر من واحدة الا
 وكان في ضرر وتنغيص فقال السفاح لم يكن هذا كلامك أولاً قلت بلى يا أمير المؤمنين
 وأخبرتكم أن الاربع من النساء شرّ مجموع لصاحبهنّ يشبهه ويهرمنه قال والله

ماسمعت هذا منك أولاً قلت بلى والله يا أمير المؤمنين قال أفتيكديني قلت أفتيكديني ؟ نعم والله يا أمير المؤمنين ان أبكار الاء رجال الا أنهم ليس لهم خصي قال خالد فسمعت ضحكاً من خلف الستر ثم قلت والله يا أمير المؤمنين وأخبرتكم أن عندك ريحانة قريش وأنت تطمح بعينيك الى النساء والجواري فقبل لي من وراء الستر صدقت والله يا عماء بهذا حديثه ولكنه غير حديثك ونطق بما في خاطره عن لسانك فقال السفاح قاتلك الله وضحك قال خالد فانسلت وخرجت فبعثت الي أم سامة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتحت ثياب

نقول ومن هذه الحكاية يجب أن نتنبه الى أمور منها وجوب المداراة وحفظ اللسان والنظر الى الاصلاح ومنها ما ذكرناه من أن وجود الغيرة في نفوس النساء أشد وأعظم من وجودها في نفوس الرجال وقد تتجاوز النساء في الغيرة حداً يخرجن فيه عن سياسة العقل والشرع الى ما لا يحل وذلك لضعفهن

ومن هذا القبيل ما حكى عن رجل غاب عن زوجته ثم بلغها أنه اشترى جارية فاشتريت هي غلامين فباع الخبر زوجها فجاء مبادراً وقال لها ما هذا ؟ قالت أو ما علمت أن الرجا الى بغلين أحوج من البغل الى رحوين فباع الجارية لايبيع الغلامين ففعل

وأقبح من ذلك ما حكى عن البهاء زهير الشاعر أنه كان يتبرد في دهليز داره أيام الحر وكان قبيح الصورة فأنت جارية سوداء فوقفت تحتلس النظر اليه ثم مضت فلم يكن أسرع من أن أقبلت ومعهام امرأة حسناء كأنها دارة القمر فلما أتمته قالت أتأذن لي بالدخول فقال على الرحب والسعة فدخلت وقالت هل لك في نقال أي والله ومن يرد مثلك فلما قضى منها وطره قامت لتذهب فعرض عليها شيئاً من الذهب والقماش فأبت أن تأخذ منه شيئاً فقال ياسيدي متى يكون اللقاء فقالت ان عاد عدنا فقال جعلت فداك من ؟ قالت زوجي قام في غفلة مني الى جارية سوداء عندي في غاية الدامة والقبح فآليت لا كنانته على صنيعه برجل أسود مثاها فأرسلت ثقتي هذه (تعني الجارية) التي سارت تبصر لي رجلاً قبيحاً مثل تلك الجارية السوداء . فطافت القاهرة فلم تجد من يشبه الجارية غيرك فأيتت اليك لا كافي زوجي وان عاد عدت اليك ثم أنصرفت ففرح البهاء زهير بدما ته اذ كانت سبباً لتمتعه بتلك الحسناء التي صدق فيها قول الشاعر :

حورينة لو رأها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد

ومن هذا قال أمير المؤمنين عليه السلام « غيرة الرجل ايمان وغيرة المرأة كفر »

لان في غيرة الرجل على نسائه صوناً لهن عن المنكر وفي غيرة النساء على رجالهن تهتك
وفجور وابتدال والافضل أن تكون غيرة الرجال باعتماد
« الحمية »

ومما جلبت عليه النفوس الحمية ومعناها المحافظة على الحرمة من التهمة وهي على ثلاثة
أنواع حمية النسب وحمية العرض وحمية الدين

أما حمية النسب فهي من خواص العرب وقد عرفت فيهم وسأتلو عليك أخباراً
تشهد بذلك وتؤيده منها ما ذكره الشيخ عبد الحميد بن أبي الحديد في شرح النهج
عن أبي عبيدة قال كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والامراء الا قائداً فدخل
على سليمان بن عبد الملك يوماً من الايام فأنشده شعراً فخر فيه بابائه وفي جملة ما قال :
تالله ما حملت من ناقة رجلاً مثلي اذ الرمح لفتني عن السكور

فقال سليمان هذا المدح لي أم لك؟ قال لي ولك يا أمير المؤمنين فغضب سليمان وقال
قم فأنتم ولا تنشد بعده الا قائماً فقال الفرزدق لا والله لا أفعل فقال سليمان ويبي على
الاحمق ابن النماطة لا يكني وارفع صوته فسمع الضوضاء بالباب فقال سليمان ما هذا قيل له
بنو تميم على الباب قالوا لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا قال فليشد قاعداً
وروى المرزباني قال: كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي ممن وفدوا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأسلم ثم صحب علياً عليه السلام وشهد معه صفين وكان من رجاله
المشهورين ثم وفد على معاوية بعد أن استقامت الامور له وكان دعاوية يثبت به معرفة
بمينه فدخل عليه في جملة الناس فلما انتهى اليه استنسبه فاستنسب له فقيل له أنت صاحب
ليلة الهرير قال نعم قال والله ما تخلو مسامعي من رجلك تلك الليلة وقد علا صوتك
أصوات الناس وأنت تقول

شدوا فداء لكم أمي وأب فانما الامر لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنمية للعلواء سادات العرب

ليس بموصوم اذا نص النسب أول من صلى وصام وأقرب

قال نعم أنا قائلها قال فلماذا قلتها؟ قال لانا كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب الخلافة
ولا فضيلة تصير الى التفدية الا وهي مجموعة له كان أول الناس اسلاماً وأكثرهم علماً
وأرجحهم حملاً فأت الجياد فلا يشق غباره يستولي على الامد فلا يخاف عثاره وأوضح
منهج الهدى فلا يبيد مناره وشلك القصد فلا يدرس آثاره فلما ابتلانا الله تعالى باتباعه

وحول الامر الى من يشاء من عباده دخلنا في جملة المسلمين فلم نزرع يدأ عن طاعة
ولم نصنع صفاة جماعة على أن لك منا ما ظهر وقلوبنا بيد الله وهو أعرف بما فيها
استتر فأقبل صفوفاً وأعرض عن كدرنا ولا تتركنا على حقد فان النار تقدح بالزناد
قال معاوية وانك تهديني يا أخا طي بأوباش العراق أهل النفاق ومعدن الشقاق فقال
يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق وحبسوك في الضيق وذادوك عن سنن الطريق
حتى لذت منهم بالمصاحف ودعوت اليها من صدق بها وكذبت وآمن بمنزلاتها وكفرت
وعرف من تأويلها ما أنكرت فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فاذا جلهم من
دحر ونقر قليل من اليمن فقال يا أيها الشقي الخائن اني لأخال ان هذا آخر كلام تنفوه
به وكان عفير بن سيف بن ذي يزن بباب معاوية فعرف موقف الطائي ومرام معاوية
نخاف عليه وهجم داخلاً وأقبل على اليمانية فقال شأهت الوجوه ذلاً وقلاً وجدعاً وفلاً
كتم الله هذه الانف كنماً مرعباً ثم التفت الى معاوية فقال أي والله يا معاوية ما أقول
قولي هذا حباً لأهل العراق ولا جنوحاً اليهم ولكن الحفيظة تذهب الغضب لقد
رايتك بالأمس خاطبت أخا ربعة يعني صمصمة بن صوحان وهو أعظم جرماً من هذا
وأزكى لقلبك وأقبح في صفاتك وأجد في عداوتك وأشد انتصاراً في حربك ثم
أثبتته وسرحته وأنت الآن تجمع على قتل هذا استصغاراً لجماعتنا بأننا لا نمر ولا نجلي
ولعمري لو وكلت أبناء قحطان الى قومك لكان جدك العائر وذكرك الدائر وحدك
المفلول وغرسك المشلول فأربع على ظامك واطونا على بلانتنا ليسهل لك حزننا ويتطامن
لك شاردنا فانا لا زام برفع الغم ولا نغلب بحرح الحسف ولا نمر بغمار الفتن
ولا ندر على الغضب فقال معاوية انضبط شيطان فأربع نفسك أها الانسان فانا لم نأت
الى صاحبك مكروهاً ولم نرتكب منه منضباً ولم نذهك منه محرماً فدروكم فانه لم يضق
عنه حلمنا ويسع غيره فأخذ عفير بن الوليد وخرج به الى منزله وقال له والله لتؤوب
بأكثر مما آب به معدي بن معاوية وجمع من بدمشق من اليمانية وفرض على كل رجل
دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفاً فتعجبوا من بيت المال ودفعها الى الوليد وردّه
الى العراق

ومن هذا القبيل ما ذكره الميداني في مجمع الامثال أن العيار بن عبد الله الضبي
وفد هو وحبيش بن دلف وضرار بن عمر والضبيان على النعمان بن المنذر فأكرمهم
وأجرى عليهم رزقاً وكان العيار مهذاراً يقول الشعر ويضحك الملوكة وفي جملة

ما يروى عنه قوله :

لا أذبح النازي الشبوب ولا أسلخ يوم المقامة العنقا
 وكان النعمان بادياً فأرسل اليهم يحجزر فيهن تيس فأكلوهن غير التيس فقال ضرار
 للعيار وهو أحدتهم سناً انه ليس عندنا من يسلخ هذا التيس فخبذا لو ذبحته وكفيتنا
 ذلك فقال العيار ما أبالي أن أفعل فذبح التيس وساخه فانطلق الضرار الى النعمان وقال
 له أبيت اللعن أيها الأمير ان العيار يسلخ تيساً فأتي به وقال له أين قولك لا أذبح النازي
 الشبوب الى آخر البيت فخبج العيار وضحك النعمان ساعة وعرف العيار أن الضرار
 هو الذي أخبر النعمان بما صنع وكان النعمان يجلس بالحاجرة في ظل سرادقه وكان
 كسبا ضراراً حلة من حله وكان ضرار شيخاً أعرج بادنأ كثير اللحم قال فسكت
 العيار حتى كانت ساعة النعمان التي كان يجلس فيها في سرادقه ويؤتى بطعامه عمد العيار
 الى حلة ضرار فلبسها ثم خرج يتعارج حتى اذا كان بحيال النعمان كشف عنه وقضى
 حاجته فقال النعمان ما لضرار قاتله الله لا يها بني عند طعامي وغضب عليه فلما بلغ الامر
 ضرار حلف بأنه لم يفعل هذا المنكر وقال ولكني أرى العيار فعله للوقعة بي جزاء
 ذكرى سلخه التيس وعلى أثر ذلك وقع بينهما نفرة فتشاما عند النعمان فلما كان بعد
 ذلك وقع بين ضرار وبين أبي مرحب أخي بني يربوع ما وقع فتناول أبو مرحب
 ضراراً عند النعمان والعيار شاهد فشم العيار أبا مرحب وذجره فقال النعمان أتشم أبا
 مرحب في ضرار وقد سمعتك تقول به أشراً مما قال له أبو مرحب فقال أبيت اللعن
 يامولاي وأسعدك الهدى « اني لا كل لحمي ولا أدعه لا كل » فأرسلها مثلاً فقال النعمان
 « لا يملك مولى لمولى نصرأ » فأرسلها مثلاً فنقول والسر في نصرة العيار للضرار انهما من
 نسب واحد فلم يرض أن ينال من عرضه أبو مرحب

ومثل ذلك ما روي أن ابن أبي جهل لما أسلم دخل المدينة فجعل يمر في الطريق
 فيقول الناس ابن أبي جهل فذكر ذلك لام سلمة فذكرته لرسول الله صلى الله عليه
 وآله فخطب في الناس فقال « لا تؤذوا الاحياء بسبب الاموات »

وأما حمية العرض فلا تختص بأحد دون أحد بل هي في الناس شرع وقد يعبر
 عنها بالغيرة وهذه الحمية وجودها في النفوس على مراتب ثلاثة وهي الافراط والتفريط
 والاعتدال فاذا غابت الحمية على الانسان حتى يتنقص بها عيشه فهي الافراط وفيها
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله « ان من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي

غيرة الرجل على أهله من غير ريبة « وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تسكث الغيرة على أهلك فزحى بالسوء من أجلها » وقال مسكين الدارمي

من لم يزل متهماً عرسه مناصباً منها لرجم الظنون
يوشك أن يغريها بالذي يخاف أو ينصبها للعيون

وذلك لما قدمناه من حرص الانسان على ما منع والنساء في ذلك أشد
وأما التفريط فهو أن تفقد الحمية من الرجل حتى لا يبالي بعرضه وما يصنع به وهو
عكس الافراط في الغيرة عليه وقد تفقد الحمية في بعض النفوس حتى لا يهتم إلا بنفسه قال
ابن الاعرابي خرج بعض الاعراب في عام مسغبة يلتمس شيئاً يرجع به الى أهله فقي
من أطعمه وأسقاه فمسي من تخلف ثم جاء بعد حين شبعاناً رياناً فقالت امرأته له :

كفى لامة والله عالم غيبه وعندك من علم الكرام يقين
بأن يخرج المعتار من عند أهله سغاباً ويأتي الأهل وهو بطين
وان امرءاً يرضى بطعم ومشرب ويمتلي جياعاً خلفه لمهين

ومثال هؤلاء المفرطين الذين لا يهتمون بصيانة أعراضهم أو انهم يرضون بهتك
نساءهم لقاء كسب يجنونه لحري بأن تكون نساءهم كالجاريتين اللتين تمازحتا في قول الشاعر
قالت لجارتها يوماً ممازحة قرنت زوجك ان القرن يفضحه
قالت أيمتي بلا قرن فواللهني يلقاه زوجك ذو القرنين ينطحه

وأما حمية الدين فلا تختص بالعرب فقط بل لعابها في غيرهم أشد وقد يعبر عنها
بالعصبية ولكن الفرق بينهما ظاهر وكل منهما من ثمرات الغضب للدين أو الوطن
الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله « حب الوطن من الإيمان » إلا أن هذه
الحمية اذا خصت بالدفاع عن الدين أو الوطن أو كليهما أو التشييد لآثار الدين وعمران
الوطن وتجرّد صاحبها عن الطعن بالغير وتقيصه فهو حمية والا فهو عصبية والحمية من
هذا النوع محدودة ولا يخالو منها طبع بشري وان اختلفت مراتبها في النفوس

قال بعضهم: رأيت في بغداد رجلاً كفيف البصر يسأل الناس ويقول من أعطاني
فلساً سقاه الله على يد معاوية قال فتبعته حتى خلوت به فلطمته لكمة أو جعته وقلت
عزلت أمير المؤمنين عليه السلام عن حوض الكوثر بفلس واحد فقال الكفيف لا والله
لا كان ذلك أبداً وأنا لم أذكر لمعاوية حوضاً في كلامي فليسقهم من حيث شاء
ويعجبني ما نقله الشيخ محمد طه نجف دام عنه عن الشيخ جواد نجف

قدس الله سره قال ان بعض من كان مشهوراً بالسرقه في طهران سرق في ذات ليلة دار رجل يهودي ولم يعلم بأن صاحب تلك الدار من آل اسرائيل فلما أصبح الصباح اشتهر أمر السرقة وعلم السارق ان المسروق يهودي فحيا اليه كالمستخبر وقال كم كانت سرقتك قال كذا وكذا قال اكتبها على القرطاس لا تجسس السارق لعل أثر عليه فكتبها وسلمها في كاغد ليد السارق فاذا هي كل ما كان مسروقاً من غير زيادة فقال له امض معي الى الحاكم فذهبا اليه وهناك سلم الرجل اليهودي كل ما سرقه منه في ليلته فقال له الحاكم ويالك تأخذ مال المسلمين وترد مال اليهود قال السارق نعم ان المسلمين أخوة واذا كان يوم القيامة أصلح بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالالتماس من هذا والتوسل لهذا ولكن يشق عليّ أن يطاطي رسول الله رأسه بين يدي موسى ابن عمران حينما يقول له ان رجلاً من أصحابك سرق دار رجل من أصحابي ويكيدني حينما يأخذ رسول الله بيدي اليه ويخضع له ويقول قل لصاحبك يعفو عن هذا القرنان وأما العصبية فلا يخلو منها طبع بشري لان عليها قوام الحياة والسرف في ذلك هو عجز الفرد الواحد عن حفظ وجوده واحتياجه الى تعاقد اخوانه فيما يسمونه زاحم البقاء أو تغلب القوي على الضعيف وبذلك انقسم الناس الى قبائل وشعوب وقامت فيهم العصبية وهي التي توسع فيها الفرنجة فدعوها «وطن» بعد أن تحضروا وبعبارة أفصح ان العصبية عند الامم التي تغلب فيها البداوة تقوم مقام الوطن عند الامم التي تغلب فيها الحضارة

وللفكاهة نرى أن نورد هنا بعض القصص المشيرة الى الحمية الدينية الداخلة فيها الحمية العصبية لاشترك الدين والسياسة في الاسلام وللجمع بين الفكاهة والفائدة ذكر ابن الجوزي في كتاب الاذكياء انه كان في بغداد في طرف الجسر سائلاً كفيفان أحدهما يتوسل الى الناس بأمر المؤمنين عليه السلام والاخر بمعاوية (وأنت تعلم أن الناس في بغداد شيعة وسنة) وكانا يجمعان المال بهذه الحيلة من كل من يمر بهما وكانا اذا انقضى النهار يجتمعان ويقتسمان مكسب يومهما فتأمل وقيل للهلول أيهما أفضل أبو بكر أو علي فقال أما وأنا في كندة فعلي واذا كنت في بني ضبة فأبو بكر وكندة في الكوفة من شيعة أمير المؤمنين وبنو ضبة هم أصحاب الجمل وفي الاثر ان رجلاً قال لهلول انه ورد في الحديث الصحيح ان في يوم القيامة توضع أعمال الشيخين في كفة من الميزان وأعمال سائر الخلق في الكفة الاخرى

فترجح أعمال الشيخين على أعمال الخلائق فقال بهلول ان كان هذا الحديث صحيحاً فالعيب في الميزان

وكان صاحب ربيع يتشيع فارتفع اليه خصمان اسم أحدهما علي والاخر معاوية فأنحى علي معاوية وضربه مئة سوط من غير ان تتجه عليه حجة ففطن المضروب الى سبب نكبته وقال أصلحك الله سل خصمي عن كنيته فاذا هو أبو عبد الرحمن وكانت كنيته معاوية بن أبي سفيان فبطحه وضربه مئة سوط أيضاً فقال لصاحبه ماأخذته مني بالاسم أخذته منك بالكنية

وقال الراغب في المحاضرات ان بقزوين قرية أهلها مثالان بالتشيع فربهم رجل فسألوه عن اسمه فقال عمر فضر به ضرباً شديداً فقال ليس اسمي عمر بل عمران فقالوا أشد من الاول فان فيه عمر وحر فان من اسم ثمان فهو أحق بالضر

ومن هذا الباب قصة الحجاج بن عكاظ السامي في حسن تلاففه واحتياله وتيقظه في توصله الى تحصيل ماله وخلاصة القصة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح خيبر وأعرس بصفية وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن عكاظ السامي وكان أسلم في حال قدمه وشهد خيبر فقال يا رسول الله ان لي مالا عند صاحبتي أم شيبه ولي مال متفرق في تجار مكة فأذن لي يا رسول الله في العودة الى مكة عسى أسبق خبر اسلامي اليها فاني أخاف ان علم أهلها باسلامي أن يذهب جميع مالي فأذن له رسول الله قال الحجاج فخرجت فلما انتهيت الى الثنية البيضاء وجدت بها رجلا من قريش يستمعون الاخبار وقد بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد سار الى خيبر وكانوا قد عرفوا ان خيبر قرية الحجاز ريفاً ومنعه رجالها فهم يتجسسون الاخبار فلما أبصروني قالوا هذا لعمر الله عنده الخبر اليقين أخبرنا يا حجاج فقد بلغنا ان القاطع يعنون النبي صلى الله عليه وآله قد سار الى خيبر قال فقلت لهم بلاني انه قد سار اليها وعندي من الخبر مايسركم قال فازدحموا على جنبي ناقتي يقولون ايه يا حجاج قال فقلت هُزَمَ هزيمة لم تسمعوا بمثاقط وأسر محمد أسراً وقالوا لا نقتله حتى نبعث به الى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم قال فقاموا وصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تظاهرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم قال فقلت أعيونني على جمع مالي من غرمائي بمكة فاني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من نقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار الى هنالك فقاموا دعوي فجمعوا مالي كما أحب قال وجئت صاحبتي فقلت هات مالي لعلي ألحق خيبر فأصيب من فرص

البيع قبل أن يسبقني التجار فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عني أقبل حتى وقف الى جنبي وأنا في خيمة من خيام التجار فقال يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به ؟ قال قلت وهل عندك كتمان لما أضعه عندك قال نعم قلت فاستأخر عني حتى ألقاك على خلوة فاني مشغول في جميع مالي كما ترى فانصرف عني حتى أفرغ قال وبعد أن فرغت من استئصاء جميع أموالي بمكة وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل فاني أخشى الطاب واكنم عليّ ثلاثاً ثم قل ما شئت قال أفعل فقلت والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم يعني صفية ولقد افتتح خير وانتقل ما فيها وصارت له ولاصحابه قال ما تقول يا حجاج ؟ قال قلت أي والله فاكنم عني ولقد أسلمت وما جئت الا مسلماً لا خذالي فرقاً من أن أغلب عليه فاذا مضت ثلاث فاطهر أمرك فامر الله على ما تحب قال حتى اذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها فلما رآوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحراً المصيبة قال كلا والله الذي خلفتم به لقد فتح محمد خيراً وترك عروساً على ابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولاصحابه قالوا من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذي جاءكم به ولد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلته حق بمحمد وأصحابه ليكون معهم قالوا لقد أفلت بدو الله أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن وما لبثوا أن ظهر لهم الصحيح وهكذا توصل الحجاج بيقظته واحتياله الى الحصول على أمواله

الروضة الثالثة

في القوة الروحانية

(توطئة)

ان القوة الروحانية أشرف من القوة الشهوية ومن غلبت عليه الروحانية يسمى روحاني المزاج ويطلق عليه لقب (أريج) وأما ما يتعلق بهذه القوة من الاخلاق فهو حب الاستيلاء والاستعلاء والقدره على الغير وحب المال والجاه والانفراد بالكمال وحب الثناء والمدح وعلو الهمة وكبر النفس والانفة والعجب والحياء والعفة وأشباه ذلك

« الكمال لله »

من المعلوم أن في الانسان صفات بهيمية وأخرى سبعية وأخرى ربانية ولما كان الانسان مركباً من هذه القوى الثلاثة أصبح ولا شك يتأثر بمؤثراتها عليه على قدر استعداده النفساني لها فهو لما فيه من الامر الرباني يحب الربوبية بطبيعته ومعنى الربوبية هنا التفرد بالكمال على سبيل الاستقلال واذا كان الكمال من الصفات الالهية صار محبوباً للانسان

والكمال بالتفرد بالوجود من حيث المشاركة فيه نقص فكمال الشمس في انها موجودة لوحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً لها اذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية

والمتفرد بالوجود هو الله تعالى اذ ليس معه موجود سواء فانما سواء أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجوداً معه لان المعية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته وكما أن أشراق نور الشمس في أقطار الافاق لا ينقصها بل هو من البراهين على كمالها وانما ينقصها وجود شمس مثلها مع الاستغناء عنها وكذلك وجود كل ما في العالم يرجع الى أشراق أنوار القدرة الالهية فيكون تاماً ولا يكون متبوعاً وعلى هذا فعنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان يحب بطبعه لان يكون متفرداً بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ العلم مامن انسان الا وفي باطنه ماصرح به فرعون من قوله « أنا ربكم الأعلى » ولكنه لم يجد مجالاً لظهار ربوبيته سوى باستعباد الناس الى أجل معين والعبودية قهر على النفس والربوبية بالعكس محبوبة من الانفس التقيية

لاجرم مامن أحد الا وهو يدعي الربوبية على من دونه من العبيد والاماء والخدم والحشم والاتباع على أنه يمتنع عن اظهار ما في نفسه الا في حالات استشاطته وغيثه وغضبه عند تقصير بعضهم في خدمته (١)

(١) لله در شيخنا المعز الذي نسر أفضل تفسير ما مجرول في صدور أولي الزعامة وأهل الرئاسة من الكبر الى ادعاء الربوبية على من دونهم قدراً أو الممتنين اليهم في الخدمة ومن باب تقرير الحقائق نقول أن عظمة مليكنا المفدى بالنفوس الشيخ خزان خان حفظه الله قد تنزه عن هذا على علو قدره وواسع سلطانه فهو من رعاياه وعبيده بمنزلة الاب الرؤوف الرحوم من بنيه يلاطف الكبير والصغير ويرحب صدره فيهم جميعاً وما عهدناه

وما ادعاء مثل هؤلاء الربوبية أو ظهورهم بمظاهرها الا من عوامل الكبرياء التي لا يخلو من شرها انسان الا من عصم الله وقد أوماً الى ذلك القرآن الشريف بقوله « قل الروح من أمر ربي » ولكن لما عجزت النفس عن ادراك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته والكمال ذاته ومبغض للهلاك الذي هو عدم الذاتية أو عدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد أن يسلم المتفرد بالوجود بالاستيلاء

نحن عبيده غاضباً مغتاضاً الى أحد على كثرة ذلاتنا وتقصيرنا في خدمته العلية بل بالعكس اذا رأى من أحدنا تقصيراً في واجباته نهى الى تنصيره بشاردة خفية كأن يقول له كنت أنتظر منك عمل المسألة الفلانية أو أظن أن عملك ذاك كان تسرعاً ولو تمهلت أو سرت به من طريق كذا لكانت النتيجة أفضل

ومع أن عظمته حفظه الله وجعلنا فداء يتحمل تبعة جميع اعمالنا اذاساءت مع ذلك لم يواجه أحداً منا بما يكره بل كان بحكمته يصلح ما أفسدناه وهو في الوقت نفسه اذا قال له قائل أن فلاناً من عبيدك تسبب عن مسألة كذا خلق له المماذير على عمله وأوضح للعاذل أنه لا زال على ثقته فيه وهذا منتهى الحلم وغاية الرأفة

اذ كر مرة أنني كنت في خدمة عظمتي في الفيامة قطبت من أحد عبيد عظمته قضاء أمر لي في البصرة فتهازل وتضررت من تهامله واذا لنا أدلال على عظمتي نحن عبيده الامناء انتهزت فرصة وجود ذلك الرجل في خدمة ولي النعم وعاتبته على ايماله مصاحبي في الحضرة وقبل أن يتمتد بادر عظمته لجبر خاطري وتخفيف حدتي قائلاً لا تتكدر من هذا الامين فقد أهمل مصاحبي أنا من قبل وفي هذا الجواب المملوء من الحكمة والرأفة أصاب عظمته ثلاثة أغراض لا يصيبها الا الحكماء أو لها انه أزال من نفسي ما كنت أجده على ذلك العامل الامين والثاني نبه عامله الى اعماله مصالح عظمته وهو صالح المتتمين الى عرشه والثالث انه وفق بيني وبينه فعدنا الى الصنماء والولاء متعاضدين على خدمة عظمته وأشياء هذه الحوادث كثير يعرفها كل من لاذ بعظمة ولي النعم ووقف في بابه وأخلص في خدمته فهل لا يحق لنا أن نتفانى في حب هذا الملك الرحيم ونتنافس في سبيل كسب رضاه أعزه الله لا جرم أن ملكنا المعز من المتفردين في الكمالات الروحية ولم نر في ملوك العرب الحاضرين ولم نقرأ عن غيرهم ممن سلف مثل فضله أضاف الله الى عمره السعيد من أعمارنا ووفقنا الى خدمته وكسب رضاه

على كل الموجودات فان أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فعلى الأقل تكون مستولياً عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع لانه نوع من الكمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به الا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الارادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء فأحب الانسان أن يكون له الاستيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا أن الموجودات منقسمة الى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته والى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق كالأفلاك والكواكب وملايك السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالحيال والبحار وما تحت الحيات والبحار والى ما يقبل التغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات الى ما يقدر الانسان على التصرف فيه كالارضيات والى ما لا يتدر عليه كذات الله والعالم الهولي أحب أن يستولي على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء اذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم به كالمستولى عليه فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب وجميع عجائب البحار والحيال وغيرها لان ذلك نوع من الاستيلاء عليها والاستيلاء نوع من الكمال وهذا يضاهي اشتياق من عاجز عن صنع العجائب الى معرفة طريق صنعها كمن يمتزج عن اختراع الكبرياء اليوم فانه يشتهي معرفة أسرارها وكيف تنبعث أنوارها وتستخدم لحفظ الاصوات فيما يسمونه «الفونوغراف» أو نقل الاخبار فيما يسمونه التلغراف بلا سلك الخ وعلى ذلك فيكون الانسان متأماً ببعض العجز ملتزداً بكمال العلم ان علمه

والقسم الثاني وهو الارضيات التي بقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع أن يتولى عليها بقدرته على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان أجساد وأرواح أما الاجساد فافهمها الذهب والفضة فيحب أن يكثر منهما ليمتني فيهما ما يريد من متاع وعقار ويستخدما لرفعة أناس وضعة آخرين فان ذلك في قدرة رب المال والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع مع ان الانسان لا يحتاج الى المال لاكثر من دأكله ومشربه ومضججه وما زاد على ذلك كان فضولاً.

وكذلك يطلب صاحب السطوة والمال استرقاق العبيد واستعباد الاحرار تارة ببذل ماله وطوراً بالتغلب والقهر بجيوشه وأعوانه توصلاً للتصرف بأرواحهم وأجسادهم على سبيل السخرة وأن لم يملك قلوبهم فانها قد تنفر من مظالمه وجوره وتمنى هلاكه ومع

ذلك تراه راعياً في هذا الاستعباد تلذذاً بالحشمة القهرية لما فيها من القدرة التي هي نوع من الكمال الرباني (١)

والقسم الثاني كسب نفوس الناس وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض فهو يجب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفه تحت إشارته وإرادته لما في ذلك من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب إنما تسخر بالحب ولا تحب إلا بامتداد الكمال فإن كل كمال محبوب إذ هو من صفات الله والصفات الإلهية كلها محبوبة وعلى هذا تبنى أوجه الحقيق هو تسخير القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية

وعلى هذا فمحبوب النفس بالطبع الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول والوصول إلى الكمال محال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله « من هو مان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » وسرور الإنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال

وقد يشارك الحيوان والإنسان في حب الاستعلاء والاستيلاء والقدرة ألا ترى الهرة إذا صادفت فأرة تلاعها وتداعبها قبل أن تقتلها لاظهار قدرتها عليها وربما تغافل عنها لتمتع في الهرب فتشبه عليها وتصيدها مرة ثانية كل ذلك تفعله إيثارة للذة القهر والغلبة على الأكل فإذا كان الحيوان بهذه المثابة فالإنسان الذي هو أعرف بحب الاستيلاء والاستعلاء أولى بلذة الاقتدار والقهر

روي المدايني قال قدم على بعض الأمراء بخراسان رجل فدخل مع الناس فقال أصلح الله الأمير إن لي عليك يداً قال وما يدك : قال أخذت بركابك يوم كذا قال صدقت فما حاجتك ؟ قال توليني للبلد الفلاني قال لم ذاك قال لا اكتسب مئة ألف درهم قال فأنا قد أمرنا لك بها الساعة فتكون قد بلغناك ما تحب وأقررنا صاحبنا على عمله قال أصلح الله الأمير إنك لم تقض زمامي قال ولم وقد أعطيتك ما أملت قال فأين الإمارة وأين التلذذ بالأمر والنهي قال قد وليت لك إياها وسوغت لك ما أمرت لك به وأعفيتك عن

(١) نقول لقد تنزه عظمة شيخنا المحبوب عن هذه الخلقة لتنزهه عن ظلم رعاياه والضغط على مر يديه والمتفنين حوله ولذلك تراهم جميعاً يحبونه حباً جماً من صميم قلوبهم ويتنافسون الناس في حبه ويتميزون دائماً أبداً بمحامده وإثناء عليه

الحاسبة أن صرفتك عنها قال ولما تصرفني عنها ?? ولا يكون الصرف الا عن عجز وخيانة
وأنا بريء منهما قال اذهب فأنت أميرها مادامت لنا خراسان فلم يزل أميراً عليها حتى
عزل الأمير عن خراسان

ومن أمثال العرب «يا حبذا الامارة ولو على الحجارة» وما من انسان الا ويجد
لذة للقدرة والقهر لغيره ما لا يجد في غيرها من سائر اللذات
(حب الجاه)

من أسباب الكمال كما أسلفنا المال والجاه وقد تسكلمنا طويلاً على المال وأما الجاه
فاعلم ان السبب الذي يقضي بأن يكون المال محبوباً هو بيمينه يقضي بأن يكون الجاه محبوباً
بل يقضي ان يكون أحب من المال لانه أبداً منالاً منه فقد يكون صاحب المال وحيهاً
وقد يكون غير وحيه

فأنت تعلم ان الذهب والفضة لا غرض للانسان في أعيانها اذا لا يصاحبان لمطعم ولا
مشرب ولا منكح ولا ملبس وانما هما والحصباء بمثابة واحدة ولاكنهما محبوبان لانهما
وسيلة الى جميع الشهوات والملاذات من حاجيات وكليات وبالاخير لانهما يوصلان
صاحبهما الى الجاه وهو غاية ما تصبو اليه النفوس
والجاه كما سبق القول هو ملك القلوب حتى تشعر من نفسها بوجوب احترام
صاحبه وحيه أيضاً

وكما ان ملك الذهب والفضة يفيد الاقتدار الى الوصول لبعيد الاغراض فكذلك
ملك قلوب الاحرار يفيد القدرة على تسخيرها للتوصل الى ما فوق هاتيك الاغراض
وهو العلو الذي يفيد معنى الكمال الرباني

وكما ان صاحب المال يطلب الحيازة على الارقاء والعبيد فصاحب الجاه يطلب الحيازة
على قلوب الاحرار واسترقاقها وعلى هذا فالرق الذي يطلبه صاحب الجاه أصعب منالاً
من الرق الذي يطلبه صاحب المال اذ أن الغني يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه ولو
خلي ورأيه لانسدل عن الطاعة وأما الوحيه فانه يطلب الطاعة طوعاً ويقصد أن يكون
له الاحرار عبيداً بمطلق رضائهم فرحين فاذن معنى الجاه قيم المنزلة في قلوب الناس
ومعنى قيام الجاه في القلوب اعتقادها صفات الكمال في شخص ذلك الوحيه أما بيلم
أو بعبادة أو بحسن خلق أو بصحة نسب أو بكرم أو بولاية أو بحجمال أو بقوة أو بها
أو ببعضها اذا اجتمعت في شخص واحد فان هذه الصفات تستعبد قلوب الاحرار وتكون

سبباً لقيام الجاه الذي هو غاية الغايات في هذه الدنيا (١)

وبقدر ما يعتقد الناس من كمال الرجل تعظم في أعينهم وجاهته وتدعن قلوبهم له
تقدر اذعان القلوب تكون قدرته على تسخيرها وبقدر هذه القدرة يكون فرحه وحببه للجاه
ولما ذكرنا من ترجيح الجاه على المال اقتضى ان يكون الجاه أحب من المال وفي
الطباع أمر عجيب وراء ما ذكرنا من حب المال والجاه لم يكن الا للتوصل الى
الانغراض والحاجات وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستثمار
خزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للانسان وأديان من ذهب لا تنغى لها ثالثاً
وكذلك حب الانسان للسعة في الجاه وانتشار الصيت الحسن الى أقاصي البلاد وهو يعلم
انه لا يطأها في حياته ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليبروه أو ليعينوه على قضاء
عرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ بما يعلم من اذاعة صيته بالحمد غاية
التلذذ وحب ذلك ثابت في طبعه وليس لذلك سبب الا لما في النفس من معنى الربوبية
واعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه أصبح كثير الاهتمام بمراعاة الخلق شغفاً
بالتودد اليهم والمروآت لاجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتقياً الى ما يعظم منزلته
عندهم وقد يدعو ذلك الى فساد حاله من التساهل بالعبادات والمراية بها والى اقتحام
المحظورات توسلاً الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وآله حب
الشرف والمال وافسادهما للدين بذيئين متضادين وقال انه ينبت النفاق في القلب كما
ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو بالفعل وكل من طلب
المنزلة في قلوب الناس يضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال
عنها وذلك عين النفاق فحب الجاه اذن من المهلكات

ولكن شتان بين أن يدفع حب الجاه بالانسان الى الوصول اليه بالنفاق والرياء
وتصدق فيه نظريتنا ومن يصل الى الواجهة الصحيحة فيملك قلوب الناس من غير

(١) نقول وما وصل عظمة مولانا المعز الشيخ خزعل خان الى غاية الغايات في
الجاه الا لحيازته على هذه الصفات العالية فهو أعزه الله وأدام علاه وافر العلم كثير
العبادة حسن الخلق صحيح النسب جميل الطلعة مهابة قوي البدن سديد الرأي وافر
السخاء جهم العطاء عظيم العطف فسيحان من جملة هذه الكمالات اه

أن يطلبها لميزات خاصة بنفسه جعلته في أعين الناس وجيهاً بكل معنى الواجهة (١)
« حب المدح والثناء »

ومما جُبِلت عليه النفوس الروحانية حب المدح والثناء وذلك ثمرة حب الجاه فما
من شيء أحب إلى من يطلب الواجهة من ترديد الناس ثناءه والتغزل بمحامده مدحاً له
ومن أمثال العرب في ذلك قولهم « حب الثناء طبيعة الانسان »

قال يزيد بن المهلب « المال والحياة أحب شيء إلى الانسان والثناء أحب إلى منهما
ولو أنني أعطيت ما لم يعط أحد لاحتببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال عني غداً
وقد مت كرمياً واعلم أن للمرح والثناء تأثيراً عظيماً في النفوس العالمية

وقيل إن المأمون تكلم يوماً فقال يحيى بن أكرم يمدحه يا أمير المؤمنين جعلني الله
فداك إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته أو في النجوم فأنت هرمس في
حسابه أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب في علمه وإن ذكر السخاء كنت حاتماً
في جوده أو الصدق فأنت أبو ذر في صدق لهجته أو الكرم فأنت كعب في إثارة
على نفسه أو الوفاء فأنت السؤل بن عاديء في وفائه فاستحسن قوله وتهلل وجهه (٢)

وكان الحجاج يستنقل زياد بن عمر الكلبي فلما قدم على عبد الملك بن مروان
قال زياد يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش
وخادمك الذي لا تأخذ، فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه
ومن هذا المنبل يظهر لك فائدة المديح وكيف يؤثر على قلب من تمدحه حتى يرغب
فيك بعد أن كان يرغب عنك

ثم أعلم أنه لا فرق في التأثير بين أن يكون المدح للنفس أو لعلائقها من ذلك أن
هرون الرشيد كان يحب من الألوان السواد سأل يوماً بعض العلماء عن السواد فقال

- (١) ومن هذا الصنف بل وفي مقدمتهم عظمة شيخنا المعز المحبوب الذي تسعى إليه
الواجهة ولا يسعى إليها لما فيه من الكمالات العالمية التي يعرفها الادنون والابعدون اه
- (٢) نقول كنا بالحضرة العلية الخزلية في مجالسنا الادبية فروي لنا عظمة الشيخ
المعز حفظه الله هذه القصة وقد اقتضاها الحال وقال إن سرور المأمون في هذا المديح
على ما فيه من الاغراء لم يكن لتوهمه من نفسه صحته بل لأنه كان من ذوي النفوس
العالية التي ترغب في كمالات هؤلاء النوابع فسره أن يشبه بهم ومن هذا التذييل يظهر
مبلغ فضل سمو شيخنا وبعد دواقع نظره في استنتاجاته حياته الله

هو شرُّ الألوان لا يلي فيه محرم ولا يكفن فيه ميت ولا تجل فيه عروس فصعب على
 الرشيد ذلك لما فيه من مخالفة ذوقه وكان القاضي أبو يوسف حاضراً فرأى أن
 يستدرك غضب الرشيد فقال ولكن النور في السواد فتهايل وجه الرشيد وسُرِّي عنه
 ومن تأثير المدح في النفوس أو ما يتضمن معنى المدح ما حكى عن رجل كان جاراً
 لفيروز الديلمي فأراد بيع داره لدين لزمه فلما ساءها وأحضر المشتري الثمن قال البائع
 هذا ثمن الدار فأين ثمن الجوار فقال المشتري وهل يباع الجوار فقال نعم جوار فيروز
 يباع باضعاف ثمن الدار وأبى أن يبيعهما بغير ذلك فلما نمي لفيروز خبر معسرة جاره
 وأنه مع حاجته لئال أبي أن يبيع داره بغير اضعاف ثمنها لتشرينها بجيرته بعث له
 بضعة ثمنها وقال له بعها على نفسك بارك الله لك فيها (١)

ومثل ذلك ما جرى لأبي الجهم العـدوي فانه باع داره بمائة ألف درهم ثم قال
 بكم تشترون جوار سيد بن العاص فقالوا وهل يشتري جوار قط قال ردوا عليّ داري
 وخذوا دراهمكم والله لا أدع جوار رجل ان فقدت سأل عني وان رأني رجب بي
 وان غبت حفظني وان شهـدت قربني وان سأله أعطاني وان لم أسأله ابتدأني وان
 نابني جأحة فرّج عني فباع ذلك سعيد فبعث اليه بمائة ألف درهم
 ومن هذا قال بعضهم قد جُبلت النفوس الابية الروحانية على تحقيق الظنون فيها
 وتحقيق آمال مريدتها من نظرة فاعانة فسدّ خلة فكشف مظلمة فدفع شرّ فجاب منفعة
 وأما النفوس التي تكذب الظنون وتخيب الالـمال فهي التي غلبت عليها القوة الشهوية
 فصغرت بنفسها وتضائلت أمام المجتمع الانساني

ومن تأثير المدح والثناء ما ورد في الاثر وهو ان اعرابياً أطال صلاته فمدحه
 الحاضرون فلما فرغ قال وأنا مع ذلك صائم تال هذا استزانة للمدح ثم مال الى صديق
 له فقال يجب أن أصلي طويلاً وأصوم كثيراً ان لم يكن في رضوان الله سبحانه فليكتب

(١) وحدث مثل هذا في الفيلمية فان جارية عجوز كان لها بيت صغير تسكنه بجوار
 قصور عظيمة مولانا السمر داراً قدس فعند ما أمر سمره بتشيد الديوانية بجوار قصوره لتكون
 منزلاً لضيوفه الكثيرين أرسل لها أحد عبيده ليبتاع منها دارها بالثمن الذي تريده فقالت
 معاذ الله أن أبيع جوار مليكي وأنا كل يوم أرقب مروره منها لاسبح الله بوجهه فلما باع
 عظمت هذا الجواب سراً سروراً كثيراً وأمر بأن تشاد لها دار جميلة بجوار الديوانية وأن
 يصرف لها ما تعيش به برفاه الى آخر عمرها وهذا بعض مالعظمت من النوادر في الكرم

مديح الناس وثنائهم

ومن لطائف النوادر ما حكى عن الشيخ فارس أحد مشائخ كعب جيء له بماء
فقال بعض الحاضرين الشيخ لا يشرب من مائي فقال أي وأبي لا أشرب وامتنع عن
الشرب ليلته حتى إذا أمض به العطش خرج لضرورة وشرب من ماء مطهرته وكان
حاراً ففعل كل ذلك حفظاً لما مدح به من انه لا يشرب الا الماء الذي يعتقده طهوراً
ومن هذا القبيل كان يتوصل الاذكياء الى أغراضهم من طريق المدح والاطراء
فيقولون لمن نال طرفاً من العلم هذا عالم هذا فاضل فيدعوه اطراؤهم له الى تحقيق
أقوالهم باجتهاده حتى يكون بالفعل عالماً فاضلاً ومثل هذا كثير

وعندي أن من يتعذر وعظه وتنبيهه الى نقصه لعلو قدره أو ضيق صدره لأحسن
من مدحه بعكس ما هو فيه كأن يقال للغضوب أنت حليم وللبخيل أنت كريم ويمدح
أمامه الحلم أو الكرم فان كان ممن فتح الله على قلوبهم كان مدحهم له خير مؤدب أما
إذا كان غيباً فيزداد في غيه ولا يهتم بما يقال له أو يلقى عليه (١)

روي عن الحسن عليه السلام ان نقل في مجلسه عن معاوية انه قال اذا لم يكن
الهاشمي جواداً والاموي حليماً والعوامي شجاعاً والخزومي تهاهاً لم يشبهوا آباءهم فقال
الحسن انه والله ما أراد بقوله النصيحة ولكن أراد أن يفني بنو هاشم ما في أيديهم
فيحتاجوا اليه وأن يشجع بنو العوام فيقتلوا وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتلوا وأن يحلم
بنو أمية فيحبهم الناس

ومن دهاء معاوية في أيام صفين انه لما رأى كثرة مبارزة أمير المؤمنين والفشل
والنكسر في أصحابه أو عز لعمر بن العاص ليكتب لابن عباس كتاباً فكتب عمرو
طال البلاء فلا ندري له آسي بعد ألاله سوى رفق ابن عباس

فأجابه ابن عباس رضي الله عنه

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فاذهب فإلك في ترك الهدى آسي

(١) مما نحفظه عن عظمة شيخنا العظيم حفظه الله أن ما من شاعر وافاه مادحاً الا
وكان يأخذ قصيدته ويحيئنا قاتلاً ان الشاعر يطلب بي أن أكون كذا وكذا فاعني
اللهم على تحقيق ظنون القوم بي وأعني لاجعاهم صادقين في مدحي واذا كنا نقرأ
لعظمته أنه قصر عن بيان الحقيقة كان يقول أنا لا أنهمكم لمعرفتي اخلاصكم لي ولـكني أعرف
نفسي وأريد لها الكمال بالاستفادة من كل ما يعلني علي ويلقي الي فهل بعد هذا من كمال؟

ثم كتب له معاوية كتاباً ذكر فيه انما بقي من قريش ستة أنا وعمرو بن العاص بالشام وسعد وابن عمر بالحجاز وعلي وأنت بالعراق وأنا جميعاً على خطب عظيم ولو بوسع لك بعد عثمان لاسرعنا فيه فأجابه ابن عباس برسالة فيها

دعوت ابن عباس الى السلم خدعة وليس له حتى يموت بخداع ويظهر جلياً من هذه القصة ان المدح مخدعة ولكنه لا يؤثر الا في النفوس الضعيفة وأما أرباب البصائر فلا ينخدعون الا من قبيل قولهم «ان الكريم ينخدع» أي تغلب عليه صفاته العالية فيؤخذ بلطف القول وهو يعلم انه مأخوذ (١)

وبالجملة فان كان المدح لذوي النفوس الروحانية والهم العلية فهو ينشطها الى بلوغ الكمالات وان كان يريد المادحون المخدعة فلا ينخدع الا كريم يريد أن يحقق آماله قاصديه أو أحق يغره ما يقال فيه فيكذب نفسه ويصدق سواء وبذلك يدخل عليه الغرور والكبر ولعمري بالله

واعلم كما ان للنفس ميلاً الى المدح وارتياحاً الى الثناء فلها أيضاً نفرة عن الذم والقبح أو ما يتضمن معناه كالتمقيص والتنديد

صاح رجل بالمأمون يا عبد الله فغضب وقال أتدعوني باسمي فقال الرجل نحن ندعو الله باسمه فسكت المأمون وقضى حاجته وانما غضب لانه لم يدعه «أمير المؤمنين» ودعاؤه له باسمه تنقيص ولكن كانت حجة الرجل بالانه وعذره مقبولا بقوله انا ندعو الله باسمه فسكن غضبه وقضى حاجته

ومثل ذلك ما ذكره ابن خلدون في وفيات الاعيان قال لما ولي يوسف بن عمر انقطع عليه ثلاثون ألف ديناراً فحبس في السجن عليها وكان بلال ابن أبي بردة يومئذ محبوباً هناك فقال بلال يا يوسف ان الموكل بعذاب الذين في السجن رجل اسمه سالم ويلقب بزنبيل فاياك أن تقول له زنبيل فانه يكره ذلك ويشدد عليك العذاب نأى الرجل الى يوسف وعذبه فنسي اسمه وجعل يقول له يا زنبيل اتق الله فأغاظه ذلك وشدد عليه العذاب ويوسف يكرر عليه القول وهو يشدد لغيظه فلما أخلى سبيل يوسف قابله بلال

(١) ومن هذا القبيل ما يقوله لنا عظمة شيخنا المحبوب عند ما نعرض ببعض من يقصدونه لعطائه ممن يضمرون أذيته ولو أنهم عاجزون دعوهم ودعوني أن أظهر لهم بأن الكريم ينخدع فانا أحسن اليهم لانهم قصدوني وأتجاهل لؤمهم لانهم أعجز من أن يوصلوا الاذى الى وفي ذلك ما فيه من علو الجنب وعزة النفس

وقال ألم أنك عن تسمية الرجل بزنبيل فقال له وهل أوقعني بالزنبيل غيرك
وانما طبعت النفس على حب المدح لما فيه من معنى الاحتشام والاحترام فاذا حصل
بالفعل كان ذلك أشد تأثيراً كما قيل انه قدم القعقاع بن شور على معاوية فدخل عليه
والجلس غاص بأهله ليس فيه مقعد فقام له رجل من القوم وأجلسه مكانه فلم يبرح
القعقاع عن ذلك الموضع يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمئة ألف درهم فأحضرت
إليه فجعلت الى جانبه فلما قام قال للرجل الذي أحله محله ضمها إليك فهي لك بقيامك
لنا عن مجلسك وفي هذه الحكاية تنبيه الى ثمرة الايثار على النفس وعلى حسن الوفاء
وبالجملة فحب المدح والاحتشام أمر حلي طبيعي في النفس لما فيها من معنى الربوبية
واعلم أن حب المدح وتلذذ القلب به أربعة أسباب الاول وهو الاقوى شعور النفس
بالكمال وقد سبق وبيننا أن الكمال محبوب وكل محبوب ادراكه لذيقه فمما شعرت
النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان
الوصف الذي به مدح لا يخلو اما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكراً فيه فان كان
جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به ولكن لا يخلو من لذة كما يثنى على رجل لطول
قامته أو بياض لونه فان هذا النوع من الكمال ظاهر للعيون ولكن النفس تغفل عنه
فتخلو من لذته فاذا استشعره المادح لم يخل حدوث الشعور به من حدث لذة ولكن
ان كان الوصف المدحى مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء على الرجل لعمله
أو ورعه أو جوده الخ فالرجل ربما كان في شك من هذه الكمالات وهو يتمنى أن
يسمعا من أو صاف الناس لها لتحل عنده في محل اليقين فيتلذذ بها
وتعظم لذة الثناء اذا كان صادراً عن بصير خبير ويفرح بها كفرح الناصب عند
ما يسمع من استاذة مدحاً لكياسته وأدبه وذكائه وأما اذا صدر الثناء عن يكله جزافاً
أو عن غير ذي بصيرة فتقل لذته عند المثنى عليه وان كان لا يحرمها تماماً
وكذلك يغض الانسان الذم ويكره التنقيص لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان
ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الألم اذا صدر الذم من
بصير يثق الناس بقوله كما ذكرنا في المدح
والسبب الثاني إن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مر به ومعتقد
فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيقه بهذه العلة تعظم
اللذة اذا صدر الثناء ممن تسع قدرته ويتنفع باقتناص قلبه كالمملوك والا كابر وتضعف اذا

كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر صغير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب واذا كان المذموم من الاكابر كانت ذكايته أشد وأعظم

والسبب الثالث أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ولا سيما اذا كان ممن يلتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على المالا فلا جرم كلما كان الثناء أشهر والمثني أجدر بان يلتفت الى قوله كان المدح ألد وكذلك الذم كلما كثرت اذاعته وكان قائله جديراً بالاصغاء فهو آلم للنفوس

السبب الرابع ان المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضاً لذيذ لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يمتد في الباطن بمدح به ولكن مجرد تذكره بغلبته على المادح يورثه اللذة وبالعكس يورثه الألم لجرد تذكره بنفرة الذي تدمه من يد قدرته

فهذه الاسباب الاربعة قد تجمع في مدح مادح واحد فتعظم بها لذة الممدوح وقد تفرق فتنقص اللذة بها على قدر نقصها

أما العلة الاولى وهي استشعار الكمال فتندفع بان يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في قوله كما اذا مدحه بالنسب وكان وضعياً أو السخاء وكان شحيحاً أو العلم وكان جاهلاً وهلم جرا فنزول حينئذ من نفسه اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقيّة اللذات الاخرى المعنوية

واذا كان يعلم الممدوح ان المادح لا يمتد ما يقوله فيه ويعلم خلوه من تلك الصفات التي وصفه بها بطلت اللذة الثانية وهي الاستيلاء على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب والهزء بطلت اللذات كلها فلم يشعر أصلاً بلذة لفوات الاسباب الثلاثة وحل محلها الا لم « العجب والزهو »

العجب خلق جبلت عليه النفوس قال أبو العتاهية

كل امرء في نفسه أعلى وأشرف من قرينه

وحقيقة العجب عبارة عن هيئة نفسانية تنشأ من تصور الكمال في النفس والفرح به والركون اليه من حيث أنه قائم به وصفة له مع الغفلة عن قيام النفس الى الغير بكونها

أفضل منه وبهذا الغيد ينفصل عن الكبير اذ لا بد في الكبير أن يرى الانسان لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم زيادة مرتبته على مرتبة الغير فكل متكبر معجب ولا يعكس والفرق بين العجب والتهيه هو أن المعجب يصدق نفسه وهماً فيما يظن بها والتهيه يصدقها قطعاً كأنه متحير في تهيه ويمكن التفريق بينهما بامر آخر وهو أن المعجب قد يعجب بنفسه ولا يؤدي أحداً بذلك الاعجاب والتهيه يضم الى الاعجاب الغضب من قدر الناس والترفع عليهم فيستلزم ذلك الاذى لهم فكل تائه معجب ولا يعكس وأما الفرق بين الاعجاب بالعمل والاذلال به هو ان العجب يجعل صاحبه مستعظماً نفسه فقط فاذا أضيف الى ذلك ان له عند الله حقاً وانه منه ذو مكانة حتى يتوقع بعلمه كرامة في الدنيا ويستبعد أن يصيبه مكروه سمي هذا ادلالاً فكأنه يرى لنفسه دالة على الله تعالى وكرامة لديه

وكذلك من يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويتمنن به فيكون معجباً فان استخدم الذي أعطاه عطيته أو اقترح عليه الاقتراحات الشتى أو أنكر تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً

والادلال وراء العجب فما من مدل الا وهو معجب ورب معجب لا يدل اذ العجب هو نتيجة استعظام المرء لنفسه ونسيان نعمة الله عليه بما أوجب اعجابه والادلال هو أن يتبجح المرء على الآخرين بما هو معجب به ثم اعلم أن العجب انما يكون منبجاً عن ميزة يظن صاحبها أنها كمال فيفرح بها من حيث أنها فيه لا من حيث أنها عطية من عند الله تعالى ونعمة يجب شكرها ولو عرف أن ما هو معجب به هو منحة الهية لو شاء سلبها عنه لزال عجبها وعلى هذا فيكون العجب عبارة عن استعظام المرء للنعمة التي هو فيها مع نسيان اضافتها للنعم بها عليه وهو الله عز وجل وهذا هو حقيقة العجب وهو مقدمة الكبرياء ولا يخلو منه طبع بشري الا من عصم الله من ذوي البصائر من الناس ممن تغلب عقله على عواطفه (١)

وأما ضعاف العقول والمدارك فلا تكاد تقع عينك على واحد منهم الا وتراه معجباً

(١) ومما تثبتته هنا عن عظمة شيخنا المعز الجليل اننا مع استثنائنا برغبة مولانا عن كل مدح اذا ذكرنا لعظمته بمقتضى واقعة حال تفرد به بالذكاء أو بالفضل أو بالعدل أو بالحلم أو بغير ذلك من المشاهدات الواقعية المحسوسة يبادرنا بقوله انها نعمة من الله تعالى هو مظهرها ويشفع ذلك بحمد الله وشكره عليها تجنباً لمواطن العجب

بنفسه لما يحسبه من مميزاتة أو ما بين يديه سواء في ذلك الجليل والحقير أو الكثير والقليل
حمانا الله وإياك من العجب وجعلنا على نعمه تعالى من الشاكرين
« أقسام العجب »

واعلم أن أسباب العجب بإضافته الى المعجب عديدة أولها اعجاب المرء ببدنه وجماله
رهينته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وبيهاه طبعته ورخامة صوته فياتفت الى ما فيه من
بعض أو كل هذه المميزات وينسى أو يتناسى أنها نعمة من الله تعالى عليه وأنه معرض في
كل وقت لزوالها عنه واعجاب المرء بهذه المميزات البدنية أكثر وهذا النوع من الاعجاب
يفضي بالمعجب بها الى تنقيص الغير وتلبهم واغتيالهم وذكر عيوبهم بالحق وبالباطل
الثاني العجب بالمال كما قال الله تعالى أخباراً عن صاحب الجنة اذ قال أنا أكثر منك
مالاً وأعز نفراً . ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً غنياً جالساً فقيراً فانبض عنه
وجمع ثيابه فقال « أخشيت أن يعدو اليك فقره » وما فعل الغني هذا الا اعجاباً بغناه وهذا
العجب أكثر ما يكون بين المملوك في خزانهم والتجار في بضائعهم والمزارعين في أراضيهم
والغاوين في لباسهم وخيولهم ومرابكهم فيحتقر غنيهم الفقير ويقول له بلسان الحال ان
لم يكن بلسان المقال أنت مكدود ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من
هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أنفق
في اليوم ما لا تأكله في سنة وكل ذلك لاستعظامه نعمة الله عليه واعجابه بها من غير أن
يلتفت الى أنها نعمة قابلة الزوال

والثالث عجب المرء بكثرة الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار
والاتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالاً وأولاداً وكما قال المؤمنون يوم حنين لا تغلب
اليوم من قلة واليه الاشارة بقوله تعالى « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً
وأعز نفراً »

والرابع العجب بالبطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم
« من أشد منا قوة »

والخامس العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشميين حتى يظن بعضهم ان الناس له
موالي وغبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمره هذا العجب على اللسان التفاخر به
فيقول لغيره يا هندي أو يا أرمني أو يا معيدي من أنت ومن أبوك فأنا فلان ابن فلان ومن
أين لمثلك ان يكلمني أو ينظر الي وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك

عن مثله الرجل اذا كان حسيباً نسيباً الا من عصم الله فذكر القول المنسوب الى أمير المؤمنين عليه السلام

الناس من جهة التمثال اكفاء أبوهم آدم والام حواء
وان يكن لهم في أصلهم شرف

يفاخرون به فالطين والماء
والسادس العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين
والدنيا وآفته الاستعداد بالرأي وترك المشورة واستجهاال الناس الخالفين لرأيه وعدم الاصغاء
الى أهل الدراية والاختبار والعلم فيخطيء وهو يظن نفسه مصيباً

والسابع العجب بالرأي ولو كان خطأ قال الله تعالى « أفن زين له سوء عمله فرآه
حسناً » وقوله عز وجل « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ومن هذا الباب قولهم ليس
يفهم كلامك من كان كلامه لك أحب اليه من الاستماع منك ولا يستفيد من نصحتك من
غلب هواه على رأيك ولا يستفيد من معرفتك من اعتقد من نفسه انه أتم معرفة منك
وهذا النوع من العجب يعبر عنه بالجهل المركب وآفة هذا العجب التماذي بالاغلاط مع
تخطئة الغير بما قد يكونون فيه مصيبين

والثامن العجب بالعلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله « آفة العلم الخيلاء » فلا
يأبث العالم ان يشعر بعزة العلم وينتفخ به ويستشعر بنفسه جماله وكما له فيستعظم قدر نفسه
ويستهزئ بالناس وينظر اليهم نظره الى البهائم السائمة ويستجهاهم ودخله الاعتقاد بانه
المسلط عليهم وكثيراً ما ترى مثل هؤلاء العلماء ذوي الخيلاء يتوقعون ان يبدأهم الناس
بالسلام ويخصوهم بالتيجلة والاحترام فان بداؤا واحداً منهم بسلام أو ردوا عليه سلامه
ببشاشة أو قاموا له أو أجابوا له دعوة حسبوا ذلك صنعة وفضلاً كما يحسبون انه ينبغي
لهم أن يترفعوا عن الناس الذين يطلقون عليهم اسم « العامة » فلا يبرون من برهم ولا يزورون
من زارهم ولا يعودون من عادهم بل يتجاوزون ذلك الى استخدام من خالطهم وتسخيره
في حوائجهم فان قصر في ذلك مقصر استنكره وتقصيره كأن الناس عبيدهم واجراؤهم
أو كأنهم بتعاليم العلم أسدوا الناس صنائع يجب أن يشكروها ويبروها ويتعبدون لها
وبالجملة فما نشأ على وجه البسيطة عالم يحق أن يسمى عالماً الا وحر كته عزة العلم ودخله
خيلاءه الا نفر من أهل العقل الراجح والنفس الطيبة ممن يحسبون ما جاء به فضلاً من الله ومنه
يشكرونه عليها بغير خيلاء ومن وجد من مثل هؤلاء فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن
يفارق بل يكون النظر اليه عبادة فضلاً عما يتوقع من مجالسته ومذاكرته من جلائل الاستفادة

والتاسع المعجب بالعمل والعبادة وليس يخلو صاحبه من رزية الاستعزاز والكبرياء وآفة هؤلاء أنهم يرون فرضاً على الناس توقيرهم وتبجيلهم وزيارتهم وقضاء حوائجهم والتوسع لهم في المجالس وذكركم بالوعظ والتقوى ولا يكتفون بهذا بل هم يحقرون من عداهم من الناس ويتهمونهم بالكفر والزندقة ويعدون لهم الهلاك في الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم» وإنما قال ذلك دلالة على أنه مزدرٍ بخلق الله تعالى مفترياً بالله آمن من مكره وقال النبي صلى الله عليه وآله «كفى بالمرء شراً أن يحتقر أخاه المسلم» وكمن البون الشاسع بين مثل هذا العابد المحقر للناس وبين من يعظمه لعبادته ويرجى له من رحمة الله فوق ما يرجوه لنفسه؟؟ فالخلق يتقربون إلى الله بالدنوّ من مثله وهو يتمقت إلى الله بالنزّه والتباعد عنهم فما أجدرهم وقد أحبروا صلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته وما أجدره إذ ازدراهم أن يهمله الله كما روي عن رجل من بني إسرائيل كان يسمى «خليع آل إسرائيل» لكثرة فساده مرّ برجل آخر كان يسمى «عابدة بني إسرائيل» وكان على رأس العابد عمامة تظله فلما مرّ به الخليع قال في نفسه لو جلست إلى هذا العابد قد يرحمني الله فأتوب فجلس إليه فقال العابد في نفسه كيف يجلس هذا الخليع إلي؟ وأنهره قائلاً قم فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا عمهما فقد غفرت للخليع وأعملت العابد وفي رواية فتحوّت عمامة العابد إلى رأس الخليع ومن هذا تعرف أن الله سبحانه يريد من الناس قلوبهم فالجاهل الباعى إذا تواضع هيبة لله وذلّ خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه أكثر من طاعة العابد المتكبر والعالم المعجب

وكذا روي «أن رجلاً من بني إسرائيل أتى عابداً من قرية وهو وطيء على ركبته وهو ساجد فقال العابد انفض فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه قائلاً «أيها المتأله بل أنت لا غفران لك» وهذه الآفة تكثر في الأباد الزهاد فإن أحدهم إذا استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ولو جرى ذلك لغيره من المسلمين لم يستنكر عمله ويستبعد غفران الله له وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين التكبر والعجب والاعتزاز بالله

وقد ينتهي الحق والغباوة ببعضهم وهو يتحدى من ناله منه غضاضة ويقول سترون ما يجري عليه وإذا أصيب بنسكة عرضاً زعم أن ذلك من كراماته وإن الله ما أراد بنسكة ذلك الذي أساء إليه إلا شفاء غليله والانتقام له منه مع أنه يرى الكفار يسبون الله

ورسوله وكثيرون منهم آذوا الانبياء وضربوهم وقتلوهم ثم ان الله سبحانه لحكمة يعرفها أهل أكلهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما آمن بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة

ثم ان مثل هذا العابد الجاهل المغرور قد يظن بانه أكرم على الله من أنبيائه وقد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه من أعدائهم ولعله في مقت الله لاعتجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه

وأسباب العجب كثيرة وأظهرها سببان المدح واعتقاد الانفراد بالكمال أما المدح فانه يحرك في نفس الممدوح العجب . كما روي انه خطب ابن ظبيان في البصرة خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أطراف المسجد أكل الله لنا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططاً . وأما اعتقاد الانفراد بالكمال فانه لما حج آدم بعد هبوطه وقضى مناسك الحج بالبيت تلقته الملائكة يهنئونه بحجته وقبول توبته فقالوا بر حجك يا آدم أنا حججنا هذا البيت قبلك بالقي عام فتقاصرت الى آدم نفسه (١)

« العجب يدعو الى التقصير »

والعجب يدعو الى تقصير المعجب بحق نفسه قال أمير المؤمنين عليه السلام « الاعجاب يمنع الازدياد » وسر ذلك ان المعجب بنفسه أو بما لديه من الكمالات الادبية والمعنوية يظن نفسه قد بلغ الغاية التي ليس وراءها زيادة مستزيد فيتعاس عن الاستزادة في طلب الخير لنفسه تقاعداً ليس يمنع عنه الزيادة فقط بل يوقعه في النقصان ومن هذا القبيل ما رواه بعض العلماء اذ سئل قال من يرى انه خيرهم ؟ وذلك لما في هذا الاعتقاد من منع صاحبه عن الاجتهاد وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

(١) يرى القاري الكريم العجب المطرب من هذا التفصيل لاحوال العجب بالنفس مما فيه الدلالة الناصعة على أن عظمة ولانا السردار أقدر رحي فداه قد درس بنفسه أحوال الناس درساً صحيحاً فكيف ما يخرج نفوسهم من وسواس العجب أبدع تكييف على ما رأيت هذا وقد جمع عظمته حفظه الله جميع الاسباب الاثلة الى العجب فنزهه الله سبحانه عن عيب العجب وفتح بصيرته فرأى العجب بالناس على قبيحة تصوّره أبراعة المصوّر الماهر لما أمامه من المراتيات فبورك بعظمته التواضع بغير صنعة ووفقنا لتلقى عليه مثل هذه الدروس ونستفيد منها لديننا ودنيانا سبحانه على كل شيء قدير

من لا يرى نفسه في الناس قاصرة
عن الكمالات لم يكمل له أدب
ومن يكن راضياً عن نفسه أبداً
فذاك غرُّ عن الأدب محتجب
وقال شاعرنا الانطاكي :

أراك تواصل المسعى بمسعى خير الناس مجتهداً صبوراً
كأنك ما علمت بان كفيت الـ عوافي وقد حبوتهم الكثيراً (١)
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « رب مفتون بحسن القول فيه » أقول طلبا فتن
الناس بثناء الناس عليهم فيقصر علمهم في اكتساب العلم اتكالا على ما عنده مما أوجب
الثناء عليه وتهاون العابدين في عبادته اعتماداً على ما يسمعه من الاماديخ وهلم جراً
وأيضاً فان ثناء الناس يغضي الى اغراء المثني عليه بالعجب بنفسه ان لم يكن حكيماً
واعجاب المرء يدعوه الى التقصير

حكى ان أحد نوابغ طلبة العلم مرض يوماً فقال أستاذ أسفاً اذا مات فلان
ذهب - لم كثير وعند ما تعافى بلغه مقالة أستاذه فاغتر بنفسه وترك طلب العلم اكتفاء
بالقليل الذي عنده فحسر بذلك مستقبله وكان يتندر ان يكون ماهراً وأشبه هذه
الحوادث كثيرة ومشاهدة فلا حاجة الى الاستزادة منها

« الكبرياء »

الكبرياء رأس الشرور ومصدر المآثم وصاحبها معرض دائماً الى كراهة الناس له
واحتقارهم شخصه والتباعد عن مجلسه مهما كان عظيماً أو وجيهاً أو عالماً أو عابداً أو
غير ذلك من صنوف البشر

حكى أنه أتى وائل الى حجو النبي فاقطعه أرضاً وأمر معاوية أن يمضي معه فيريه
الارض ويرضاها عليه ويكتبها له فخرج مع وائل في هاجرة شاولية وهشى خلف ناقته
فالحرقة الرضاء فقال اردفني فقال لست من ارداف الملوك قال فادفع اليّ نعلك قال
ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان ولكن اكره أن يبلغ اقبال اليمين انك لبست نعلي

(١) نظمت هذين البيتين مرتجلاً في يوم قضاء عظمة مولانا السردار أقدس حياؤه الله
في النظر بحاجات الناس من شروق الشمس حتى غروبها فكان يحسن لهذا ويكشف
ظلامه ذلك ويوصي بعلي ويمنع الضرر عن حسين حتى اذا ما دخل مجلسنا ألقيناه تعباً
وصباً فانشدته البيتين وكم لعظمته من أيام طالت في الناس بارك الله فيه

ولكن امش في ظل ناقتي وحسبك بذلك شرفاً (١)

وقيل أن هشام بن عبد الملك حبس يوماً الفرزدق في سجن خالد بن عبد الله القشيري فوفد جرير إلى خالد ليشفع فيه فقال له أسرك أن الله قد أخزى الفرزدق؟ قال أيها الأمير والله ما أحب أن يخزيه الله إلا بشعري وإنما قدمت لاشفع فيه في ملا من الناس ليكون بذلك أشد خزيًا فاشفعه ودعا الفرزدق وقال له إني مطلقك بشفاعة جرير فقال الفرزدق واذلاه أسير قشيري وطليق كلبي فبأي وجه أفاخر العرب بمدها بالله أيها الأمير ردني إلى حبسي فذلك أشرف لي والكبراء بنفوس وضعاء الناس ولا سيما من أصاب منهم نعمة أرسخ ولكن القلة والذلة يمنعان ظهور كبريائهم وفي ذلك قال الشاعر:

مضى ترى الكلب في أيام دولته فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرد
واعلم بأن عليك العار تلبسه من عضه الكلب لا من عضه الأسد

ومن ذلك أن عمارة بن حمزة بن ميمون مولى بني العباس كان مثلاً في التيه حتى قيل «أتيه من عمارة» وكان يتولى دواوين السفاح والمنصور وكان إذا أخطأ مضى على خطأه تكبراً عن الرجوع عنه وكان يتول الأصرار على الخطأ أهون علي من الرجوع إلى الصواب وكان قوله هذا كبراً وصافاً جعله سخريّة بين الناس

وافترخت أم سلة الخزومية امرأة السفاح ذات ليلة بقومها على السفاح وبنو مخزوم يضرب بهم المثل بالكبر والتيه فقال أنا أحضرك الساعة على غير أهبة مولى من موالي ليس في أهك مثله فأرسل إلى عمارة وأمر الرسول أن يعجله عن تغيير زيّه فجاء على الحال التي وجد عليها الرسول في ثياب ممسكة مزررة بالذهب وقد غلغل حيتته بالغالية حتى قامت فرمى إليه السفاح بمدّهن ذهب مملوء غالية فلم يلتفت إليه وقال هل

(٢) أقول والشيء بالشيء يذكر أو كما قيل وبضدها تهين الأشياء فان عظمة شيخنا المعزّ فضلاً عن وداعته في معاملة اللائذين بعرشه والمنتمين إليه فانه حفظه الله كثيراً ما يتفقدا بعطفه ولا سيما إذا كنا بخدمته في رحلة صيد أو سفرة حرب وكم من مرة رأيناه ينزع عن كتفه عبائته ليلتف بها أحدهم اليك إذا رآه وقد مسه البرد بل كم رأيناه يوقف الركب أكراماً لتابع له وقد ظهرت عليه علائم الاعياء ويأتيه بنفسه متنازلاً للسؤال عن صحته وإذا أردنا أن نسرّد حوادث عنايته بنا نحن عميده الامناء وكيف بهم بكل واحد منا اهتمام الاب الرؤوف ببنيه لاحتجنا إلى مجلد كبير

ترى لها في لحيتي موضعاً؟ فأخرجت أم سلمة عقداً لها ثمناً وأمرت خادماً لها أن يضعه بين يديه فقام وتركه فأمرت الخادم أن يتبعه به ويقول أنها تسألك قبوله فقال للخادم هو لك فانصرف بالعقد إليها فاعطت الخادم فكاكه عشرة آلاف ديناراً واسترجعته وعجبت من نفس عمارة وكان عمارة لا يذل للخلفاء وهم مواليه ويتبعه عليهم فنظر رجل الى المهدي ويده في يد عمارة وهما يمشيان فقال يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال هذا أخي وابن عمي عمارة بن حمزة فلما ولي الرجل ذكر المهدي الكلمة كالمازح لعمار فقل عمارة والله انتظرت أن تقول مولاي فانفض يدي من يدك فتبسم المهدي (١)

(١) وما عطف المهدي على عمارة وتنازله بالتودد اليه وجواب سائله عنه بالشيء الذي يذكر بجانب عذاف عظمة مولانا ولي النعم الشيخ خزعل خان المعظم علينا نحن عبيده ومواليه وعندنا من البراهين على ذلك الشيء الكثير فقد كان عظمتة مرة جالساً في حديثه الغناء في الكمالية على كرسي مذهب وكنا نحن أخصاؤه جالسين على سندس العشب تتبادل أطراف الاحاديث الادبية والمطارحات الشعرية في صباح يوم من أيام الصيف والحر لا فح الا في ظلال تلك الاشجار الباسقة فجاء أحد الحجاب وقال في الباب أديب من مصر قدم لتأدية واجبات الاخلاص هو محمود أفندي طاعت المصري فقال دعه يدخل ثم استوقفه وقال احضر لنا خمسة كراسي لآخواني هؤلاء فانصرف الحاجب في أمر مولاه وقال لنا لقد اخترتم الجلوس على سندس العشب طلباً لراحتكم ولكن لا أريد أن يدخل علينا هذا الضيف فلا يفظن الى سبب جلوسكم وأنه باختياركم وقد يظن أنني أحتقر مجالسكم وأنتم جالسي فقلنا عفواً مولاي فان جلوسنا عند قدميك تشريف لنا قال ولكن لا يشرفني وما أنا الا بمقام الوالد منكم والأخ بصحبتكم وهكذا أحضرت الكراسي فجلسنا ودخل الضيف فألفانا بين يدي مولانا أعزه الله كالهالة حول القمر والأكام للثمر وعند ما أرفض الاجتماع اجتمع بي طاعت أفندي وقال اني لا غبطكم على صحبة هذا الأمير الفاضل الذي لم أجد مثل لطفه وعطفه في كل ملوك العرب والعجم

أقول هذا مثال لكثير مما يجريه عظمة مولانا السردار أقدم ارواحنا فداه على انه حفظه الله يأبى الا أن يدعون أبناءه وما نحن الا عبيده الامناء العائشون بنعمته وما قدم أخونا الى زار من زواره الا وقال «ولدنا فلان» فتأمل أيها القاري الكريم هذا العطف الابوي وقل لنا بالله أو ما خفيق بنا ان نفاخر العالمين بهذا العاهل العظيم؟؟

« حقيقة الكبرياء وآفتها »

أعلم أن الكبرياء تنقسم الى باطنية وظاهرية فالباطنية هي خلق في النفس والظاهرية أثر لها تتم عنها الجوارح ولذلك اذا ظهرت الكبرياء على انسان يقال عنه متكبر وان لم تظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبرياء تستدعي متكبراً ومتكبراً عليه ومتكبراً به وبهذا ينفصل الكبر عن العجب فان المعجب بنفسه اذا لم يكن سواء في هذه الدنيا يظل معجباً أما المتكبر فاذا لم يكن ما يتكبر به ومن يتكبر عليه لما استكبر

ولا يكفي الانسان أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم منه أو في مرتبته فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحققر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي للمتكبر أن يرى لنفسه مرتبة فوق مراتب غيره من الناس فيستكبر عليهم ويتجبر لان هذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه امتداد وهزة فرح وعزة وجبروت من حيث يصدق فيه قول الشاعر :

أرى الناس دوني اذ أراني فوقهم ذكاءً وعلماً واعتلاءً وسؤدداً
قال النبي صلى الله عليه وآله « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » ثم ان هذه النفخة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمراتها ويسمى ذلك تكبراً فانه مهما عظم عند الانسان قدر نفسه بالاضافة الى غيره حقر الغير في نظره فازدراؤه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومواكلته ورأى ان من حق ذلك الغير أن يقوم ماثلاً بين يديه ان اشتد كبره فان كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عبته فان كان ذلك يتأفف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانظر أن يبدأ بالسلام وقد لا يجاوب واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه وان حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف في النصيح وان رُد عليه شيء من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستبد بهم وانتهرهم وأمتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة بطرف عينه كمنظره الى السائمة استجهالاً لهم واحتقاراً واشباه ذلك كثير في المتكبرين لا يكاد يجعلها أحد والعياذ بالله من الكبرياء وأهلها

« في المتكبر عليه »

اعلم أن المتكبر أما أن يتكبر على الله أو على أنبيائه عليهم السلام أو على سائر خلقه وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً فتارة يتكبر على الخالق وطوراً على أنبيائه وأونة على سائر الخلق

فالتكبر على الله وذلك أخفش أنواع الكبر لا مثار له إلا الجهل المطبق والطغيان والكفر والعياذ بالله مثل تكبر نمرود فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكمن ادعى الربوبية كفرعون فانه لتكبره قال أنا ربكم الأعلى اذ استنكف ان يكون عبداً لله لذلك قال تعالى « ان الذين يستنكفون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » وقال تعالى « لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال تعالى « واذ قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » والتكبر على الرسل والأنبياء عليهم السلام يكون من حيث استعزاز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثلاً وذلك تارة يصرف عن فكر ذلك المتكبر الاستبصار فيبقى في ظلمات الجهل ويمتنع عن الانقياد للحق وهو يظن انه محق برأيه الاخرق وطوراً يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق الذي جاء به الرسل ليتواضع لهم كما حكي الله عن قوهم « أنؤمن ببشر مثلاً » وقولهم « ان أنتم الا بشر مثلاً ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذن لخاسرون » وقوله « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو ترى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » وقالوا « لولا أنزل عليه ملك » وقال فرعون فيما أخبر الله عنه « أو جاء معه الملائكة مقربين » وقال الله تعالى « واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق » وهكذا تكبر فرعون على الله وعلى رساله جميعاً . قال بعض المفسرين قال له موسى آمن وراك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينما أنت رب تعبد اذ صرت عبداً تعبد . فاستنكف عن عبادة الله وعن اتباع النبي موسى عليه السلام كبراً وعتواً

وقالت قریش فيما أخبر الله عنهم « لولا أنزل هذا الرجل من القرينتين عظيم » قال بعض المفسرين عظيم القرينتين هو الوليد ابن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي اذ قالوا غلام يتيم وكيف بعثه الله إلينا ؟ قال تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك » وقال الله تعالى « ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » أي استحقاقاً لهم واستبعاداً لتقديمهم . وقالت قریش لرسول الله صلى الله عليه وآله كيف تجلس

اليك وعندك هؤلاء وأشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فأُنزل الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حينما دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم « فقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعد منهم من الاشرار » قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم

ثم كان من هؤلاء المتكبرين من منعهم تكبرهم عن التفكير والمعرفة فجهلوا كونه صلى الله عليه وآله محمداً ومنهم من عرفوا ذلك ومنعهم الكبر والصلف عن الاعتراف بنبوته وقد أخبر الله تعالى عن هؤلاء بقوله « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وقال « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » وهذا النوع من التكبر قريب من التكبر على الله وفي مثل فحشه اذ انه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله عليه الصلاة والسلام

وأما التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم المتكبر نفسه ويستحققر غيره فتأبى نفسه الانقياد الى من هو ارفع منه من الناس وتدعوه الى الترفع عنهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون التكبر على الله ورسوله فهو أيضاً قبيح من وجهين أحدهما أن الكبر والاستعزاز والعظيم والتعالي لا يليق الا بالملك القادر سبحانه عز وجل فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق به الكبر والصلف لا جرم ان العبد على ما هو عليه من ضعف اذا تكبر فقد نازع الله تعالى في خاصية من خصائصه نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون لله سبحانه بون شاسع ولكنها مع هيئتها على تلك لا تزال قبيحة في نظر العاقل المتأمل

والوجه الثاني الذي تعظم به رزية الكبر ان يدعو المتكبر الى مخالفة الله تعالى في أوامره ونواهيه فان المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ومن ذلك ما تراء من التعنّت في المتناظرين بأسرار الدين الى أن يتجاحدا تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهما أنف الآخر عن قبوله وتشمر لجحده تعنتاً واحتمال لدفعه بما يستطيع من ايها وتليبس ومغالطة وهذا من أخلاق الكفرة والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألقوا فيه لعلكم تغلبون » فكل من يتناظر للغلبة والاقحام ولا يغتم الحق اذا ظفر به فقد شارك الكفرة في هذا الخلق القبيح وقد يحمل

ذلك على الانفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى « واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم »

« في البواعث على التكبرياء »

علمت ان التكبرياء خلق باطني وأما ما يظهر عنه من الافعال والاخلاق فهي ثمرته ونتيجه وينبغي ان تسمى تكبراً ويخص اسم التكبرياء بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير والتكبرياء الباطنية لها موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبرياء كما مرّ بنا فان المرء اذا أعجب بنفسه أو بعلمه أو بعمله أو بماله أو بسبب من اسبابه استعظم نفسه وتكبر

وأما التكبر الظاهر فاسبابه في المتكبر والمتكبر عليه وفيما يتعلق بغيرها وسبب التكبر في المتكبر هو العجب في النفس وسبب التكبر في المتكبر عليه هو الحقد والحسد وسبب التكبر فيما يتعلق بغيرها هو الرياء

أما العجب فقد ذكرنا انه يورث التكبر الباطن الموصل الى التكبر في الظاهر الاقوال والافعال والاحوال قال بعض الحكماء « من أثبت لنفسه تواضعاً فهو التكبر حقاً » ووجهه ان التواضع لا يكون الا عن رفعة فمعنى أثبت الانسان لنفسه تواضعاً فقد أثبت لها رفعة. وقال بعض العارفين المتبصرين مادام العبد يظن ان في الخلق من هو شر منه فهو متكبر حقه الاحتقار من الناس والازدراء

وأما الحقد فانه قد يحمل على المتكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى انه مثله أو فوته ولكن قد غضب بسبب سابق فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان عنده مستحقاً للتواضع فكم من دنيء لا تطاوعه نفسه على التواضع الاكبر منه لحقده عليه أو بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى ان لا يستجله وان كان في حقيقة جليلاً حقداً له وبغضاً وأما الحسد فانه أيضاً يوجب البغض للحسود وان لم يخف الحسود من أذيته وكذلك الحاسد قد يبغض الحسود فيستكف من التواضع له ولو كان في ذلك خيره كنه لم يعلم أو استفادة مال أو غير ذلك تكبراً وبغياً فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بانه أهل لان يتواضع له لعلمه أو فضله

وأما الرياء فهو أيضاً يدعي الى التكبر حتى ان الرجل لينظر من يعلم انه أفضل منه فيكون باعته على التكبر الرياء المجرد ولو خلا معه وأمن الاشتهار لتواضع له وما تكبر عليه

اعترافاً منه بفضله

ومن هذا القبيل من ينتمي الى نسب شريف كذباً فإنه يعلم من نفسه انه كاذب في دعواه لكنه قد ادعى الشرف رياءً وتكبر به على من نسبه دون النسب الذي ادعاه واعلم أن التكبر لا يخفى على صاحبه كالصفرة على الوجه والشذر في النظر والخيلاء في المشي بل وتظهر الكبرياء على المتكبر في رنة صوته وهو يتكلم وميله في مشيته وهو يتبخر ولسان حاله يقول « يارض اشتدي ما عليك أحد قدي » كما تقول العامة في أمثالها وبالأجمال يظهر عليه التكبر في كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته

ومن المتكبرين من يجمع كل مظاهر الكبر ومنهم من يظهر عليه بعضها ويختمني البعض الآخر من ذلك ان يحب المتكبر ان يقوم له الناس كلما مر بهم ولكنه لا يقوم لاحد أو ان يمشي وخلفه آخرون يتبعون خطواته أو ان يزار ولا يزور أو ان يستنكف من مجالسة غيره ممن يظنهم أقل منه واذا جالسوه يستنكف أن يجلسوا في جواره ويطلب ان يكون جلوسهم بين يديه الى غير ذلك من المظاهر التي يظهر بها المتكبر أمام مواطنيه مما لا تخفى على من يراقبونه كجبر الطم لسان وقتل الشاربين وانتهاز المجالسين الخ الخ

« اللجاج والتعنت »

ومما جُبل عليه الانسان اللجاج والتعنت في المناظرة والجدال وهو خلق يتركب من الكبر والجهل معاً ولذلك قيل اللجاج من القحة والذمة من قلة الحياء وقلة الحياء من قلة المروءة وفي الامثال « لج صاحبك فحج »

والسر في ذلك كله هو أن الانسان يشترك بمناظرة في موضوع مع غيره وقد يكون جاهلاً ذلك الموضوع فيفحمه خصمه ويأخذه بالحجة فاذا كان غير متكبر رجع للحق واعتذر فلا يكون في ذلك تعنتاً وأما اذا كان متكبراً فيأبى عليه كبريأؤه ان يعترف بالحق فيتمسك بالباطل تعنتاً

ومن هذا القبيل الجدال والجدل يكون فيما يختلف عليه من شتات المسائل السياسية والدولية والادبية والصناعية حيث ان كل مسألة تقبل الجدال لاختلاف افهام ومدارك الناس فيما يعرض عليهم من المسائل

فان كان المتجادلون طلاب حقائق انتهى الجدال على سلام وعمت الفائدة وان كان فيهم من في نفسه كبر وصلف يفضي الامر الى التعنت والاستبداد بالرأي وينتهي

الجدال غالباً بين مثل هؤلاء الى خصام وشقاق وسوء تفاهم وينفضي الى التعمير واظهار العيوب والمطاعن القبيحة

والباعث على الخصام في الجدال هو رغبة المرء باظهار علمه وفضله وتهجمه على اظهار نقص الغير وهما شهوتان باطنيتان في النفس قويتان فيها فاطهار الفضل من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبيد من الطغيان ودعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية وأما الرغبة في تنقيص الآخرين فهو من مقتضى طبع السببية في الانسان حيث يرغب أن يبطش بغيره ويمزقه تمزيقاً

وهاتان الصفتان مهلكتان وهما تقويان بالمراظبة على الجدال فاذا اعتاده الانسان وساعدته عليه قوة حافظته وشغشقة لسانه فأثني عليه الناس لاجل ذلك وصانف لديهم قبولاً حسناً ووجد من وراء ذلك اعتزازاً اجتمع عليه سلطان الغضب والكبرياء والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات المهلكة تشق مجاهدتها فكيف بمجموعها وفي ذلك قلنا :

وجاهد اذا جادلت غيرك رغبةً باظهار حق يدفع الغي بالهدى

وحاذر اذا ما حجبك الخصم ان تكن على العنت في اخفاء حق لئلا بدأ

وكن بالذي ما أنت تجهل علمه كمن ترشد أو ما تعلمت مرشداً

بذلك تنجو من هوان تكبر وتكسب اعجاب الانام مؤكداً

وقال شاعرنا الانطاكي يوماً وقد ضاق صدره عن محاجج متنت :

علام تغالي برأيك جهلاً فتأني الصحيح وترضى الخطأ

فقف يا ابن ودي معي ههنا فما انا راض بنقل الخطى

« علو الهمة »

ومن خواص ذوي النفوس الروحانية علو الهمة وهو خلق مختص بالانسان فقط وأما سائر الحيوان الا أثر لعلو الهمة فيه وذلك اذ يتحرى كل نوع منها الفمل بقدر ما في طبعه وعلى مدى استطاعته وقد قال الله عز وجل « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » وقال أمير المؤمنين عليه السلام « قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروءته ، وشجاعته على قدر أنفته ، وعفته على قدر غيرته » وعلى هذا فالحر الكريم لا يقنع من شرف الدنيا مما انبسط له بل يطلب المزيد وينظر الى ما هو أسنى وأسمى وأرفع منزلة ومن الشواهد لهذا المعنى أن موسى الكريم عليه وعلى نبيينا وآله الصلاة والسلام

عند ما كلم الله سبحانه سألته النظر اليه أي انه ما اكتفى بشرف مخاطبة الحضرة الالهية بل طمع الى ما وراء ذلك من النظر الى الانوار القدسية استدلالاً على أن الحر الكريم لا يقنع بمنزلة، مهما كانت عالية وقد حاز عليها الا ويطمع بما هو فوقها وأشرف منها فكان نفسه أشبه بشعلة نار تأبى الا أن تشع وترتفع وقد قال في مثلها أبو الطيب المتني:

إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرامها الاجسام

وقال أيضاً :

لولا المشقة ساد الناس كلهم فالجود يفقر والاقدام قتال

وقلنا في هذا الباب :

من هان هان عليه أن يعيش بلا جاه وعلم ومال غير محترم
ومن سمت نفسه لا يرتضي أبداً هوناً وهل يرتضيه صاحب الهمم
فعمش عزيزاً نديها وافر الكرم أو مت شريفاً حميداً لكر والشيم

وقال شاعرنا الانطاكي :

لا تشفقوا لشبابي أن يضيع سديّ دون المآلي اذا ما عزّ مطلبها
فالنفس ان عظمت أعيت مطالبها وأتعبت رهباً من حيث يتعبها

فعلوّ الهمة خلق موجود في كل انسان الا أن الموانع التي تمنعه عن مقصوده تخيفه من عواقب الامور وقد قيل لابي مسلم الخراساني في صباه نراك تنظر طريلاً الى السماء كأنك تسترق السمع أو تتوقع نزول الوحي عليك قال لا هذا ولاذاك ولكن لي همة عالية ونفس تتطلع الى المعالي ذأنا بين عيش كعيش الهمج الرعاع وحال متناهية في الارتفاع فقالوا له ما الذي يشفي غلتك ويروي غلتك قال الملك قالوا فاطلب الملك قال الملك لا يطلب هكذا قالوا فما تصنع وأنت تذوب حسرات وتكاد تموت كمداً قال سأجعل بعض عقلي جهلاً وأطاب به ما لا يطلب الا بالجهل وأحرس بالباقي ما لا يحرس الا بالمثل فأعيش بين تدبير ضدين فان الحمول أخو العدم والشهرة أخت الوجود فنقول وبمثل هذه الهمة العالية بالغ أبو مسلم ما بلغه من بعيد الا مال ونقل الخلافة من بني أمية الى بني العباس بسعيه اذ لم يعرف السكّال

« الحياء والخجل »

ومن ثمرات الروحانية الحياء والخجل وهما من خصائص الانسان لا يوجدان في غيره من الحيوان وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان الحياء قال بعض الحكماء

« الحياء انقباض النفس عن القبايح » وهذا أحسن تعريف له ومتى قصد به الانقباض عن الجرأة فهو ممدوح بالصبيان والنساء وأما اذا كان انقباضاً عن القبايح فهو ممدوح لكل انسان

وأما الخجل فخيرة تلحق النفس لفرط الحياء وتكتمشها عن الاقدام والجرأة وهو محمود في النساء والصبيان ويذم في الرجال وقد قيل في الامثال « الحياء للرجال يكسب الفقر والحمول »

و ضد الخجل القحة وهي مذمومة بكل انسان وتعريفها جريرة المرء على غيره بالحق وبالباطل وحقيقتها لجأ النفس في تعاطي القبايح وقد قال في ذلك الشاعر :

صلاية الوجه لم تغلب على أحد الا تكامل فيه الشر واجتماعا

وقلنا في هذا الخلق لواقعة حال :

عجبت لمن يلقى الانام بلا حياء ويدكر فيما بينهم شر ما عمل
نخوراً بأثام أتاها سفاهة وجاء يباهي الناس فيها بلا خجل
ألا ان من يأتي انفجور يسرها عن الناس خوف اللوم والهون ان عقل (١)
والحياء خلق مركب من جبن وعفة فلا يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحيماً
لتنافي اجتماع العفة والفسق وقلمما يكون الشجاع مستحيماً والمستحي شجاعاً لتنافي
الجبن والشجاعة

وأسباب الحياء كثيرة وأشدها تأثيراً في الانسان سببان هما الامل والاستعظام أما الامل فقد قيل من أمل أحداً هابه قال الباقر عليه السلام « من أمل رجلاً هابه ومن

(١) ارنجل عظمة مولانا الشيخ المعز حفظه الله هذه الايات في أحد مجالسه حيث وفده عليه أحد اشرف بغداد وأخذ يقص على مسامعه الكريمة الكثير من الاثام التي أتاها في زيارته أوروبا وكان عظمتة برحابة صدره يسمع حديث نزيله وهو غير راض طبعاً عنها حتى اذا انصرف مال الينا وقال أتدرون ما كنت أفكر والرجل يقص قصته ?? قلنا لا قال كنت أنظم أبيات ورواها فعجبنا لبداية عظمتة ولما رمى اليه بانشادها لنا نحن عبيده فقد أراد عظمتة حفظه الله أن يظهر لنا انه لم يكن راضياً عن حديث نزيله وأن يؤدبنا أيضاً بها اذ أن عظمتة كان ولا يزال خير مؤدب لنا على هذا النحو أي انه أطال الله بقاءه يذهرز كل فرصة لتثقيف عقولنا بالمواعظ الواقعية من غير أن يواجهنا بشديد النصيح مباشرة وهذه الميزة هي من خصائص عظمتة التي امتاز بها

قصر عن شيء غابه « وقال الهيثم « ربما يبلغني عن الرجل يغتابني فاذا ذكر استغفاني عنه فيكون عليّ ذلك « وأما الاستعظام فان الانسان متى ما استعظم أحداً استحي منه ولو لم يكن بحاجة اليه فيكبر في نفسه أن يطلع على عيوبه ولذلك لا يستحي من الحيوان الغير الناطق ولا من الاطفال الذين لا يميزون ولكنه يستحي من الملك أكثر مما يستحي من الصعلوك ومن العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الزرد

والذين يستحي منهم الانسان ثلاثة هم البشر ونفسه والله عز وجل أما البشر فهم أكثر من يستحي منهم الانسان وذلك خوف تشهيرهم به فيحطون من قدره في ذكر سيئاته ثم يستحي من نفسه وذلك اذا كان له ضمير حي يوبخه على سيئاته أما اذا لم يكن له ضمير حي يوبخه فلا يستحي منها وأما حيأؤه من الله فهو اذا كان ذا دين يرجو الثواب ويخاف العقاب أما اذا كان ضعيف الايمان فلا يستحي من الله فيما يفعل من الموبقات في الخفاء قال رسول الله صلى الله عليه وآله « استحيوا من الله حق الحياء » وقال سبحانه وتعالى « ألم تعلم بان الله يرى » على ان العبد اذا علم ان ربه يراه استحي من ارتكاب الذنب وسئل بعض العلماء عما يتولد منه الحياء من الله تعالى فقال « ان يرى العبد آلاء الله ونعمه عليه ويرى تنصيره في شكره » فان قال قائل فما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله « من لا حياء له لا ايمان له » قلنا له ان الحياء أول ما يظهر من اماره العقل في الانسان والايمان آخر ما يظهر منها ومن الحال أن يحصل على المرتبة الاخيرة من اماره العقل من غير أن يحصل على المرتبة الاولى

ومن ثمرات الخجل الحصر في المنطق فان كثيراً ما يحصل ذلك للانسان اذا تكلم في جمع من الناس أو وقف خطيباً بينهم

روى أبو الحسن المائي قال صعد ابن لمدي بن أرطاة المنبر فلما رأى الناس حصر فقال الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويستقيهم . وصعد روح بن حاتم المنبر فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم وصرفوا اسماعهم نحوه قال نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم فان المنبر أول مركب صعب فإذا يسر الله عز وجل فتح قلباً ثم نزل . وخطب مصعب ابن حيان أخيراً مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر فقال لقنوا موتاكم لا اله الا الله فقالت أم الجارية عجل الله موتك ألهذا دعوناك ؟

ومن ثمرات الحياء المنع من القبيح فقد جعله الله في الانسان

عمسا تنزع اليه نفسه من الموبقات فلا يكون كالبهيمة ومن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه قال الشاعر :

لاتسأل المرء عن خلأئفه في وجهه شاهد سن الخبر
وقال آخر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلب في الامور كما يشاء
وقلنا لواقعة حال :

لا تبعجبوا الفلان في مساوئه ألم تروه وماء الوجه تدنضبا
من لا حياء له لا دين يمنعه عن المساوي فيأتي الشر والنلبا
وقال شاعرنا الانطاكي لواقعة حال : (١)

دعه على بادي سفاهته يسب الصالحين بلا هدى وحياء
أو ترجي من مثله خيراً وها هو ما كف جهراً على الصهباء
« العفة »

ومن ثمرات الروحانية العفة فمن غلبت روحانيته عليه كان عفيفاً بطبيعته زاهداً بالشهوات على أنواعها ومعنى العفة بالحصر هو ان يعف الانسان عمسا في يد الغير من مال وجاه وعرض وكلها محمودة وأمجدها التعفف عن الزناء

وصف اعرابي امرأة طرقتها فقال مازال القمر يرينيها فلما غاب ارتنيه ففيل فما كان بينكما قال أقرب ما أحل الله مما حرم اشارة في غير بأس ودنو من غير مساس وأنشد الرضي الموسوي رضي الله عنه :

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم
وبات باسم ذاك الثغر يوضح لي مواقع اللثم في داج من الظلم
وأحسن منه مطابقة لهذا المقام قوله رحمه الله :

خلونا فكانت عفة وتعففاً وقد رفعت في الحي من الموانع

(١) كنت مرّة في حفلة عرس في البصرة فاذا بسفيه من ذوي اليسار قد امتلا رأسه ببخار العقار فجعل يتناول على الصالحين الاخير فحاول أحدهم ان يسكته بصفحة كف فاعترضته بهذين البيتين وفي اليوم التالي نمي الخبر لعظمة ولي النعم روجي فداه فمره من عبده هذا المتوسط الذي حال دون اتساع الشر في صنع ذلك الجاهل الغر

سلوا مضجعي عني وعنهما فانتما
وقلنا في هذا المعنى :

أتنتني وقد أرخى الظلام سدوله
وبنتنا كما شاء الغرام على هوى
وقال شاعرنا الانطائي :

خلوت بجمل لا أخاف مراقباً
ضممت بها قدماً لقد أخجل القنا
وأحييتها حتى الصباح على صفا
وشعر العرب في هذا الباب كثير
وعندي أن أكثر الشعراء يدعون العفاف
دعوى لكيلا يدخلوا تحت حدّ الزناء أو أنهم في كلّ واحدٍ يهيمون ويقولون ما لا يفعلون
والله أعلم

ومن نوادر ما يروى أن خارجياً نزل يوماً على بعض اخوانه مستترأ من الحجاج
فشخص المضيف لبعض حاجاته وقال لزوجته يا ضيا أوصيك خيراً بضيفي هذا وكانت
من أحسن النساء وجهاً فلما عاد بعد شهر قال لها كيف كان ضيفك ؟ قالت ما اشغله
بالعمى عن كل شيء وكان الضيف قد أطبق جفنيه فلم ينظر الى المرأة ولا الى منزلها
الى ان عاد زوجها

ومثل هذا ما يروى لجنون ليلى العامرية انه اجتمع معها فدخل زوجها عليها بغتة
فدخلت المجنون ما بين جلدها وثوبها الى أن خرج زوجها فأخرجته فسئل المجنون بعد
ذلك ما رأيت من محاسن ليلى ؟ فقال والله دخلت أعمى وخرجت أعمى
« الوفاء والصدق »

ومن ثمرات الروحانية الوفاء وهو ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي
والبقاء عليه ما طال العهد والصدق ملكة تحصل من لزوم الاقوال المطابقة للواقع
والرغبة في تجنب الاكاذيب وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفة ملازمتان لها
قال الشاعر :

كمال الفضيلة صدق الحديث
وقلنا في الصدق :

تجنب الكذب واعلم انه سبب
الى الهوان وكره الله والناس

ولا لزم الصدق تظفر في معزته ولا تبت على همهم روسواس
وقلنا في الوفاء :

كن كالسموأل في حسن الوفاء اذا رمت الفخار وحب الناس والشرفا
وانما كرم الاخلاق أجمعها شهم لاخوانه بالمكرمات وفي
وقال شاعرنا الانطاكي :

عالمني يا عميد الناس أجمعهم حسن الوفاء وصدق القول والعمل
لما رأيتك في صدق المقال مع الـ وفاء قد بت فينا مضرب المثل (١)
وقال الاحنف بن قيس « خصلتان لا يجتمعان في انسان الكذب والمروءة »
فان المروءة تنبجة روحانية ومن ثمراتها الصدق والوفاء والحياء والعفة فلا يمكن ان
تكون مع اضدادها وأهمها الكذب على حد قول الشاعر :

لي خيلة فيمن يـمـ وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل خيلتي فيه قليله

وبعد فشكل خلق حسن فهو من نتائج المروءة والمروءة نتيجة الروحانية المودعة
في الانسان فيقوى كل خلق حسن في الانسان بقوة روحانيته ويضعف بضعفها
ومن ثمرات المروءة الاثار على النفس مع الحاجة قال الله تعالى « ويؤثرون على
انفسهم ولو كان بهم خصاصة » قيل أن هذه الآية الشريفة نزلت في رجل من الانصار
أضاف رجلاً نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجد عنده شيئاً فسار به الى
منزله ووضع بين يديه طعاماً وأمر امرأته باطغاء السراج وجعل يمد يده مع الضيف
يوهمه انه يأكل معه وهو لا يأكل حتى استقر في الضيف كفافه فلما أصبح قال رسول
الله صلى الله عليه وآله « لقد أعجب الله عز وجل من ضيفكم مع ضيفكم » وقيل في
سبب نزولها انه أهدي لبعض الصحابة رأس مشوي وكان مجهداً فوجه به الى رجال

(٨) أنشدت عظمة، ولاي المعز مرتجلاً هذين البيتين في مجلس جرى فيه ذكر أحد
ولاة البصرة بحضرته العلية بمعرض ذم وكان ذلك الوالي في بدء عهده من المنتمين
لعظمته المتحبين اليه ثم لجهل منه وحافة بطبعه قلب لعظمته ظهر الجبن فكان ذلك
وبالا عليه أما عظمة مولانا أعزه الله فأبى ان ينسى تودد ذلك الوالي لعرشه وكان يأبى
دائماً سماع ذمه وهو يقول « ان الحسنات يذهبن السيئات » فأنا لا أنسى لذلك
الوالي تودده اليّ وان خطاه الاخير قد لاقى فيه جزاءه فحسبه ما لقي وعلينا أن نغفو

فتداولته تسعة أنفس ثم عاد الى الاول فنزلت هذه الآية بسبب ذلك
وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بني النضير للانصار
« ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وان
شئتم كانت لكم ولا أموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة » فقالت الانصار « بل نقسم
لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها » فنزلت هذه الآية
وقيل نزلت في سبعة عطشوا في يوم أحد فخفي بماء يكفي أحدهم فقال واحد منهم
فأول فلان وهذا أحاله على الثاني حتى طيف به على السبعة وماتوا ظمأ ولم يشرب
واحد منهم فأثنى الله سبحانه عليهم

وقيل نزلت في رجل جاء رسول الله صلى الله عليه وآله فقال أطعمني فاني جائع
فبعث الى أهله فلم يكن عندهم شيء فقال من يضيفه هذه الليلة فأضافه رجل من الانصار
وأثنى به الى منزله ولم يكن عنده قوت صبيانه فباتوا جوعاً وجعل المضيف يمضغ لسانه
لضيف رسول الله فظن الضيف انه يأكل معه فلما أصبحا غدوا الى رسول الله فنظر
الى الانصاري وتبسم وتلا هذه الآية

هذا ما قيل والصحيح أن الذي أضاف الضيف وترك ضيفته ينامون على الطوى
واطفاً السراج هما علي وفاطمة عليهما السلام ذلك ما رواه ثقات المحدثين وكبار مفسري القرآن
وأشبه هذه الحوادث في العرب كثيرة وهم أهل البر والكرم يؤثرون ضيوفهم على
أنفسهم ولو كانوا على خصاصة ولو أردنا أن نستقصي الروايات والنقص من هذا التبريل
لضاق بنا المجال بل لنا وللقصص فإن كل من يزور العرب ويتجول في ديارهم يرى
من المروءة والايثار على النفس ما لا يراه في العالم أجمع

ومن الطوف ما جاء عن الايثار على النفس حديث حذيفة المدوي قال انطلقت يوم
الربيع أطلب ابن عم لي ومعني شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمل سقيته منه
ومسحت وجهه بالباقي فلما وجدته أشرت اليه أن أسقه فقال لي ابن عمي نعم واذا
برجل يقول أه فأشار اليه هشام أن أطلق اليه فجفنه فاذا هو قد مات فرجعت الى
هشام فاذا هو أيضاً قد مات نقول وانها مروءة محدودة وفق الله الجميع الى التحلي بها

﴿الخاتمة﴾

هذا ما أوردناه عن القوى الشهوية والغضبية والروحانية ونحسبه كافياً لتقريب
حقائقها من الافهام واننا نختم هذا المورد في بيان أمرين أولهما فيما يعتمد النفس البشرية

ولا اختصاص له بقوة من القوى الثلاثية والثاني في بيان ما يؤثر في نفس الانسان وهي أمور سبعة ستأتي مفصلة ان شاء الله تعالى وهاتين ذانبدأ في بيان الامر الاول ونفرعه تقريراً يجمع بين الفائدة والفكاهة على النحو الذي رآه القاري الكريم « الطبع والتطبع »

قال بعضهم ان الاخلاق لا تتغير اذا كانت طبعاً في الانسان لا تطبعاً واستدل على ذلك بأمرين أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فكما أن الصورة الظاهرة الخلقية لا يمكن تغييرها فلا يصير القبيح جميلاً والتصير طويلاً وكذلك الخلق الباطن يستحيل تغييره ولا سيما اذا كان خالقاً بغير تخلق وطبعاً بغير تطبع

والثاني أن حسن الخلق يجمع الشهوة والنضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع ولذلك اذا لم يكن للانسان من داخله خلق حسن يحول دون غضبه وشهوته فلاشتغال في تأديبه تضييع للزمان بغير فائدة على حد قول الشاعر :

لا تنتهي النفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر
فالملطوب اذن من الانسان أن يتطوع على نفسه خط التماذي في طاب الخلوظ
العاجلة من نفسه اما أن يتطوع عليه غيره بوعظه وتأنيبه فذلك ضرب من ضروب
الحال ولا نريد بهذا نكران فائدة الوصايا والوعظ والنصح كلا فان هذه وتلك وجدت
لمعاونة الانسان على ردع نفسه وتلطيف شروبه بتنبيهه اليها وعليها يترتب الحسن
والقبح والثواب والعقاب ولذلك قيل « من أنذر فقد أعذر » وقال الله تعالى « وذكروا
ان نفعت الذكري »

وأما ما نذهب اليه من تغيير الخلق وعدمه فالي ما يذهب اليه جالينوس من القول
بالنفصيل بان الناس على ثلاثة أقسام قسم طبع على الخير فلا يتغير طبعه الى الشر وقسم
طبع على الشر وهؤلاء كثيرون ولا يتغير طبعهم الى الخير ما دامت النفس أماراة بالسوء
وقسم ثالث طبع أصحابه بين الخير والشر وهؤلاء اذا حسنت تربيتهم وكثر نصيحهم
وارشادهم وعظم رجونا الخير من تقويم أودهم واصلاح ما فسد من أخلاقهم
ومن شواهد هذا المذهب ما نقل عن ارسطاطليس حكيم الروم قال « نقل الطباع
من ردي الاطباع شديد الامتناع » وأخذ المتنبى هذا المعنى فظمه بقوله :

يراد من القلب نسيانكم
وقلنا نحن أيضاً في هذا المعنى :
وجارية أوفيتها الحب صادقاً
فهل خلق فيها النفور ولا ترى
وقال ارسططاليس « تنهى الأفعال التي هي غير مطبوعة أشد انقلاباً من الريح
الهبوب » ونظم المتنبي هذا المعنى بقوله :
واسرع أفعالا أردت تغييراً
وله في هذا المعنى أيضاً :
كل امرئ راجع يوماً لشيمته
وان تحاقت أخلاقاً الى حين
وله أيضاً :
ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه
وقال صالح بن عبد القدوس :
والشيخ لا يترك أخلاقه
اذا ارعوى عاد الى جهله
وقلنا في واقعة حال :
لا تلوموا خائناً ملكه
بطعم هون وكسب يسير
فطبعه قد ساقه للخنا
والطبع قهار فهل من عذير (١)
وقيل سأل بعض الملوك وزيره هل الادب يغلب الطبع أم الطبع يغلب على الادب
فقال الوزير بل الطبع فوق الطبع ثم ان الملك أراد افحام وزيره فاستدعى دائدة
(١) وسبب نظم هذين البيتين وأنا في خدمة عظمة مولانا ولي النعم الشيخ خزنعل
خان المعظم هو أن رجلاً ربي في نعمة عظمته وعاش في ظله عهداً طويلاً ثم أغراه عدو النعم
فانضم اليه وانقلب على ولي نعمتنا ونعمته انقلاباً أصابه شره ورجع بعد حين مستغفراً
لخليفة ولي النعم فقابلته عظمته كعادته بالرحمة والغفران وأبى أن يذكر له خيانتة ولوعلى
مجرى العتاب ترفعاً من عظمته ومبالغة بكرم أخلاقه حفظه الله وكانت حاشية ولي النعم
حفظه الله تكثير من لوم هذا الانسان بل شبه الانسان وكان مولانا كلما سمع من يعرض
بهذا الرجل يسكته الى أن كثر المعروضون فأنشدنا عظمته في أحد مجالسه الزاهرة هذين
البيتين الدالين على غاية الغايات في مكارم الاخلاق

الشراب وأحضر سنانيير بأيديها الشموع المضاءة فوقفت حوله وكانت قد تطبعت على ذلك وقال للوزير أنظر خطأك في قولك الطبع يغلب الادب فقال الوزير أمهاني يامولاي الى الليلة التالية قال أمهلتك فلما كانت الليلة التالية جي بمائدة الشراب وأقبلت السنانيير بشموعها وفي الحال أفلت الوزير من كمه فأراً كان قد أحضرها معه فلما رآته السنانيير رمت الشموع وتبعته الفأرحى كاد البيت يحترق فقال الوزير أنظر أيها الملك كيف ان الطبع يغلب الادب وأنشد :

إذا كان الطباع طباع سوء
وقال أحد الشعراء :

ظلمت امرءاً كلفته غير طبعه
وقال شاعرنا الانطاكي :

طبعت على الوفاء فلست أنسى
فان أوفيت في ودي فطبع

وعن حماد الراوية قال كانت عتبة بنت عفيف وهي أم حاتم أعظم الناس سخاءاً وأكثرهم عطاءً فلما أسرفت على نفسها وأضر بها جودها حبسها اخوها في بيت سنة يطعمونها قوتها ولا يمكنونها من مالها وكانت موسرة ثم أخرجوها بعد السنة وهم يظنون انها قد بلغ بها الادب ودفعوا اليها صرة من مالها فأتتها امرأة من هوازن فأعطتها الصرة وأنشدت :

لعمري ليوماً عضني الدهر عضّة
فأليت ان لا أمتع الدهر جائعاً
فقولوا لمن قد لامني اليوم فاعفني
وان أنت لم تفعل فعض الاصابعا
فما ماترون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركي يا ابن أمي الطبايعا

وقيل لما مات حاتم الطائي أراد أخوه أن يتشبه به في الجود فقالت له أمه لا تتعب بما لا تناله فقال وما يمنعني وقد كا شقيقي من أمي وأبي قالت اني لما ولدته كنت اذا أردت رضاعه أبني وامتنع حتى آتبه بمن يشاركه في الشدي الاخر وكنت أنت اذا أرضعتك ودخل علينا صغير بكيت حتى يخرج وما أحسن ما قاله المتنبي الماماً بهذا المعنى :

وكل بري طرق الشجاعة والندی
ولكن طبع النفس للنفس قائد

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « اذا قوي وال في عمله حركته ولايته على حسب ماهو مركز في طبعه من الخير والشر » وأنت تعلم ان الطبع يبعث على الخير والشر

ولكن المانع لظهورهما في الانسان أما الضعف وعدم القدرة أو الخوف من تحمل التبعة كما قال أبو الطيب المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم
وكما قلنا :

اذا شمت من في طبعه الخير ساكتاً وشمت الذي في طبعه الشر ساكتاً
فذاك لضعف أو تخوف محنة لقد تركا طبع الفقى فيه كما منا
وقال أمير المؤمنين « اذا كان في رجل خلة رائعة فانتظروا منه اخواتها فقد تكون
فلتة » مثال ذلك ان ترى انساناً بسيطاً وقد صدرت عنه خلة تروعك وتعجبك اما لحسنها
أو لقبحها فلا تعجل بالحكم عليه بل انتظر منه أخواتها لان طبيعته الباطنية التي حر كنهه
على عمل ما أعجبك أو راعك لا بد أن تحر كنهه الى فعل ما يناسبها ماذا والا فيكون عمله
المفرد اما بالصدفة أو بدافع مخصوص قد يكون ضد طبيعته

وقد يصادف الانسان أن يعمل عملاً على غير استعداد منه قبيحاً كان أو حسناً فإذا
وجد ما يشجعه على مثل عمله صار له ذلك العمل عادة اما تعود عليه بالخير أو بالشر من
ذلك ما روي عن الاخنف انه حلم يوماً على سفينة تجرأ عليه فسيبه فقبل له في ذلك فتبسم
وقال دعوه فاني قتلتهم بحلمي وسبق قبل نفسه بجراته فلما كان بعد أيام تجرأ ذلك السفينه
على زياد وهو أمير البصرة وظن انه كالاخنف يقابله بالحلم فساء فآله اذ أمر في الحال بقطع
لسانه ويده

ومما تقدم يظهر بوضوح أمران أولهما ان الطبع غير قابل للتغيير والثاني ان الطبع
باعث على أفعال الخير والشر ما لم يمنعه مانع من ضعف أو خوف ناشئ عن عقل أو شرع
« الأفعال الظاهرة تدل على الاخلاق الباطنة »

ولابد لنا من القول هنا بان الأفعال الظاهرة تدل على الاخلاق الباطنة وذلك لان
الانسان مادام عاقلاً مدركاً فهو بطبيعة الحال لا يأتي أي فعل كان بغير أن يستحسنه
تصوره ويتفق مع طبعه واذا كان التصور الذي هو نتيجة الطبع خفياً في داخل الانسان
مما لا يمكن الاطلاع عليه كان الحكم عليه مما يصدر عنه من الأفعال ان خيراً أو خيراً وان
شراً أو شراً

قال أمير المؤمنين عليه السلام « اذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره فانك
تقف من رأيه على عدله أو جوره أو خيره أو شره » وقال الشاعر :

قد يُستدلُّ بظاهرٍ عن باطنٍ حيث الدخان فتمَّ موقف نار
وهذا مأخوذ من قولهم « لا دخان بغير نار » وقولهم « ما الدخان على النار وما
العجاج على الريح بأدلَّ من ظاهر الإنسان على باطنه » وفي ذلك قلنا :
واذا جهلت خلائق الخلق الألى يتظاهرون بغيره ونجاد
فانظر لما فعلوا من الاحسان في ما قد مضى واحكم بكلِّ سداد
وقال أحد الشعراء :

ومهما تكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وقال أمير المؤمنين ما أضمر أحدكم شيئاً الا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه
وذلك لان اللسان هو دليل الجنان ولوجهه هو مرآة الباطن فمكر الرجل باخفاء
باطنه واظهار غير ما في نفسه لا بد وان تمَّ عليه فلتة من فلتات لسانه أو لحة من لحات
وجهه لان العقل هو الذي يتصرَّف بدهائه في اظهار غير ما في الباطن فاذا اشتغل في
موضوع آخر سها عن ضبط ما أخفى فانفضح وهذا هو السرِّي كشف كثير من الجرائم
واقتراح كثير من سراير المرائين الخادعين

وقد يتمُّ الوجه عن خلائق صاحبه وهو ما يسمونه بعلم الفراسة أي معرفة خلائق
الرجل من النظر الى جبينه وعينه وأنفه وفمه ويده الخ وقال الشاعر مشيراً الى هذا :
لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد عن الخبر
وقال آخر :

وفي عينيك ترجمة أراها تدلُّ على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدي اللين فيها غدت وكأها زير الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا وقال الله أو فوا بالعهود
وليعض تدماء الشعراء :

وطلع من نفسه ما سره عليه من اللحظ الخفي دليل
اذا القلب لم يبد الذي في ضميره ففي اللحظ والالفاظ منه رسول
وقد أحسن ابن المعتز في هذا الباب بقوله :

تفقد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام فانك تبني ثمار العيوب

وقال شاعرنا الانطاكى :

لا تجهدي النفس في التضليل كاذبةً فقد صغيت لعدائي ولو آمي
اني قرأت بعينيك السلو فلا يجديك من بعده هذا اليوم ايها مي
وقال صادق لهشام في جملة قول له « لان الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من
العقل الا بظاهر منه وناطق عنه فليعلم الباطن من الظاهر كما يعلم من حمرة الوجه وانتفاخ
العروق وغلظ الصوت وشدة الغضب ارادة الانتقام ومن اصفرار الوجه وتضاؤل البدن
وتحريك الفرائص وشدة الخوف كل ذلك للتناسب بين النفس والبدن بحيث يصل أثر أحدهما
الى الآخر » كذلك تعلم الصفات النفسانية والكمالات الروحانية والعلوم والعقائد
الراسخة القلبية من الاعمال والافعال الصادرة عن الاعضاء الظاهرة والسري في ذلك هو
ان الاخلاق الباطنة تنم عليها الافعال الظاهرة كدلالة الاثر على المؤثر
أما علم الفراسة وقد سبقت الاشارة اليه فهو عبارة عن الاستدلال بالخلق الظاهر
على الخلق الباطن فقد روي في الاثر « ان الطرش في الكرام، والهوج في الطوال،
والكياسة في القصار، وحسن الخلق في الحول، والكبر في العور، والبهت في العميان، والذكاء
في الخرص »

وقيل انه مكتوب في التوراة « تسع خصال في تسع رجال : الشؤم في الاعور،
واللجاجة في الاحول، والغفلة في الطويل، والفتنة في القصير، والكياسة في الكوسج،
والتكبر في الاعرج، والشاطرة في الاحدب، والخبث في الاشقر » نقول وهذا لم نقف
له على أثر في التوراة ولكننا رأينا بعضه في المشاهدات وقد نظم بعضهم أبيات يحذرها
الناس من تسعة رجال قال :

توق رعاك الله تسعاً من البشر فصحبهم تفضي الى البؤس والضرر
وهم أحول مع أعور ثم أحدب كذا كوسج يتلو نشاطاً من الكدر
واياك والانف الطويل وأصعرت فانهما بيت الحيانة والخطر
كذا غائر الصدغين خارج جبهة كذا أزرق العينين فالخدر الحذر
توقاهم تحيا سليماً من الردى وباعدهم ياذا الفراسة والنظر
وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل
على لطف الحركة فاذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد والعين المتوسطة في حجمها
دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة والتي يطول تحريفها تدل على الحمق والتي يكسر طرفها

تدلُّ على خفة وطيش والشعر في الاذن يدلُّ على جودة السمع والاذن الكبيرة المنتصبة
تدلُّ على حمق وهذيان الى آخر ما قيل من هذا القبيل مما تراه في كتب علم الفراسة
وبعضه يصدق والبعض لا يصدق
« في العادة »

قد عرفت فيما تقدم أنَّ سبب وجود المملكات في الانسان شيان أحدهما الطبع
والآخر التطبع أو العادة فالطبيعة هي ما يقتضيها أصل المزاج وأما العادة فهي حاصلة
بسبب التكرار والمزاولة للأعمال حتى تكون خلقاً يمسر زواله فقد قيل « العادة طبيعة
خامسة » وقالوا ان المملكات تحصل بتتابع الفعل وتكراره لأنَّ الفعل يتبع أولاً وتعود
منه الذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار
فتكون ملكة أي صفة راسخة وقالوا ان المملكات اذا استقرت ورسخت في انسان
أصبحت طبيعة وجبة فيه وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه « الانسان ابن عوائده
ومالوفاته لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه من الاحوال حتى صار ملكة وخلقاً وعادة
ينزل منه منزلة الطبيعة والجملة » ومن الكلمات التي تعزى الى أمير المؤمنين عليه السلام
« العادات قهورات ، من اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلا نيته » والقول
في العادة كالقول في الطبع فكما ان الطبع لا يمكن تغييره كذلك العادة يعسر تبديلها
والتحجوس عنها وكما أنَّ الطبيعة بائنة على الافعال كذلك العادة سائقة الى الاعمال
قال الشاعر :

اذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فان فطام النفس عنه شديد
ومن أمثال العرب « عادة السوء شرٌّ من المغرم » ومعناه من عودته شيئاً ثم منعه
عنه كنت أشد عليه من الغريم وقيل معناه أن المغرم اذا أدبته حقه فارقك وعادة لموء لا تفارق
صاحبها بل تكون فيه طبعاً ثابتاً وقال الشاعر في ذلك :
من عود الناس احساناً وتكرمة لا يعتبن على من جاء في الطلب
ومنه قلنا :

عودوها الدلال اذا صار خلقاً ليس عنه في حبه تتحول
فتصبر أخا الهوى وتعمل بالتلاقي وفي الصدود تحمل
وخليق بصها يتحمل وخليق لحسها تتدلل
ومحال تغيير عادة نفس زاولتها هيئات ليس تبدل

ومن ألف شيئاً فتعود عليه صعب عليه تركه من ذلك حب الحياة حتى ترى المقعد
الاعمى الكثير الاوجاع الشديد المتربة لو عرضت عليه الموت ليستريح من اسقامه ومتاعبه
لاباه ونقر منه وقد قال المتنبي :

الف هذا الهواء أوقع في ألا : نفس ان الحما مر المذاق
وقال آخر في العادة :

ولكن فطام النفس أثقل محلاً من الصخرة الصماء حين ترومها
وقال غيره :

لا تني بعد ان أكرمتني فشديده عادة منزعجة
وقال شاعرنا الانطاكي :

مولاي قد عودتني أن التقي لك برحب صدك باسم مسرورا
فجزعت حين رأيت وجهك عابساً بالله قل ما أوجب التغيرا
أجنيت ذنباً أم أتيت أثمـة هب قد أتيتها ألت غفورا (١)

ومن أمثال العرب « اذا تعود الستور كشف القدور فاعلم أنه لا يصبر عنها »
وبالجملة فالنزوع عن العادة شديد ولسنا نقول مستحيل ولذلك كان أكثر العقلاء
يحذرون الناس من الاستمرار على العادات القبيحة ويحضونهم على اعتياد العادات
الحسنة ومما يروي أن عيسى عليه السلام لقي خنزيراً على الطريق فقال له اذهب بسلام
فقبل له اتقول هذا الخنزير فقال اني أخاف أن أعود لسانی النطق بالسوء ومن هذا
القبيل قال بعضهم :

عود لسانك صدق القول تنجو به ان اللسان متى عودته اعتادا
ومن ثمرات العادة تهوين الامر الذي يعتاد عليه مهما كان شاقاً على النفس فان
العادة والممارسة للأعمال الشاقة تزيد في القوى كما ترى في الجمالين والفلاحين وغيرهم

(١) من مميزات عظمة مولانا السردار اقدس حفظه الله ظهوره للناس دائماً أبداً
طلق أسارير الوجه باسم الثغر حتى أن النظر الى وجهه المنير يبعث السرور والانشراح
للمتعبين بمشاهدته العلية فدخلت على حضرته يوماً فوجدته على غير عادته مقطباً
عابساً فجزعت حاسباً انه ولا سمح الله غاضب عليّ وأنا كما تعلم « حياتي في رضاء »
فارتجلت بين يديه هذه الايات وأنا فرق فقهه عظمته ضاحكاً وقال لا هذا ولا
ذاك ولكن أردت ممازحتك لما أعلمه من اخلاصك فخدمت الله على ذلك كثيراً

من أهل المهن المتعبة ومن عمراتها أيضاً ألفة ما تنفر منه الطباع كمن تعود دخيض الحروب
فلا يستفطع سفك دماء البشر وفي ذلك يقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول
وكذلك إذا اعتاد الفتى العزة من الناس وأكرامهم صعب عليه الهوان حتى يرى
الموت أسهل منه خلافاً لمن تعود الهوان فألفه حتى أصبح كما قال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما للجرح بميت إيلام
قال بعض الحكماء « لا تكثر معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك » ومن تأثر

العادة ما روي في تفسير قوله تعالى « استجود عليهم الشيطان » قالوا في تفسيرها وسئل
الشيطان أي ذنب إذا فعله ابن آدم استجود عليه؟ قال إذا أطاعني المرة الأولى . أقول
وذلك لأن الإنسان قبل اطاعة إبليس لا يلبث يستعظم المعصية فإذا فعلها المرة الأولى
أغرته نفسه بالثانية وهكذا حتى لا يبالي . من ذلك المقامر والزاني والسارق الخ وقد
قال أمير المؤمنين عليه السلام « ما زنا غيور قط » وذلك لأن من اعتاد الزنا حتى صار
دربته وعادته وألفته نفسه لا بد أن يهون عليه أمر الزنا حتى يظنه مباحاً أو في حكم المباح
لأن من تدرّب على شيء سهل عليه أتياه وكما يسهل عليه أتياه وزوال قبجه من نفسه
لم يعظم عليه أتياه من أهله وبناته فتسقط غيرته وهذا يشاهد بكثرة في البلاد التي كثرت
فيها الحرية الشخصية وبطلت الآداب الدينية حتى صار الزنا في أهلها عادة مألوفة

ومن قبيل العادة ما قالوا في تفسير العجب بأنه حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن
معرفة سبب الأشياء أو عن معرفة كيفية تأثيرها فيه أو عدم الاعتياد على رؤية الأشياء
أو سماعها مثال ذلك أن الإنسان إذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهداً من قبل فكثرت
حيرته لعدم معرفته فاعلمها فلو علم أنها من عمل النحل لتحير أيضاً من حيث أن ذلك
الحيوان الضعيف يستطيع أحداث المسدسات المتساوية الاضلاع التي يعجز عن مثلها
المهندس الخاذق من الفرجات المسطّرة ويتساءل من أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه
بيوتها المتساوية التي لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت في قالب واحد ومن أين لها هذا العسل
الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها وأنه ينفد فيه الغذاء وكيف
اهتدت إلى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه
فلا ينشفه الهواء ويظل طرياً فهذا معنى العجب والحيرة وكل ما في العالم هذه المثابة إلا أن
الإنسان يعود على النظر إلى هذه الخوارق منذ صباه فيألفها وتزول حيرته بها بحكم

الالفة والاعتماد ألا ترى الانسان ينظر الى هذه الافلاك وهي داعية الى الدهشة فلا يندهش حتى اذا رأى ما لم يتعود على رؤياه كحيوان غريب الحلقة أو اختراع جديد من اختراعات الفرنجة المستحدثة فيأخذ بتسبيح الله عجباً واندهاشاً

ومن قبيل حكم العادة ان الاتقياء من المسلمين اذا رأوا مسلماً أفطر في يوم من شهر رمضان أنكروا ذلك عليه إنكاراً ورموه بالكفر والزندقة وقد يشاهدون من يخرج الصلاة عن أوقاتها ولا تنفر طباعهم منه نفرتهم ممن أفطر مع ان صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند آخرين وترك صوم رمضان كله لا يقتضي مثل ذلك وما السبب في استنكار افطار الصائم وعدم استنكار مهمهل الصلاة الا ان الصلاة تنكرر والتساهل فيها بين الناس مما يكثر فيهمون أمرها على القلب للكثرة المشاهدة خلافاً للصوم الذي يكون شهراً واحداً في السنة

وكذلك يستنكر على الفقيه ان يلبس ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو ان يشرب من اناء فضي أو ذهبي ولا ينكر عليه ان يتصدر المجالس باغتياب الناس والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تنكر أشد من لبس الحرير واستعمال الذهب ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين اسقط وقعها في القلوب وهون على النفوس أمرها

ومن ثمرات العادة غلبتها على اللسان بل وسائر الاعضاء فكل من اعتاد فناً من الفنون الادبية غلبت عليه قواعده واستعملها في أقواله وكتاباتاته نظماً كانت أو نثراً وغلب على تخيلاته في الماني التي يوردها ألا ترى أبا الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الادب والحكم كيف تغلب ألفاظ المنجمين فيها وهذا يظهر جلياً للنقاد المتأملين في كتابات الكتاب وقصائد الشعراء

حكى ان بعض الاطباء كان في خدمة أحد الملوك في غزوة فعند ما انتصر أمر الطبيب ان يبشر بنصرته وزيده فكذب «أما بعد فقد كنا مع العدو في حلقة كدائرة بیمارستان حتى لو رميت مبضعاً لما وقع الا على رأس مقاتل فلم يكن الا نبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بجران عظيم فهلك الجميع بسعادتك يا معتدل المزاج» ومن هذا القليل ما روي عن ابن سينا متغزلاً :

تصدى بعد صدّ للوصال وغازلني بسالفتي غزال
وأبدى من محياه ثنايا تراها كاللؤلؤ في الياالي
بوجه لا يزال يدور فيه على قطب الهوى فلك الجمال

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال
وقريب من هذا قول رياضي وهو يحتضر اللهم يا من هو قطر الدائرة ونهاية العدد
والجذر الاصم اقْبِضْني اليك زاوية قائمة واحشُرْني على خط مستقيم
ويحكى ان صاحب سلاح أحد الملوك وصائغاً وصاحب بقرة ومعلم صبية ترافقوا
على طريق فركبوا مركب الجد وواصلوا سير النهار بسير الليل فيمينا هم في وحشة الظلام
ومقاساة خوف أهواله آنسهم البدر بوجهه الكريم وأضاء لهم كل مظلم بهيم ففاض كل
منهم بوصفه فشبهه السلاح بالترس المذهب برفع عند الملك والصائغ بالسبيكة من
الابرز والبقر بالجبن الابيض يخرج من قلبه طرياً والمعلم برغيف أحمر يصل اليه من
بيت ذي مروءة من أحد آباء صيته

وبالجملة فلكل صنف من الناس أمثال تشاكلهم فلا تجد لكامل الا مثلاً كاملاً
ولا لساقط الا مثلاً ساقطاً وبذلك يعرف شعر الملوك وأبناء الامارة من شعر السوق
اذ كل أثناء ينضح بما فيه والسر في ذلك هو العادات المتمسكة في النفوس المتمكنة منها
فمن تميلاتهم الساقطة للشيء المريب قول الضواري :

إذا ما كنت ذا بول صحيح ألا فاضرب به وجه الطيب
والمعنى في البيت صحيح فان البول هو ميزان الصحة في عرف الطب الحديث
ولكن التعبير تشمئز منه الاسماع

وانصرف سيف الدولة بن حمدان من حرب وهو منتصر على مدبره فدخل عليه
الشعراء يهنئونه وفيهم رجل من أهل الشام فأنشده من قصيدة :
وكانوا كفاروسوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقف
فأمر بطرده من المجلس وقال قاتله الله جعلني سنوراً وجعل اعدائي فأراً وكلا
التشبيهين قبيح ومدح رجل المهلب فقال :

نعم أمير الرفقة المهلب أبيض وضاح كتييس الحلب
وربما ألف المتخصص مللاً عامياً أو تشبيهاً ركيكاً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة
الارازل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالذي حكى عن الاصمعي أن الرشيد
سأله يوماً عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له
الفضل بن الربيع اسقط الله جنبك أخطاب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان
الفضل بن الربيع مع قلة علمه لم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء

الاصمعي الذي هو واحد عصره وقريع دهره في الرواية
وخلاصة الامران الامثال أو التشبيهات هي تابعة للاحوال والعادات والظروف
فيجب ان يتنبه اليها الاديب

وورد عن اعرابي اختصم الى قاض فقال أيها القاضي ان خصمي وان هملج الى
الباطل فانه عن الحق لقطوف . وقال المبرد قيل لطيفي كم اثنين في اثنين ؟ فقال أربعة
أرغفة وقال طنبلي انتظرت فلاناً مقدار ما يأكل الانسان رغيفاً

ومن ثمرات العادة وتأثيراتها ما يروى عن بقراط انه قال يداوي كل عليل بعقاقير
أرضه لان الطبيعة تطاع بهوائها وتنزع الى غذائها وقال أفلاطون غذاء الطبيعة من
أرضها من أنفع أدويتها وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة بيل
القطر وأصل ذلك العادة والالفة وما ولد عليه الانسان وما نشأ فيه وقال بعض الاذكياء:
والنفس مولعة بما عودتها فدع الطبيب وعد الى المعتاد

روي عن سيمور ذي الاكتاف انه اعتل يوماً وكان في أسر الروم فقالت له بنت
ملكهم وقد عشقته ما تشتهي ؟ قال شربة من ماء دجلة وشعة من تراب اصطخر فاتته
بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقالت هذا من ماء دجلة وتربة من أرضك فشرب واشتم
بالوهم فنقه من علقته وللوهم تأثير لا ينكره أحد
« الطبع سراق »

روي الشيخ في الالهامي عن الصادق « من جالس الاحمق يوشك ان يتخلق
باخلاقه » وقال سلطان المنكلمين في كتاب الاخلاق « ليس شيء أشد تأثيراً في النفس
من الجليس » وقال في رسالة آداب المتعلمين « اياك والمناظرة مع غير مستقيم الطبع فان
الطبع سراق والحوارة مؤثرة والاخلاق معدية » وقال المحقق الملا أحمد النيراق في
كتاب معراج السعادة « ان في ابن آدم دواعي الخير ودواعي الشر وانما صاحبه يميل
به الى أحدهما » وقال فيه أيضاً « وصحبة كل أحد توجب الاتصاف بأوصافه والتخلق
باخلاقه » وكان بعض العقلاء يقول « ليس شيء أنفع لقلب الانسان من مخالطة الصالحين
والنظر الى أعمالهم وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر الى أفعالهم »
ولهذا قيل:

صاحب أخا أدب تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة مما تمر به تنمأ من النتن أو طيباً من الطيب

وقال آخر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال غيره :

إذا كنت في قوم فعاشر خيارهم ولا تصحب الاردي فتردى مع الردي
وقلنا فيما املاه علينا الفكر على سبيل النصيحة :

حاذر بني رجال السوء اهمهم قد يسابونك من آدابك الحسنا
ولا زل الفضلاء الصالحين اذا أردت ان تكسب الاخلاق والفتنا
وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال « يحشر المرء على دين خليله
فلينظر أحدهم من يخال » وقال بعض الحكماء لولده « يا بني احذر مقارنة ذوي
الطباع المردولة لئلا يسرق طبعك من طباعهم وأنت لا تشعر »

والسر في سرقة الطباع وانتقال عدواها بين الصحبة هو التعود عليها واثتلاف
النظر اليها حتى تنتقل من الاستحسان الى الالتزام ألا ترى الانسان يألف الميسر أو
المسكر لكثرة مصاحبته من يسكرون أو يقامرون بعد ان كان تقياً صالحاً يستهجن
هذا وذلك وينادي بانهما رجس من عمل الشيطان وكذلك كم من الفسقة والفجارتا بوا
وتاب الله عليهم بصحبة الأبرار والاختيار؟؟ ألا أن سرقة الطباع مما لا جدال فيه
وكما تكون سرقة الطباع بين الافراد من الناس تكون أيضاً بين الامم قال
الاصمعي « جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم خصلتين قلة الغيرة واللؤم وجاور أهل
البصرة الخزر فأخذوا عنهم خصلتين الزنا وقلة الوفاء وجاور أهل الكوفة السواد
فأخذوا عنهم خصلتين السخاء والغيرة » نقول وحكم الاصمعي على أهل هذه المقاطعات
في أيامه ونحن أوردناها هنا للاستشهاد فقط

وروى شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي عن أهل مصر وما كسبوه من الاخلاق بعد
هبوط الفرنجة بلادهم متأثر تأثراً كبيراً على أخلاقهم العربية وكذلك روى عن أهل
تونس والجزائر والشام لهذا العهد ما يظهر معه بكل جلاء بأن الاخلاق تسرق والطباع
تعدى وكذلك روى لنا التاريخ عن تأثير العجم فالترك في دولة بني العباس ما لا يشذ عن
هذه القاعدة وقلنا في هذا المعنى نخاطب ولدنا جاسب: (١)

(١) هو السردار أرفع سمو الشيخ جاسب خان كبير أنجال عظمة مولانا ولي النعم
السردار أقدس المعظم وعامله على المحمرة وهو كالأمرأه اخوانه من نوابغ الأمراء الذين

أجاسب حاذر جوار اللئيم وصحبة أهل الخنى والفساد
ولا زلم ببشر ذوي الحزم أهل الزكا والمعالي وأهل الرشاد
فان الطباع لئدي وعدوى الـ طباع تضيع النهى والسداد
ومصاحبة العاجز تكسب النشيط العجز والحيان تجعل الشجاع جبناً والشحيح
ترك الكريم شحيحاً وفي ذلك قال ابن زيد الخوارزمي :

عدوى البليد الى الجليد سريعة والجرير وضع في الرماد فيخمد
وبالجملة فمسارقة الطبع من المعاشرة أمر ظاهر لا يحتاج الى برهان (١)
وأما صحبة المتشاكين بالطبع فانها تزيد في طباعهما خيراً كانت أم شراً لان ما يعمل به
الانسان لو حده يتضاعف اذا كان معه شريك فيه يشجعه عليه

وقال الحكماء لا يتأتى تهذيب النفس الا بمفارقة قرناء السوء وعدم استماع قصصهم
الفاسدة وقالوا اذا كان المرء بطبعه شريراً فان صحبة الاخيار تنفقه وبالعكس اذا كان

تقربهم عين الادارة حاز على رضاء عظمة مولاه ومولانا والده العظيم ومحبوب من عموم
قبائل عربستان لشهائمه وشجاعته وكرمه ومكارم أخلاقه وتقائه بالاخلاص للعرش
العمالي الخزعلي حتى يتول فيه كل من عرفه «من شابه أباه ما ظلم» ولعظمة مولانا أعزّه
الله ثمانية أشبال غيره وكل منهم فرق في سماء الكمال وشهاب في أفق المجد وفيهم قد قلت :

بدور الشمس المكرمات وأنجم لافق العلى من نور خزل نورها
تلاي بأوار الذكاء وتمجلي بدوراً فيجلي الداجيات سفورها

(١) وما يجب أن يذكر هنا والشيء بالشيء يذكر اني كنت يوماً في بغداد ضيفاً على
سمو مولاي السيد عبد الرحمن أفندي القادري الكيلاني نقيب نقباء السادة الاشراف وبينما
كنت في مجلس يتصدره سماحته واذا بأحد الحاضرين ذكر جناب الحاج محمد علي رئيس
تجار الحمرة ووزير عظمة مولانا ولي النعم وروى ما عليه حضرته من الوداعة ولطف المعاشرة
ورقة الطبع وصادق بعض الحاضرين على ذلك فقلت لا تعجبوا اذا رأيتم كل من لا بد بعظمة
مولاي السر دار أقدم الشيخ خزل خان على مثل هذه الاخلاق الراضية فان ملازمتها
عظمتها وصحبته له على جليل فضله تجعل طباعنا مسروقة من طبعه وأخلاقنا منبذقة من
أخلاقه وجعلت أحدثهم عن عظمة مولانا وما خلق الله فيه من الشرائل العالية والشمائل
الرضية مما كانوا لا يجهلون به وكان في المجلس أحد السادات من آل الكيلاني وقد ناله
أحظ زيارة عظمتهم فكان يصادق على كل كلمة أقولها والله ما فات الا الحق

المرء خيراً فصحة الاشرار تفسده وقل الهمزاني :

اياك صحة من تبدلك صحبته بالخير شراً وبالاخلاق أخلاقاً
فلما والبرد فاش من طبيعته بصحة النار يعطي للمس احراقاً
وجاء في الاخبار أن الولد تكون نجاته وحسن أخلاقه وإيمانه وصفاته الحميدة
والذميمة مضافة الى الوالدين والاعمام والاخوان فالأمانة فالاصحاب الجلساء كل ذلك
لطول الصحة ودوام المعاشرة كما هو مشاهد للعيان
« التأسى بالامثال »

ومما جئت عليه النفوس حب المائلة والاقتراب بالغير وهذا هو التأسى الذي أودعه
الله في النفوس ليهون عليها ملقى كرات الحدثنان فإن الانسان عند ما تصيبه مصيبة يذكر
من أصيب بمثلها وأعظم منها وقد يكون فوقه قدراً وثروة فتتهون عليه مصيبته
قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تهويناً له أمر الموت « انك ميت وأنهم ميتون »
وقال سبحانه وتعالى « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » أي في مصابه وما
مني به يوم أخذ من الكفار ومن فقد أولاده عليهم صلوات الله وفي ذلك من تهوين
المصائب على الناس ما فيه لعلمهم أنهم دون رسول الله قدراً وكرامة عند الله والناس
وفسر بعض العلماء قوله تعالى « وإن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم أنكم في العذاب
مشتركون » قال انه لا يهون على أحد من أهل النار عذابه وإن تأسى بغيره من المذنبين لان الله
تعالى جعل التأسى نافعا لأهل الدنيا ولم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة في تعذيبهم ونفياً
لراحة تصل اليهم أقول وأمل المراد أنه لما كان من شأن أكثر الناس التأسى بغيرهم
فيتهاونون بالمعاصي بالنظر الى أمثالهم ويقولون بأنهم اذا كانوا في النار معذبين يهون علينا
الخطب اذا شاركناهم بما هم فيه فرد الله عليهم بأن التأسى لا ينفعكم يوماً من اذ شدة العذاب
تذهلكم عن الانتفات الى غيركم

ومن التأسى حديث أبي حمزة الثمالي مع الامام زين العابدين لما دخل عليه ووجده
يمكي على ما جرى عليهم يوم الطف اذ قال أبو حمزة « يا سيدي ان القتل لكم عادة وكرامتكم
من الشهادة ألم يقتل جدك أمير المؤمنين ألم تر جنازة عمك الحسن » الى آخر الحديث
كل ذلك كان يقوله تسلياً له من باب التأسى ومن التأسى قول الحسناء في أخيها صخر :

ألا يانفس لا تنسيه حتى أفارق عيشتي وأزور رمسي
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

ولا يكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

وقال آخر :

ولولا الأسي ما عشت في الناس ساعةً ولكن اذا ناديت جلوبني مثلي

وقال آخر :

وهوّن وجدي عن خاليّ اني اذا شئت لا قيت الذي أنا صاحبه

وقال آخر :

ومما يؤديني الى الصبر والعزا تردد فكري في عموم المصائب

وقال عاشق يشاق الى عشيقته النائبة :

نكاد حين تناجيك ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
وقال شاعرنا الانطاكي يعزّي أحد الولاة وقد عزل من ولايته بعد أن طغى وتكبر :

عزلوك لا تجزع فكل منصّب عزلوك لا بدّ مطال المدى معزول

وطنيت في حكم الولاية فاعتبر بالعزل دولات الرجال تدول

وتأسّ ان حسن التأسي بالولاة السابقين وذكرهم مملول

واذا بلغت ولاية فاجهد بان تبقي بها مافيه يحلو القول

والله ما أنا شامت لكن كثير شامتوك ومن أسي قليل

ومن أمثال العرب (الشكلى يحبّ الشكلى) وذلك لانها تتأسي بها فيخفف عليها وقع

المصائب وتشاركها بالجزع والبكاء والاكتئاب

وروي عن الاسكندر انه لما شعر بدنوّ أجله كتب الى أمه يعذّها الى سماع الخطب

فيه فقال « يا أماه اذا بلغك كتابي فأولمي وليمة شائقة أدعي لها من لم تلمّ به مصيبة من

مصائب هذه الحياة » قيل فلما بلغها الكتاب أولت وليمتها وأرسلت المنادين ينادون

في الناس أن من لم ينكب بنكبة فليقتصد أمّ الاسكندر ويشاركها في وليمتها فلم يحضر الوليمة

أحد فقالت ما بال الناس مع تقدّمنا اليهم بالدعوة قد تخلّفوا عنا فقبل لها أمرت أن

لا يحضروا لئلا يمتك من أصابته مصيبة وما في الناس من هو كذلك فندقت كفّاً بكفّ وقالت

ويلاه قد مات الاسكندر وما طاب مني في كتابه ما طاب الا لينبي اليّ نفسه فقالوا لها

الامر كذلك فقالت « يا اسكندر ما أشبه أو اخرجك باوائلك أردت والله ان تعزيني عنك

التعزية البالغة بالتأسي بمصائب الناس »

والتأسي لا يختص بالملوت فتطبل في كل مصيبة من مصائب الحياة كالفقير والمرض والهجر وغير ذلك وكل ما كان المتأسي به قريباً من الزمان والمكان والشكل والصناعة وغير ذلك من أسباب المائلة كان أشد تأثيراً وأعظم تهويناً للأمراض
حكى ابن عبد الله بن كرزبلا المنبر في البصرة خائفاً فحصر عن الكلام وكان خطيباً مصقلاً فشق عليه ذلك فقال له زياد بن أبيه وكان خلفه أبا الأمير لا تجزع نلو أقت على المنبر عامة من ترى أصابهم مأصابك فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس ان الأمير اليوم متوكل المزاج ثم أشار الى رجل من وجود أمراء القباطل بأن يصعد المنبر فلما صعد حصر فقال الحمد لله الذي يرزق دولاً وبقي ساكتاً فأنزلوه وأصعدوا آخر من الوجوه فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس فوقعت عينه على صلعة رجل فقال أيها الناس ان هذا الاصبع قد منعني الكلام اللهم العن هذه الصلعة أنزلوه وقالوا لوازع اليشكري قم الى المنبر فتكلم فلما صعد ورأى الناس قال أيها الناس اني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة ولكن امرأني حمايتي على اتيانها وأنا أشهدكم انها طالق فأنزلوه وهم يسخرون من صقاعته فقال زياد له بدالاً من كرزبلا كيف رأيت ؟ فقم الآن واخطب في الناس فمررتي هم في ذلك وتأسي بغيره ودلا المنبر فطرب الاسماع بخيال نفيس

وأما حب المائلة والافتداء فمن شواهد قول علي بن مقلة :
واذا رأيت فتى بأعلى قمة في شاح من عزّة المسترفع
قالت لي النفس العروف بفضلها ما كان أولاني بهذا الموضع
وقلنا في حب المائلة :
لي همّة لا ترضي دن السهى من مجلس تهي به وتقيم
لوشمت من جاز الماك بفضل له لا جزته والناظرون وجوم
وفي الحديث « لا تنظروا الى من فوقكم وانظروا الى من دونكم فانه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » اشارة الى ما في جبلة الانسان من حب المائلة وقال أبو الفتح البستي :

من شاء عيشاً رحيماً يستتب به في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدباً ولينظرن الى من دونه حالا
واعلم ان حب النفس المائلة والافتداء بالغير هو السبب السكلي في مسارقة الطباع

وصيرورتها الى الفساد عند مشاهدة المعاصي والمفاسد فان الانسان اذا اكثر من مشاهدة
الكبائر من غيره ألفها واستسهل من نفسه اتيان الصفائر بجانبها ولذلك يزدي الناظر
الى الاغنياء نعمة الله عليه فتؤثر بحالستهم فيه لاحتقار ما عنده وتؤثر بحالسته الفقراء
في نفسه لاستعظام ما توفق اليه من النعم وكذلك النظر الى المطيعين والعصاة
وللمجاورة تأثير خفي فالفاخر اذا صحب تقياً وهو ينظر الى رهيته الله ومداومته
المهابة والصلاح يستحي من أصراره على الانجور ولا بد أن يتوب وكذلك الكسلان
ينشط بمعاملة الشيطونهلم جرراً

قال جعفر بن سليمان مهما فترت في العمل نظرت الى محمد بن واسع واقباله على
الطاعة فيرجع الي نشاطي في العبادة وفارقي الكسل

وعلى هذا فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال النبي صلى الله عليه وآله وأهل
بيته في العبادة والتزهد عن الدنيا فلا يزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته
بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو من داية الاجتهاد رغبة في
الاستكمال واستتمام الاقتداء

ومن انظر الى الاحوال الغالبة على أهل الزمان واعراضهم عن الله واقبالهم على
الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بإدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه ويكفي
في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدتهما وفي هذه النقطة تتضح
الحكمة من قوله صلى الله عليه وآله «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» وهو كناية
عن انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو
ملابس له من القصور والتقصير. والمنهوم من خوى هذا الكلام عند الفطن كالفهم
من عكسه وهو ان عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لان كثرة ذكرهم تهوّن على الطبع
أمر المعاصي ويذعن السامع للميل اليها فيكون ذكرهم موجباً للعنة واذا كان هذا ذكر
الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه
وآله حيث قال «مثل الجليس السوء كمثل الكبر ان لم يحرقك بشرره علق بك من
ريحه» فكما ان الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على النفس
وهو لا يشعر بها. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله «مثل الجليس مثل صاحب
المسك ان لم يهب لك منه تجد ريحه» ولهذا ينبغي لمن عرف من عالم زلة ان لا يحكيها
لان حكايتها تهوّن على السامعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم الاقدام

عليها فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية فإن الراوي مهما شنع بتلك الزلة لا يذيل تشنيعه سوء القدوة للسامع فيقول في نفسه كيف يستبعد هذا منا وكنا مضطرون الى مثله حتى العلماء والعباد ولكن لو ظل معتقداً أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق ، اعتبر لشق عليه الاقدام على مثله فاذا كان السماع هذا تأثيره فلما شهدت أعظم تأثيراً في تهوين الامر برفع الموانع عن ميل النفس للشهوات وارتكاب المحظورات

« ميل النفس لشكلها »

ومما جُلبت عليه النفوس ميلها لشكلها وأنسها بجنسها قال بعض البلغاء « من شأن الاجناس أن تتواصل ومن عادة الاشكال أن تتوأم والشيء يتقلقل الى معدنه ويحن الى عنصره فاذا صادف منبته ولاقي عنصره وشج بعروقه وشيك بفروعه وتمسك على الاقامة وثبت ثبوت الطينة » وقال النبي صلى الله عليه وآله « لو أن مؤمناً دخل الى مجلس فيه مئة منافق ومؤمن واحد جاء حتى يجلس اليه ولو أن منافقاً دخل الى مجلس فيه مئة مؤمن ومنافق واحد جاء حتى يجلس اليه » وهذا من قبيل شبه الشيء منجذب اليه أو كما قيل « ان الطيور على أشكلها تقع »

قيل أن أناساً قدموا مكة المشرفة فقالوا قدمنا بلادكم فعرفنا خياركم من أشراركم في يومين قيل كيف؟ قالوا لحق خيارنا بخياركم وأشرارنا بأشراركم فالف كل شكله (١) ومن هذا قال بعض البلغاء :

فكل أمرء يصبو الى من يحانسه

تخير أخاً في الله تصحبه ساعة

وقلنا في ذلك :

وقد أتاك غريب الدار والوطن

إذا جهلت امرءاً ما كنت تعرفه

من ميله بعد أن يأوي الى سكن

فاصر قليلاً ليختار الصحاب له

(١) وطالما رأينا عظمة السردار أقدس حفظه الله يحكم على ضيوف البصرة وحكامها بعد وصولهم اليها بأيام معدودات لطول اختبار البصريين فاذا قيل له قدم فلان البصرة سأل ونزل عند من والتف على من ?? فيقال لعظمته على فلان وفلان فيقول ان أخلاقه كذا وكذا فيكون كذلك ولسعة اختبار عظمته للناس بفراسته وبعد مواقع نظره ترى عقلاء البصريين يرجعون الى رأيه الارشد في كل نازل ببلدهم فيؤمنون بذلك معبة الحنة في عشرته اذا كان شريراً أو يغمنون صحبته اذا كان خييراً كريماً

اب النفوس لارواح مجنّدة تأوي لأشكالها بالسر والعلن
وروي أن امرأة مهزارة من أهل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام قصدت مكة
كرمها الله فدخلت على أحد أزواج النبي وأخذت تضحكها بهزيانها فسألها أين زلت
فذكرت لها صاحبها فإذا هي مهزارة مثلها فقالت صدق الله ورسوله سمعت رسول الله
صلى الله عليه وآله يقول «الارواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها
اختلف»

والسر في ائتلاف الارواح وتخالفها هو ان النفوس تأنس لمن يشاكلها في طباعها
وأخلاقها وتنكر من يخالفها فيهما بحيث لا يطيب العيش الا بين المتجانسين ألا ترى
السكران لا يأنس بصحبة الهميم وان تعاشرافا فلي زمن تصبر وكذلك يقال في جميع أصناف
الناس المتخالفين في طبائعهم وهذا الخلق لا يختص بالانسان بل يشاركه فيه الحيوان قال
بعض الحكماء «كل انسان مع شكله كما ان كل طير مع جنسه» وكان مالك بن دينار
يقول «لا يتفق اثنان في عشرة الا وفي أحدهما وصف من الاخر فان أشكال الناس
كأشكال الطير ولا يتفق نوعان منها في الطيران الا لمناسبة بينهما وروي عنه انه يوماً
رأى حجلة مع غراب فعجب من اتفاقهما وليس من شكل واحد فلما مشيا أمامه اذا بهما
أعرجان فقال «من ههنا اتفقا»

والخلاصة فكل انسان يأنس الى شكله كما ان كل طير يألف الى جنسه وفي الاثر:
انه لما مات بعض الخلفاء جمعت الروم ملوكها وقالوا الان يشتغل المسلمون ببعضهم ببعض
فلنعبر الى بلادهم ونفتحها وكان فيهم ذو عقل وسداد رأي فنهاهم فلما أصبحوا غدوا
عليه فأمر باحضار كلبين عظيمين أعداهما ثم حرس بينهما فمارشا حتى سالت دماؤهما فلما
بلغا الغاية في الخصام فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً قد أعدّه فلما أبصره
تركا ما كانا عليه وتآلف قلباهما ووثبا على الذئب فقتلاه فأقبل ذلك الرجل على الجمع من
الروم وقال مثلكم على المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب فلا يزال الهرج بين المسلمين
مالم يظهر لهم عدو من غيرهم فتتآلف قلوبهم على قتاله فقبلوا قوله وانتصحو به اه
وقد قال أرسطو ليس في هذا المعنى «الاشكال لاحقة بأشكالها كما ان الاعداد مباينة
لاضدادها» ومنه أخذ المتنبي قوله:

وأشبهنا بدنينا الطعام وشبه الشيء منجذب اليه
واعلم كان المشاكلة موجبة للإلفة فعدمها مفض الى النفرة وروي في كتاب أنيس

العقلاء انه كان من عادة ملوك الفرس اذا غضب أحدهم على عالم حبسه مع جاهل نقول وهذا شرٌّ أنواع العذاب وروي ان الرشيد غضب يوماً على ثمامة بن الابرش وكان عالماً متبحراً فسلّمه الى خادم له يقال له ياسر وكان يحسن اليه ويتأدب في حضرته ويعظمه حتى سمعه ثمامة مرة يقرأ (ويل يومئذ للمكذبين) وفتح الذال فقال له ثمامة ويلك ان المكذبين هم الانبياء فقال له ياسر كان يقال عنك انك زنديق ولم أصدق أتشم الانبياء يأثمونه؟ ثم انه أعرض عنه وهجره وتركه فلما رضي الرشيد عنه وردّه الى مجلسه سأله يوماً ما أشد الاشياء؟ قال عالم يجري عليه كلام من جاهل ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه فضحك الرشيد من ذلك

ومن هذا قيل اذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً أقول ان مآثرة العقلاء لا بهلاء عذاب للروح على أن عذاب البدن بالسياط أهون من عذاب الروح بمعاشرة الجاهلاء وقد قالوا في الامثال العامة (عشرة البهيم مع الفهيم داء عقيم) وقال الشاعر: ومن البليّة نذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

وقلنا في هذا المعنى:

ما مربّي من رزايا الدهر جاحجة شكوت منها الى ربّ السما المي
الا مصاحبة الجاهل فهي بلا شك تدعو الى الاملال والسقم

وقال بعضهم:

اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع من مخالفة الفقيه
فنزلة السفيه من الفقيه كنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهده منه فيه

وقال بعض الحكماء اني لارحم الحكيم اذا اضطرّ لمجاورة السفيه فلا شيء أشدّ عليه من ذلك لانه يدرك بفعله تدبير الاشياء فيحتمل على كثير من الامور الا ردّ السفيه عن جهله فهو يتعذب بكل ما يصنع وينكر كل ما يرى منه ويسمع (١)
سأل بعض الحكماء ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل فقال لان الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد في حمله فيتعاونوا أما الرجل الثقيل فلا تتحداه الا الروح فيثقل عليها

(١) حدث مرّة ان مرّ جاهل متفاهة بالحجرة فقصد رحاب عظمة الشيخ المعز حيّاه الله كمادة كل من يمرّ بهذا البلد وادعى العلم والفضل نطلبه عظامته لمجلسه الادبي

وفي الحديث أن سليمان عليه السلام لما تفقد الهدد ولم يره قال «لا عذبته عذاباً شديداً أو ليأتيني بسلطان مبين» فلما أتاه بالحجة دفع عنه العذاب الشديد وقال لا بد من تأديبه حتى لا تجرأ الطيور على مثل فعله فأمر به فحبس مع الحداة في قفص واحد فلما نظر الهدد إلى كثافة طبعها ورقة طبعه وحسن منظره وقبح منظرها كان عليه ذلك عذاب روي شديداً فطلب من سليمان أن يخرج منه من ذلك القفص ويعذبه أشد عذاب الطيور فسأل عليه السلام عن عذاب الطيور فقالوا أن الطائر إذا زنا اجتمعت عليه الطيور وتفت ريشه بمناقيرها حتى يصير قطعة لحم، لمقاة ويكون حاله هذا شديداً حتى ينبت له الريش ففعلوا بالهدد ما قالوه وكان عليه أسهل من اجتماعه مع الحداة التي لا تلامه في طبعها وجنسها

ولما اتصلت بيسور بنت مجدل الكلية أم يزيد بن معاوية بمعاوية وكانت ذات جمال باهر وحسن عام أعجب بها معاوية وهياً لها قصرأ مشرفاً على الغوطة وزينه بأنواع الزخارف ووضع فيه من أواني الفضة والذهب ما يباهيه ونقل إليه من الديباج الرومي الملون والمواشي ما هو لا يثق به ثم أسكنها مع وصائف لها كأمثال الحور العين فلبست يوماً أنحر ثيابها وزينت وتطيبت بما أعد لها من الحلي والجوهر الذي لا يوجد مثله ثم جلست في روضتها وحوها الوصائف فنظرت إلى الغوطة وأشجارها وتجاوب الطير الذي يحق في هذا العصر أن يدعى سوق عكاظ وكان مهق هذه الحواشي متشرفاً بحضور ذلك المجلس الزاهي ولما تداولوا الأبحاث الأدبية وجدنا صاحبنا جاهل من دابة أما عظمة مولانا ولي النعم فإن أخلاقه الكريمة تأتي أن يواجه أحداً بما يكره ولو كان حقاً ونحن على رأي القائل «الناس على دين ملوكهم» نتحملنا هذا الاحق طول مجلسنا ولما انصرفنا سار الرجل إلى دار الضيافة وكان ليلاً إذ أحد اخواننا الأدباء اللائذين بخدمة عظمة الشيخ غائباً فأرسل عظمته إليه في الصباح أن «ضيفنا فلان» (ويريد به الجاهل المتناقض) قد قصدنا فوجب حقه علينا وهو من العلم والفضل على ما سترى فيجب أن تصحبه في زيارة المحمرة» ففعل ذلك الأديب كأمير مولاه وفي المساء جاءنا أديبا وهو غاضب وقال لولي النعم ما ذنبك إليك حتى حكمت علي بهذا العتاب الصارم بصحبة هذا الجاهل؟؟ فضحك عظمته وقال ذنبك أنك تخلفتنا عنا البارحة فصحبناه دونك وحفظنا لك حقك من صحبته وضحكنا جميعاً من هذه النكتة لطيفة أما تنسب فأنعم مولانا عليه حسب عادته المبرورة مع جميع قاصديه وصرنه شاكراً داعياً

في أوكارها وشمت نسيم الازهار وروائح الرياحين والنوار فذ كرت نجباً وحنّت الى
أزهارها وأناسها ونذ كرت مسقط رأسها فبكت وتهدت فمات لها بعض وصيفاتها
ما يبكيك وأنت في ملك يضا هي ملك بلقيس ؟ تنفست الصعداء وأنشدت :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرب عيني أحب الي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب الي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فنج أحب الي من نقر الدفوف
وكلب يذبح الطراق دوني أحب الي من قط ألوف
وبكره يتبع الاضغان صعب أحب الي من بغل رفوف
وخرق من بني عمي نحيف أحب الي من علاج عنوف

فاما دخل معاوية قصت عليه الوصفة بما قالت ميسور وقيل انه سمعها وهي تنشد
أبياتها فقال مارضيت ابنة بجدل حتى جعلتني حليماً عنوفاً هي طالق ثلاثاً مروها فلتأخذ
جميع ما في التصرف فها ثم سيرها الى أهلها بنجد وكانت حاملاً بيزيد فولدت بالبادية
وأرضعه سنتين ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك

« جهل الأشياء »

قال الله تعالى « واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا انك قديم » وقال بعض الاذكياء :
ومن يك ذا فم مريض يرى مرأً به الماء الزلالا
وقال شاعرنا الانطاكي :

عادوا الاعراب عن جهل بفضاهم وانما الناس أعداء لما جهلوا
لو أنهم عرفوا نيتنا ندموا على معاداتنا في كل ما نملوا
وما لهم غيرنا عند الشدائد ان صاح الفير وخاضوا الحرب واقتتلوا
قولوا لهم انصفوا الاعراب واقربوا منهم والآنضاع السعي والامل
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « من جهل شيئاً عاداه » وقال أيضاً « الناس
أعداء ما جهلوا » وهو من جوامع كلمه وقال الله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا
بعلمه » وقلنا في هذا المعنى :

جهلونا فأغضبونا وباتوا في رزايا يشكون منها الزمانا
لنت شعري أمدروا بعد طول ال مهد دعنا أن لا محب سوانا

وقال ابن دريد:
جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذلك يريب العلم من هو جاهله
وقال بعض الاساطين لابنه « يا بني عليك بكل نوع من العلم في زمنه فان المرء
عدو ما جهل »

وقال أحد الشعراء في مثل هذا :
تفان وخذ من كل علم فانما يفوق امرئ في كل فن له علم
فانك حرب للذي أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنه سلم
والعلة في أن الانسان عدو ما يجهل هي أنه يرى نفسه بين عارفي ذلك منتقصاً
فدستشعر باهانة ذلك النقص فيضمر العداوة لمسببه ولذلك قيل « والجاهلون لاهل
العلم أعداء »

« رضى الناس لا يدرك »
قال بعض الاساطين لبعض أصحابه « والله ما أقول لك الا نصحي أنه ليس الى
السلامة من الناس سبيل فانظر ما ذا ينفعك فاعمله » وقال الشاعر :
من راقب الناس مات غمماً وفاز باللذة الجسور
وقلنا في هذا المعنى :

سر في طريقك في الخيرات تسلكها واعرض عن الناس لا يرضيهم عمل
هيهات لو كان ينجو من ملاتهم ناج نجا منهم الاقطاب والرسول
وقال يوماً أحد العلماء لتلميذه له أعمل كذا وكذا فقال يا أستاذ لا أستطيع خوف
ملاية الناس فالتفت الشيخ الى أصحابه وقال « لا يفوز عبد بسؤله الا اذا كان أحد
اثنين أما رجل تسقط الناس من عينيه فلا يرى في الدنيا الا خالقه واما رجل سقطت
نفسه من عينيه فلا يبالي بأية حاة يراه الناس » وقال بعض العلماء « ان الاتيان بما
تستح منه جميع الطباع ليس في قدرة البشر » ول بعض العقلاء
لو كنت كالتدح في التقويم معتدلاً لغالت الناس هذا غير معتدل
وقال شاعرنا الانطاكي :

ولست بطابع ارضاء كل الأ نام ولم يكن ذا مستطاعا
فان أرضيت في عملي الهى وأرضيت الضير فلن أراعا
وحكي أن بعض العرفاء أراد أن يعظ ابنه ويعلمه عدم الاهتمام بأقوال الناس

فخرج به را كمين على دابة فقال بعض الناس انظروا الى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهي لا تطيق حملهما فنزل الولد وقي الوالد را كماً فمرّاً باخرين فقالوا انظروا قسوة قلب هذا الرجل كيف هو راكب وابنه يمشي وكان الولد أولى منه بالركوب فنزل الوالد وركب الولد ومرّاً باخرين فقالوا انظروا الى هذا الولد ما أقلّ أدبه أبوه يمشي وهو راكب فنزل الولد أيضاً ومشيا على أقدامهما وجعلا يحجّران الدابة جرّاً فمرّاً باخرين فقالوا ما أقلّ عقل هذين يمشيان على أقدامهما والدابة لا راكب عليها فقال الرجل لولده انظر الى هذا الامر واعتبر به فانه لا يسلم أحد من السنة الناس بها عمل وقال أحد الشعراء :

ان كنت منبسطاً سموك مسخرة أو كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وان تصاحبهم قالوا به طمع وان تجانبهم قالوا به ملل
وقال آخر :

وما أخذ من السن الناس سالم ولو أنه ذاك النبي المطهر
فلو كان مقدماً يقولون أهوج وان كان مفضلاً يقولون مبذر
وان كان سكيناً يقولون أبكم وان كان منطيقاً يقولون مهذر
وان كان صوّماً وبالليل قائماً يقولون زوّاراً يراني ويمكر
فلا تحتمل بالناس في الذمّ وانثنا ولا تحش غير الله والله أكبر
وحكي عن موسى عليه السلام أنه قال الهي أسألك أن لا يقال فيّ ما ليس فيّ
فلو حى الله اليه ذلك شيء ما فعلته لنفسى فكيف أفعله بك ؟ وفي هذا المعنى ما ينسب
الى أمير المؤمنين عليه السلام قوله :

قد قيل أن الاله ذو ولد وقيل أن الرسول قد كهنا
ما نجا الله والرسول معاً من لسان الورى فكيف أنا

ومن كلام له عليه السلام « فان أقل تقول حرص وان أسكت تقول جزع من الموت » اشارة الى عدم ضبط السنة الناس في حقه عليه السلام سواء طاب حقه أو سكت عنه كما قال الصادق عليه السلام « رضى الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبون الى النبي يوم بدر أنه صلى الله عليه وآله أخذ لنفسه من الغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبراً نبيه من الخيانة وأنزل في كتابه « وما كان لنبي أن يغل »
وفصل الخطاب في هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم

عليهم بأنواع النعم فأكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وأكمل لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمتهم بل قالوا فيه ما لا يليق به ووضعوه بما يستحيل عليه وأضافوا إليه ما يتدس عنه فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم من قال له بنات ومنهم من يحسبه ومنهم من يشبهه ومنهم من أنكره بتاتاً والعياذ بالله إلى غير ذلك وهو سبحانه مع ذلك يحبيهم ويرزقهم ويصح أجسامهم وحواسهم فمعاصيهم إليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة قل كل يعمل على شاكلته وينفق مما عنده

وبالجملة فإن رضاء الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى والاستهانة باختلاف آرائهم في أعماله أصلح وقد قال الشاعر :

أما الناس في اختلاف عقول مثلما الناس في اختلاف وجوه

« بين اللؤم والكرم »

لا بد للإنسان من أن يكون شئياً أو كريماً أو وسطاً بينهما تبعاً لمواطنته الداخلية وطبائعه الغريزية التي تحميه على الخير أو الشر أو بينهما

واللؤم يشتد في من غلبت عليه القوى البهيمية بحيث يرى كل ما في العالم لا يساوي بجانب لذة من ملأه قلامة ظفر والكرم يكون فيمن غلبت عليه القوى الروحية فيعلم أنه إنسان ووجد في هذه الدنيا ليكون عضواً نافعاً للإنسانية وأما ما بينهما فكالوسط كمن لا يضر ولا ينفع وقد كفى الناس شره أو كمن يكون نفعه مثل شره باعتدال وقد ذهب بعضهم إلى أن طبيعة الخير أصل في فطرة الإنسان ولكن مخالطة الشرار وممارسة الشهوات تحوله إلى الشر وقال غيرهم بل أن الشر أصل في فطرة الإنسان والخير يعتاده اعتياداً بالتأديب والتعالم

وفي رأي جالينوس أن الناس فيهم الخير بطبعه وفيهم الشرير بطبعه وفيهم المترسط بين هذا وذاك وقال عن الأول أن كان كل الناس اختياراً بطبعهم وإنما يتنقلون إلى الشر بالقوة السيئة والعشيرة الفاسدة فمن الضرورة أن يكونوا قد تلقوا الشر عن أساتذتهم وهؤلاء تلقوه عن تقدمهم إلى أن نصل لطائفة من الناس كانوا أشراراً بطبيعتهم والعكس بالعكس وفي قوله هذا أفسد المذهبين الذين تقدم ذكرهما من تأصيل الشر والخير في عامة الناس إلى أن قال لا بد أن يكون في الناس عاطفتان متباينتان عاطفة خير وعاطفة شر فإن تغلبت الأولى على الثانية بالتعليم والقوة كان الإنسان خيراً وإن تغلبت الثانية على

الاولى كان الانسان شريراً وقال بعد ذلك انا نشاهد عياناً طائفة من الناس منصرفة الى الخير وهذه لا تكون شريرة وأخرى منصرفة الى الشر وهذه لا تكون خيرة الا انها القسم الاكثر وطائفة ثالثة وسط بين هذه وتلك وهذه التي يمكن اصلاحها وافسادها تبعاً للوسط الذي تعيش فيه

هذا رأي جالينوس واليه ذهبنا وحببنا فيه هو ان الانسان له عواطف وعقل وأما عواطفه فتدعوه الى الشر لانها تطاب ملاذها وأما عقله فيدعوه الى الخير لانه يدرك فيه فساد الشرور فمن تغلب عواطفه على عقله كان شريراً ومن تغلب عقله على عواطفه كان خيراً على ان من الناس من تتوازن قوتاه عقله وعواطفه وهؤلاء هم الوسط بين الاختيار والاشرار وهؤلاء الذين تنفيذهم الموعظة الحسنة وتضر بهم القدوة السيئة ومن كان شريراً فهو لئيم لا تنفعه معاشره الصالحين ولا تفيد عظة الواعظين

ومن يك ذافم مريض يرى مرأً به الماء الزلالا
ومن كان خييراً فهو كريم وهذا لا تؤثر عليه معاشره الفاسدين واغراء الائمة الفاسقين واعلم ان الذي خبت لا يخرج الا نكداً وربما ازداد خبثاً اذا صادف من الناس من يشجعه على لؤمه كالبعيل اذا سمع من يمدح الاقتصاد في الانتاق وذم الاسراف وهو يميل بطبعه الى رذيلة البخل فيفرط فيها وهلم جرأ وقد يوى الشر فيه بتعريف المذ ومات كالدهاء والجريرة والشره والظلم فيكون حاله في ذلك حال الغافل فاذا ذكر بشي منها انتبه اليه وعمل به على حسب استعداده الطبيعي والعكس بالعكس وقد قال الشاعر:

طربنا بتعريض العذول بذكركم فنحن بوادٍ والعذول بواد

وكثيراً ما حصلت هذه الرذائل في النفس الشريرة من تعريف الاستاذ أو مطالعة كتاب لان النفس تأخذ من كل شيء وتجعله وفق مرادها وطبق هواها ويكون تنبيهاً للهوى واغراءً للنفس الامارة لردائتها وخبثها فيستحيل الحمود مذبذباً كما يستحيل لذيق الطعام بعد ازدراره الى الفساد ومن هذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام « لا تغاهوا أولاد السفلة الم فأنهم اذا تعاهوا طابوا معالي الامور فاذا نالوها اعموا بمذلة الاسراف » أقول والعلم لا يقتضي ذلك لكن النبات تابع لارضه ومن أرسل رائد الطرف الى حيث النهضات الهوجاء الحديثة يتضح له صدق هذا القول ويتمثل بالشاعر الذي يقول:

ومذ أصبحت أذناً بنا رؤساً لنا غدوناً بحكم الطبع نمشي الى الوراء
هكي أن امرأة كانت تخرج بان عم لها وكانت تضررة من صحبته وراغبة في

فمفارقة فآرسات تفتش على عالم يدبر لها حيلة للفراق فتوقفت بعد الجهد الى وضع
 متلم لثيم الطبع فدبر لها أن تدعي انها ارتدت عن الاسلام وتختفي الى أن تنقضي
 عدتها فتصل الى الحاكم الشرعي وتعرف بصدور ذلك منها وانها تابت ورجعت الى
 الحق وأخذت على هذه الحيلة أجرة أما المرأة ففعلت ما أمرها به ولو كان هذا العالم غير
 وضع النفس لعمل على اصلاح الحال بين الزوجين بما يرضي الله ورسوله فيكسب الثواب
 في الدارين ولم يعن على الفسق الفاسقين ومما ينسب الى أمير المؤمنين عليه السلام في
 هذا الباب قوله :

من لم يكن عنصره طيباً لم يخرج الطيب من فيه
 كل امرئ يشبهه فعله وينضح الكوز بما فيه
 ومن كلامه عليه السلام «احذروا صولة الكريم اذا جاع والثيم اذا شبع» ومن
 المعنى الاول ما قيل :

لا يصبر الحر تحت ضمير وانما يصبر الحمار
 ومن المعنى الثاني قول أبي الطيب المتنبي :
 اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت الثيم تمرّدا
 ومن هذا قيل في الامثال «اتق شر من أحسنت اليه» وقلنا في واقعة حال :
 هذا المثل المأثور :

كم من كريم وقد نال الاذية من كان يكرمه لؤماً وكفراً
 لو لم يكن ظلاً فينا كغار منا لما لقيتم على الاحسان انسانا
 ولبعض الشعراء :
 وأخش الاذى عند اكرام الثيم كما تخشى الاذى ان أهنت الحر في حقل
 وقال شاعرنا الانطاكي :

كم وكم قد نالني شر الاذى من لثيم بعد اشفاقي عاينه
 كان ذنبي عنده رقي به عند ما احتاج فأحسن اليه
 حكى أن رجلاً من الطبائع سافل الاخلاق سافر الى بغداد فاستدث به فاقته حتى
 احتاج الى القوت فمر على بائع زلاية فوقف قبالة دكانه والمسكنة بادية عليه فأنشق عليه
 الزلاية وأحسن اليه مما عنده وبينما كان يأكل منهم وإذا محتسب المدينة مرّ بالسواق
 يفتش الموازين وينظر في المأكول حسنها وفاسدها ويحذر الناس من أنواع النش فعند

ما بلغ الزلابي كان ذلك الدائم قد شبع وبقيت لديه بقية من الزلاية فجعلها بيده وقال
للمحتسب نصرك الله على هذا الزلابي أنظر ما ينعله لغش الناس فأخذ المحتسب صاحب
الزلاية وضربه ضرباً موجعاً وغرّقه ببعض المال وبعد أن مضى المحتسب التفت الزلابي
إلى ذلك الدائم وقال له ما ذنبي معك وقد أشقت عليك فأطعمتك وأنت جائع حسبة لله
تعالى ألا قاتل الله كفران النعمة وصدق من قال « اتق شر من أحسنت إليه »
ووجد على صنم مكتوب حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من هذه الدنيا حتى
تسيء إلى من أحسن إليها . وكل من أكرم الناس يحفظ كثيراً من قصص هؤلاء اللئام مما
يجري معهم في كل يوم

وقيل « الكريم يلين إذا استعطف والدائم يقسو إذا لوطف » وقيل « احسانك إلى
الحرّ يجرّكه على المكائنة واحسانك إلى النذل يثبتك على الطمع فيك »
وإذا عرفت أن الاحسان إلى الدائم يدعو للإساءة إلى من أحسن إليه فاعلم أنه خليف
به الإهانة والإهمال . كما يقول الشاعر :

أهن عامراً تكرم عليه فانما أخو عامر من مسّه بهوان
ومن هذا القليل ما حكاه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي من محفوظاته قال حكى
عن أحد الخلفاء أنه بينما كان يتجوّل في البرية طاباً للصيد وجد بجوار إحدى القرى
صيدة حسنة استهوته بجملها فسألها عن بلدها وأبيها ثم عاد إلى بغداد وفي اليوم التالي
أرسل كبيراً من رجال بطانته لابيها يخطبها لنفسه فله أوصّل رسول الخليفة لوالد تلك الفتاة
وكان من صعاليك أهل القرية حينئذ تحية الندد للند وتطف بإبلاغه إرادة الخليفة من
الرغبة بخطبة ابنته فأم طبعه ورجع إلى خساسته وكبر عليه أن يعادل بالطف ورفض
طلب الخليفة على ما فيه من الشرف العظيم له ولييته فعاد الرسول وأخبر مولاه بما
سمع ورأى فاستشاط غضبه وأمر بزيادة الخراج على تلك القرية بما يرهق أهلها فلما
بلغهم أمر الخليفة بزيادة الخراج بادر وجوههم إلى دار الخليفة فرأوا من رجال بطانته
من أبلغهم بسرّ غضب الخليفة فقالوا ليس الذنب على ذلك الصعلوك برفض نعمة أمير
المؤمنين بقرانه بابنته بل الذنب على الرسول الذي أكرمه والدائم يتمرّد بالأكرام فإذا
أمر الخليفة فلم يرسل معنا رسوله ليريه كيف تخطب بنات هؤلاء اللئام فنقل الخبر إلى
الخليفة وكان شغفه بتلك القروية بالغاً حدّه فأمر بالحال أحد أعوانه بالسفر مع وجوه
القرية لاحتضار الصبية له عروساً فساغروا حتى وصلوا إلى القرية فنزلوا في داراً أحدهم

وأرسلوا وراء أبي الصبية حتى إذا ما حضر بادروه بالسب والاهانة وصفوه صفعات مؤلمات فقال وما ذنبي؟ قالوا كيف أبيت تزويج ابنتك من الخليفة؟ فقال أنها جارية في مطبخه ولكن لم يأتي من يفهمني المقصود بمثل ما فهمته منكم فضحك رسول الخليفة بجواب ذلك الصعلوك وعاد بالجارية فأصبحت محظية الملوك
وفي أمثال العرب «إن الهوان للثيم مرأمة» أي مرحة وقيل «لا يصالح الثيم لمعروف ولا يصدق في ود ولا يستقيم إلا عن فرق أو حاجة فإذا استغنى أو ذهب حدثه عاد إليه جوهره وظهر بكل وضوح طبعه»

ومما يقتضيه طبع الثيم القدح في الناس واغتيالهم ففي مشور الحكم «الثيم إذا غاب عاب وإذا حضر اغتاب» وقال بعضهم لا تخرج الغيبة إلا من نفس مميية (١)
وقال عباس الاسدي ما الضاري على فريسته بأسرع من الدني في عرض السري أقول والغيبة لا تختص بالثيم فإن الطعن بأعراض الناس والاشتغال بذكر مساوهم صفة مجبولة في طبع الانسان داخلة في حكم النفس السببية من ذلك ما قيل لاسماعيل بن حماد بن أبي خليفة أي اللحيان أطيب لحم الانسان أم لحم الحيوان قال لحوم الناس هي والله أطيب من لحوم الدجاج والدجاج وقد عني بلحوم الناس اغتيالهم
قال بعضهم بت آية في البصرة مع رفاق لي فلما كان وقت السحر حرّكهم واحد وهو يقول كم هذا النوم أنواكم عن أعراض الناس طويلاً
وقيل لشاعر وصله بعض الرؤساء وأنهم عليه ما صنع بك الأمير؟ قال ما وفقت نعمته بإساءته الي بمعنى لذة الثلب وحلاوة الشكوى (٢)

(١) ومن المعلوم أن الغيبة تكثر في مجالس الملوك لكثرة تراحم الناس على كسب رضاهم بإفساد بعضهم على بعض ولا يخرج عن هذه القاعدة على ما أعلم إلا مجلس عظمة مولانا ز الشيخ خزعل خان حفظه الله فانه ليس أيضاً لا يسمع لمعتاب حديثاً ولا سيما على أحد عبيده المخلصين ولكن ينتهر المغتاب حتى لا يعود الى اغتيال صاحبه ولذلك ترانا نحن ماضين أعوان عظمته بالفة وصفاء وقد اجتمعت قلوبنا على حبه ولا يهملنا جميعاً إلا التفاني بخدمة باخلاص علماً منا أن في هذا وحده كسب رضا حيّاه الله

(٢) وما هذا الأمير الأعظم مولانا المعز الذي يأتي أن يجري لسان في مجالسه الطاهرة بمنايا الناس وذكر معاييرهم والشكوى منهم على ما سبق القول في الحاشية السابقة والمائل معروف منا ولما كنتم اسمها اتباعاً لسنة مولانا المراد أقدم الناس على دين ملوكهم

والغيبة والطعن في الناس ما سوى خبث الطباع أسباب منها التشفي وذلك أن يغضب رجل على آخر فيتشفي منه بذكر مثالبه بالحق وبالباطل وإذا لم يستطع المناصب أن يشفي يثلب من غضب عليه بعرضه وشره واضطر إلى السكوت عنه يحتقن الغضب في باطنه فيصبح حقدًا ثابتًا فيكون سببًا دائمًا لذكرى المساوي وعلى هذا فالحقد والغضب من البراءة العظيمة على الغيبة

ومنها الحسد وهو أن بعضهم يحسدون من يثني عليه الناس ويحبونه ويكرمونه فيتمنون زوال تلك النعمة عنه ولا يجدون سبيلًا إلى ذلك إلا بالقدح والتشهير فيه ليكف الناس عن إكرامه وإثناء عليه

ومنها موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء فإذا كان نذر من الناس في مجلس يتفاهرون بالأعراض فلا يرى الواحد منهم إلا موافقة أقرانه ومجاملتهم بالتصديق على ما يقولون خوفًا من أن يستثقلوا مجلسه وينفروا من صحبته وقد يظن أن هذا من حسن المعاشرة أو من آداب مجاملة الأصحاب فيخوض معهم في ذكرى المثالب والأيوب وهذا يكثر في مجالس الأكابر حيث يضطر المتصقون بهم من الأصاغر إلى موافقتهم في كل ما يقولون ومن لطائف ما يروى من هذا القبيل أن كبيراً من الناس بينما كان يطلق فيه في الثلب والسب دخل عليه واحد من المتصقين به فسمعه يسب بعضهم فأخذ هو أيضاً بالسب فقال له أحد الحاضرين همساً لمن تسب يا فلان؟ قال الذي يسبه إلا غا

ومنها أن ينسب إلى رجل شيء يريد أن يتبرأ منه ولا يجد مناصاً لتبرئته إلا بنسبة ذلك الشيء إلى غيره حقاً كان أو باطلاً وإذا كانت التهمة ثابتة عليه يهتم غيره بالاشتراك بها ليمهد بذلك العذر لنفسه

ومنها إرادة التصنع والمباهاة فينتص غير ليرفع نفسه من قبيل «وبجدها تميز الأشياء»

﴿ الامر الثاني من أمري الخاتمة ﴾

﴿ في بيان ما يؤثر في نفس الإنسان ﴾

تفعل النفوس البشرية من أمور ثمانية وهي الطمع والعين والاعتقاد والوهم وتأثير الكلام وتأثير الشعر والنظير والتفاؤل ويتبع ذلك ثلاثة أمور لها تأثير وان لم يكن بالنفوس وهي اللسان والمكان

« الطمع »

أن الطمع يؤثر في النفوس أعظم تأثير فقد جاء في الحديث « أن الصناعات الزلاء التي

لا تثبت عليها أقدام العلماء تنحصر في الطمع « وفي الامثال » تقطع أعناق الرجال المطامع «
ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « الطمع رق مؤبد » وقال الشاعر :
تعف وعش حرأولاتك طامعاً فما قطع الأعناق الا المطامع
وقلنا في الطمع :

وكم طامع قد ضاع ما في يمينه وما فاز فيما فيه قد كان طامعاً
فحسب النقي حسن النعانة بالذي لديه وأهنا الناس من بات قانعاً
ومن المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله « احتج الى من شئت تكن أسيره
واستغن عن من شئت تكن نظيره وأنعم على من شئت تكن أميره » وأرسل عثمان بن
عفان الى أبي ذر النفاري كيساً من الدراهم مع عبد له وقال له ان قبل هذا فأنت حر
فأبى الغلام بالكيس الى أبي ذر وألح عليه في قبوله فلم يقبل فقال له أقبله فان فيه نقي
فقال نعم ولكن فيه رقي

وحكي عن عمرو بن العاص انه قال لمعاوية يوماً ما أشد حبك للمال قال لم لأجبه
وأنا استعبد به مثلك وأتباع به دينك ومروءتك ???

وقيل ان الحجاج بن يوسف أرسل الى ملك بن دينار وجيب الاعمى واستدعى
بمال وقسمه شطرين فأعطى مالك بن دينار نصفه فأخذه وأعطى جيب الاعمى نصفه
فردّه وانصرفا فمرّ جيب بمالك بن دينار وهو يتسم المال على الفقراء فقال له يا جيب
لأجل ذلك قبلنا المال فقال له جيب دع هذا الكلام ولتكني أسالك بالله العظيم أن
تخبرني أيما أحب اليك الحجاج اليوم أو قبل اليوم فقال مالك أما اذا حلفتني بالله فهو اليوم
أحب اليّ فقال جيب من هذا تركنا ماله فلا خير في شيء يحب اليّ الحجاج

ومن ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله « حببات النفوس على حب
من أحسن اليها » وروي ان أحد القضاة طلب من المهدي أن يوفيه من القضاء فقال
ما السبب؟ قال تقدم اليّ خصمان منذ شهرين ولم أحكم بينهما رجاء أن يصطلحا فوقف
احدهما على بائع الرطب وانتقي رطباً لم يوجد مثله ورشى بوابي على أن يدخل الرطب
عليّ فله اوضع الطبق بين يدي أنكرت وطردته ورددت الطبق فلما قرب اليوم مع خصمه
لم يتساويا في قلبي ولا عيني يا أمير المؤمنين فقلت في نفسي هذا حالي ولم أقبل هديته
فكيف لو قبلت؟ وقد فسدت الناس واني أخاف أن أهلك فأقاني أقالك الله من انصائب
فأقاله وهو آسف

وقال المأمون لأحمد بن يوسف ان أصحاب الصدقات تظالموا منك فقال والله
يا أمير المؤمنين ما رضي أصحاب الصدقات عن رسول الله حتى أنزل الله تعالى فيهم
«ومنهم من يalzك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذهم يسخطون»
فكيف يرضون علي؟ فضحك المأمون وقال انظر في أحوالهم
وجاء في الحديث ان عابداً عبد الله دهرأ طويلاً فقبل له ان ههنا شجرة يبدوها
قوم من دون الله فغضب لذلك وأخذ فأسه وتصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في
صورة شيخ وقال له أيها العابد أي ثمرة لك في قطع الشجرة وأنت متفرغ للعبادة؟ فقال
قطع الشجرة خير من العبادة فقال ابليس لأدعك تقطعها فتماسكا وأخذها المأبد وصرعه
على الارض وقعد على صدره فقال ابليس اطلقني حتى أكلمك فقام عنه وقال ابليس
ان الله تعالى قد أسقط عنك هذا فاعبد ربك وما عليك من غير ذلك قال العابد لا بد لي من
قطبها ثم تقاتلا ثمانية نصرته المأبد وقعد على صدره وعجز ابليس عن التماس منه فقال
هل لك أمر يفصل بيني وبينك وهو خير لك وأنزع؟ قال وما هو؟ قال اطلقني حتى أقول لك
فأطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير وأنت كل على الناس ويجب أن تفضل على اخوانك
فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل في كل ليلة عند رأسك دينارين اذا أصبحت
أخذتهم ما وأنفقتهما على نفسك واخوانك وهو أنزع لك من قطع الشجرة التي يغرس الناس
مكائنها غيرها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعها فتتكر العابد قليلاً ثم
قال صدق الشيخ ان الله لم يأمرني بقطع هذه الشجرة حتى أكون آتماً بتركها وما قاله
الشيخ «ويريد ابليس» أكثر نفقة فعاهده على الوفاء بذلك ورجع العابد فرحاً الى عبده
قلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذا في غده ثم أصبح في اليوم الثالث لم
ير شيئاً فغضب فأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة الشيخ وقال الى أين؟
قال الى قطع الشجرة فقال كذبت والله ما أنت قادر على ذلك ولا سبيل لك اليها فتناوله
العابد ليأخذها كما فعل أول مرة فقال ابليس هيات وتناولها بيده نصرعه فاذا هو كالعصفور
بين يديه وقعد ابليس على صدره وقال يا هذا لنتهين عن هذا الأمر أو لا ذبحك فنظر
العابد فاذا لا طاقة له به فقال يا هذا غلبتني نحل عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني
الآن فقال كان غضبك لله أولاً وكانت نيتك الآخرة فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا في
منعك وصدك لما ظفروا بك ولا قاموا بحربك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا
فصرعتك وهكذا خسر العابد في طمعه دنياه وأخراها معاً

ومن باب تأثير الطمع في النفوس ما ذكره ابن شهر آشوب انه خرج من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يوم حنين خالد السدوسي ونادى من يبايعني على الموت فأجابه تسعة آلاف فقاتلوا حتى بلغوا فسطاط معاوية فهرب معاوية فنهبوا فسطاطه وأنفذ معاوية اليه يا خالد لك عندي امرة خراسان متى ظفرت فاقصر ويحك عن فعالك هذه فمكّل خالد عنها فتقل أصحابه في وجهه وحاربوا الى الليل وظفروا ودونه

والباعث على التطلع شيء من الشره وقلة الثقة فلا يقنع الانسان بما أوتي وان كان كثيراً لشره ولا يستكف مما منع وان كان حقيراً لقلّة أنفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدراً ويرى المال أعظم خطراً فيرى بذل النفس أهون الأمرين واجلهما غمماً وليس لمن كان المال عنده أجلّ ونفسه عليه أقلّ أصغاءاً لتأنيب ولا قبولاً لتأديب وروي ان رجلاً قال يا رسول الله أوصني قال عليك بالناس مما في أيدي الناس وأياك والطمع فانه فقر حاضر الى آخر الحديث وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المني واستبدته المطامع
ولا يتخلص الانسان من شرور الطمع الا باحد أمرين أما اليأس أو القناعة ولكل
منهما بحث يطول سيرد معنا في موضع آخر من هذا الكتاب
« العين أو النظرة »

قال أمير المؤمنين « العين حقّ والرقى حقّ والسحر حقّ والفأل حقّ والطيرة ليست بحقّ والعدوى ليست بحقّ » الى آخر الحديث وقال عليه السلام في حديث آخر « العين حقّ ولا تأمنها منك على نفسك ولا منك على غيرك فاذا خفت شيئاً من ذلك فقل ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم » وعنه « من أعجبه شيئاً من أخيه فليبارك عليه فان للعين حقّاً » وقال « لو كان شيء يسبق القدر لمبقت العين » وقال « مقال للناس لشيء طربى له الا وقد خبياً له الدهر يرم سوء »

أدخل على النبي صلى الله عليه وآله بابني جعفر بن أبي طالب وهما ضارعان فقال مالي أراهما ضارعين ؟ قالوا تسرع اليهما العين فقال استرقوا لهما . وفي هذا الحديث وأمثاله دلالة على تأثير العين وأنها مؤثرة باعتبار أن النفس القوية بأصل خنقتها تقوى على التأثير في غيرها فينفع منها ما هو أضعف منها من النفوس الساذجة ولهذا لا تؤثر العين في كلّ أحد وان هذا التأثير يندفع بالرقية بالأسماء والآيات لما هو مقرر أن الفيض متوقف على أسبابه

ومن تأثير الدين ما ذكره بعض العلماء أن نبياً من الانبياء استكثر قومه يوماً فأما الله منهم مئة ألف في ليلة واحدة فلما أصبح شكى الى الله من ذلك فقال الله تعالى له انك لما استكثرتهم عنهم فإلا حصنتهم؟ فقال يارب فكيف أحصيتهم قال تقول حصنتكم بالحى القيوم الذي لا يموت أبداً ودفعت عنكم السوء بلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال صاحب الكتاب وهكذا السنة في الرجل اذا رأى نفسه سليمة وأحواله معتدلة يقول في نفسه ذلك

وحكى بعض الثقات عن يثرب أن جماعة كانوا يخرجون الى الجبال لصيد الوعول والوحوش بالبندق (التفك) فقال رجل من الاكراد أنا أخرج معكم غداً الى الصيد فخرج معهم فقالوا له أين آلة الصيد؟ قال هي معي وستنظرونها فلما بلغوا الجبل رأوا وعلاً على قمته فقال انظروا كيف أصيد؟؟ وجلس ينظر الى الوعل ويثب به ويستعظم سحته وقرونه وعظمه فوثب الوعل من صخرة الى أخرى فاخطأ الصخرة ووقع من أعلى الجبل فانكسرت يده ورجله فأخذه وذبحه. فقالوا له أخرج من بيننا فانتا نخاف من عينك فأخرجوه

وقال بعض العلماء «كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونانيين ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الامصار وحذاق المتكلمين يكرهون الاكل أمام الحيوانات المفترسة خوفاً أن يصابوا بعيونها لما فيها من الهم والشره ولما ينحل عند ذلك من أجوانها من البخار الرديء ويفصل من عيونها مما اذا خالط الانسان نقصت به قلبه وأفسده. وكانوا يكرهون قيام الخدام بالمذاب والاشربة على رؤوسهم خوفاً من أعينهم عندما يحدقون بهم وهم اكل. وكانوا يأمررون بأشباعهم قبل أن يأكلوا. وكانوا يقولون في الكلب والسنور أما أن يطرد أو يشغل بما يطرح له

وجاء في كتاب هذا العالم أيضاً ما نصه «كان عندنا عيانان (يعني رجلين عيونهما صيابة) فمر أحدهما بحوض من الحجارة فقال تالله ما رأيت الى اليوم حوضاً أحسن منه فانصدع فلقطين. فمر عليه الثاني فقال وأبيك فلما ضررت أهلك فيك تطاير أربع فلق وللاحكاماء في تعاليل ذلك قول لا بأس به قالوا هذا عائد الى نفس العاين وذلك لان الهيولى مطيعة للانفس متأثرة بها ألا ترى أن نفوس الافلاك تؤثر فيها بتعاقب الصورة عليها والنفوس البشرية من جوهر نفوس الافلاك وشديدة الشبه بها الا ان نسبتها اليها نسبة المراج الى الشمس فلم يستعانة التأثير بل تأثيرها في أغلب الاحيان في بدنها

خاصة ولهذا تشتد حرارة دم الانسان عند غضبه ويستعد جسمه للوقوع عند ما تصور النفس صورة من تحب وان كان بعيداً عنها وعلى هذا فتصور النفس قد أصبح مؤثراً فيما هو خارج عنها لانها ليست حالة في البدن عندهم فلا يستبعد وجود نفس لها جوهر مخصوص مخالف لغيره من جواهر النفوس تؤثر في غير بدنها . ولهذا يقال ان طائفة من أهل الهند والمهم البراهمة يتناولون بالزهر . نقول ومن هذا القبيل الاصابة بالعين وهو ان تستحسن النفس صورة مخصوصة وتعجب منها وتكون تلك النفس خبيثة جداً فينفعل جداً جسم تلك الصورة طبعاً لتلك النفس كما ينفعل البدن بالسم

« تنبيه » ولا بد لنا من الاشارة هنا الى مذهب علماء الفرقة العنصرية الملقين بالطب بين في مسألة اصابة العين وما شاكلها مما لا يجدون له حلاً طبيعياً فان هؤلاء العلماء لا يسمون بما لم يتفقوا له على سبب ظاهر محسوس ولذلك ينكرون تأثير العين وكل ما هو من نوعها فاذا حجبتهم بألوف الحوادث المشاهدة والتي تشهد يومياً وباجماع الناس حتى أهل الفرقة على اصابة العين قالوا لك عن اعتقاد الناس هذا أنهم واهمون واذا توسعوا قالوا نعم انه تجري حوادث يتوهم الناس أنها من تأثير «العين» ولكن لا بد ان تكون لها أسباب مازاله سرها غامضاً وما كان هذا منهم عناداً ضد المشاهد المحسوس ولكن له حافظة على المبدأ الذي اتخذوه لانفسهم وهو ان لا يساءوا بأمر ما لم تتضح لهم أسبابه بصورة محسوسة ولكن بما ان العلم العنصري لا يزال ناقصاً جداً وفي كل يوم يكتشف العلماء الطبيعون ما كانوا يجهلون في أمسهم حتى أصبحوا يشغلون بالارواح وعلاقتها بالاجسام البعيدة والقريبة فلا بد لهم من يوم يحيى يعترفون فيه بما يعتقدونه الناس أجمع من تأثير اصابة العين وحينئذ يوضحونها بأسبابها والله أعلم « الاعتقاد »

قال محمد بن زكريا ينبغي للطبيب ان يبشر أبداً بالشفاء وان كان غير واثق منه فان المزاج تابع لاعراض النفس . وروي انه عند ما ضرب الفضل بن يحيى مئتي سوط جيء اليه بالطبيب ليما لجه فقال أحدهم ضربه خمسين سوطاً فقليل له بل مئتي سوط قال الطبيب لا أظن هذا الا أثر خمسين سوطاً وأخذ يعالج المريض حتى اذا ما نبت لحمه قال أنحنظ قولي هذا أثر خمسين سوطاً قال نعم قال والله لو ضربت ألف سوط لما كان بأثرها أشد مما كنت عليه وانما قلت ما قلت لتقوي نفسك فتبينني على علاجها وقيل ان صاحب شيروان عبد الله خان كان رجلاً تركياً فأصابه يوماً القولنج فرأى

الطبيب محمود عماد الدين أن يحقنه وكان طبيباً حاذقاً فسأله عبد الله خان عن الحقنة وكيف تكون فأخذ بوصفها بقوله أن يوضع في الاست أنبوبة فقال الخان غاضباً باست من؟ وكان فاسقاً فتأكلاً نخاف الطبيب مغبة غضبه وقال في استي أنا فسكن ما به وأمر الطبيب أن يُحقن فرضي الطبيب بذلك حقناً لدمه واتفق أن عبد الله خان بري من علته فأجازه وتأثير الاعتقاد على النفس لا يكاد ينكره أحد وإن لم يسلم به علماء الفرنجة الطبيعيون المصريون حتى نقلوا لنا بأن طائفة من أطباء أمريكا أخذوا يطيبون مرضاهم من طريق الاقتناع بأن يدخل الطبيب عند مريضه ويأخذ باقنائه بكل ما أوتي من ذلاقة لسان بأنه غير مريض ولا يزال به حتى يعتد بنفسه الصحة ثقة بطيبه فيشفى « الوهم »

جاء في نهج البلاغة أن سئل أمير المؤمنين عليه السلام بأي شيء غابت الاقران فقال ما لقيت أحداً الا وأعاني على نفسه يومي وذلك لتمكن هيئته من القلوب قال الشارح ابن أبي الحديد قالت الحكماء « الوهم يؤثر » وهذا حق ألا ترى العليل إذا تقرر في وهمه أنه مرض مرضاً قاتلاً ربما هلك بالوهم؟ وكذا من تلبسه حية ويقع في خياله أنها قاتله فانه لا يكاد يسلم منها . وقد ضربوا لذلك مثلاً بالماشي على جزع مشرف على مهواة فإن توهمه بقرب سقوطه يورثه الاضطراب وقد يسقطه والا فشيئته على الجزع وهو منصوب على المهواة كشيئته عليه وهو ملقى على الارض لا فرق بينهما الا الوهم والاشفاق والحذر فكذلك الذين بارزوا اعلياً من الابطال لما كان قد طار صيته واجتمعت الكلمة على انه ما بارزه أحد الا كان مقتولا غلب الوهم عليهم فقصرت أنفسهم عن مقاومته وانخذلت أيديهم عن مناهضته وكان عليه السلام في الغاية القصوى من الشجاعة والاقدام يقتحم عليهم فيقتلهم

أقول هذا تعليل ابن أبي الحديد وهو في نظري موضع بحث فقد يكون للوهم تأثير على النفوس فيضعفها ولكن ما لا شك فيه أن أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ما كان له من يقاويه وطلما فشل الكثيرون الذين حاولوا التسطي عليه وانباء قوته عليه السلام وغلبته بها لقد شهدت بها ملائكة السماء الذين ناشدوه قائلين :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

ولقد اعتقد علماء أوروبا وأمريكا المصريين بتأثير الوهم وأنه يقتل بعد أن أجروا التجارب الكثيرة ورووا لنا أن بعض المحققين في أمريكا أرادوا أن يمتحنوا تأثير

الوهم فجاءوا بجان محكم وم عليه بالاعدام وأوهمه أنهم سيقتلونه فصدأ وأجلسوه على كرسي وغطوا وجهه وعينيه وكشفوا عن زنده وجاء أحدهم فأمر على زنده مبضعه وهو يوهمه أنه جرحه وجعل الثاني يدفع عليه ماءً حاراً يمثل حرارة الدم أيها ما له بأن دمه أخذ يتدفق بينما كان الثالث ماسكاً بنضه وهو يقول بين حين وآخر لقد خف النبض ونفذ الدم وازال كذلك الى عشرة دقائق ثم قال ماسك يده في انقضائها انه مات ثم كشفوا عن وجهه الجاني فاذا هو قد مات بوهمه فعلاً وأشباه هذه الحوادث في اختباراتهم كثير أقرتوا معه على تأثير الوهم في الانسان ما أصبح بعده حقيقة راهنة والاصل في تأثير الوهم ما قرره من أن الاحوال الجسمانية تابعة للاحوال النفسانية فتأثر بمؤثراتها حتى يصبح الخيال حقيقة أو شبه حقيقة

واعلم أن تأثير الوهم لا يختص بالانسان وحده بل يؤثر في سائر الحيوانات حتى قيل أن الهر في جملة حيله على احطياض الفأر يستعمل التوهم فاذا كانت الفأرة في في السقف والهر في الارض تلاعبت لها ووثبت من الارض توهمها انها تقدر على الوصول اليها فعند ذلك يغلب الوهم من الفأرة فتدخل عزائمها وتعطل حواسها فتقع على الارض فتصيدها

وللوهم آثار عجيبة يكاد العقل ينكرها لولا المشاهدات وقد حدثني من أثق به أنه خرج لزيارة الحر الشهيد وبات مع جماعة من أصحابه هناك فبينما هم جالسون اذ سقطت حية من السقف ووقعت على رجل منهم كان نائماً ثم انسابت الى خنرة وبعد ذلك استيقظ الرجل فقال اني شعرت بثقل مر علي فقليل له تصارعنا فوقنا عليك ثم ان رجلاً لم يستطع السكمان فآخبره بخبر الحية فاخذته الحمى من ساعته وبقي غليلاً ثلاثة أشهر ومات كل ذلك بتأثير الوهم

وللوهم ما هو أغرب من هذا روى أن أميراً نزل بقرية فاحتاج الى مزين يتنص شعره ولم يشأ أن يستدعي اليه مزيناً بل جد في طلبه منفرداً حتى اذا ما بلغ دكانه قال له أنا حاجب هذا الامير الذي قد نزل بكم فقص شعري فان وجدتك حاذقاً في صفتك جاء الامير وقص شعره وانما فعل ذلك خوفاً من أن يعلم المزين بانه الامير فتأخذ هيبته بالوهم فيجرحه

ومن نوادر الوهم ما روه لنا قالوا أن رجلاً توهم بان في رأسه بطيخة وعجز أهله وصحبه من اقناعه بانه واهم بكل طرق الاقناع العقلية وقصد الاطباء نصاروا

يضحكون عليه ويحسبون به مساً الى أن وصل الى طبيب نبيه فشكا اليه ثقل البطيخة التي في رأسه فظهر الطبيب التصديق وجعل يمس رأسه عليه يديه وهو يستعظم حجم البطيخة ويقول لا بد من استعمال الموضع لازالتها وأمره بالحال أن يعود الى بيته ويستعمل كذا وكذا من العلاج الى صباح اليوم التالي حيث ياتيه بمباضعه ويخرج البطيخة من رأسه فرجع الواهم الى بيته وقال لاهله أرايتم كيف اني كنت على حق وان الطبيب فلان عرف موضع البطيخة من رأسي وأنه في صباح الغد سيخرجها بمباضعه وأخذ في استعمال العلاج الذي وصفه له وفي صباح اليوم التالي جاء الطبيب بمباضعه وأمر الواهم فاضطجع على فراشة وأعطاه مخدراً فنام ثم جرحه جرحاً بسيطاً وكان أعد البطيخة معه فوضعها بجانب رأسه ونبهه وهو مربوط الرأس فاز رأى البطيخة بجانب رأسه مربوط باللفائف البيضاء شغني من وهمه

وهكذا لا دواء لشفاء الوهم الا مسامرة الموهوم بما يتوهم وايهاهه بزوال ما كان فيه من الوهم بالطرق التي يزول بها لو كان دابة حقيقة لا وهماً وهذا وحده يمكن شفاء داء الوهم الذي يعترى الكثيرين ويسميه الاطباء « نورستانيا »

وقد يغلب الوهم على الانسان فيظن الاشياء على حسب الغالب على طبعه وعند ذلك يرتكب ما لا ينبغي بدون أن يتروى من ذلك ما رواه شهاب الدين أحمد الطفاشي في كتاب مرشد اليب أن رجلاً من المتهلة جنى جنابة فاخذ جنود الحاكم يجرؤنه فاجتمع الناس عليه وكان فيهم امرأة فضولية فسألت عن خبره فقيل أنه معتزلي جنى جنابة فخلعت نعلها وجعلت تصنعه به فقيل لها لم تصنعيه ولست عالمة بأمره ؟ قالت أليس يمزل عن النساء والعزل مكروه شرعاً نضحك الجماعة من قولها وما سبق الى وهمها قال المؤخرون لما مدح النحاس بن فروخ بقصيدته التي أولها « بات ساهي الطرف والشوق يلح » ولم يكن له حظ توهم انه عناء وعرض بهجانه في قوله :

كل عيش ينقضي لم يكن مع مليح ما لذك العيش ملح

لان ابن فروخ كان أعور ذيم المنظر فاعرض عنه ومنعه الجازة

وكذلك لما أنشد ذو الرمة عبد الملك قوله « ما بال عينك منها الماء ينسكب » وكان

بعين عبد الملك مرض لا تزال عينه تدب منه سبق الى وهمه انه يمرض فيه فقال وما

سوالك عن هذا يا جاهل ؟ وأمر باخراجه وكذلك فعل هشام ابنه باي المنجم لما أنشد :

صفراء قد كادت ولما تفعل كأنها في الافق عين الاحول

وكان هشام إنما يعرف بالاحول فسبق الى وهمه انه عرض به فامر بطرده
وقد تظهر الخبأت بتسليط الوهم على الناس من ذلك ما روي عن النبي سليمان
عليه السلام ان جاءه أحدهم وشكى له سرقة أوزه فنأدى سليمان الناس الى صلاة جامعة
ثم خطب فيهم وقال في جملة قوله وأحدكم يسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش
على رأسه فسح رجل رأسه فقال سليمان خذوه فانه صاحبكم
ومن هذا القبيل ما روي عن رجل واسمه موسى كان قد سرق شيئاً ووضع في
يمينه ودخل المسجد يصلي فتلا الامام قوله تعالى « وما تلك بيمينك يا موسى » فرمى
الرجل ما سرقة وهرب خارجاً وهو يقول لا شك أنه ساحر
ومن هذا القبيل أيضاً قولهم في مثل مشهور « كصاحب البعرة » والقصّة أن
رجلاً كان له ظنة في قوم فجمعهم ليستبرهم فاخذ بعرة وقال اني أرمي ببعرتي هذه
صاحب ظني ففعل له أحدهم وقال لا ترمي ببعرتك فاخصم على نفسه وهذا المثل
يضر كل من يظهر على نفسه ما لم يطلع عليه الناس من أعمالهم ومثله قولهم « يكاد
الريب أن يقول خذوني » لأنه يتوهم أن الناس مضطلعون على دخيلته
ونقل قطب الدين الراوندي بسند صحيح أن رجلاً أخذ مع ابنه أحد غلماناه الى
الكوكة فتخاضعا في الطريق فضرّب الابن الغلام ففعل هذا عنه وسبه حتى ادّعى انه
وهو ابن سيده مملوكه وتحاكما الى أمير المؤمنين فقال لقنبر أثقب في الحائط ثقبين ثم
قال لكلٍ منهما أدخل رأسك في هذا الثقب وقال لقنبر عليّ بالسيف سيف رسول الله
صلى الله عليه وآله وعجل ضرب رقبة العبد منهما قال فأخرج الغلام رأسه مبادراً
ومكّ الحرّ صابراً فعرف حينئذ الخليفة من هو الغلام وأدبّه على ما صنع ثم رده الى
مولاه بعد أن قال له لئن عدت لا قطعنّ يديك
وحكى أن رجلاً اشترى ياء ما سمكا وقال لاهله اصلحوه ونام فأكل عياله السمك
ولطخوا يده فلما انتبه قال هاتوا السمك الواقداً كلمته قال لا قالوا بلى شمّ يدك فشتمها
وقال صدقتم ولكن كأي ما شبعتم لاني لا أزال أشعر بالجوع
وقال الجاحظ كان رجل يرقى الاضراس ساخراً بالناس لياخذ أموالهم وكان يقول
للذي يرقيه اياك أن يخطر على قلبك الليلة ذكر القرد فيرجع الوجود الى ضررك فتبيت
وجماً فيذهب الوجود وهو يعالج أن لا يذكر القرد والوهم يصوّره له فيحسب ان
عدم شفاؤه لذكره القرد وفي اليوم التالي يرجع الى الدجاله شاكياً فيقول له لعليّ

ذكرت القرد فيقول نعم فيقول من ثم لم تفعلك الرقية
 وذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الاذكياء عن داود بن رشيد قال قلت
 لهشيم بن عدي بماذا استحق سعيد بن عبد الرحمن ولاية القضاء من المهدي وأُزله منه
 تلك المنزلة الرفيعة؟ قال ان خبره لظريف اعلم انه أتى الى باب الخليفة فوافى حاجب
 الربيع وقال له استاذن لي على أمير المؤمنين المهدي فاني قد رأيت له رؤيا صالحة وأحببت
 أن أذكرها له فقال له الربيع ان الناس لا يصدقون أحلامهم فكيف يصدقون أحلام
 غيرهم فاحتل بحيلة غير هذه فقال له ان لم تخبره بذلك أسأل من يوصلني اليه دونك وأخبره
 اني سألتك الاذن فلم تفعل فخاف الربيع الوشاية ودخل على المهدي وقال له انكم أطعتم
 الناس بانفسكم وقد احتملوا لكم بكل ضرب من الحيل فقال المهدي هذا صنع الملوك فماذا؟
 قال رجل بالباب يزعم انه رأى لأمير المؤمنين رؤيا صالحة وقد أحب أن يتقصها عليك
 فقال المهدي ويحك يا ربيع اني أرى الرؤيا لننسى فلا تصح فكيف اذا رآها لي من لعله
 ففتحها؟ قال لقد قلت له مثل هذا فلم يقبل قال فهات الرجل فخرج وأدخل عليه سعيد
 بن عبد الرحمن وكان صبيح الوجه حسناً جميلاً له هبة ووقار وحية منسدة ولسان
 فصيح حاد فقال المهدي هات بارك الله عليك ما رأيت فقال يا أمير المؤمنين رأيت آت
 أتاني في المنام فقال لي أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش في الخلافة مدة ثلاثين سنة وآية
 ذلك يرى ليلته هذه في منامه أنه يتلبس بياقوتين يديده ثم يمدّه فيجده ثلاثين ياقوتة وكأنها
 قد وهبت له فقال المهدي ما أحسن ما رأيت ونحن نمتحن ذلك في هذه الليلة فان كان الامر
 على ما ذكرته أعطيناك كلما تريد وان كان بخلاف ذلك لا نعاقبك لعلنا ان الرؤيا ربما
 صدقت وربما اختلفت قال سعيد فماذا أصنع أنا الساعة اذا سرت الى منزلي صفر اليدين؟
 وقد علموا اني كنت عند أمير المؤمنين فقال له المهدي وكيف نصنع؟ قال تعجل لي يا أمير
 المؤمنين بما أحب وأحلف لك بالطلاق اني كنت صادقاً في رؤياي فامر له بشرة آلاف
 درهم وأمر أن يؤخذ منه كفيل فخذ نظره فرأى غلاماً حسن الوجه واقفاً على رأس
 المهدي فقال هذا الغلام يكفلي فقال له المهدي أنت تكفله فاحمر وجه الغلام خجلاً
 وقال نعم فاستأذن سعيد وانصرف وفي صباح اليوم التالي أرسل المهدي فاستدعى سعيداً
 فلما مثل بين يديه ووقع نظره عليه قال سعيد هل رأى أمير المؤمنين شيئاً فتلجأ المهدي
 في جوابه فبادره سعيد قائلاً امرأتى طالق ان لم تكن رأيت ما ذكرته لك فقال المهدي
 ويحك ما أجراك على الحلف قال لعلمي يقيناً اني أحلف صادقاً فقال المهدي والله قد

رأيت ذلك يقيناً قال له سعيد الله أكبر أنجز لي ما وعدتني قال حباً لله وكرامة فامر له المهدي بثلاثة آلاف دينار وعشرة تحوت ثياب وثلاث مراكب من أحسن دوابه فاخذ ذلك وانصرف فقبعه ذلك الغلام الذي كفله وقال اسالك بالله العظيم هل كان لهذه الرؤيا حقيقة فقال له سعيد والله لو لا انك واجب الحق علي لما قد اوليتني من احسانك حيث تكفلت بي لما كنت اخبرتك والله ما رأيت شيئاً ولا اصل لهذه الرؤيا فقال وكيف ذلك؟ وقد رأى امير المؤمنين جميع ما ذكرته له فقال له هذا من الخوارق الكبار التي لا تتوجه لها امثالكم اعلم واكنم اني لما ذكرت له الرؤيا اشتغل ففكره وتعلق خاطره بها فامانام خيّل له ما كان في قلبه مما شغل ففكره وتعلق خاطره به فرأى ذلك في منامه لان الانسان اذا نام وفكره مشغول بشيء رآه في النوم فقال له الغلام كيف تجرأت وخلفت له بالطلاق على صحته؟ قال اني حلفت واحدة وبقيت اثنتان علي فازيد في المهر عشرة دراهم من الذي حصل لي من نعم امير المؤمنين التي نلتها كفارة لقسمي وارجع الى امرائي فبهت الخادم من ذكاء الرجل ودهائه وانصرف سعيد بعد ذلك قرّبه المهدي منه حتى عينه في القضاء.

ومن آثار الوهم غلبتها على الجوارح حتى يظهر أثرها عليها كغلاط وشبهة فمن ذلك ما قيل انه دخل رجل على المستعين العباسي وقبأوه مخرق فسئل عن ذلك فقال اجترت بالدرب وكان نيم كلب لم أره فوطئت قبائه فخرق ذنبي ويريد فوطئت ذنبه فخرق قبائي وقيل دخلت امرأة على عمر بن الخطاب وكان حاسر الرأس فدهشت المرأة فالت أبا غفر حفص الله لك فقال عمر ما تقولين فقالت صاحت من فرقتك وأرادت ان تقول اولاً أبا حفص غفر الله لك وثانياً فرقت من صلتك

ونزل ابن الجصاص يوماً من الخاقان الوزير في حراقة وفي يده بطيخة كافور فأراد ان يعطيها الى الوزير ويبصق في دجله فرمى البطيخة في الماء وبصق في وجه الوزير فارتاع الوزير وازعج ابن الجصاص وقال والله العظيم لقد أخطأت وخطأت أردت أن أبصق في وجهك وأرمي بطيخة الكافور في الماء فقال وكذلك فعلت يا جاهل تغلط في الفعل وتخطيء في الاعتذار

وحكى نفطويه عن حكيم بن عباس الكلبي أنه اجتمع عند عبد الملك وفود الناس من قریش والعرب فيمنما هو في المجلس اذ دخل عليهم اعرابي وكان عبد الملك يوجب به فمسرّ عبد الملك وقال هذا يوم سرور وأجلسه الى جانبه ودعا بقوس ورمى عنها

وأعطاها من على يمينه فرمى عنها حتى اذا صارت للاعرابي نزع فيها بقوة فضرط فرمى بها مستحياً فقال عبد الملك دهينا بالاعرابي وكنا نطمع بانسه واني أعلم انه لا يسكن مابه الا الطعام فدعا بالمائدة وقال تقدم يا اعرابي لتضرط وانما اراد لتأكل فقال له الاعرابي قد فعات انا لله وانا اليه راجعون فقال عبد الملك لقد امتحننا هذا اليوم والله لا جعلنا بها مذكرة يا غلام انتني بعشرة آلاف دينار فجاء بها فاعطاها للاعرابي فلما صارت له تسلى وانبسط ونسي ما صدر منه وأنشد على الاثر حكيم بن عباس السكلي

ويضرط ضارط من عبد قيس فيحبوه الامير بها بدورا
فيالك ضرطة جرّت كثيراً ويالك ضرطة أغنت فقيرا
يودّ القوم لو ضرطوا جميعاً وكان حياؤهم منها عثيرا
أيقبل ضارط ألفاً بألف فاضرط أصلح الله الاميرا

فتبسّم عبد الملك وأجاز حكيم بن عباس بمثلها

« تأثير الكلام »

قال بعض المحققين اعلم أن للكلام تأثيراً في النفس ، كما تظهر آثاره في الحسن ، ولهذا ترى رقيق الشعر ، يفعل ما لا يفعله السحر ، وجليل العبارة ، فيه من الاثارة ، ما يشجع الجبان ، وينشط الكسلان ، ويسخر البخل ، ويعزّز الذليل ، ويسحر الارواح ، ويسخر الاشباح ، ويعطف القلوب : ويؤلف بين الحب والمحبوب : ويصير العدو صديقاً ، وغلظ الفؤاد رقيقاً ، اه قال الشاعر :

حديث لو ان الميت يؤتي ببعضه لأصبح حياً بعد ما ضمه القبر
وقلنا في هذا الباب :

كم من فصيح بحسن القول نال من الـ آمال ما لم ينله صاحب المال
فلا تقل عزّة الدنيا لجاهلها والذلّ ذلّ أديب ربّ اقلال
فكم أديب تعالّى في تأدبه ما فوق أهل الغنى في ثوبه البالي

وقال الميداني في جمع الامثال وفد على النبي صلى الله عليه وآله عمرو بن الاهم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاهم عن الزبرقان فقال عمرو مطاع في أذنيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان يارسول انه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني فقال عمرو أما والله أنه لزم المروءة ضيق العطن أحق الولد لئيم الخال والله يارسول الله ما كذبت في الاولى ولقد

صدقت في الاخرى ولكني رجيل رضيت فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت
أقبح ما وجدت فقال رسول الله « ان من البيان لسحرا » يعني أن بعض البيان يعمل
عمل السحر ومعنى السحر اظهار الباطل في صورة الحق والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة
وذكاء القلب مع اللسن وإنما شبه بالسحر لتأثيره على سامعه وسرعة قبول القلب له
وكان بعض الاعراب يلزم شجراً ويقول هو نديم فيه ثلاث خصال ان سمع
مني لم ينم عليّ وان تقلت في وجهه احتمل مني وان عربت عليه لم ينضب فسمع
الرشيد ذلك فقال زهدني هذا الاعرابي بالندماء

ومن المستعذب ما يحكى عن الفضل قال دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد
وعندة جاريته مارية وكانت تحسن الشعر بديها وهي ذات أدب وحسن وجمال فقال
يا فضل قل في هذا الورد فانشدته الجارية مقاطعة الفضل:

كأنه لون خدي حين تدفعني يد الرشيد لامر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يا فضل فقد هيجتني هذه الماخنة فقامت وقد أرخيت الستور
وللامثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل
تبلغ مبلغها ، أو يؤثر تأثيرها ، لان المعاني بها لأئحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس
بها راقمة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة ، ولذلك ضرب الله الامثال في
كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لانها في العقول
معقولة وفي القلوب مقبولة وبالجمل فمقد جُبلت القلوب على التاثر بالامثال وثبوت المعاني
فيها بواسطتها وكذا الكناية عن الشيء يلزمه فان له في النفس أثر عظيم ولذلك عبر
القرآن بقوله « كن فيكون » عن نهاية القدرة وعبر بقوله عليه السلام « قلب المؤمن
بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقلب

« تأثير الشعر »

قال الحكم بن قنبر

مقالة الذم الى أهلها أسرع من منحدر سائل

قيل كان الرجل من نمر اذا قيل له ممن الرجل ؟ يقول من نمر وأمال بها عنقه
افتخاراً فلما هجواهم جرير بقوله :

فغض الطرف أنك من نمر فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صار اذا قيل لاحدهم ممن الرجل يقول من بني عامر وما لقيت قبيلة من العرب
يهجو ما لقيت نمر يهجو جرير . ومثل هذا ما قاله ابن نفيل في عبد الملك بن عمير القاضي :

إذا كلمته ذات ذل حاجة فهم بأن يقضي تنحنج أو سعل
قال عبد الملك تركني والله وان السعلة لتعرض لي في الحلاء فأذكر قوله فأهاب
أن أسعل

ومن تأثير الشعر في النفوس ما رواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قال نقل لي
جبرائيل الدلال الشاعر النديم الحلبي المعروف قال اتصل بمنيف باشا وزير المعارف
في الدولة العثمانية «وكان مجلسه مجلس أدب وعلم» عالم من أهل فاس وكان يبرمنا في
مجالسه حتى تضايق الوزير فأظهر التبرم من هذا الضيف فقال الدلال أنا أ كفيكه
الليلة قال ولكن أشترط أن لا تطرده طرداً قال هو كذلك وفي المساء انعقد عقد
الجلس وحضر الرجل ودار الحديث فقال الدلال للرجل هل لك في اعراب بيتين
أشكل عليّ اعرابهما فقال قل فقال :

أتانا عالم من أهل فاس يجادل بالصحيح وبالقياس
وما فاس له بلد ولكن فسا يفسو فساء أفهو فاسي

قال الدلال وما كاد صاحبا يسمع البيتين حتى جمع ما تراخى من جيبه وأسرع
مهرولاً وكان آخر عهدنا به

ومن تأثير الشعر ما حكاه أبو اسحق الصابي في كتاب الناجي قال كان لمعز الدولة
غلام تركي يدعى بكين الجام وكان أمرد وضيء الوجه منهمك في الشرب لا يعرف
الصحو ولا ينارق اللهو واللعب فلفرط ميل معز الدولة اليه وشدة إعجابه به جعله
قائد سرية جرها لحرب بعض بني حمدان وكان المهلب يستظرفه ويستحسن صورته
ويرى أنه من عدد الهوى لا من عدد القوى فمن قوله فيه:

طفل يرق الماء في وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العدا رى فيه ان تبدو نهوده
ناطوا بمعدد خمره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يتوده

فما كان بأسرع من أن دارت الدائرة على هذا القائد وخرج الامر على ما أشار
اليه الحلبي بن أبي صفرة

وذكر صاحب جمهرة الامثال ان عامر بن مالك ملاعب الأسمه وفد على النعمان
في رهط من بني جعفر بن كلاب فيهم لبيد بن ربيعة فطعن فيهم ربيع بن زياد وذكر

معايرهم ولم يزل به حتى صدّه عنهم فرجعوا الى رجالهم يتشاورون في أمره فقال لبيد وهو غلام يحفظ رحلهم اذا غابوا أنا صاحبه والله لئن جمعت بيني وبينه لافضضته فقالوا اهج هذه البقلة وأشاروا لبقلة أمامهم ترعى التربة فقال هذه التربة لاتذكو ناراً، ولا تؤهل داراً، ولا تستر حالاً، عودها ضئيل، وفرعها ذليل، وخيرها قليل، أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعا، وأشدّها قلعا، بلدها شاسع، وآكلها جائع، والمقيم عليها قانع، فلما أصبحوا غدوا به معهم فوجد الربيع يأكل مع النعمان فذكر الجعفريون حاجتهم فاعترض الربيع فقال لبيد:

أكل يوم هاتي مقرعـه	يارب هيجبا هي خير من دعه
نحن بنو أم البنين الاربعه	سيوف حق وجفان مترعه
ونحن خير عامر بن صعصعه	الضاربون الهام تحت الخيصه
والمطعمون الحفنة المددعه	يا واهب الخير الكثير من سعه
اليك جاوزنا بلاداً مسبحه	نخبر عنها خبراً فاسمه
مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه	فاسته من برص ماله
وأنه يوجب فيها اصـبه	يولجها حتى يوارى أشبعه

كما يطلب شيئاً ضيعه

فقال النعمان أ كذلك أنت يا ربيع ورفع يده عن الطعام ثم قال قدموا لهذا طعاماً وأمر بالربيع فصرف الى أهله فكتب الى النعمان:

لان رحلت جمالي ان لي سعة	ما مثاها سعة عرضاً ولا طولا
بحيث لو وزنت لهما بأجمعها	لم يدلو اريشة من ريش شمريلا (١)

فأجابه النعمان:

شرد برحلك حيث شئت ولا	تكثر علي ودع عنك الا باطلا
قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا	فما احتيالك في قول اذا قила

ومثل هذا ما وقع لابي نواس مع أبان اللاحقي على ما ذكر في كتاب طبقات الشعراء قال كان أبان اللاحقي شاعراً ظريفاً يمدح البرامكة وكانوا يولونه أمر تفرقة المال على الشعراء كلما أرادوا ذلك ففي ذات يوم أمروا له بمال يفرقه وكان كثيراً فخط له بمأزحة أبي نواس فأرسل درهماً ناقصاً وكتب له اني أعطيت كل شاعر على قدره وهذا مقدارك

(١) شمريلا اسم طائر معروف

فوجد عليه أبو نواس فلما قال أبان قصيدته الحائية التي يصنف فيها نفسه ويقتبعت فيها عند جعفر بن يحيى وهي:

أنا من حاجة الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتبه حاسبه أديبه خطيبه	ناصره راجحه على النصاح
شاعره مقلقه أخفه من الري	شمة مما تكون تحت الجناح
لو رأي الأمير عاين مني	سمهرياً كالجلجل الصيَّاح
حية سبطة وأنف طويله	واتقاده كشعلة المصباح
لست بالمفرط الطويل ولا بالـ	مستكين الحيد الدحداح
أعين الناس طائراً يوم صيد	لغدو دُعيت أم لرواح
أبصر الناس بالجوارح والاك	اب والآخر الصيَّاح الملاح

وبلغ أبو نواس هذه القصيدة فقال والله لأعرفنه نفسه وأنشأ يقول:

ان أولى بخسة الحظ مني	بالمسسى بالجلجل الصيَّاح
قبلوا منه حيث خب لديهم	آخرس الصوت غير ذي انصاح
ثم بالريش شبه النفس بالـ	فئة مما يكون عند الجناح
فاذا الشم من شاربج رضوى	عنده خفة لدى السيَّاح
لم يكن فيك غير شيء مما	قلت من نعت خلتك الدحداح
حية سبطة وأنف طويله	وهباء سواهما في الرياح
فيك ما تحمل الملوك على الحر	ق وتررى بالسيد الجحججاج
فيك تيه وفيك عجب شديد	وطماح يفوق كل طماح

فلما انتهى شعر أبي نواس الى أبان اللاحقي سقط في يده وحلم انه لو بلغ البرامكة نرات مرتبه عندهم وندم على ما كان منه فبعث الى أبي نواس لاتذيرها ولك حيك تبعث اليه لو أعطيتني الدنيا لم يكن بد من اذاعتها فاصبر على حرارة كيه واعرف الان قدرك قال فلما سمع جعفر البرمكي شعر أبي نواس في اللاحقي قال والله لقد قدف بنجس خصال لاتقبله السفلة على واحدة منها فكيف تقبله الملوك؟

والحكايات في هذا الباب كثيرة في بيان تأثير الشعر في قائله أو فيمن قيلت فيه

« التطير »

جاء في مفتاح دار السعادة « التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف أما من لم يبال

ولم يعبا به فلا يضره البتة ولا سيما ان قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه « اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك اللهم لا ياتي بالحسنات الا أنت ولا يذهب السيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بك » وأما من كان معتقداً بالتطير فهو أسرع اليه من السيل الى منحدره لما يفتح له من أبواب الوسوس فيما يسمعه ويراه ويفتح له الشيطان من المناسبات البعيدة والقريبة ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه » اهـ

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله « الطيرة على ما تجمعها ان هونها تهونت وان شدتها تشددت وان لم تجمعها شيئاً لم تكن » وقال ابن خلكان من قيسح ما وقع لابي نواس ان جعفر بن يحيى البرمكي بنى داراً استفرغ فيها جهده فلما كملت وانتقل اليها وصفها أبو نواس بقصيدة امتدح فيها جعفر وكان مطلعها :

أربع البلاء ان الخشوع لبادي عليك واني لم أخنك ودادي

وجاء في بعضها :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بني برمك من راحلين وغادي

فتطير البرامكة من هذه القصيدة وقالوا نعيم لنا أنفسنا يا أبا نواس فما كانت مدة يسيرة حتى أوقع بهم الرشيد وصحبت الطيرة

وذكر الطبري والخطيب والبغدادى وابن خلكان وغيرهم ان جعفر بن يحيى البرمكي لما بنى قصره وتناهى بنيانه وكل حسنه واستكمل فرشه وعزم على الانتقال اليه جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه اليه فاختاروا له وقتاً في الليل فخرج في ذلك الوقت والطرق خالية والناس نيام فرأى رجلاً قائماً يقول :

تطير بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يشاء

فتطير ووقف ودعا بالرجل وقال له أعد ما قلت فاعاده فقال ما أردت بهذا ؟ قال ما أردت به معنى من المعاني ولكنه خاطر عرف لي وجاء على لساني فأمر له بدينار وهضى لوجهه وقد تنص عيشه وتنقص سروره فلم يكن الا القليل حتى أوقع بهم الرشيد وبنى عبد الله بن زياد داراً عظيمة فرمى بها مع بعض الاعراب رأى في دهليز صورة أسد وكنب فقال أسد كالح وكنبش ناطح وكنب نابع والله لن يمنع بها صاحبها فلم يلبث عبد الله فيها الا أياماً يسيرة حتى مات

وحكى أن صاحب قرطبة أصابه وجع فامر بعض جواريه ان تغنيه ليلا هو عن

وجعه فغنت :

هذي الليالي علمنا أن سيطونا فشحشعينا بماء المزن واسقينا
فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقيم بعد ذلك غير خمسة أيام ثم مات
ومن ذلك لما بنى السفاح داره بالانبار ودخل عبد الله بن الحسن فتمثل حين رأى
السفاح بهذا البيت:

يؤمل أن يعمّر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة
فتغير وجه السفاح فاعتذر إليه عبد الله بأنه جرى على لسانه فامرّ عليه أيام حتى مات
ومن عجيب ما يحكي في التطير أن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب لما
خرج من القاهرة إلى جهات البلاد الشامية أقام ظاهر البلد لتجتمع العساكر وكان
معه طائفة من العلماء والادباء والاعيان فأخذ كل واحد يقول كلمة في وداعه وكان في
الحاضرين معلم أولاده فأخرج رأسه وأشار إلى السلطان وأنشد البيت المشهور:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
فانقبض السلطان وتطير الناس من ذلك وكان الأمر على ما قال فإنه لم يعد بعدها
إلى مصر واشتغل بفتوح القدس والسواحل حتى مات

وذكر القليوبي في نوادره قال حدث ابن مكّي عن أبيه قال قال لي محمد الأمين
في آخر أيامه يا مكّي اني والله أحب أن أعقد يوماً قبل ان يحال بيني وبين ملكي فقلت
يا امير المؤمنين افعل فقال اغد عليّ في غد قال فانصرفت فعدا عليّ رسوله في السحر
فجئت إليه وهو في صحن داره وعليه جبة مزركشة بالقصب تتألق وعمامة مثاها ما رأيت
شكها على رأس احد قط وتحت كرسى من ذهب مرصع بالجواهر فدعا لي بكرسي
فجلست عليه عن يساره ثم قال لخدم علي رأسه ادع لي فلانة وفلانة حتى عدّ أربع
جوار ما منهن الا وانا اعرف حذقها وجودة غناها فخرجن وجلسن عن يمينه ثم قال
يا غلام عليّ برطل فاتي برطل وجام بلور مكلل بالجواهر فالتفت الى التي تليه وقال لها
غني فضربت ضرباً حسناً وغنت بشعر الوليد بن عتبة بن ابي معيط

هم أقتلوه كي تكونوا مكانه كما قتلت كسرى بليل مرابه

بني هاشم ردوا سلاح أخيك ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

قال فرمى بالجام وسط الدار ثم قال لئنك الله ما هذا؟ قالت والله يا سيدي ما جاء
على لساني غير هذا. ثم التفت إلى الغلام وقال له أسقني فانه بجام مثل الاول فاخذه
وقال للثانية غني فغنت ما قيل في كليب بن وائل:

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر ذنب منك دُرَج بالدم
 فرمى بالجام من يده فكسره ثم قال يا غلام علي برطل وقال للثالثة غني فغنت:
 أتقتل عمرأ لا أبالك شاردأ وتزعم بعد القتل انك هارب
 فلو كنت بالاقطار ما فتت ضربتي وكيف تفوت الحين والندم طالب
 قال فرمى بالجام وقال يا غلام علي برطل وقال للرابعة غني فغنت:
 كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسر بمكة سامر
 بلاد ونحن أهلها فإبدنا صروف الليالي والخطوب الزواجر
 قال فالتفت الي وقال قد سمعت هذا انه لا امر يريد الله عز وجل قال فما مضت
 أيام حتى رأيت رأسه معلقاً على القصر

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح انطاكي قال ان التطير كثير في مصر والمصريون
 يسمونه فالاً ويعتقدون فيه فاذا كان الرجل ذاهباً بحاجته وسمع في طريقه كلمة طيبة
 انتظر الخير فيما هو ذاهب اليه وان سمع كلمة غير طيبة انتظر الشر قال وهذا اعتقاد
 عام يشمل الجميع وتأثيره ظاهر
 وحدثنا أيضاً بان التطير تعتقد فيه عامة الفرنجة فهم يتطيرون من عدد ١٣ فلا
 يجلسون للطعام وهم ١٣ نفساً ولا يعملون عملاً هادئاً في يوم ١٣ من كل شهر ويكثر
 فيهم في النساء والرجال تعاقب حلية من الفضة أو الذهب وأحياناً مرصعة بالجواهر وعليها
 عدد ١٣ ويطلقونها رقية لهذا الدد الذي يتطيرون منه

« النفاؤل »

والنفاؤل كالتطير الا انه يكون بالخير والفرق بينهما التسمية اللفظية وضرور النفاؤل
 كثيرة منها النفاؤل بالاستصباح كأن يخرج الانسان من بيته فاذا رأى أول انسان حسن
 الوجه تفاءل خيراً أو قبيح الوجه تفاءل شراً
 وكذلك النفاؤل بسماع كلمة من فم أحد أو مطلع قصيدة أو نحوه على ما رأيت
 في التطير وهذا بنوع خاص شأن أهل مصر
 ومن النفاؤل ما يكون بالاسماء روي أن هاشم بن عبد الملك تفاءل باسم نصر بن سياد
 فولاه خراسان وبقي عامله عليها عشر سنوات وتفاءل عامر بن اسماعيل قاتل مروان
 ابن محمد باسم رجل يدعى منصور بن سديد فقال له من أي قبيلة؟ قال من سعد العشيرة
 فاستصحبه وطلب مروان فظفر به فقتله

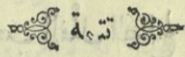
وتفاهل المؤمن بمنصور بن بسام فكان سبب مكانته عنده
وقيل ان اليد اليسرى كانت تسمى في الاصل اليسرى ولكنهم أطلقوا عليها اللفظ
اليمنى تفاؤلاً ومن هذا القليل تسميتهم الاعمى بالبصير والديغ بالسليم والقطع بالجبر
وفي الحديث قال سعيد بن المسيب بن خزن بن أبي وهب الخزومي قدم جدي
حزن على النبي صلى الله عليه وآله فقال له ما اسمك؟ قال حزن قال رسول الله بل سهل
قال ما كنت لادع اسماً سمعتني به أمي قال سعيد فانا لنجد تلك الحزونة في أخلاقنا
الى اليوم

وكان النبي صلى الله عليه وآله يحب النعال الصالح والاسم الحسن ويكره الطيرة وكان
يقول «ليس منا من تطير أو تطير له» ويروى انه صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من
شيء وكان اذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فاذا أعجبه سر به وظهر الاستبشار من ذلك
على وجهه الكريم وان كره اسمه ظهرت الكراهية على وجهه وكان اذا دخل قرية
سأل عن اسمها فان أعجبه ظهر على وجهه. وعنه صلى الله عليه وآله انه قال يوماً من
يحجب هذه اللقحة فقام رجل فقال ما اسمك فقال مرة قال اجلس ثم قال ثانية من يحجب
هذه اللقحة؟ فقام رجل فقال ما اسمك؟ قال يعيش فقال صلى الله عليه وآله احلب
وكان صلى الله عليه وآله كثيراً ما يتفاهل بالاسماء ونحوها من الكلمات الطيبة في الحرب
أو السفر أو غيره مما يأتي به من الافعال وأنت تعلم ان التأسي به سنة

وفي السير انه صلى الله عليه وآله لما خرج الى بدر مرة برجلين فسأل عن اسميهما
فقال أحدهما مساخ والاخر مخذل فعدل عن طريقهما وليس هذا من الطيرة التي نهى
عنها عليه الصلاة والسلام بل من باب كراهية الاسم القبيح وكذلك تشاؤمه من اسمه مرة
لانه اسم لابن الشيطان وبه كني ابايس أبا مرة أو لاشتقاقه من المرارة وكذلك
كراهية لمن اسمه حرب وكان صلى الله عليه وآله يكتب الى امرائه اذا أبردتم اليه
بزيدي أبردوه مع حسن الاسم حسن الوجه ونزل صلى الله عليه وسلم على كئثوم بن
الهدم فصاح بغلام له يا نجيح فقال أنجحت يا كئثوم وسمع صلى الله عليه وآله رجلاً
يقول يا حسن فقال أخذنا فالك من فيك

ومن ظرائف ما يروى عن الاسماء ونورده هنا للتفكهة ما نقله لنا شاعر ناعبد المسيح
بك انطاكيا قال نقل لي أحد الثقات بحلب عن مزين من عامتها قال خرجت مرة للتجول
شرقي حلب فررت بعشار عزة فنزلت على بيت فيه صبية ناهد فرحبت بي حسب

عوائد العرب وأخذت دابتي فسقتها وأعلفتها ثم جاءني بما تيسر لطعامي وإذا شاب عربي دخل علينا ضيفاً فرحبت به الجارية وقالت ما اسم الضيف : قال اسمي بوجهك قالت مرحباً بحسن ثم قال الشاب وما اسم معزتي؟ أي مضيفتي قالت اسمي بسيفك قال مرحباً بفتنه أما أنا فعجبت مما قالوا من الكنى اللطيفة ثم مالت اليّ الجارية وقالت ما اسم معزتي؟ أي ضيفي فقلت والله لا أعرف ما تعرفان أنا اسمي الحاج محمد من محلة باب الزير بجلب فضحكا وضحكت ثم انصرفت وأنا معجب بذكاء قومي العرب في باديتهم رجاءهم في حضارتهم



« في تأثير اللسان والمكان »

أما تأثير اللسان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله « ان البلاء موكل بالمنطق » وروي أن يوسف عليه السلام شكى الى الله طول الحبس فأوحى اليه « يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت ربي السجين أحب اليّ ولو قلت الماقبة أحب اليّ لعوفيت » وحكي أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحرّة :
شفّ المؤمل يوم الحرّة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي وأتاه آت في منامه فقال هذا ما طلبت

وحكي أن نور الدين محمود وهام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرّج فتجاولا في الكلام ثم قال محمود يامن دري هل نعيش الى مثل هذا اليوم ؟ فقال له هام الدين قل هل نعيش الى آخر الشهر ؟ فإن العام كثير قال فاجري الله على منطقتكما ما كان مقدراً منذ ازل فأت أحدهما قبل تمام الشهر والآخر قبل تمام السنة

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « ارجاف العامة بالشيء دليل على مقدمات كونه » أقول ونرى تصديق ذلك في كثير من الادوار التي تلهم بها العامة فتقع فعلاً ولذلك قالوا « السنة الخلق أقلام الحق » وبالاختصار نقول ان تأثير اللسان من الامور المحسوسة المشاهدة

وأما تأثير المكان فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وفي لفظ آخر « ان يكون شيء من الشؤم حق ففي الدار والمرأة والفرس »

وروي أن رجلاً أخبر النبي صلى الله عليه وآله أنهم سكنوا داراً وعددهم كثير

وما لهم وفير فقلّ العدد وذهب المال فقال له دعوها فانها ذميمة وأمرهم بالخروج منها وقال عبد الملك بن عمر الكوفي كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة المعروف بدار الامارة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه فرآني وقد ارتعت فقال مالك؟ فقلت أعينك بالله اني كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي عايمها السلام بين يديه بهذا المكان ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عبيدة الثقفي فرأيت رأس عبد الله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بين يديك قال فقام عبد الملك من موضعه وأمر بهدم الطاق الذي كنا فيه

وقيل ان في همدان خاصة وهي أن لا يكون الانسان فيها حزيناً ولو كان ذا مصيبة ويغلب على أهلها اللهو والطرب وعدوبة اللسان ولطافة الطبع وحسن الخلق والغالب على أكثرهم البدهاهة وقيل في ذلك

لا تلمني على ركاكة عقلي ان تيقنت اني همداني

وقيل في قبرس وهي جزيرة في بلاد الروم قريبة من بيروت انها ذات عجائب منها ان من حفظ شيئاً بارضها لا ينساه مبالغة بصفاء مناخها بحيث يصفو به الذهن فيستعد للحفظ وينسبون الى هذه الجزيرة سقراط وأفلاطون (١)

وبالجملة فلاكل مكان تأثير خاص أودعه الله فيه فبعضها محسوس وبعضها غير محسوس وأنا أعينك بالله يا ابن ودي أن تظن أني أقول بأن هذه التأثيرات للسان أو المكان أو لغير ذلك بل ذاك ما أودعه الله فيه من قبيل ابداع النار بالزناد

(١) ومن هذا القبيل ما هو معروف في العراق اليوم بأن الحمرة دار الانس والصفاء ساد هذا الاعتقاد في العراق حتى تسمعه في مصر فالشام فبلاد ما بين النهرين وذلك أن هذا البلد البهيج في موقعه المؤنس في أهله من يوم ولاية عظمة مولانا الشيخ خزعل خان المعظم أصبح مقصد القصاد ومورد الوراد فيجد فيه العلماء والشعراء والادباء من فضل عظمة الامير جرداً واحساناً ويجد فيه التجار والمرزقة بعدل عظمة الامير ما يروج متاجرهم ويزيد في أربابهم ويجد فيه الخائفون أماناً بظل ظليل سداوته حفظه الله ولذلك بات أهل العراق والشام ومصر أيضاً أذراً وامعمرراً وحزيناً يقولون له «عليك بالحمرة حيث جلاء الكدر، ورواج المتجر، ومقام الرغد والهناء، وزوال النكد والعناء» فبارك الله بالامير الذي جعل أمارته مورد الخير والبركات كما قيل «بجوارها تغلو الديار وترخص»

﴿ المورد الثاني ﴾

وهذا المورد يشتمل على مقدمة وخمس رياض وخاتمة
 الروضة الاولى — في فضل العقل وثمراته
 الروضة الثانية — في ذمّ الجهل والغباوة
 الروضة الثالثة — في الاستدلال بالعقل السليم
 الروضة الرابعة — في الامور الحاجبة للعقل
 الروضة الخامسة — في الامور الكاشفة
 الخاتمة — نظرة اجمالية

﴿ المقدمة ﴾

﴿ في العقل وأحكامه علماً ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله
 الذين شادوا الدين، وبعد فاعلم أنّ أكثر ما ذكرناه عن أحوال النفس في المورد الاول
 قد أنعم الله به على الحيوان والانسان، اذ للحيوان أيضاً ما للانسان من الشهوة والغضب
 والحواس الظاهرة والباطنة، حتى أنّ الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته فتهرب منه،
 وهذا ما يسمى الادراك الباطني، وهو في بعض أنواع الحيوان كثير، ولا سيما في الكلب
 الموصوف بالامانة والذكاء، ألا أنّ الانسان يمتاز عن سائر الحيوان في العقل، وذلك لأنّ
 الشرف وقتئذ يحصر في القوة والحيوان أقوى من الانسان لو لم يتغلب عليه بفعله
 ودهائه فيسوده

والعقل هو القوة المدركة في الانسان التي بواسطتها يفكر ويفرق بين الخير والشر
 ويتعلم ويعلم ويخترع وبالاجمال هو المظهر الوحيد الذي يميز الانسان ويجعله بمرتبة عالية
 بين المخلوقات الارضية يقرب فيها من العالم الروحاني

والعقل عبارة عن علم وارادة، أما العلم فهو معرفة الانسان الامور الدنيوية والاخرية
 وفيها الحقائق التي لا تدرك بالحسوسات ولذلك لا يشاركها بها الحيوان الاعجم
 فالعلوم الكلية الضرورية التي وان كنا ندركها بالبداهة هي من خواص العقل
 اذ يحكم الانسان مثلاً بعقله بأنّ الشخص الواحد لا يمكن أن يوجد بشخصيته بمكانين
 في وقت معاً فانّ هذه القاعدة البسيطة الكلية يدركها كل انسان بعقله واذا فهمت هذا
 في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر

وأما الإرادة فإنَّ الإنسان إذا كان يدرك بعقله عاقبة الأمور وما صلح منها وما
فسد ينبعث من نفسه شوق إلى العمل بما أدرك طلباً لمصالحته وتعاطياً لأسبابها بمطلق ارادته
وهذه الإرادة تقسم إلى عامة وخاصة أما العامة فهي ما يشترك فيها مع الحيوان
كإرادة الأكل والشرب والجماع وتكون حينئذٍ إرادة كراهية تبعث إليها الحاجة
وأما الإرادة الخاصة فهي المتميزة بها العقل الإنساني كالامتناع عن الشهوات المحرمة أو
الضارّة والنفس تطلبها والعقل يصدّها عنها

الروضة الأولى

« في فضل العقل وثمراته »

العقل أيدك الله سلطان الفرائع ، ومصباح الجوارح ، ومفتاح المصالح ، ورأس
العلوم ، وسبب إدراك المعلوم ، ومادة الفهم . روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله
أنه قال « العقل نور في القلب ، يفرّق بين الحق والباطل » وأهل العقول هم المخاطبون
وهم المكلفون قال الله سبحانه « أن في خالق السموات والأرض واختلاف الليل
والنهار آيات لأولي الألباب » إلى قوله « آيات لقوم يعقلون » وقال عزّ من قائل
« أن في ذلك آيات لأولي النهي » وقال « هل في ذلك قسم لذي حجر » وهذا
كثير في كلام الله .

وبالفعل استظهر المرء على كثير مما غاب عنه واستطلع على أكثر مما احتجب عنه مما
يمكن عرفانه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال « لكل شيء دعامة ودعامة
عمل المرء عقله فبتدرك عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو
نعقل ما كنا من أصحاب السعير »

وقالت الحكماء « بنور العقل تظهر الحقائق وتنكشف السرائر وتلوح خفيات
الأمور فيعبد الله تعالى على حقيقة العلم به »

وحكى الأصمعي قال لقد اجتمعت بحدث من أولاد العرب كان يحادثني فامتعني
بنصاحة وملاحة فقلت له أيسرُك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنت أحمق ؟ قال لا والله
قلت ولم ؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي « اه
فانظر إلى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدقُّ
على من هو أكبر منه سنّاً وأكثر تجربةً

ومن كلام لامير المؤمنين عليه السلام « لا مال أعود من العقل » وذلك لأنّ الأحمق

ذا المال طالما ذهب بماله بحمقه فعاد أحق فقيراً والعقل الذي لا مال له طالما اكتسب المال بعقله

وخطب رجلان الى ديمارس الحكيم ابنته وكان أحدهما فقيراً والآخر غنياً فزوجها من الفقير فسأله الاسكندر عن ذلك فقال لأن الغني كان أحق فكنت أخاف عليه الفقر والفقير كان عاقلاً فرجوت أن يغني بعقله

وقال بعض الادباء « صديق كل امرء عقله وتدوره جهله » وقال بعض البلغاء « خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل » وقال بعض الشعراء :

يزين الفتى في الناس صحّة عقله	وان كان حظه راء عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله	وان كرمته أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس انه	على العتل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله	فليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله	فقد كملت أخلاقه ومناقبه

وقتا في العتل :

قد ميز الله بالعقل الانام عن ال
فاجهد بته وير عقل أنت صاحبه
وقال شاعرنا الانطاكي :

قل للذي ضل عن سبل الهدى وغوى
طوعاً لشهوته شأن المجانين
ارجع لعقلك واسترشد به أبداً
أو شا كل الهم في ذل وتهوين
واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور، وينفصل بين الحسنات والسيات، ومن كلام
أمير المؤمنين عليه السلام « ما استودع الله امرءاً عقلاً الا لينقذه به يوماً ما » قال
الشارح لا بد أن يكون للباريء تعالى في ايداع العقل في قلب زيد مثلاً غرض ولا
غرض الا أن يستدل به على ما فيه نجاته وخلاصه وذلك هو التكليف فان قصر في
النظر وجهل واخطأ الصواب فلا بد أن ينقذه عقله من ورطة من ورطات الدنيا وليس
ينخلو أحد من ذلك أصلاً لأن كل عاقل لا بد أن يتخلص من مضرة سبيلها أن تقال
بإعمال فكرته وعقله في الخلاص منها والحاصل أن العقل أما أن ينقذ الانسان في دينه
وهو الفلاح والنجاح على الحقيقة أو ينقذه من بعض المهالك الدنيوية على ما فيها من
كثرة الافات وعلى كل حال قد صح قول أمير المؤمنين

وعن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرجل يكون حسن العقل كثير الذنوب فقال ما من بشر الا وله ذنوب وخطايا يقتربها فمن كانت سجيته العقل وغريزته اليقين لم تضره ذنوبه قيل كيف ذلك يا رسول الله؟ قال كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة وجاء أن قوماً أثنوا على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة والعبادة وخصال الخير حتى بالغوا فقال كيف عقله؟ قالوا يا رسول الله نحبك باجتهاده في العبادة وضروب الخير وتساءل عن عقله فقال إن الاحق يصيب بحمقه أعظم مما يصيبه الفاجر بفجوره وإنما ترتفع العباد غداً في درجاتهم وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم فالعقل نفعه في الدنيا والاخرة ظاهر

وحكي أن نصيباً دخل على عبد الله بن مروان فتغدى معه فلما رأى عبد الملك ظرفه وأدبه قال هل لك بما تتنادم عليه فقال يا أمير المؤمنين لو نبي حائل وشعري مفلفل وخلق مشوه ولم أبلغ ما بلغت من اكرامك اياي لشرف أبولاً اكرم أم وأما بلغته بعقلي ولساني فأنشك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك فأعفاه

وبالجملة فقد أوجب الله الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدي ويرده عن ردي » وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي الحل الثاني
واذا هما اجتماعاً لنفس مرّة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طمن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الاقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت أيدي السكاة عوالي الممران

« تعريف العقل »

عرف العقل بتعاريف عديدة ولتقتصر منها على أحسنها فأما تعريفه بالمعنى الشرعي فقد روي عن الاشعري عن حمد بن الجبار عن بعض أصحابنا رفعه الى أبي عبد الله قال قلت له ما العقل؟ قال ما عبده الرحمن واكتسب به الجنان قال قلت فالذي كان في

معاوية ؟ قال تلك هي النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل
وأما العقل بالمعنى العرفي فهو المعرفة المستعملة في تحرّي النفع وتجنّب الضرر
وبعبارة أخرى ملكة وحالة في النفس تدعو الى اختيار النفع واجتناب الشرور والمخار
وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية
ولا لاهل اللغة والمتكلمين في اشتقاق العقل ومعناه أقوال كثيرة قالوا العقل اشتق
من عقل الناقة اذا شدوا طفلها مع ذراعها بحبل يمنعهما من الشراد فكانه يمنعه الانسان
عن التماذي في سبيل هواه . وقيل اشتق من العقل وهو الملبأ يقال عقل الوعل اذا
التجأ الى الجبل الذي يمنعه فكان الانسان يلتجئ الى عقله في أحواله
ويقسم العقل الى قسمين غريزي ومكتسب وهذا مأخوذ عن أمير المؤمنين عليه
السلام فقد نسبوا اليه قوله :

رأيت العقل عقليين فطبوعٌ ومسموع

ولا ينفع مسموعٌ اذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ونور العين ممنوع

ثم ان كل واحد من القسمين يختلف بالشدة والضعف . أما القسم الغريزي فقد
يكون في الناس من لا يحتاج في النظر الى ترتيب المقدمات بل تنساق النتيجة النظرية اليه
سوقاً من غير احتياج الى فكر وتدبر ويسرى ذكاءً ويسرى صاحبه ذكياً . وقد يكون
فيهم من هو دون ذلك وقد يكون من هو دون الدون

وأما القسم الثاني فقد يكون في الناس من لا يجدي فيه التعليم بل يكون كالصخرة
الجامدة بلادةً وغبابةً ومنهم من يكون أقلّ بلادةً وجنوح ذهن من ذلك ومنهم
من يكون الوقفة عنده أقلّ فيكون ذا حال متوسطة وبالجملة فاستقراء عقول الناس يشهد
بصحة ذلك

وأصل نقصان العقل المكتسب من نقصان العقل الغريزي كما قال أمير المؤمنين
عليه السلام « ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوعاً » وقد شاهدنا كثيراً مثل هذا في
أشخاص كثيرين اشتغلوا في العلم الدهر الطويل فلم ينجع معهم العلاج وفارقوا الدنيا
وهم على الغريزة الاولى من السذاجة

واعلم ان العقل المكتسب نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة
وليس له حدٌ لانه ينمو ان استعمل وينقص ان أهمل واكتسابه من وجهين اما بالتعليم

واما بالتجربة وقد قيل في منشور الحكم « من طال عمره نقصت قوّة بدنه وزادت قوّة عقله » وقيل « لا تدع الايام جاهلا الا أدبته » وقال بعض الحكماء « كفى بالتجارب مؤدباً وبقلب الايام عظة » وقال بعض البلغاء « التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل » وقال بعض الادباء :

ألم تر أنّ العقل زينٌ لاهله ولكن تمام العقل طول التجارب
وقلنا في هذا الموضوع :

لا تظنوا الذكاء والعلم يكفي ليكون الانسان ذا رأي صائب
ليس يجلو العقول الا زمانٌ يمتضى ومنه تحبى التجارب
وقال أحد الشعراء :

إذا طال عمر المرء في غير آفةٍ أفادت له الايام في كرّها عقلا
ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « لم يذهب من مالك ما وعظك » ومثل هذا قولهم « أنّ المصائب أمان التجارب » وقيل لعالم فقير بعد ان كان غنياً أين مالك ؟ قال اتجرت فيه فابتعت به تجربة الناس والوقت فاستفدت فيه أشرف العوضين ومن المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام :

كلما أدبني الدهر رأاني نقص عقلي
واذا ما زددت علماً زادني علماً بجبلي

وقال شاعرنا الانطاكي :

انما عقل الفتى جوهرةٌ صقلها يحلو سناها فتضي
والتجارب لها مصقلةٌ يتوخاها أخو الفكر الوضي

واعلم انّ من فقدت غريزته أو نقصت لانتجع فيه التجربة اذك لأنّ التجربة نتيجة الغريزة والغريزة أساس التجربة ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام « أجهل الجهال من عثر بحجر مرتين » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وفي أمثال كليله ودمنه زعموا انه كان أسد في أجمة وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه فاصاب الاسد جرب وضعف شديد وجهد فلم يستطع الصيد فقال له ابن آوى ما بانك ياسيد السباع قد تغيرت أحوالك قال انّ هذا الجرب قد أجهدني وليس له دواء الا قلب حمار وأذنائه قال ابن آوى ما يسر هذا فقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار يحمل عليه ثيابه وهذا آتيك به ثمّ دلف الى الحمار فاتاه وسلم عليه

فقال له مالي أراك مهزولاً؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئاً قال وكيف ترضى ان مقام معه على هذا؟ قال فبالي حيلة في الهرب عنه فلست أترجيه الى طرف الا أضربني انسان فكذلكني واجاعني قال ابن آوى فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمر به انسان وهو خصب المرعى فيه أتان لم تر العين مثلها حسناً وسمياً وهي محتاجة الى الفحل قال الحمار وما يحبسنا عنها فانطلق بنا اليها فانطلق به ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار فخرج اليه فأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً على وجهه فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار قال أعجزت يا سيد السباع الى هذا الحد؟ فقال له ان جئتني به مرة أخرى فلن ينجو مني أبداً ففزع ابن آوى الى الحمار فقال له ما الذي جرى عليك؟ ان الاتان لشدة غلمتها وهيجانها وثبت عليك ولو ثبت لها الاتان لك فلما سمع الحمار بذكر الاتان هاجت غلمته وهق وأخذ طريقه الى الاسد فسبغته ابن آوى الى الاسد وأعلمه بمكانه فقال له استعد فقد خدعتك لك فلا يدركك الضعف في هذه النوبة فانه ان أفلت فلن يعود معي أبداً فجاش جاش الاسد لتحرير ابن آوى له وخرج الى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثة افترسه فيها ثم قال قد ذكرت الاطباء انه لا يؤكل الا بعد الغسل والطهر فاحتفظ به حتى أعود فأكل قلبه وأذنيه واطرك ما سوى ذلك قوتاً لك فلما ذهب الاسد ليغتسل عمد ابن آوى الى الحمار فأكل قلبه وأذنيه رجاء أن يتطير الاسد فلا يأكل منه شيئاً ثم ان الأسد رجع الى مكانه فقال لابن آوى أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى ألم تعلم انه لو كان له قلب وأذنان لم يرجع بعد ان أفلت ونجا من الهلكة؟ وفي هذا المثل كفاية للعبرة بان من كان له قلب وأذنان يجب أن يستفيد مما يمر عليه من التجارب فلا يدعها تكرر عليه

الروضة الثانية

في ذم الجبل والنباوة

قالوا «الجبل رأس الفضائح، ومعدن التبايح، ومضمار العثار، وهو الدليل على غلظ الطبع، وجمود الخاطر، وفساد التركيب، واعتلال الذهن، وكذب النفس، وخبط الطوية» وقال بعض الحكماء «عمى الجبل أشد من عمى العين لان الاعمى يتوقع ان يعثر فيما ارتفع من الارض او يسقط فيما انخفض منها والجاهل ربما عثر فيما لا يستقيل منه ويقع فيما لا يخرج منه»

كان الخليل بن احمد يحب ان يرى ابن المقفع وكان ابن المقفع يحب ذلك فجمعهما عباد بن المهدي فتحدثا ثلاثة أيام بلياليها فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله بن المقفع؟ قال ما رأيت مثله عمله أكثر من عقله وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل؟ قال ما رأيت مثله عقله أكثر من عمله قال المغيرة فصدقا أدنى عقل الخليل الى أن مات أزهده الناس وجهل ابن المقفع أداه الى أن كتب أماناً لعبد الله بن علي فقال فيه ومتى غدر أمير المؤمنين بعمره عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته فاشتد ذلك على المنصور جداً وبالأخص أمر البيعة فكتب الى سفيان بن معاوية الهلبي أمير البصرة من قبله ليقتله فقتله

وقيل ان اعرابياً ولي قضاء بلد فخطب وقال لا والله انه لا يحييني ظالم أو مظلوم الا أوجعته ماضياً فأ نصف الناس بعضهم بعضاً وتراضوا فيما بينهم ولم يرفعوا اليه أمورهم خوفاً من عقوبته وظلمه وشره وخسافة عقله وضيعته لبه وجهله في عامة الاحكام والجهل ينقسم الى قسمين جهل مطبق وهو ان يكون الانسان عديم المعرفة في كل شيء وجهل بسيط أي غير مطبق وهو أن يكون الانسان على معرفة بالامور ولكن يجهل تطبيقها على أعماله وقد رأيت جهل ابن المقفع مع فضله وعلمه وأدبه في كتابه الامان فأفضى جهله الى سفك دمه كما رأيت جهل ذلك الاعرابي في القضاء بحيث توعد الظالم والمظلوم معاً والفرق بين الجهلين ظاهر فتأمل

« الجهل البسيط »

وعلى هذا فكما ينقسم العقل الى غريزي ومكتسب فالجهل أيضاً ينقسم الى بسيط ومركب أما الجهل البسيط فهو نقصان العقل المكتسب وفقدان التجربة ويطلق عليه التغفل ومنه البله وأمثاله وذو الجهل البسيط اذا نهبه منبه الى خطأ انتبه اليه وذلك لسلامة غريزته من ذلك ما تقول العرب في أمثاله « أبله من باقل » وباقل رجل من ثعلبه اشترى ظمياً بأحد عشر درهماً وحمله وسار به فسئل عن ثمنه ففتح يديه وأخرج لسانه يريد بذلك الدلالة على ثمن الظبي فأفلت الظبي من يده وهرب

ومثل هذا مارووه عن رجل من أهل الشام مضى الى نجار يصنع له باباً فقال اثني بمقدار العرض فقدره يباعه وفتح يديه وسار الى النجار وهو في عرض الطريق يدفع الناس بصدوره ويقول تنحوا عن (الهنداسة) فدفنمه رجل من قفاه فوقع الى

الارض ويداه مبسوطتان فقال الرجل يا أخي اقبضني من ذقتي وأقني حتى لا تخرب الهنداسة
فقبضه من لحيته وأقامه

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي فقال ان أهل سوريا ينسبون الى أهل حمص
وهي بلدين حلب والشام البلاهة ويروون عنهم كثيراً من النكات . من ذلك ان بعض
الحمصيين كانوا يوماً سائرين برفقة عروس فوصلوا الى باب قصير وكانت العروس طويلة
فخاروا في أمرهم وكيف يدخلون العروس فذهب بعضهم الى وجوب هدم الباب وآخرون
الى وجوب قطع رجل العروس وبينما هم في حيرتهم مر بهم رجل نبيه فقال أنا أكيفكم
الامرين ودنا من العروس فمسكها من رقبتها وجعل يقول لها اخفضي رأسك قليلا
فقليل لا الى أن أدخلها الباب فأخذت الناس بالهيلة وعكف الرجال على شكر ذلك
البنية . ومن ذلك أن بعضاً من النسوة كن في قيلولة حراً جالسات على نهر العاصي
خارج المدينة وقد أزلن أرجلهن في الماء فاختلط عليهن معرفة كل منهن برجليها
وحرن في أمرهن وما عندين يعرفن كيف يصنعن لتظفر كل منهن برجليها فتعود الى
بيتهما وبينما هن في ذلك مر بهن لبيد فعلم ما هن فيه فدنا منهن وكان بيده عصا فقال
لهن اني أضرب أرجلكن فمن شعرت منكن بالآلم سحبت رجليها وهكذا كان
فنهضن وشكرنه على صنيعه . ومن ذلك أن رهطاً من أهل حمص سافروا الى الشام
فوجدوا التماردين وهو نوع معروف من الحلوى يصنعونه في الشام من ثمر المشمش
فسألوا من حولهم كم هي جميلة أشجار التماردين عند ما يكون ثمرها طويلاً يتدلى
فيلعب به الهواء ؟ وأشبه هذه النكات عن أهل حمص كثيرة يتداولها عموم أهالي بلاد الشام
وفيها ميالغات والحقيقة أن الحمصيين كغيرهم من أهل الشام واذكياؤهم كثيرون

ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل ومعه فرس كلما قدمه
يتأخر فقال له هشام ما هذا ؟ قال يا سيدي انه فاره وقد شبهك ببيطار كان يمالجه فنفر
وتغدى أبو السريال عند سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ ولي عهد أبيه فقدم أمامه
جدياً وقال كل من كليته فانهما يزيدان في الدماغ فقال لو كان كما يقول الامير لكان
رأسه مثل رأس البغل

وأهدى ابن الجصاص الى العباس بن الحسين الوزير نبأ وكتب معه

تفقيات بأن تبقى فأهديت لك النبقا

فكتب له الوزير ما تفيئت ولكن تبقرت . وتولى بعض المتفقهين القضاء فأرسل

الى من ولاه هدية وأرسل معها مكتوباً مضمونه « بعد السلام على مولانا الواصل
لكم هدية خروفين وسرموجتين الوالي خروف وسرموجه والنائب خروف وسرموجه »
فلما وصل الى الوالي مكتوبه أمر بعزله وتحقيقه واخراجه من القرية
ورأى بعض البلهاء بالنجف رجلاً يشتكي فكه فقال له أداويك بالكبي فقال له
الرجل من أين علمت ذلك ؟ فقال عندنا حمار قد ورم فكه فكريته بحديدة فعاياه
الله تعالى فقال انك لتصاح أن تكون بيطاراً

وقيل أن رجلين من طلبة العلم سافرا فنزلا على رجل من الاعراب وكان اسم كل
منهما الشيخ محمد فسأل صاحب المكان أحدهما عن اسمه فقال محمد ثم سأله عن اسم
صاحبه فقال كذلك فجعل صاحب المكان ينادي أحدهما الشيخ محمد والثاني الشيخ كذلك
ومن الحمقى الآخر س بن جعفر بن عمر بن جريث قال له يوماً بحالسه ما بال
وجهك أصفر هل تشتهي شيئاً ؟ فرجع الى أهله لساغته وقال يا بني الحية أنا شاك
ولا تعلمون اطرحوا علي الثياب وابشوا الى الطبيب

وقيل لرجل عند موته قل لا اله الا الله فاعرض فأعادوا عليه فقال لهم أخبروني
عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة أقالها عند موته فقيل له وما أنت والنعمان فقال أرغب
لنفسي ما رغبه ذلك الشريف لنفسه

وقال رجل لا كاره اذا زرعت القطن فازرعه محلو جأوا زرعه معه شيئاً من الصوف
وسمع بعض المغفلين رجلاً يقرأ بيتاً من قصيدة للمهيار في رثاء الرضي وهو :
بكر النعمي بان ردى خير الورى ان كان يصدق فالرضي هو الردى
فغضب المغفل للشريف الرضي وأخذ يشتم الشاعر قائلاً الردى هو وأبوه ومثل
ذلك أن بعض المغفلين سمع رجلاً ينشد :

وكان بنو عمي يقولون مرحباً فلما رأوني معدماً مات مرحباً
فقال المغفل كذب والله الشاعر فإن مرحب قتله علي بن أبي طالب ولم يمت موتاً
وعن ابن الجوزي قال كان لبعض المغفلين حمار ففرض الحمار فنذر ان عوفي حماره
صام عشرة أيام فعوفي وصام فلما انقضى صيامه مات حماره فقال يارب أهكذا تفعل لما
تم صيامي أمت حماري ولكن دع رمضان يأتي فأخذ منه عشرة أيام لا أصومها
وقرأ بعض المغفلين « في بيوت أذن الله » ورفع التاء في بيوت ولم يقرأ ما بعدها
قول الله تعالى « أن ترفع » فقال له بعض الحاضرين يجب أن تحج التاء فقال له المغفل

يا جاهل اذا كان الله تعالى يقول « في بيوت اذن الله ان ترفع » فكيف تجرها ؟
ومن المعروفين بالحماسة ونقص العقل معامو المكاتب وقلما يوجد معلم الا وفيه نقص
وان أعجبك ظاهره . قيل لمعلم من أهل المكاتب ما اسم أم موسى ؟ فقال فارغا فقال له
من أين علمت ذلك قال من قوله تعالى « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً »
وحكي ان معلماً أتاه صبي من صبيانته فقال يا معلم ان في بطن الجبّ صدياً يا عب في
الماء ولما نظرت اليه أخذتني خبزة كانت في يدي فأثني المعلم الى الجبّ ونظر الى الماء وقال
هذا الذي رأيته أنت في الجبّ هو شيخ ذو لحية وليس بصبي ولعله سارق ذلك لأن
المعلم رأى شبهه

وحكي أن امرأة غاب ولدها فأتت معلماً وقالت تناءل لابني في المصحف فانه قد
طالت غيبته فطاع فآله « حسن مات » فقال لها ابنك حسن قالت نعم فما يدريك بذلك
قال هذا القرآن يقول وحسن مات فصرخت وشقت أثوابها ومضت الى بيتها حزينة
كئيبة فاجتمع عليها أهل الولد فاقاموا مأتماً عليه وبعد مدة عاد الولد وكان ذلك الشؤم
من بلاهة الاستاذ

وقال احمد بن دليل مررت يوماً بمعلم يعلم صبياناً وبين يديه صبي وهو يقول الانجيل
من خلنه ؟ قال موسى بن عمران قال فالبعير من درر البعرة في أسفه ؟ قال انه الشيطان
قال أحسنت وآدم من أبوه ؟ قال نوح قلت انما نوح من أولاد آدم قال هل تعرفني بادم
وأنا أبو عبد الله المعلم يا صبيان كرفسوه فكرفسوني وضربوني حتى نهكت قواي فخنفت
ان لا أنف على معلم ما حيت

وقيل لمعلم ابن معلم مالك أحقق ؟ قال لو لم أكن أحقق لكنت ولد زنا نعم ما قال فان
الولد سرُّ أبيه

وقال الجاحظ مررت بمعلم وعنده عصا طويلة وأخرى قصيرة وصولجان وطبل
وبوق فقلت له ما هذه الهمدة ؟ قال عندي صغار في المكتب فأقول لاحدهم اقرأ لو لك
فيصفري فاضربه بالعصا القصيرة فبتأخر فاضربه بالطويلة فيفر من بين يدي فاضع
الكرة بالصولجان وأضربه فاشجه فتقوم الي الصغار كلهم بالالواح فأعلق الطبل في عنقي
والبوق في فمي فاضرب في الطبل وأنفخ في البوق فيسمع الجيران والمسارون ذلك
ويسارعون الى نجدتي

وحكي الجاحظ قال أتت امرأة الى معلم ابنها ونكت عدم طاعته وطلبت منه أن

يفزعه وكان المعلم طويل اللحية فأخذ لحيته بفمه وحرك رأسه وحدق بعينه وصاح صيحة أفزعت المرأة فضرطت وقالت إنما قلت لك فزّع الصبي لا تفزّع أمه فقال لها يا حمقاء أما علمت أن العذاب إذا نزل يقوم هلك الصالح والطالح ؟

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي عن الجاحظ صاحب نوادر بلهاء معلمي الكتاب التي أوردنا بعضها فيما تقدم قال قال الجاحظ جمعت من نوادر المعلمين ما أوشك أن يكون كتاباً ضخماً ولكن أفك ما عثرت عليه من نوادرهم هو انني مررت يوماً بكتّاب فدخلته حسب عادتي تحرّساً بمعلمه فرحب بي وأكرم مثواي ثم تحدّثنا طويلاً فاذا هو على علم ومعرفة فاكثرت التردد عليه وأنا أقول في نفسي وليس كل المعلمين من البلاءة على ما كنت أظن بل فيهم العاقل واللييب وخطر بيالي أن أمزّق كتابي إكراماً له الى ذات يوم قصدت فيه زيارة ذلك المعلم فوجدت الكتاب مقفلاً والصبيان يلعبون خارجه ويتضاربون فسألهم عن معلمهم فقالوا أنه أصيب بمصيبة يجهلونها فهو حزين ولا يريد أن يتعزى قال الجاحظ فقلت في نفسي يجب أن أدخل عليه فاعزّيه فدخلت ووجدته يبكي وينتحب وقد انتزع عثمته ونكت لحيته فأخذت أعزّيه بما حضرني من الحكم والأمثال والاليات والبرم سألته فقلت له هل مات الوالد؟ قال يا ليت قلت أمانت الزوجة قال يا ليت قلت أفقدت الاخ؟ قال يا ليت قلت من اذن جعلت فداك؟ قال حبيبي قلت عظم الله أجرك وغداً تنسلى بغيرها جارية تكون أجمل وأحسن فحدق بي وقال وهل أنا أعرفها قلت اذن ماذا؟ قال منذ أيام مرّ في الطريق ماراً وسمعت يمشد:

يا أمّ عمرو جزاك الله محسنةً رديّ اليّ فؤادي أينما كانا

فعلمت أن أمّ عمرو هذه لو لم تكن من جميلات النساء بل أجمل بنات حواء لما قال فيها الشاعر ما قال وعشقها واليوم صباحاً مرّ ماراً في الطريق وسمعت يمشد:

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فشقت ثيابي وقفلت الكتاب وجلست حزينة على ما ترى قال الجاحظ فلما سمعت هذا عدت الى رأيي الاول بوجوب طبع الكتاب الذي جمعته عن نوادر المعلمين على أن أثبت هذه النادرة في أوله اه

وعن أمير المؤمنين عليه السلام « لا تستشرف الحاكّة ولا المعلمين فإن الله سلبهم عقولهم » وذكر العالم الرباني الشيخ كمال الدين هيثم البحراني في توجيّه « أن المعلم

عقله وحواسه متفرقة الى التوجه الى تدبير أمور الصبيان فلم يبق له من العقل والتدبير ما يصرفه في غيرهم وكذلك الحائك بالنسبة الى الخيوط المختلفة وصرف الفكر فيها فلا عجب اذا امتازا بالصقاعة « قال الشاعر:

ان الصقاعة خُصِّصَتْ في ستة
فنائك ومنجد واسكاف
ومعلم الاولاد أصقع حلية
يتبعه الحلاج والنذاف

« الجهل المركب »

وأما الجهل المركب أو المطبق فهو الحماقة بعينها والفرق بين الجهل البسيط والجهل المركب هو ان الاول اذا نبهته الى خطأه انتبه وأما الثاني فكلمة تنبيهه يزداد حماقة وغياً سأل رجل بعض المنفلين من أفضل معاوية أم عيسى؟ فقال له ما رأيت أجهل منك ولا سمعت أحداً قاس كاتب الوحي بنبي النصاري وأنى بعضهم الى قصاص بنصراني يريد أن يسلم فقال قوموا عني أريدون أن توقعوا الخسومة بيني وبين عيسى بن مريم عليه السلام

وسأل بعض القصاص عن لوط عليه السلام فقال كان رجلاً لوطياً نعوذ بالله فانكروا عليه قوله ولا مة بعضهم واعلمه أن لوطاً نبي مرسل من عند الله الى قوم ذلك الزمان ليردعهم عن قبيح فعلهم فندم على ما قاله فلما كان ذلك القصاص الغبي في مجلس آخر سئل عن فرعون فقال دعونا من حديث الانبياء واسألوا الله السلامة انهم قوم لا رأيناهم ولا رأونا فكيف تتكلم في أعراضهم .

قال ابن هشام قيل ما فعل أبوك بحماره فقال باعه وجر العين والهواء فقيل له لماذا جررت باعه؟ فقال ولم جررت الحمار؟ فقالوا أنه مجرور بالبلاء فقال ولم بائكم تجر وبائي لا تجر إشارة الى الباء في أول باعه

سأل رجل شريحاً ما تقول في رجل مات وخلف أبوه وأخوه؟ فقال شريح قل لأباه وأخاه وقال الرجل كم لأباه وأخاه؟ فقال شريح لا يبه وأخيه فقال سألتك وندمت يا بارد: وجاء رجل الى سيديويه ليصاح له شعراً فقال أنشدني فأنشد:

ما العيش الا مع الحبيب اذا تلقاك من القريب
اذا تأملت طويلاً أكاد من حبه أموت

فقال سيديويه ويحك البيت الاول آخره باء والثاني آخره تاء كيف يكون هذا؟ فقال يا سيدنا لا تنقط فلا أحد يدري ما هو فقال سيديويه فاخر الاول مجرور وآخر الثاني

مرفوع فقال الرجل ما أجهلك أنا أقول لك لا تنقطه وأنت تشكاه
وقيل أن رجلاً من أهل الشام عزم على لقاء المأمون فاستشار بعض أصحابه فقال
على أي وجه أصلح أن ألقى أمير المؤمنين؟ قال على الفصاحة قال ليس عندي منها شيء
واني لالحن في كلامي كثيراً قال فعليك بالرفع فإنه أكثر ما يستعمل فدخل على المأمون
وقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته ورفع كل هذه الالفاظ فقال يا غلام اصفعه اصفعه
فقال باسم الله ورفع الكلمتين فقال المأمون ويلك من ذلك على هذا الرفع قال وكيف
لا أرفع من رفعه الله فضحك وقضى حاجته (١)

وكان لرجل ولد اسمه حمزه فبينما هو يوماً يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب
يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألم تسمع؟ فقال ياعم كلنا عبيد الله فأبي عبد تعني؟
فالتفت أبو حمزه لابنه وقال ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان الغد إذا برجل
ينادي باحمزه فقال حمزه ابن الاعرابي كلنا حمائم الله فأبي حمزه تعني؟ فسمع أبوه جوابه
وقال ليس يعنيناك الرجل يا من أخذ الله ذكر أبيه

وحكي مثل ذلك عن بعض الأدباء قال إن رجلاً من أقاربه جاءه زاراً في أصفهان
قال فأتيت به إلى الحمام وفيه خلق كثير ثم إنه شرط في ذلك الحمام فضحك عليه فقال
يا أخي نحن نضرب باللسان العربي وهؤلاء أعجم لا يفهمون لغتنا كما نحن لا نفهم لغتهم

(١) ومن هذا القبيل ما رواه لي أحد أتباع عظمة مولاي السردار أقدس وأثبتته
في كتابي « الدرر الحسان » قال الراوي جاءنا يوماً اعرابي متسوّلاً فلقني المرحوم
الحاج الميرزا حمزه خان الذي كان في حياته من كبار المقربين من ولي النعم فسأله إن
يدخله عليه فقال له إن مولانا روحي فداه عند ظنك فيه كثير البذل جمّ الندى ولكن
احسانه موقوف على العلماء والأدباء والشعراء فهل أنت عالم؟ قال لا قال فهل أنت أديب؟
قال لا قال فهل أنت شاعر؟ قال لا قال على الأقلّ إلا محفظ شيئاً من الشعر تنشده؟
قال لا قال كيف إذن تتقدم من عظمته وبأي وسيلة تبغ شيئاً من كرمه؟ قال والله لا أعرف
غير أني قصده وهو أبو العرب فقال الميرزا رحمه الله لا بأس عليك فأنا أساعدك وبعد قليل
يخرج عظمته وأكون بخدمته فادخل علمنا وادع أنك شاعر تريد أن تنشده قصيدة
قلت في مدحه وعظمته لفرط وداعته يغلب عليه أن لا يسمع ما قيل في مدحه تواضعاً
فيحمن اليك من غير أن يستنشدك فشكره الاعرابي على هذه المنّة وبعد قليل خرج عظمة
الشيخ خزعل خان من الحرم لمجاسه وازدحم الناس حوله بين عبيد وقوف في الخدمة

هذا والجهل المركب أو المطبق لاعلاج له اذ القول في العقل كالقول في الطبع
فكما ان من طبع على الشرّ وغلبت شهوانيته على روحانيته لا تتغير طباعه الشريرة الى
طباع الخير كذلك كل من نقصت غريزته أو فقدت لا يرفع التعليم عنه جهلاً ولا يزيد
التجربة عقلاً واعلم ان الحماقة تلد بالغريزة ولا تتغير وأنشد بعضهم :

وعلاج الأبد ان أيسر خطباً حين تعقل من علاج العقول
وروي عن المسيح عليه السلام « عاجلت الاكمه والابرص فأبرأتها وعاجلت
الاحمق فأعياني » وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

لكل داء دواء يستطب به الا الحماقة أعيت من يداويها
وقلنا في واقعة حال :

ألومه ولقد اخطا وأرجع في لومي وقائده حمقٌ عزيزي
لو كان يدرك ما آذى مصالحه فهل يلام سفيه طبعه الغي
وقال شاعرنا الانطاكي :

قالوا فلان أبقي شاردٌ وكان في أوطانه محترم

وأعوان ينتظرون الاوامر وأرباب حوائج يطلبون قضاءها وكان في جملتهم ذلك الاعرابي
فتقدم من وليّ النعم روجي فداه وسلم بتحية الامارة وقال حياً الله أبا جاسب فقد
امتدحتك بشعري قال حفظه الله حسبك يا أخا العرب فقد قبلنا مديحك ومال ليأمر
أحد أعوانه بالجائزة فاعترض الميرزا رحمه الله وقال ألا نسبح ما قال الاعرابي ؟ فقال
عظمته بدعته المشهورة حسناً هات أيها الشاعر فماذا قلت فينا ؟ فخجل الاعرابي
واضطرب وقال والله يا ووالي لست بشاعر ولا افترق بين الشعر والشعر وانما جئتكم
متسوّاً لا كاللوف من العرب الذين يسعون اليك في كل يوم فلا تخيب منهم سائلاً
فلمقيني هذا الحبث وحملني على هذا الكذب حتى اسودّ وجهي سود الله وجهه فضحك
سموّه وضحك من في المجلس وامر له عظمة وليّ النعم بجائزة سنوية وأنشد

واني لاهل الشعر عون لانه يدون اشتمات المفاخر للعرب
اجازي عليه أهله مع دعااته ومن قد رواه أوله مال وانتسب
وبيتي به نتج القراح رائج وداري عكاظ المعارف والادب
وعندي مقامات المعارف تزدهي بأربابها من كل معنى ومضطرب
وعندي دراري الشعر صيغت قلائداً ملائمة تشرى بمنتثر الذهب

فقلت هذا حمقه ساقه للذل لولا حمقه لم يضم
واعلم زادك الله علماً انه اذا انضم الى الجهل المركب عجب انساني فذاك هو
الداء العضال واذا شيب هذا العجب ببعض معارف سطحية تلقاها صاحبها على غير
ثقة عن طريق السماع فهو المصيبة العظمى على سامعيه ومعاشره ولا خلاص من
ابرامه الا بالفرار منه

قال بعضهم لئن أصاحب أحق أحب الي من مصاحبة نصف أحق قيل ومن هو
النصف أحق؟ قال الجاهل المتعادل الذي يظن نفسه يدري وهو لا يدري
ومن الحكايات العجيبة أن بعض الاطباء دخل على مريض وجس نبضه وشاهد
تفسرته فقال له لعلك تناولت شيئاً من الفواكه مع صدر فروج فقال نعم فقال الطبيب
لا ترجع تأكلهما فانهما يضرانك فتعجب الناس من حذق الطبيب وكان لذلك الطبيب
ابن فقال يأبت كيف عرفت ان المريض تناول الفاكهة والفروج؟ قال يابني ما عرفت
ذلك بالطب وحده بل بالطب والخراسة فقال له كيف عرفت بالخراسة؟ فقال اني لما
دخلت دار المريض رأيت على سطح الدار سقاية الفاكهة ثم رأيت في وجه المريض
انتفاخاً وفي النبض ليناً وفي التفسرة غلظاً وفجاجة وعلمت ان الفاكهة اذا حضرت عند
المريض لا يصبر عنها فظهر لي من هذه الشواهد انه تناول الفاكهة وما جزمت بها
بل قلت لعلك أكلت وقبل ان ادخل الدار رأيت على الباب ريش الفروج وفي النبض
امتلاء وفي الرسوب غلظاً فعلمت أن الفروج لا يأكله الا المريض غالباً فظهر لي
بهذه الشواهد انه أكل جنح فروج وصدرها ومع ذلك ما جزمت به بل قلت لعلك
فعلت هذا فسمع ابنه هذا الكلام وأحب ان يظهر بحذق مثل حذق أبيه فدخل بعد أيام
على مريض وجس نبضه وشاهد تفسرته وقال لعلك أكلت لحم حمار فقال المريض
حاشا وكلا كيف يؤكل لحم الحمار أيها الطبيب نفجل ابن الطبيب وخرج اومني الخبر
الى أبيه فسأله كيف خطر لك أن مريضك أكل لحم حمار؟ فقال لاني رأيت في دارهم
برذعة فعلمت أنها لا تكون الا للحمار ثم قلت لو كان الحمار حياً لكانت برذعته على
ظهره وجزمت أنه لم يكن حياً لان البرذعة كانت على الارض وقلت في نفسي لا بد أنهم
ذبحوه وأكلوه فقال أبوه لو كان شيء من هذه المقدمات صحيحاً لرجوت فيك
النجابة ولكن مقدماتك كلها فاسدة وطبع النجابة فيك محال
وحكي أن بعضهم ضم ولده الى رمال ليعلمه فبقي عنده مدة حتى علمه أصول الرمل

فجاء والده وسأل الأستاذ عن ابنه فقال علمته فامتحنه فقبض الاب على نملة وضم يده عليها وقال لولده اعرف ما في يدي فحسب ولده وقال في يدك حيوان أسود اللون مخروز من وسطه فقال له ماهو ؟ فقال الولد لعله جاموسة فلما رأى الوالد خطأ ابنه مع دلالة القرآن على صحة حسابه أولا لام معاده فقال انما أنا أعلمه علماً ولكن لا اعطيه حقاً وقيل ان أحد الملوك خرج مع وزيره للنزهة فمرّاً على فلاح يحراث الارض وقد اسود قفاه من الشمس وتشتتت قدماه من الحنا وشدة البرد وهو في حالة مكربة فقال الملك لوزيره ما حال هذا الرجل ؟ فقال هذا من فلاحي الرساتيق ينشأ الشخص منهم على التعب والنصب وقلة الدين والجهل فيصير في هذه الحالة فقال الملك لوزيره اترى اننا اذا أخذناه وعلمناه الادب وشغلناه بالعلم يتغير عما هو عليه ؟ فقال الوزير كلا أيها الملك فقال الملك لست مصيباً ولا بد من اخذه وتعليمه وبالفعل اخذ الفلاح وأنهم عليه وأرصد له من يعلمه ويثقفه فبقي على ذلك بضع سنوات حتى رجع في كل فن من فنون العلم والادب فا حضره الملك يوماً بمشهد من وزيره وقال له ألا ترى أن فراستك قد أخطأت في هذا الفلاح ؟ فقال الوزير امتحنه ايها الملك فقال الملك للفلاح بلغني أنك تثقت في غرائب العلوم فبأي شيء ؟ قال الرمل والجفر والحساب وغير ذلك مما تحب ولي ملكة في استخراج ما في الضمائر قال فنزع الملك خاتمه وضم عليه يده وقال انظر ما في يدي ف ضرب الفلاح رءوسه اشكالا وقال في يدك شيء مدور قال نعم قال وهو خلي الوسط قال صدقت فما هو ؟ فسكت الفلاح ساعة ثم قال اظن والله أعلم انه حجر طاحون فضحك الوزير وغضب الملك وسلب عن الفلاح نعمته وردّه الى حالته الاولى

وحكي أن بعض الملوك قال لصاحب خيله قدّم الفرس الابيض فقال له الوزير لا تقبل الفرس الابيض فانه عيب ويزري جهده اسم لونه بهيمة الملوك ولكن قل الفرس الأشهب فلما حضر السباط قال لصاحب سباطه قدّم الصحن الاشهب فقال له الوزير قل أيها الملك ما شئت فمالي في تقويمك حيلة. قال المتنبي :

ومن البليّة عدل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم
وقلنا في مثل ذلك :

وأصعب ما لا قيمته نصح أحق فلم يصغ للقول الذي جئت ناصحاً
فهيته - بني تفهيمه الخطأ الذي هو عند أرباب الذكاء كان واضعاً

مخاطبة الجهال شر مصائب الحكيم اذا مراح بيدي الوضاح
ومن أمثال كليله ودمنه ان جماعة من القروذ كانت تسكن جبلاً فالتفت في ليلة
باردة ذات أمطار ورياح ناراً تصطلي بها فلم تجد شيئاً فرأت براعة تطير كانها شرار نار
فجمعت حشيشاً وألقته عليها وجمعت تنفخ طمعاً بايقاد النار وكان بقربها طائر على شجرة
ينظر اليها فجعل يناديها ويقول لا تتعبي فان الذي تريه ليس بنار ثم انه عزم على الاقتراب
منها لينهاها عما هي فيه فر به رجل وقال له لا تلتبس تقويم مالا يستقيم فان العود
الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس فابى الطائر أن يطيعه وتقدم الى القردة ليعرفها أن
البراعة ليست بنار فتناولته بعضتها ومات من ساعته

ومن حمقى العرب وجهالهم كلاب بن سعد خرج اخوته يشترون خيلاً فخرج معهم
جاء بعجل يقوده فقيل له ما هذا فقال فرس اشتريته قالوا يامان هذه بقرة اما ترى
قرنها؟ فرجع الى منزله فقطع قرنها ثم قال لهم قد أعدتها فرساً فما تريدون بعد
فضحكوا من حماقته ودعي بعد ذلك أولاده باسم بني فارس البقرة

الروضة الثالثة

(الاستدلال بالعقل السليم)

للاستدلال بالعقل السليم ثلاثة أمور القياس والاستقراء والتمثيل لان الاستدلال
اما أن يكون بكلي على جزئي أو مجزئي على كلي وهو الاستقراء أو جزئي على جزئي
وهو التمثيل ويتبعها قسم رابع وهو الاولية القطعية والاستدلال في جميع هذه الاقسام
بواسطة العلة وهو القدر المشترك بين الاصل المقيس عليه والفرق المقيس كما سترى

القياس

ان الاستدلال بالقياس اما ان يكون بالمعلول على العلة أو بالعلة على المعلول والاول كما
نقل انه خرج أمير ومعه رجل ذو ذكاء وبينهما هما يتغذيان قال الرجل للامير اركب فقد
أدركنا العدو قال كيف ولا أرى أحداً؟ قال اركب عاجلاً فان الامر أسرع مما تحسب
فركب واذا بالعير قد ثار وطلعت عليهم الخيل سراعا فعجب الامير وقال كيف علمت
ذلك؟ قال لما رأيت الوحش مقبلة علينا ومن شأن الوحوش الهرب منا فعلمت انها لم
تدع عادتها الا لا مرمز عجب قد دهمها

وذكر الجاحظ ان اياس بن معاوية نظر الى أصدع في الارض وقال تحت هذا دابة
فنظروا فاذا حية فقيل له من أين علمت هذا؟ قال رأيت ما بين الاجرتين ندياً دون جميع

تلك الرحبة فعلمت ان تحتها شيئاً يتنفس
وأما الاستدلال بالعلة على المعلول أو المؤثر على كمية الاثر وكيفيته فذلك كما يقال
في الامثال ان أسداً أراد أن يفترس ثوراً فلم يقدر عليه اشدته فضى اليه متملقاً قائلاً
فديتك اني قد صدت خروفاً سميناً واشتهي أن تأكل عندي في هذه الليلة منه فأجابه
الثور الى ذلك فلما وصل الى العرين ونظر الى ما بداخله وجد أن الاسد أعدّ حطباً كثيراً
فولى هارباً فقال له الاسد مالك وليت بعد بجيئك الى هنا فقال له الثور لاني علمت أن
هذا الحطب لشيء ما هو أكبر من الخروف

ومن ذلك في الاستدلال على الكمية ما ذكره ابن الجوزي في الاذكياء باسناده الى
أمير المؤمنين عليه السلام قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وآله الى بدر وجدنا
عندها رجلين أحدهما من قريش والاخر مولى لعقبة بن أبي معيط فاما القرشي فأفلت
وأما مولى عقبة فأخذناه وجعلنا نقول له كم القوم؟ فيقول والله كثير عددهم شديد بأسهم
فيهد النبي صلى الله عليه وآله أن يخبره كم هم فأبى ثم أن النبي سأله كم ينحرون من الجزر؟
فقال عشر الكل يوم فقال القوم ألف رجل لان كل جزور لمئة

ومن ذلك ما نقل أن أحمد بن طولون رأى حملاً يحمل صندوقاً وهو يضطرب
تحتة فقال لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمل وأنا أرى أن
عنقه بارزة وما هذا الا من خرف ما يحمل فأمر بحط الصندوق فوجد فيه جارية قد
قتلت وفتحت ارباً فقال أصدقني عن حالها فقال أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني
هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة فضرب الحمل مئتي عصي وأمر بقتل الاربعة (١)
وذكر ابن الجوزي في الاذكياء عن احمد بن طولون صاحب مصر أنه جلس يوماً
في منزله يأكل مع ندمائه فرأى سائلاً عليه ثوب خلق فوضع يده في رغبته ودجاجة
وقطعة لحم وفالودج وأمر بعض الغلمان بمناولته فأخذ الغلام ذلك وذهب به الى السائل
ورجع فذكر انه ماهش ولا بش فقال ابن طولون للغلام اثنتي به فأحضره بين يديه
واستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيئته فقال له أحضر لي الكتب التي معك

(١) ومثل هذا ما حدث منذ سنوات في الاهواز وذلك أن جناب السردار ارفع
الشيخ جاسب خان حاكم الاهواز السابق وكبير أنجال السردار أقدس المعز حفظه الله
بلغه في صباح يوم وجود قتييل على شط قارون فاسرع الى الجثة وأرسل نظرة صادقة اليها
ثم أمر بدفنها وأرسل غلماناً يتجسسون القضاة الى أن عثروا على أحدهم مصاباً بجرح في يده

وأصدقني عمن بعث بك فقد صحَّ عندي أنك صاحب خبر وأحضر السياط لتهديده فاعترف له بذلك فقال بعض من حضر هذا والله السحر فقال أحمد ما هو بسحر ولكنه قياس صحيح وفراصة راجحة وذلك اني لما رأيت سوء حاله وجهت اليه بطعام يشره الى أكله الشبعان فما هش ولا بش ولا مدَّ يده اليه فأحضرته وخاطبته فتلقاني بقوة جأش وجواب حاضر فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جأشه وسرعة جوابه علمت أنه صاحب خبر ومرَّ اياس ليلة يمء فقال أسمع صوت كلب غريب فقيل له كيف عرفته قال بنحو وع صوته وشدة نباح الكلاب الاخرى

قال الجاحظ وحجَّ اياس فسمع نباح كلب فقال هذا الكلب مشدود ثم سمع نباحه فقال قد أرسل فانتهاوا الى المء فسألوهم فكان كما قال فقيل له من أين علمت؟ قال كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد ثم صار يقرب مرة ويبتعد أخرى فعلمت أنه انطلق ومن النوادر المنقولة عن ذكاء اياس انه رأى اعتلاف بعير فقال هذا بعير أعور فنظروا فكان كما قال فقيل له من أين عرفت؟ قال لأنني وجدت اعتلافه من جهة واحدة قالوا ومن نوادر ذكائه أنه رأى توماً يأكلون ثمراً ويلقون النوى متفرقاً فرأى الذباب يجتمعن في موضع من الثمر ولا يقربن موضعاً آخر فقال اياس ان في هذا الموضع حية فنظروا فوجدوا الامر كما قال فقيل له من أين علمت؟ قال رأيت الذباب لا يقربن هذا الموضع فقلت يجذبهم ربح سم ولعله حية. ونظر الى ديك ينقر ولا يقرقر فقال هذا الديك هرم لان الشاب اذا وجد حباً نقره وقرقر لتجتمع الدجاج عايه. ورأى جارية في مسجد وعلى يدها طبق مغطى بمنديل فقال تحمل جراداً فكان كما قال فسئل فقال رأيت الطبق خفياً على يديها؟

فقبضوا عليه واستاقوه اليه فأخذ باستدراجه الى الاقرار فأقر بجريته واعترف بشركائه ونالهم القصاص جميعاً وذاعت هذه الحادثة وشاعت ونقلت الجرائد مثنية على ذكاء سمو الشيخ السردار ارفع وكان سرُّ هذا الاكتشاف المدهش هو أن جنابه رأى الجثة مقطعة ارباً تقطيع من يحسن القصابة فرجح بل أكد بأنها جنابة للقصابين فيها يد. ومن هنا وضع خطة استدلاله فنجح باظهار الجريمة نجاحاً كبيراً أظهر فيه نجابته وكسب به رضاء مولانا ومولاه عظمة أبيه الشيخ المعز أعزه الله وثناء العالم المتمدين الشيخ السردار ارفع المحترم. وله من حوادث الذكاء كثير مثل هذا في اكتشاف الجرائم التي تحدث في المحمرة اليوم وهو حاكمها ولذلك يهابه المجرمون مثلاً يرهبون سطوته

واعلم أن الاستدلال بأنواعه دليل على شدة النباهة ووفرة الذكاء وهو أصلح ما يكون للرجال المنوط بهم حفظ الأمن العام كالبوليس في عرف التمدن الحاضر وذلك لأن الجناة كالصوص والقتلة والمزورين لا يأتون جرائمهم الا في عالم الخفاء ويجهدون ما أمكنهم حتى لا يبقوا أثراً لجرائمهم يستدل به عليهم وكلما كان البوليس أو الحاكم أبرع في الاستدلال كلما توفق الى كشف الجرائم توصلا لاستتباب الامان في البلد الذي يحافظون على الامن فيه (١)

(١) ومن المعروف في العراق بجملته نباهة عظمة شيخنا المعزّ اعزّه الله في توفد خاطره بالاستدلال على الجناة وكشف جرائمهم وطالما أبدى من المدهشات في ذلك ما يحير العقول وأنت لا تجهل بأنّ الجرائم في بلاد بادية كما مارة عربستان أعسر بكشف أسرارها منها في البلاد المتحضرة حيث العيوان والارصاد كثيرة وحيث وفرة العمران تكثر من ترك الآثار

واذا أردنا أن نورد القصص والنوادر عن استدالات عظمة مولانا السردار أرفع في كشف الجرائم لاحتجنا الى مجلد ضخم ونكتفي هنا بالإشارة الى أن كثيراً ما تحدث جرائم في ولاية البصرة ويتعذر على البوليس اظهار المجرمين فترسل حكومة البصرة الى عظمته من يحدثه بظروف الجريمة ويستنجد بسديده في الاستدلال وتصح آراؤه في ذلك وعلى سبيل الفكاهة أورد حادثة حدثت في الحمرة وكنت في خدمة ولي النعم وقسّذ فاني بينما كنت ذات يوم في التصر الخزلي العالي في الفيلية واذا بأحد الخدام يقصدي بكتاب يقول صاحبه قد بعث اليك ففتحتك فاذا هو من رجل اسمه داود وهو يهودي ويقول انه من أهالي بغداد وبينما كان مسافراً من الحمرة الى البصرة ومعه ثمانون ليرة مجيدية وهو المبالغ الذي جمعه بحياته بطولها واذا على بعد ساعة من القصر العامر خرج اليه بعض عبيد مولانا وسلبوه امواله وأنه يريد أن يعرض ظلامته على ولي النعم فمنعه الحجاب من ذلك واذا سمع بوجودي في الخدمة رأى أن يوسطني لدى عظمته أما أنا لما استلمت التحرير دهشت ولكن قلت ربما يكون الامر صحيحاً وسألت الخادم عن صاحب الكتاب فقال أنه بجوار الديوانية أي دار الضيافة الخزلية وهي تبعد خمس عشرة دقيقة عن القصر العامر فأسرعت اليها واذا بداود شاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره وعندما رأيته مقبلاً عليه أسرع اليّ يريد أن يتراحم عليّ قديماً وكان يبكي بكاءً مرّاً بنوع لا يشك الراي الا أنه منفجع بماله ثم قصّ عليّ بالتفصيل ما حرره بجملاً بتحريره وأشرنا اليه فقلت

ويستدل على وقوع الشيء على خلاف ما هو عليه ظاهراً بأمرين أما بمخالفته العادة أو مخالفته الضرورة العقلية فأما الأمر الأول فإن الشيء إذا وقع على خلاف عادته دل على أن له علّة وباعثاً مسبباً عن أمر آخر كما نقل أن نيل الأخيلية دخلت يوماً على عبد الملك بن مروان وقد أسنّت فقال لها ما رأي توبة منك حتى عشقك؟ قالت ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها ثم التفت إلى نيل فقال أنشدنا بالليل بعض ما أنشد فيك توبة قالت نعم هو الذي يقول :

ولماذا لم تعرض ظلامتك على وليّ النعم؟ وعظمته في كل يوم يشرف على رعاياه في هذه الدار وأشرت إلى الديوانية قال إن الحرس يمنعوني ولا شك أنهم مشركون في السرقة فقلت ربما ولو كنت في ذلك على نهاية الاستغراب لعلمي علم اليقين بأن حرس ولي النعم من أشرف الناس خلقاً وأطهرهم ذمّة وانتظرت ريثما أشرق النوار الخزلية في صاعة الديوانية فدخلت على الحضرة وقبّلت أنامل عظمته وعرضت على مسامحة الشريعة ظلامة الرجل فتكدر عظمته وقال في الحال ائتوني به وبعد قليل دخل علينا وقال في الحضرة الرواية التي مثّلها معي وأخذ يقصّ القصّة على المسامحة العلية وعظمته مولانا مصغ إلى أن انتهى فقال له عظمته هل تعرف الذين خرجوا إلى سرتك قال أعرفهم وجهاً لوجه وأخذ يشخصهم قال ومن أين عرفت أنهم من رجالي أو خدمي؟ قال هكذا قيل لي قال حسناً فقبل أن نبدأ بالتحقيق مع من تهم يجب أن نسألك هل في المحبرة من يعرف أنك عنده أخرجت منها قاصداً البصرة كان معك نقداً ثمانون ليرة عثمانية؟ قال نعم قال سمّ شهودك لترسل ونستدعيهم بالحال فسمي بعض أسماء من قومه قال عظمته سنستدعيهم بالحال ولكن إذا لم يشهدوا بصحة ما تقول فسيكون جزاؤك شديداً لأنك تهم الأبرياء قال هذا وحده نظره بالرجل فبقي الرجل مصرّاً على قوله ولكن ظهر الاضطراب على وجهه فأشار عظمته إلى أن استتلي معه الحديث وخرج فجئت الرجل وقلت له إن مولانا خرج ليمعّث باستحضار شهودك فإذا حضروا وشهدوا بأن المبلغ الذي تذكره كان معك وفقدته فعلا في مساء البارحة فستقبضه في الحال من الخزينة الخزلية العامة ولكن إذا كنت كاذباً؟؟ فوقع على يدي يقبل ما هو يقول أرجوك أرجوك قلت ماذا؟ قال أن تستخلص لي المبلغ بغير شهود قلت هذا لا يمكن قال لاني ظننت بأنني في حيلتي هذه أحصل على الغرض الذي أسعى إليه قلت وما هو غرضك؟ قال نعمة من عظمة الشيخ على شهرته بالكرم أسافر بها إلى مصر قلت ويل أمك وهل بمثل هذا الكذب تطمع بنيل نعمة ولي النعم؟ قال ظننت

وكنيت اذا ما جئت ليلي تبرعت
فقال لها ما الذي رابه من سفورك؟ قالت يا امير المؤمنين كان كثيراً ما يلتم بنا فأرسل
لي يوماً اني آتيك وفطن الحي فأرصدوا له فلما أتاني سفرت له فعلم ان ذلك لشر فلم يزد
على التسليم والرجوع فقال عبد الملك لله درك يا ليلي
وحكي أن الهذلي حج مع المنصور وكان قد وعده بجائزة ونسي في أمعاب بيت عاتكة
وكان من عادة الهذلي انه لا يكلم الخليفة الا جواباً عما يسأله فلما مر ابي بيت عاتكة قال
يا امير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي قال فيه الاحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
قال فأنكر منه المنصور ذلك لانه خلاف عادته وتكلم من غير أن يسأل فلما رجع
المنصور استدعى بديوان الاحوص ونظر في تلك القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد
الهذلي فاذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مدق اللسان يقول ما لا يفعل
فعلم أنه أشار الى هذا البيت وتذكر ما وعده به من الجائزة فامر بأنحازها
وارسألها له في الحال واعتذر اليه من النسيان

وكان الكسائي يعاسم الامين ولد الرشيد وكان من عادته انه اذا غلط لا يمارضه وانما
يضرب بعصاه على الارض فيتنبه الامين ويراجع فكره فيقرأ صواباً فقرأ ذات يوم
قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا
تفعلون » فضرب الكسائي بعصاه على الارض فسكت الامين وراجع فكره فلم يظهر له

ذلك قلت ولكن بعض الظن اثم ثم اني خرجت لولاء وقصصت عليه ما سمعت فقال اني
عرفت كذبه منذ دخل علي بالرغم من اتقانه الحيلة وذلك لعلمي أولاً بنزاهة رجالي
وثانياً لانه يستحيل أن تحدث جنابة سرقة في أطراف المحمرة ومع ذلك بالامكان أن
يتسلى عليه غير رجالي من العرب قرب البصرة ولكن يهودياً مثله على ما هو معروف
عنهم من الحرص لا يسافر بثمانين ليرة نقداً من غير أن يعلم حاكم المحمرة فيرسل معه
من يوصله الى البصرة آمناً وعلى كل حال فاذا اعترف بكذبه أصفح عنه وهكذا اعترف
الرجل وبشفاعتي نال الصفح وفوقه هبة من هبات ولي النعم

وما هذه الحادثة بشيء بجانب الحوادث الكبرى المعروفة عن نباهة ولي النعم في
الاستدلال والكني أثبتنا هنا لانها جرت بحضوري

غاط ولا نسيان فاستمر في القراءة فلما فرغ ذهب الى أبيه الرشيد وقال هل وعدت الكسائي بشيء ولم تف به؟ قال بعد ان فكر قليلا نعم ومن أخبرك بذلك؟ قال اتفق لي معه كيت وكيت فاستحسن الرشيد من ولده هذا الذكاء وأنجز للكسائي وعده (١) وأما الامر الثاني وهو مخالفة الضرورة العقلية فانه أيضاً دليل عدم مطابقة الظاهر للواقع ومن ذلك ما جاء في كتاب كليله ودمنه عن بعضهم انه قال نزلت مرة على رجل فتعشينا ثم فرش لي وذهب مع زوجته الى فراشهما فناما وكان بيني وبينهما خص من قصب فسمعت الرجل يقول في آخر الليل لامرأته أريد أن أدعوك رهاً لياكلوا عندنا فاصنعي لهم طعاماً فقالت المرأة كيف تدعو الناس الى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك وأنت رجل لا تبقي شيئاً ولا تدخره قال الرجل لا تندمي على شيء أطعمناه وأنفقناه فان الجمع والادخار وخيم العاقبة فقالت المرأة نعم ما قلت وعندنا من الارز والسمسم ما يكفي ستة أنفار او سبعة فانا غادية على اصطناع الطعام فادع من أحببت وأخذت المرأة حين أصبحت سمسماً فقشرته وبسطته في الشمس ليحفف وقالت لغلام لها أطرده الطير والكلاب وتفرغت المرأة لصنعها وتغافل الغلام عن السمسم فجاء كلب وعاث فيه فاستقدرته المرأة وكرهت أن تصنع منه طعاماً وذهبت به الى

(١) ومثل هذا ما جرى لنا مع حضرة السردار أجل الشيخ عبد الحميد خان ثاني أبحال عظمة مولانا المعز حيّاه الله فان سموه دخل منذ عشرة أعوام الى غرفتي في القصر الخزعلي العامر زائراً وكان لا يتجاوز الثانية عشرة من ربيع عمره الزاهر وجلس الى ما حولي من كتب وأوراق وجعل يقلب فيها فددت يدي الى أحد الكتب وفتحت الوجه الذي فيه الشعر المأثور عن مطلقة معاوية

ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف

فقرأ سموه الايات الى آخرها وتبسم وقال أنها آيات حسنة ثم تفضل سموه بالعطف علي وانصرف وبعد صلاة العشاء دخل عظمة مولانا المعز قاعة السهرة حيث رأس مجلسه الادبي واستدعى من في الباب من الادباء والشعراء وعند ما تكامل الجمع قال عظمته أقص عليكم قصة لا تخلو من فكاهة ونباهة فحدثنا بعظمته لنسمع فقال اليوم أرسل الانطاكي يطالبني بوعدتي له بعباءة بعد أن تمزقت عباءته منذ يومين. فقلت عفواً مولاي ملها دسياسة فاني لم أذكر هذا لاحد. قال كلا ليس في الامر دسياسة فان عبد الحميد جاءني وذكري قلت مولاي هذا فضل من النجل النجيب فلعله اذ شرفني

السوق فأخذت مقايضة سمسمها غير مقشوراً مملاً بمثل قال الراوي وأنا واقف في السوق فقال رجل لا خير لامر ما باعت هذه المرأة سمسمها مقشوراً بسمسم غير مقشور وحكي أيضاً أن بعض المحتسبين اجتاز يوماً برجل ينادي على الخبيص رطلين بحبة فقال ويحك الدبس يباع رطل بحبة والشيرج رطل بغيراط فكيف تبيع أنت الخبيص رطلين بحبة فقال يا سيدنا ما في الخبيص شيء مما ذكرت قال فبيع اذن كيف شئت ومن ذلك أيضاً ما حكى عن رجل أعشى تزوج امرأة فقالت لو رأيت حسني وبياضي لعجبت فقال اسكتي لو كنت كما تقولين ما تركك المبصرون

« الاستدلال بقرائن الاحوال »

ومما يستدل به قرائن الاحوال والافعال قال ابن الجوزي في الاذكياء استودع رجل رجلاً مالا ثم طلبه فجده فخاصمه الى أياس بن معاوية فقال الطالب اني دفعت المال اليه قال ومن حضرك؟ قال دفعت في مكان لم يحضرنا أحد قال فأني شيء في ذلك

بزيارته وجد عباءتي على غير ما يصاح « لمن دلي يفتخر بأنه مملوك الممز » قال وليس الامر كذلك. قلت مولاي جعلت فداك اني بريء من المطالبة. فضحك عظمته وقال كدت تضعيك النكتة بلجأ بك فاصبر للحديث وقال : ان عبد الحميد زار اليوم عبد المسيح وأخذ ينظر في كتبه ففتح له في كتاب موضع التصيدة التي تقول مطلقة معاوية فيها « ولبس عباءة وتقر عيني » فظن الولد لهذه النكتة المستملحة ولكنه لم يبد شيئاً مما تظن له الى ان انتهت زيارته فخرج وجاني رأساً وقال لي هل وعدت شاعرك عبد المسيح بك بعباءة قلت نعم منذ ثلاثة أيام وسها عن بلي ان أرسلها له مع الغلام فهل ذكرها لك؟ قال لا ولكن حدث ما هو كيت وكيت فضحكت وأمرت الغلام أن يذهب بالعباءة لعبد المسيح فهل وصلت لك يا ولدي؟ قلت نعم وأطال الله بقاءك ثم قال عظمته وان نباهة عبد الحميد في هذه المسألة ذكرني بنباهة الكسائي وقص على مسامعنا الرواية التي يراها القاري الكريم في المتن

وجناب الشيخ عبد الحميد خان هو اليوم في نحو اثني والعشرين عاماً من ربيع عمره وهو يحكم الاهواز باسم عظمة مولانا السردار أقدم وقد أبدى من الذكاء وحسن السياسة في أحكامه ما جعله موضع أعجاب المعجبين وسموه لا يزال في المنزلة التي يعرفها له الناس ويذكرونها شاكرين حفظه الله مع اخوانه الانجال الانجاب بحمي عظمة مولانا السردار أقدم وجعلهم جميعاً قرّة عينيه وفخراً لنا وذخراً

الموضع؟ قال شجرة قال فانطلق الى ذلك الموضع وانظر الشجرة فاعلم الله تعالى يوضح هناك لك ما يتبين به حقك ولعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتذكر اذا رايت الشجرة وبعد أن مضى الرجل قال أياس للمطلوب أجلس الى أن يرجع خصمك فجلس وأياس يتقضي بين الناس وينظر اليه ساعة بعد ساعة ثم قال له يا هذا أرى صاحبك باع موضع الشجرة التي ذكرها؟ قال لا قال يا عدو الله انك لخائن قال أقاني أقالك الله فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال له أياس قد أقر غريمك بحقك فخذ منه

ومثل هذا ما رواه لنا شاعر ناعبد المسيح بك انطاكي عن صديق نصراني له يدعى بندي هلال قال كان صديقي يتعاطى التجارة في حلب في خان الكرك وكان بحسب تجارته كثير المعاملة مع الصيارف اليهود المنتشرين في مدخل الخان المذكور وحدث غير مرة انهم غلطوا معه بعشر أو خمس ليرات فكان يرجع اليهم من نفسه ويرجعها لهم وفي ذات يوم قبض من أحدهم أربعة ليرة قيمة تحويل وعند ما وصل الى محله استعاد عدداً لها فاذا هي تنقص عشر ليرات فرجع الى صاحبه وقال له ان المبلغ الذي قبضته منك وجدته ناقصاً عشر ليرات فانكر الصراف ذلك فرجاه أن يعمل حساب صندوقه فوعده خيراً على أن يعود اليه في المساء فعاد اليه فقال له وجدت حساب صندوقي صحيحاً فأخذي وكده له بانه قبض المبلغ ناقصاً فلم يقبل وكان لابن الهلال صديق من اليهود فقص عليه قصته وهذا لم يشك بصحتها لما سبق له اختيار صاحبه فقال له لا تذكر وتعال الي غداً لنذهب الى بيت الدين ويبيت الدين عند اليهود هو مجلس الحاخامين وهو بمنزلة المحكمة الشرعية عند المسلمين وبالفعل بكر ابن هلال الى صاحبه اليهودي وذهبا الى الحاخام وتصاع عليه القصة فسأل الحاخام اليهودي الوسيط بالعبرانية قائلا وهل أنت متأكد من صدق هذا النصراني؟ قال نعم وشهرته عندنا حسنة جداً قال حسناً فاجلسا وأمر حاجبه باستدعاء ذلك الصراف وانصرف الى النظر في القضايا المعروضة عليه لان اليهود ينظرون أكثر قضاياهم عند الحاخامين وبعد نحو الساعة وصل الصراف فقال الحاخام بالعبرانية وهو يتظاهر بقراءة كتاب في يده «أنكر» فاجابه الصراف «وانا منكر» فقال الحاخام بوجهه الى النصراني وقال له ان الصراف اعترف بالعشر الليرات فاذهب معه في الحال واستلمها وقال للصراف ان عدت الى مثل هذا فالتصاص عليك كبير

«الاستقراء»

والقسم الثاني من أقسام الاستدلال الاستقراء وهو يتبع جزئيات الشيء وهو نوعان

تام وناقص فالتام هو الاستقراء بالجزئي على الكلّي نحو كل جسم متحيز وهذا دليل
 يقيني يفيد اليقين والناقص هو الاستقراء بأكثر الجزئيات نحو كل حيوان يحرك فكّه
 الأسفل عند المضغ وهذا ظني فلا يفيد إلا الظن والاستقراء الناقص عند الفقهاء يسمى
 الحاق الفرد بالاعمّ الاغلب والاستقراء بالجزئي على الجزئي يسمونه قياساً مثال ذلك
 قال الرشيد للهلول أحب أن تكون خليفة قال لا وذلك اني رأيت موت ثلاثة خلفاء
 ولم ير خليفة موت بهلولين . وعنف محمد بن عمرو بن علي بن أبي طالب زيد بن علي
 ابن الحسين لما خرج وحذره القتل وقال له أهل العراق خذلوا آباءك علياً وحسناً
 وحسيناً عليهم السلام وانك مقتول وانهم خاذلون فلم يثن ذلك عزمه حتى كان من أمره ما كان
 وحكي أن بعض الارقاء كان عند مالك يأكل الخاص ويطعمه الخشكار فأنف الرقيق
 من ذلك وطلب البيع فباعه فاشتراه من يأكل الخشكار ويطعمه النخالة فطلب البيع فباعه
 واشتراه من لا يأكل الا النذر اليسير وما اكتفى ان أجاعه حتى حلق رأسه وجعله منارة
 فأقام عند هذا ولم يطلب البيع فقال له النخاس يوماً لما ذأنت راض بهذه الحياة التعسة؟
 فقال أخاف أن يشتريني في هذه المرة من يضع الفتيلة في عيني بدلاً من السراج
 وكان عبد الرحمن بن أبي بكر قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل
 نساء قريش وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف فتزوجها بعده عمر بن الخطاب وقتل
 عنها فتزوجها الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً وكانت تخرج الى المسجد كعادتها مع
 زوجها الاولين فشق عليه ذلك وكان يكره أن ينهأها فتعرّض لها ليلة في ظهر المسجد
 وهي لا تعرفه فضرب بيده عجزتها ثم انصرف فقعدت بعد ذلك عن الخروج الى
 المسجد فقال لها يوماً ألا نخرجين يا عاتكة؟ فقات كننا نخرج اذ الناس ناس وما بهم من
 بأس وأما الان فلا ثم قتل عنها الزبير فتزوجها محمد بن أبي بكر وقتل عنها بمصر فقالت لا
 أنزوج بعده أبداً اني لا احسبني لو تزوجت جميع أهل الارض لقتلوا عن آخرهم
 وحكى الاصمعي عن عيسى بن عمر قال وفد أبو الجهم حذيفة على معاوية فقال له والله
 ان لك لشرفاً وحقاً وقرابة يا أبا الجهم وانه لزمنا مؤونة عظيمة وهذه مئة ألف نخذهأ
 واعذر قال أبو الجهم فقبضتها على مضض وقلت في نفسي ما عسى أن أقول له وهو رجل
 ناء عن بلاد قومه وقد تخلق بأخلاق أهل الشام الجفأة الاغفال فقبلتها على أنه قد قصّر في حق
 فلما توفي معاوية واستخلف يزيد سرت اليه وافدا وأقت أياً فقال لي يا أبا الجهم اني
 بحقك وقرابتك وشرفك لعارف وان مع حقك لحقوقاً ومؤناً لا نستطيع دفعها وانت

أولى من عذر ابن أخيك وهذه خمسون ألفاً فضمها اليك واعذر فقلت في نفسي غلام حدث نشأ مع غير قومه وسكن غير بلده وهو مع هذا فأبى كلبية فأبي خير يرجي منه على أنه قصر في حقّي وانصرفت فلما استخلف عبد الله بن الزبير قلت في نفسي هذا بقية قريش البطاح فأتيته وافداً وأقت عنده أياماً ثم قال له يا أبا الجهم مهها جهلت فلن أجعل شرفك وقرابتك وحقك غير أن علينا مؤناً وعزماً وحملات وأموراً يطول شردها ولكن مع ذلك فاني غير مخيب سفرك إلينا هذه الف درهم خذها واستعن بها على أمورك فقبضتها فرحاً ثم وثبت بين يديه فقلت يا أمير المؤمنين مد الله لقريش في بقائك ولا امتحنها بفقدك فوالله ما زالت بخير ما بقيت لها فقال ابن الزبير جزاك الله عن الرحم خيراً فوالله ما قلت هذا لمعاوية وقد أعطاك مئة ألف درهم فقلت نعم يا أمير المؤمنين من أجل ذلك قلت هذا الآن لاني خفت أن أنت هلكت لا يلي أمر الناس إلا الخنازير وحدثنا شاعرنا انطاكى بك قال روي أن نبيرون ملك رومة المشهور بالظلم كان يتجسس رعاياه ليلا فقي ذات ليلة سمع عجوزاً تدعوه بطول العمر فاستغرب لعنده أن الناس كلهم يتمنون هلاكه لمظالمه فدخل على العجوز وهو متنكر وقال لها يا خالة سمعتك تدعين لنبيرون والناس كلهم يدعون عليه قالت نعم فاني أعرف أباه وجده وكان أبوه شراً من جده وهو شرٌّ منهما واني لاشفق أن يهلك فيخلفه من هو شرٌّ منه ومن هذا القبيل قول الشاعر :

كنّا اذا جئنا لمن قبلكم
والآن صرنا حين نأتيكم
أتتصف بالترحيب بعد القيام
نقع منكم بلطيف الكلام
لا غير الله بكم خشية
من أن نرى من لا يرد السلام

ومن هذا القبيل قول شاعرنا الانطاكى :

كنّا وكان الناس من قبلنا
فمات اذ قام ابنه بعده
نقص زيدا فنلاقي النعم
يخيّب الاضياف خوف العدم
انا ندعو أن يعيش المدى
خوف حفيدٍ منه نلقى النقم

« التمثيل »

والقسم الثالث من أقسام الدلالة العقلية التمثيل وهو الاستدلال بجزئي على حكم جزئي آخر يشاركه في علة الحكم وقيل أنه اثبات حكم في جزئي لوجوده في جزئي آخر لمعنى مشترك بينهما

ومن المعنى الاول ما نقل أن أول من أحدث المروحة هو هرون الرشيد وذلك أنه دخل يوماً على أخيه علي بن المهدي في يوم قيظ فاذا هي قد صبغت ثيابها بزعفران وصندل ونشرت على الحبال لتجف فجلس الرشيد قريباً من الثياب المنشورة فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها نشرًا طيباً فوجد لذلك راحة من الحر واستطاب به فامر أن يصنع له مثل ذلك . واعلم أن أكثر الاختراعات العصرية في هذا العصر كانت في مثل هذه الصدفه ومن هذا القبيل أيضاً ما نقل عن أبي حنيفة قال ابن الجوزي عن ابن المبارك قال رأيت أبا حنيفة مع رهط في طريق مكة وقد شوي لهم فصل سمين فاشتبهوا أن يأكلوه بنجل فلم يجدوا وعاءاً يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة قد حفروا في ارملة حفرة وصب فيها الخل وأكلوا الشواء به وقالوا له نراك تحسن كل شيء فقال عليكم بشكر الله فإن هذه الهمة فضل من الله عليكم

ومن المعنى الثاني ما ذكره ابن الجوزي عن الزهري قال أخبرنا عمار بن خزيمة الانصاري أن عمه حدثه أن النبي صلى الله عليه وآله ابتاع فرساً من اعرابي فاستبعمه ليدفع له الثمن وجعل يسرع أما الاعرابي فأبطأ في مشيته وطفق رجال يسامون الاعرابي بفرسه وهم لا يشعرون أن النبي ابتاعه حتى زاد بعضهم بالنم فنادى الاعرابي بالنبي قائلاً ان كنت مبتاعاً هذا الفرس فهلهم والا بته فقال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام أليس قد ابتعته منك ؟ فقال لا فطفق الناس يلوذون بالنبي والاعرابي وهما يتراجمان وطفق الاعرابي يقول هلم شهيداً يشهداني قد بعتك لك فقال خزيمة أنا أشهد فقبل النبي عليه وقال بم تشهد ولم تكن معنا ؟ قال بمصدقتك يا رسول الله فجعل النبي شهادة خزيمة بشهادة رجلين

وقال أحد ملوك الهند لبعض العلماء لاي شيء تحبزون اللعنة على معاوية وهو خال المؤمنين ومن جملة كتاب الوحي فقال أعز الله السلطان اذا اتفق لك عسكر ان يتحاربان وكان مقدم أحدهما علي بن أبي طالب ومقدم الآخر معاوية فتكون مع أيهما ؟ فقال في عسكر أمير المؤمنين علي عليه السلام أقاتل من يقاتله فقال اذا أتى معاوية يضرب أمير المؤمنين بسيفه وقال لك أيها السلطان أقتل معاوية أقتله أم لا ؟ فقال نعم يجب علي حينئذ أن أضرب عنقه فقال العالم أعز الله السلطان اذا وجب قتله كيف لا يجوز لعنه فضحك السلطان

ومن هذا القبيل ما رواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قل قرأت في بعض الاسفار

أن عمر بن عبد العزيز أفضل خلفاء بني أمية بالاجماع أراد ابطال لعن أمير المؤمنين عليه السلام من مساجد الشام ومصر ولكنه تيسب أن يصدر أمره في ذلك من غير رضا ذويه فتحدث فتنة في المسلمين تهلك الحرث والنسل فاستدعى يهودياً اليه وأسراً اليه بما ستقف عليه بعد وفي يوم الجمعة بعد أن صلى عمر بن عبد العزيز بالناس دخل داره وحوله عيون الدولة وأقطاب الامويين فدخل عليهم ذلك اليهودي مسلماً فقال له عمر ماذا تريد؟ قال جئت أخطب ابنتك يا أمير المؤمنين قال ويل أمك أيها اليهودي الملعون هل مثلك يخطب ابنة أمير المؤمنين؟ قال جعلت فداك وهل أنت أفضل من نبيكم قال كلا واستغفر الله قال ألم يزوج ابنته فاطمة الزهراء من علي بن أبي طالب فهو ملعون عندكم فتظاهر عمر بالغضب وطرد اليهودي ثم قال لمن حوله ما رأيكم في هذا؟ أما كفنا عاراً اعلان هذه اللعنة حتى صار اليهود يعيروننا بها ويطمعون بكراعتنا بسببها انها والله علينا سبة الابد ولذلك أصدر أمري من هذه الساعة بابطال لعنة علي عليه السلام ووضع القصاص الشديد على من يتو لها وهكذا كان والحمد لله ولم يحسرا احد من الامويين على مقاومته

وقال المنصور الدانقي يوماً لعمر بن عبيد وقد آتاه في الخروج مع محمد بن عبد الله بن الحسن: أنت تعلم سوء رأيي في هذا الخروج فأنتج صدري بيمين نزع بها ما في نفسي فقال له والله لئن استجزت ان اكذب تقية لاستجيزن ان أحلف تقية فاستحى منه المنصور وقال له: والله أنت أعلم مني وأفقه

وقال أحد الحكماء من نقل لك نقد نقل عنك ومن شهدك فقد شهد عليك ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك وقال مسكين الدارمي في ذم الافراط بالغيرة:

ولست امرأة لا أبرح الدهر قاعداً الى جنب عرسي لا أفارقها شبراً ولا مقبلاً لا تبرح الدهر بيتها لا جعله قبلاً المات لها قبراً ولا حاملاً لا ظنسي ولا قول قائل على غيرة حتى أحيط به خـ

وهبني امرأة راعيت مادمت شاهداً فكيف اذا ما سرت من بينها شراً اذا هي لم تحصن لها في فنائها فليس بمنجيها بنائي لها قصراً

وكان جحى يبيع زيتوناً فأنت اليه امرأة تشتري منه بالدين فقال لها ذوقيه لتعرفيه أطيباً أم رديئاً قالت أنا صاعمة قضاء عن رمضان الماضي قال جحى فاذهبي عني اذن يا ظالمة أنت تماطين ربك هذا المطال كله وتريدين أن تشتري مني لتماطيني

وقال ابن المعتز وقد سد باب الامل في وجهه:

لا نأسفن من الدنيا على أهل
وقال الشيخ البهائي :

بل هو انقضى عمري
وقال آخر :

اذما المرء قصر ثم مرّت
ولم يلحق بصالحهم فدعه
وقال شاعرنا الانطاكي :

يقولون لي صبراً على مضض النوى
فقات مضى عام وثان وثالث
« الاعتبار بالامثال »

ومما يلحق بالتمثيل الاعتبار بالامثال قال أمير المؤمنين عليه السلام « أن الامور اذا تشابهت اعتبر آخرها بأولها » وهو حق وذلك لان المقدمات تدل على النتائج والاسباب تكشف عن المسببات واذا كانت السيئات عبارة عن علة ومعلول أو كان بينهما على الأقل تناسب قليل يستدل بحال أحدهما على حال الآخر واذا كان كذلك واشتبهت أمور على العاقل البعيد النظر ولم يعلم طريقة تأويلها فانه يستدل على نتائجها من مقدماتها ويقف على خرائمها من فوائدها كالرعية ذات السلطان الريك الضعيف السياسة اذا ابتدأت أمور مملكته تضطرب واشتبه على العاقل المفكر الى ماذا سيفضي حال هذه السلطنة في المستقبل فانه يرجع بنتائجها الى مقدماتها ويعلم أنه سيفضي أمر ذلك الملك الى الانحلال والضياع لان بوارد الضعف ظاهرة من أوائل سوء ادارة سلطانه وقال صلى الله عليه وآله « استدل على ما لم يكن بما قد كان فان الامور أشباه » وكان يقال « اذا شئت ان تنظر الى الدنيا من بعدك انظرها من بعد غيرك » وقالوا « التاريخ يعيد نفسه » وقلنا في مثل هذا المعنى في معرض غزل :

تعلاني بالوصل وهي نفورة
فهل بعد ما قد طال عهد النوى بنا
وما مرّ في أهل الغرام يد لنا
وقال أبو الطيب المتنبي :

فكيّ تظنيه طليعة عينه
يرى قلبه في يومه ما يرى غدا

وقال شاعرنا الانطاكي مادحاً
رأيتك تمضي الرأي في المقبل الذي
هو لم يزل في عالم الغيب مستتر
فان لم تكن بالوحي تعرف ما الذي
تجيب به الايام انك تفكر (١)
وقال بعض الاذكياء

يا من رأى أبويه في
هل فيهما لك عبرة
من قد رأى كأننا ففانا
أم خات أن تلقي انقلاتا
ومن الذي طلب التفل
ت من منية ففانا
كل تصبجه المني
ة أو تبيته بيانا

وقال بعضهم
أؤمل أن وأحيا في كل ساعة
تمر بي الموتى تهز نعوشها
وما أنا الا مثلهم غير أن لي
بقايا ليال في الزمان أعيشها
ومن كتاب له عليه السلام الى الخارث الهذلي « اعتبر ما مضى من الدنيا بما بقي
منها فان بعضها يشبه البض وآخرها لاحق بأولها ولا تكون ممن لا تنفعه العظة الا اذا

(١) تفضل عظمة مولانا المعز حفظه الله فذكر لهذا العبد المملوك يبتين من سبعة
آيات نظمها في عظمته على أثر حادثة جرت في العراق وقد تفضل عظمته فقال ان
حادثة كذا ستنتهي على وجه كذا وما مضى الشهران الا وانتهت الحادثة على ما قال
عظمته وبلغتني نهايتها قبل أن تباع مسامعه الشريفة ندخلت عليه وأنشدت

أبا جاسب ياصاحب الرأي والحجى
رأيتك تمضي الرأي في المقبل الذي
فان لم تكن بالوحي تعرف ما الذي
تجيب به الايام انك تفكر
وقبأت عما كان منذ ابتدائه
وكان الذي أنبأت عنه كأنما
ذكاء به قد سست ملكك راشداً
فلا زلت بالرأي السديد مؤيداً
وأفضل من في رأيه الناس تأتمر
هو لم يزل في عالم الغيب مستتر
تجيب به الايام انك تفكر
ويته لم تبقى منه ولم تذر
ذي غاب في مثل الذي بعده حضر
فلا بدع في عليك يسمي وقد عمر
عزيزاً ولا زلنا برأيك نعتبر

فتبسم سموه حفظه الله وقال ما الذي قد كان ؟ فذكرت سموه بالحادثة ونبوءة
عظمته عنها منذ بلغتنا أخبارها فقال ليس في الامر غرابة فان المقدمات تدل على النتائج
في نظر القوم المفكرين

بالغت في إلامه « فان العاقل ليمعظن بالادب والبهايم لا تتمظ الا بالضرب » وقال عليه السلام « السعيد من وعظ بغيره » أي أن ذا الجذ من اعتبر بما خلق غيره من المكروه فيجتنب الوقوع في مثله

ومن الامثال على السنة الحيوانات ماروي أن أسداً شاخ وضعف فلم يقدر على شيء من الوحوش وأراد أن يحتال لنفسه في المعيشة فتمارض والتي نفسد في بض النيران وكان كلما أتاه زائر من الوحوش انترسه داخل النار وأكله فأتى الثعلب يوماً وقف على باب الغار مسلماً عليه وقال كيف حالك يا سيد الوحوش ؟ فقال الاسد مالك لا تدخل بأبأ الحصين ؟ فقال له انما يا سيد السباع قد كنت عولت على هذا غير اني أرى عندك آثار أقدام كثيرين قد دخلوا ولا أرى آثار أقدام أحد خرج منهم

ومن الامثال أيضاً أن البازي قال للديك ما أعرف أقل حياءً منك لان أهلك يربونك من البيضة واذا كبرت لا يدنو منك أحد الا طرت ههنا وههنا وأنا أوخذ من الجبال ونخيطون عيني ويحيونني ويحبسونني في بيت ظلم واذا أطلقوني على الصيد فأصيد وأعود به اليهم فقال الديك تمهل ولا تعذل فانك مارأيت قط بازياً يشوي على النار في سفودولكني رأيت كثيراً ديكاً تشوي على سفايفد

« علة الحكم »

والقسم الرابع في أقسام الدلالة العقلية الاولى القطعية هو فيما اذا كان وجود علة الحكم في الفرع أقوى من وجودها في الاصل . من ذلك ماروي عن ابلوس أنه دخل على فرعون فقال أنت تدعي الربوبية قال نعم قال فبأي حجة ؟ قال بألف ساحر قال فاجمعهم لي فجمعهم وألقوا سحرهم فقال يا فرعون أجبني هل سحرهم أقوى أم سحري ؟ فقال بل سحر ك فقال يا فرعون أنا مع هذا لا يرضاني الله أن أكون عبده فكيف يرضاك مع عجزك أن تكون شريكه ؟؟

وقيل دخل ابلوس على فرعون لغيرها الله فقال له من أنت ؟ قال ابلوس قال ما جاء بك ؟ قال جئت متعجباً من حماك لانك عادت مخلوقاً مثلي (ويريد به آدم عليه السلام) وأبنت السجود لي فطردت ولعنت وأنت تدعي أنك اله ان هذا والله الا الحق والجنون وقال الصفدي قيل ان بعض الفقراء أصابه قولنج شديد في بعض المساجد فاضطرب وقلق وجعل يتموليا الله فطرطيا الله فسوة حتى أقلق رفاقه فلما كان الصبح أشرف على الهلاك وعان المرث فقال يا الله الجنة فقال له بعض رفاقه ما رأيت أشد حماقة منك منذ الغروب

الى الان تسأله ضرورة ما فرحك بها والان تسأله الجنة؟؟
 وحكي أن قطب الدين بن الراوندي مضى الى محلة اليهود وقال هل تعرفوني أنا
 عالم المسلمين؟ قالوا نعم قال جئت اليكم فان أضفتموني أربعين يوماً صرت الى مذهبكم
 فقالوا حبذا هذا اعتباراً لديننا وأضافوه وهياًوا له الطعام ما أراد ولما مضت الايام
 الاربعون قال لهم « وأتمناها بعشر » فأتوها بعشر ثم قالوا له ادخل في مذهبنا
 فقال هازئاً بهم يانا قصي العقول أنا في مدة خمسين سنة آكل طعام المسلمين والى الان
 ما تحقق اسلامي وتريدون لاجل طعام خمسين يوماً ادخل في دين اليهود؟؟
 وقيل ان البهلول أتى يوماً الى قصر الرشيد فرأى المسند والمثكأ حيث يجلس
 مجلس في مكانه لحظة فرآه الخدم وضربوه وسحبوه عن مكان الخليفة فلما خرج
 هرون من الحرم رأى البهلول جالساً يبكي فسأل عن السبب فقبل له جالس في مكانك
 فضر بناه وسحبناه فزجرهم ونهاهم وقال الى البهلول متطافاً وقال له لا تبك فقال ياهرون
 ما بكيت على حالي ولكن أبكي على حالك أنا جلست في مكانك لحظة واحدة ففصل لي
 هذا الضرب الشديد فكيف وأنت جالس في هذا المكان كل هذا الزمان الطويل؟؟؟
 وأنشد بعض العارفين في هذا المعنى:

غيرت موضع مرقدي يوماً ففارقني السكون
 قل لي فأول ليقتي في حفرتي انسى يكون

وقال بعض العقلاء

يا عامر الدنيا المعد لها ماذا عملت لدارك الاخرى
 وممهد الفرش الوطيئة لا تغفل فراش الرقدة الكبرى

وقال بعض العارفين لرجل من الاغنياء كيف طلبك للدنيا . فقالا بشديد قال فهل
 أدركت منها ما تريد قال لا قال هذه التي صرفت عمرك في طلبها لم تحصل منها على ما
 تريد فكيف اني تطالبها؟ وقال بعضهم في هذا المعنى

أراك تطلب دنيا لست تدركها فكيف تدرك أخرى لست تطالبها
 وقال بعض العارفين اذا كان أبونا آدم بعد ما قيل له اسكن الجنة أنت وزوجك
 طرد منها على ذنب واحد فقط فكيف نرجو نحن دخولها على كثرة ذنوبنا المتتالية
 القبيحة؟؟ والله در القائل

يا غافلاً ترنو بعيني راقد ومشاهد الامر غير مشاهد

تصل الذنوب الى الذنوب وترتجي
ونسيت أن الله أخرج آدمها الى الدنيا بذنب واحد
وقال بعضهم لقد قطعت يدك وهي بعض جوارحك في الدنيا لا جل ربع دينار فلا
تأمن أن يكون عقابك في الآخرة على هذه الشدة
وتخلف ثلاثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة واحدة فجرى لهم
ماسمعا من شديد القصاص فكيف بمن يقضي عمره في التخلف عنه
وقيل خالف موسى الخضر عليهما السلام في طريق الصحبة ثلاث مرات فخل الخضر
عقدة الوصال بينهما قائلاً هذا فراق بيني وبينك ألا تخاف يا من لم يف لربه قط أن
يقول في بعض زلاتك هذا فراق بيني وبينك

﴿ الروضة الرابعة ﴾

﴿ في الامور الحاجبة للعقل ﴾

« توطئة »

اعلم أن محل العقل من الانسان هو القلب وقد استدلوا على ذلك بوجوه ليس
هنا محل بيانها . فالقلب جار مجرى النين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر
في العين وقوة الابصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر . والانسان وان أغمض
جفنيه أو جن عليه الليل حتى لا يعود يرى شيئاً مما حوله فاعلم الحاصل منه في القلب
جار مجرى قوة ادراك البصر في العين ورؤيته لايام الاشياء . وعلى ذلك فملوازنة
بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه الا أنه لا مناسبة بينهما في
الشرف فان البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس والبدن
كالفارس وعمى الفارس أضرب من عمى الفرس بل لا نسبة بين الضررين
وقد ناسب الله عز وجل بين البصيرة الباطنية والبصر الظاهر فقال « اكذب الفؤاد
ما رأى » فسمى ادراك الفؤاد رؤية . وكذلك قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت
السموات والارض » وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص بابراهيم عليه
السلام حتى يعرض من الحق سبحانه في معرض الامتنان . وكذلك سمي ضد ادراك
القلب عمى كما قال الله تعالى « فانها لاتعني الابصار ولكن تعمي القلوب التي في
الصدور » وقال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً »

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الامور الحاجبة للبصيرة كثيرة منها ما لا تدخل تحت الاختيار وذلك كالتضاء والقدر وفي الحديث « اذا نزل التدبر عمي البصر » وليس المراد بالبصر البصر الظاهر ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . وفي الحديث أيضاً « تذا » الامور للمقادير حتى يكون الخلف في التدبير » قال بعض المحققين من شراح الحديث ذلها مطاوعتها للقدر بحسب القضاء الالهي وربما كان الهلاك المقضي منها مقدراً نجاية مقده الانسان تدبيراً صالحاً لجهله بسر القدر . وقال بعض الباغاء

إذا أراد الله أمراً لا مريُّ وكان ذا عقل وسمع وبصر

أصمَّ أذنيه وأعمى قلبه وسلَّ منه عقله سلَّ الشعر

حتى إذا أنفذ فيه حكمه ردَّ عليه عقله ليعتبر

فلا تقل فيما جرى كيف جرى فكلَّ شيء بقضاء وقدر

ومنها ما تدخل تحت الاختيار بمعنى يمكن علاجها وهي أمور كثيرة فمنها ما تكون حاجبة للعقل عن ادراك المصالح والمفاسد ومنها ما تكون حاجبة له عن النظر في عيوب النفس كما ستري

« البطنة »

فمن حواسب العقل البطنة وهي كثرة الاكل فان كثرة الاغذية تضر الجسم الانساني لما تولده فيه من الفضلات الرديئة والاخلط الفاسدة المنعفة التي تتصاعد أبخرتها الى الدماغ فتتخيم على الحواس وتحدث البلادة والغفلة . قال عمرو بن العاص يوم حكم الحكماء « أ كثروا لابي موسى من الطعام الطيب نواله ما بطن قوم الانقادوا عتوهم أو بعضها وما مضى عزم رجل بات بطينا » نقول وحجاب كثرة الاكل للعقل وتفطيته للحواس واظلامه للقلب أمر وجداني يعرفه البدوي والقروي والحضري ولذلك ترى الكتبة والشعراء والعلماء يختارون الدرس والتأليف على الجوع وعندهم أفضل الاوقات الصباح حيث يكون الجسم مرتاحاً والطعام مهزوماً فيصفو الذهن وتتقد البصيرة وقلنا في ذلك :

باكر لنظم الشعر حيث الذهن في صفو ولا أثر بجسمك للتعب

والذهن لا يصفوا اذا ما كنت مت خماً ونفسك في طعامك تكتمب

ان الحصافة والذكاء كلاهما في بطنة الشره الما كل تستلب

واجعل طعامك للحياة ولا الحيا ة الى الطعام كذاك يفعل من نجب

ومما يروي عن حكماء الهند وبراهمهم أنهم يستعينون على كشف الغيب بالصيام فهم لا يأكلون الا ما يسد الرمق ويقوم بأود الجسم لكيلا يتداركهم الفناء والهلاك جوعاً ولهم في ذلك قصص قالوا أنهم عودوا أجسامهم الصيام حتى صار أحدهم يقضي الايام بليا لها ولا يذوق طعاماً وبذلك تنكشف عن بصائرهم غشاوة الكثافة الجسمية وتكون أحكامهم على الاشياء قرينة الصواب والسداد. ومن هذا القليل ما قاله شاعرنا الانطاكي مديلاً بيتاً قديماً

« عجباً لمن عسى ويصبح لاهياً ومرامه المأكول والمشروب »

يطفي ببطنته أشعة عقله وذكاؤه بطعامه محجوب

وبالاجمال نقول ان البطنة تجلب الاسقام وتفقد الاحلام وتخسر الافهام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله « المعدة بيت الداء والحمية أصل كل دواء »

« الانهماك في المعاصي »

ومن حواجب العقل كثرة الذنوب والانهماك بالمعاصي فانها تمنع صفاء القلب وجلاء النفس اذ ان القلب مثل المرآة وكل حركة من قول أو فعل تقع على النفس تحدث في القلب حدثاً من قولها أو فعلها فان كانت عقلية كانت معينة لها على الكمال وان كانت عصبية أو شهوانية كانت عائرة لها عن ذلك فيكل اشتغال بامر دنيوي يحدث في وجه النفس نكتة سوداء كما تحدث النكتة السوداء في وجه المرآة حتى اذا تكاثرت وتراكت اذهبت بهاءها وأفسدت جوهرها وذلك هو الران المذكور في قوله تعالى « بل رآن على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وفي الحديث « من ترك جهة اسودت قلبه ومن ترك جمعيتين اسودت ثنا قلبه ومن ترك ثلاث جمع اسودت قلبه كله » ومن هنا قال بعض العلماء

شكوت الى وكيع سوء حفظي فارشدني الى ترك المعاصي

وأخبرني بان العلم نور ونور الله لا يهدى لمعاصي

وقلنا في هذا المعنى :

ولا تبسق الذنوب لقلب رب ال ذنوب تقطناً وذكا وفهما

فطوبى للذي قد فر منها وعد لاذاها اثماً ووها

وقال شاعرنا الانطاكي :

قالوا تركت مصالح الدنيا وما هو واجب للدين في هذا الهوى

قلت اعذروا صبا أضاع حجاه في جمل وقولوا عاشق صب غوى

واعلم أن القلب خالق سليماً في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تقوته
السلامة بكدورة ربهق وجهه من نبرة الذنوب وظلمتها فلمعاصي للايمان كالمأ كولات
المضرة للابدان فلا تزال تجتمع في الباطن مغيرة لمزاج الانسان وهو لا يشعر بها الى أن
يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي وهذا الحجاب مانع للعقل
عن النظر في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا أيضاً حيث أن المنهمك بها ينصرف بكليته
اليها فلا يعود ليهم بعمل من أعماله الدنيوية فتفسد دنياه وتسوء حاله
« غلبة الطبع والعادة »

ومن حواجب العقل غلبة الطبع والعادة فيرى الانسان الاشياء بعين طبعه أو
عادته لا بعين بصيرته. ومن ذلك ما روي عن يوسف الصديق أنه كان يجوع ويأكل
من خبز الشعير فقيل له أنجوع وبسبك خزان الارض فقال أخاف أن أشبع فلا
أذكر الجائع أي أن تعرضه الشبع يحجب بصيرته عن النظر الى الجائع ليطعمه
ومن هذا القبيل ما روي قالوا ان بعضهم ذكروا لابنة أحد الملوك في سنة غلاء أن
الناس يتضورون جوعاً فتبسمت وقالت لماذا لا يأكلون قشور البقل او؟ وذلك لانها كانت
معتادة اذا قدمت لها البقل او وهي صنف من الحلوي ان تأكل ما فيها من اللوز والفسق
وترمي القشور فظننت ان كثيرين يفعلون فعلموا ان ما يرمونه من القشور يكفي لاشباع
الفقراء الجائعين

وحكي أن رجلاً اغتصب له ضيعة ثم أرسل الى ردها فاعيدت له بعد مدة فكان
قبل أن ردت عليه ضيعة اذا قيل له يا فلان كيف الناس؟ فيقول هم بشر بين مظلوم لا
يتصر له وظالم لا ينصف فلما استرد ضيعة صار يقول ان الناس بخير قد اعتمد معهم
الانصاف ورنع عنهم الاحجاف ورد عليهم المصوب وكشفت عنهم الكروب وفي
الامثال « ما شكر السوق الا من ربح »

ومر رجل مع عبد له على رجل يضرب بالسياط فسأل العبد بولاه عن جنابة
الرجل فقال انه دين بمئة درهم فقال العبد وما قدر المئة درهم حتى يتحمل هذا الضرب
ولا يعطيها فعلم سيده ان عبده عنده مئة درهم فلم يزل به حتى استخرجها منه ثم بعد ذلك
مر الرجل مع عبده على رجل محبوس على درهمين فقال السيد للعبد هذا محبوس على
درهمين فقال العبد اذن ماذا يصنع المنلس؟

وقيل دخل لص بيت رجل فأخذ مائة وخارج نصاح الرجل ما أتيتك هذه الليلة

نقال اللص ليس على كل أحد

ومن هذا القبيل قصة قاضي الخمسمائة قالوا كان أحد القضاة يملك خمسمائة درهماً فكلما تقدمت له قضية على اختلاف القضايا يحكم على أحد الغريمين بدفع خمسمائة درهماً إلى غريمه فتممي الخبر للخليفة فبحث فوجد أن القاضي يحكم بمامعه غير ناظر إلى حالة الناس فيحكم بجهله وعزله وأراح الناس من شره

وقالوا إن ولداً كان ماراً بالسوق فسمع المنادي ينادي الجمل بفلس فأسرع إلى أبيه وقال ألا تشتري جملاً؟ قال إنه غالي وبعد مدة كان الولد مع أبيه في السوق وإذا بالمنادي ينادي الجمل بمئة دينار فقال الأب أنه لرخيص نشترى عشرة فقال الولد يا أبتاه بالأمس كان الجمل بفلس وقلت أنه غالي واليوم تسترخصه بمئة دينار قال لان أئمة دينار موجودة اليوم أما الفلس فلم يكن موجوداً في الأمس ولا جود إلا من موجود ومن أمثال العرب قولهم كيف ظنك بجارك؟ قال كظني بنفسي وذلك أن كل أحد يظن بالناس مثل طريقته وفعله أن خيراً نخير وأن شراً فشر. ومن هذا قول الجنون:

وتحسب ليلى أني إذ هجرتها حذار الـإـادي أن ماني هو أني
ولكن ليلى لا تقي بأمانة فتحسب ليلى أني سأخونها
وبي من هراها ما لو أني أبته جماعة أعدائي بكتني عيونها
وقلنا في هذا المعنى :

لا تقس يا مجيد كل البرايا في نعيم مقاس نفسك وأرحم
أن منهم من في العناسة يشتمى وكثير من الخلائق يظلم (١)
وقال شاعرنا الانطائي :

وكم من خلي لا يني في الهوى وقد قضيت الليالي ساهر الجفن باكياً

(١) ارتحل عظمة مولانا المعز هذين البيتين في ذات يوم زار فيه سمو ولده الشيخ عبد المجيد خان وكنا في خدمة سموه فجاءه من يشكو إليه مظالمه وأنه في حاجة إلى طعام وكساء فأمر له عظمته بكرمه الحاتمي بكسوة ومال وكان سمو الشيخ الصغير حاضر أفعال أبتاه كيف يشكر هذا الرجل الجوع والعري وهل في الدنيا من يشكوها فلجأ به عظمته أعزه الله بهذين البيتين وكان هذا منذ عشر سنوات مضت حيث كان سمو الشيخ عبد المجيد في نحو العاشرة من ربيع عمره أما اليوم فسمو قد شب على ما به تقر الأعين وتفرح الأنفس من ذكاء وفضل أدامه الله مع أخوانه الانجباب في حمى الشيخ المعز بالسودود والعز

ولو عرفوا ما الحبُّ ما شمت منهم
عذولا مليما في الصباية لاحيا
وكل امرئ من نفسه بثَّ حكمه
على الناس لا تحسبه للحقِّ واعيا
وعاب رجل رجلا عند بعض الاشراف فقال لقد استدلت على كثرة عيوبك بما
تكثرت في مجالسك من ذكر عيوب الناس لان طالب العيوب انما يطلبها بقدر ما فيه
منها . وقال بعضهم في هذا المعنى :

وأجراً من رأيت بظهر عيبٍ
على عيب الرجال ذوي العيوب
وقال بعض ملوك الهند « المسيء لا يظن بالناس الا سوءاً لانه يراهم بعين طبعه »
ومثل ذلك ، ما قاله المتنبي :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يمتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عدائه
فأصبح في ليلٍ من الشكِّ مظلم
وقال ارسطو ليس « على قدر بصيرة الانسان ترى الاشياء فالسالم العقل يرى الاشياء
على حقائقها والنفوس السقيمة ترى الاشياء بطبعها » وقال المتنبي

ومن يك دافمٌ مرٍّ مريضٍ يرى مرأً به الماء الزلالا
فان الاشرار لا يظنون بالناس الا الشرَّ فهما رأيت انساناً يسيئ الظن بالناس طالبا
للعيوب فاعلم انه خبيث في الباطن وان خافي خبيثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث
هو فان المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق
كافة الخلق

واعلم انه كما يحصل من كثرة الاعتماد على أعمال الشرِّ سوء الظنِّ بالناس كذلك
يحصل من الاعتماد على أعمال الخير حسن الظنِّ بالناس فقد رووا عن بعض الصالحين
من العلماء انه سمع بان العسس قبضوا على سارق في ذات ليلة فقال متى ذلك ؟ فقالوا له
في نصف الليل فقال ويل له متى يصلي صلاة الليل حتى يتفرغ للسرقة ؟ ونظير ذلك
أن قطاع طريق سلبوا يوماً رجلاً صالحاً متعبداً وكان في أثوابه سرورال نجس فقال الصالح
لمن أخذه انه نجس لاتصلي فيه . وسبب حسن ظنِّ هذا الصالح وذاك العابد هو اعتيادهما
عمل الخير فيظنَّان أن كلَّ الناس كذلك حتى اللصوص

وفي كلام لامير المؤمنين عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص « عجباً لابن النابغة
يزعم لأهل الشام ان في دابة واني امرء تلعبه أعارس وأمارس لقد قال باطلا ونطق
اثماً أما وشرُّ القول الكذب انه ليقول فيكذب ويمد فيخلف ويسأل فيمخل أما والله

اني ليمعني من اللعب ذكر الموت وانه ليمعني من قول الحق نسيان الآخرة وانه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتیه آتیه ويرضخ له على ترك الدين رضىخة « قال الشارح اعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلة في الامساك والبخيل يعيب أهل السماح والجود وينسبهم الى التبذير واطاعة الحزم وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم الى ضيق النفس وسوء الظن وحب المال والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها حزقا وتغريراً بالنفس كما قال المتنبي يرى الجبناء أن الجبن حزماً والشجاع يعيب الجبان وينسبه الى الضعف ويعتقد أن الجبن ذل ومهانة وهكذا القول في جميع الاخلاق والسيجايا المقسمة بين نوع الانسان. ولما كان عمرو بن العاص شديد الغلظة وعر الجانب خشن الملمس دائم العبوس كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي عليه السلام وخلق علي حاصل له لقال في علي لولا شراسته فيه فهو أخبر عن خلقه ظاناً أن الخلافة لا تصلح الا للشديد الشكيمة العظيم الوعورة وهذا كما أشار اليه الامام أبو عبد الله في قوله « ان البعوضة تنوهم ان لله تعالى زبانيةين أي قرنين كما لها لانه فيها كمال وعدمه نقص. وقال بعض الفضلاء لما رجعت من حج البيت الحرام سألتني بعض الجهال ما طول قبر ربنا وكيف عرضه؟ وهذا أقصى معرفته بأنه سبحانه مثل غيره يحيي ويموت الى غير ذلك من مراتب الجهل

« الحرص والاماني »

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الانسان « ان سنيح له الرجاء أذله الطمع وان هاج به الطمع قتله الحرص » ومن كلامه أيضاً « الاماني تعمي أعين البصائر » وأنشدنا بعض الادباء بيتاً قديماً مشهوراً وهو :

صاحب الحاجة أعمى لا يرى الا قضاها

وقلنا في تضمين صدر هذا البيت :

اعذروه ان تروه لج في كشف المعنى

طالباً فيه الاماني صاحب الحاجة أعمى

وحكي أن عظيماً من أكاسرة الفرس جلس يرم نيروز لدخول الناس عليه وأخذ الناس يقدمون له طرف التحف فحضر الموبذان وهو اسم حاكم الحكام ومعه منديل

مشدود على شيء فوضعه بين يدي كسرى وحله فاذا فيه خيمة كبيرة فقال ما هذا؟ فقال
 انني كنت قد خرجت الى مكان الزهرة فرأيت بازياً قد تسع دراجة فجاءت الدراجة الى
 أجمة قد وقعت فيها النار فألقت نفسها في الاجمة فهلكت فدخل البازي من حرصه
 خلفها فاحترق وأنا أراه فوقفت مفكراً في حاله وما فعله به حرصه ثم أخذته وقد صار
 خيمة ورأيت أن هذا من أبلغ المواقف نعلم منه أن الحرص يقود الى الهلاك والبوار
 وانما ذكرنا هذه الحكاية من باب التمثيل اذا الحرص الموجود في الانسان هو أشد وأعظم
 من حرص الحيوان فكما يسوق الحيوان ويعمي احساسه كذلك يسوق الانسان ويعمي
 بصيرته عن المتاعف والمهلك التي يتعرض لها

ويعجبني ما قاله شاعرنا الانطاكي في الحرص وقد عتب عليه بعضهم لاحتماره

الماله وانفاقه ما تصل اليه يده بغير حساب فقال مرتجلاً : (١)

على مَ تطلب مني أن أكون على شح اللئام حريصاً غير بذال
 فهل أنا خالد في ذي الحياة لاخ شى الفقر أو عاجز عن اجتنا المال

(١) وهذان البيتان هما من أصل ستة أبيات قوتها ارتجالاً في حضرة عظمة مولانا
 المعز وأنا في خدمة عظمتهم الملوكية في اليخت خزعلي سنة ١٩٢١ وذلك أن أحد
 الدسائسين خزايم الله أراد أن يحط من قدرتي في عين عظمة مليكي المحبوب فأخذ
 بحضوري ينمني في معرض المدح فيذكر ما أنفقه في البصرة على الذين كانوا يتصدونني
 بصفتي العبد المملوك لعظمة مولاي السردار أقدر وكان يظن ذلك المافق أن قوله
 هذا قد يغضب عظمتهم علي وكان الحال بالعكس إذ أن عظمتهم حفظ الله سمع قول
 الرجل كعادته برحابة صدر ثم قال متبسماً وهل تظن أن عبد المسيح نجيب سائلوا فاه
 وهو من أصحابي المقربين؟ فوقعت هذه الكلمات العالية على ذلك الجيث وقع الصاعقة
 وتشجعت أنا فقلت مرتجلاً :

على مَ تطلب مني أن أكون على شح اللئام حريصاً غير بذال
 فهل أنا خالد في ذي الحياة لاخ شى الفقر أو عاجز عن اجتنا المال
 ألسنت لم اني عبد خزعل لا أخاف يوماً بأن أمتي باقلال
 فلست أخشى به الاقدار ما عبت منه تعلمت بذل المال أنفقه
 فما هو باخل يوماً علي ولا أنا أخيب يوماً سؤل سؤالي

« شدة الطمع »

ومن حواجب العقل شدة الطمع وأحسن أمثاله ماروي عن لسان الحيوان رويوا
أن رجلاً صادقنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفي
من أوام ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلني أما
الواحدة فأعلمك أياها وأنا في يدك وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فإذا
صرت على الجبل قال هات الأولى قالت لا تأسف على ما فاتك نخلى سبيلها فلما صارت
على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدق ما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت
على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي درتين زنة كل واحدة
عشرون مثقالاً قال فعرض على سنه بأسف وتلف وقال هات الثالثة قالت انك لقد نسبت
الثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تأسف على ما فاتك ولا تصدق ما لا يكون
أنه يكون وأنا لو وزنت دمي ولحمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلي
درتان في كل واحدة عشرون مثقالاً؟ ثم طارت وذهبت وهذا أحسن مثال لطمع الانسان
حتى الذي قد يعنيه طمعه عن ادراك الحقائق فيصدق ما لا يكون أنه يكون
ونظير هذا ما في كليله ودمنه وذلك أن سارقاً تساق سطح بيت رجل من الاغنياء
وكان معه جماعة من أصحابه فاستيقظ صاحب المنزل على صوت وطء أقدامه فنبه امرأته
الى ذلك وقال لها رويداً اني لأحسب المصوص علوا البيت فايقة ظني بصوت يسمعون
وقولي ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة؟ فإذا نهيتك
عن هذا السؤال فألحى عليّ بالاستفسار ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها وأنصت
للأصوص الى سماع قولها فكان الزوج يقول لزوجته : أيها المرأة قد ساقك القدر الى رزق
واسع كثير فكلي واسكتي ولا تسألي عن أمر ان أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد فيكون
في ذلك ما أكره وتكرهين ثم قالت المرأة أخبرني أيها الرجل للمعري ما بقربنا أحد
يسمع ونحن في سواد الليل فقال لها فاني أخبرك أني لم أجمع أموالي الا من السرقة قالت
وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ قال ذلك اعلم أصبت في السرقة وكان الامر لي يسيراً وأنا
آمن أن يتهمني أحد ويرتاب في قال فاذ كر لي ذلك قال كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا
وأصحابي حتى أعلو دار أحد الاغنياء الذين مثلنا فاتهي الى الكورة التي يدخل منها
الضوء فارقي بهذه الرقية وهي شولم شولم سبع مرات واعتنق الضوء فلا يحس بوقوعي
أحد فلا أدع مالا ولا متاعاً الا أخذته ثم ارقى بتلك الرقية سبع مرات واعتنق الضوء

فيجذبني فأصعد الى أصحابي فنمضي سالمين آمنين فلما سمع اللصوص ذلك قالوا قد ظفروا الليلة بما نريد من المال ثم أنهم أطالوا المسك حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا فقام قائدهم الى مدخل الضوء وقال شرم شولم سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل الى أرض المنزل فوقع على أم رأسه منكساً فوثب اليه الرجل هراوته وقال له من أنت؟ قال أنا الذي أعمي بصيرتي الطمع فصدقت ما لا يكون أبداً أنه يكون

ونظر طفيلي الى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم ذاهبون الى وليمة فتبعهم فاذا هم شعراء يقصدون السلطان بمدائحهم فدخل معهم عليه وبعد أن أنشد كل واحد منهم قصيدته وتناول جائزته قال حاجب السلطان للطفيلي أنشد شرك قال لست بشاعر قال من أنت اذن؟ قال من الغاوين الذين أشار اليهم القرآن « والشعراء يتبعهم الغاؤون » فضحك السلطان وأمر له بجائزة نقول وهذا من الطمع الذي حسنت نتيجته وهو نادر وما ذكرناه هنا الا لاستملاح حسن بداهة ذلك الطفيلي

ونظر رجل من المتطفلة الى قوم من الزنادقة يساق بهم الى القتل فرأى لهم حياة حسنة وثياباً نقيمة فظنهم مدعويين الى وليمة فتطفل حتى دخل فيما بينهم فلما وصلوا الى دار الشرطة أخذ صاحب الشرطة باستجوابهم واحداً واحداً حتى وصل الى الطفيلي فقال له أصلحك الله است والله منهم وانما أنا طفيلي ظننتهم قادمين على طمام فاحتهم فقال ليس هذا مما ينبغي وأمر بضرب عنقه فقال أصلحك الله ان كنت ولا بد فاعلا فر السيف أن يضرب بطني لا عني بسينه فانه هو الذي ورطني هذه الورطة فضحك صاحب الشرطة وتحقق من أمره فاذا هو طفيلي نحلي سبيله

ومن أمثال العرب « أطمع من مقمور » والمقمور هو الخاسر في القمار وانما قيل هذا لان الخاسر في المقامرة يطمع أن يسترد خسارته ليزيدها

ومن الامثال أيضاً « أطمع من أشعب » وأشعب هذا رجل من أهل المدينة اجتمع يوماً عليه غلمان يماثونه وكان مزاحاً ظريفاً مغنياً فازوه فقال لهم ان في دار بني فلان عرساً فانطلقوا الى هناك فانه أنفع لكم فانطلقوا وتركوه فلما رأهم منطلقين ركضاً قال لعل الذي قلته حقاً فضى في أثرهم فلم يجد شيئاً وظفر به الغلمان هناك فازوه . ومن طمعه انه مرّ برجل يمضغ عاكاً فتبعه أكثر من ميل حتى علم أنه عاك . ومرّ بمكتب وغلّام يقرأ على الاستاذ « أبي يدعوك » فقال قم بين يدي حفظك الله وحفظ أباك فقال انما كنت أقرأ وردي فقال أنكرت فلم تفلح ولا يفلح أبوك . وقامنا في الطمع :

وكم طامع قد ضاع ثاقب رأيه بطمعه حتى أضرب به النفسا
وقد يعمد الأمر حتى يسوقه الى الهلك أو يلقى به الجور والنحسا (١)
« الجشع في الكسب »

ومن حواسب العقل الجشع في الكسب حلالاً كان أو حراماً وهو من ثمرات التفريط
بالطمع فتعمي بصيرة الجشع عن النظر الى المفسد التي يرتكبها بجشعه قال أمير المؤمنين
عليه السلام « أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »

ومن حوادث هؤلاء الجشعين أن رجلاً كانت عنده امرأة تفجر وتنفق عليه
فطلقها وزوج بعفيفة فطلب منها ما كانت تأتي به الاولى ففعلت فجاء يوماً الى بيته
فقدت له طعاماً طيباً فقال من أين هذا ؟ قال جاءني زبون وحمل اليّ طعاماً وشراباً
وحلوا فأكلنا هنيئاً وشربنا مريضاً

وكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر
وهذا نصيبك من فضلات طعامنا فقال اذا تعاطيت هذا فاياك واخباري بتفاصيل
ما يجري فاني غيور

وكانت لبعض الاكابر جارية عفيفة الا أنها كانت تفحش في مجونها فقال لها
مولاي اقصري عن هذا الفحش بمحضر من الرجال فقالت أشد من فحشي أخذك
دراهمهم بسببي وقال الشاعر في مثل هذا الجشع :

عجبت من شيعي ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب في فضة ويسرق الفضة ان طالها
وكثيراً ما رأينا في المتنسكين بالعبادات واجتناب المكروهات والمحرمات من ينش
في معاملاته فيرتكب أعظم ما يجتنب من المحرمات لغشيان الطمع على بصيرته
وقيل أن يحيى مرّ يوماً بأبي عبد الله التوماني وسلم عليه فقال ما تقول في صلاتي
بهذه الثياب التي عليّ فاغرب المابد في الضحك وقال مئلك مثل الكلب يتمعك في

(١) نقول وبينما كنا في المطبعة نراجع اغلاط هاته الصفحة خطرت لنا هذه
الايات في الموضوع قلنا :

وبطمع في رضوان خزعل صحبه
ويجمع عن جهل بسطوته العدى
فيمبلغهم عقواً بعييد المطامع
فيمنيهم بالمهلكات الفواجم
وما كل مطامع ينال المنى سوى الـ
ذي جاءه للمكرمات الهوامع

الحيفة ويتلطح بدمها ويأكل النجس فإذا بال رفع رجله تنزهاً عن البول وأنت بطنك مملوء من الحرام وتسال عن ثيابك فبكي ونزل عن دابته وتجرّد عن ثيابه واقتفى أثر العابد وأقام معه ثلاثة أيام ثم أمره بالاحتطاب فكان يحطب ويبيع ويأكل من كسبه ويتصدق مما يفضل عنه وكان الناس إذا أتوا إلى العابد لطلب الدعاء يقول سلوا يحيى فإنه خرج من الدنيا على قدرته عليها

« غلبة الشهوات »

ومن حوажب العقل غلبة الشهوات النفسانية بحيث يستحسن المغلوب من شهواته ما يوصله إليها ويستتبع ما يصده عنها . ومن الامثال على هذا ما قاله الشاعر السكير

ما قال ربك ويل للاولى سكروا بل قال ربك ويل للمصلين

فانه لرغبته في السكر وعن الصلاة أخذ من الآية على طريق المغالطة النصف الاول

وجعله على رغبة شهواته والآية « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون »

وقيل لطفيلى أي سورة تعجبك من القرآن قال المائدة قالوا فاي آية منها قال

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا » قالوا ثم ماذا قال « آتنا غذائنا » قالوا ثم ماذا قال « ادخلوها

بسلام آمين » قالوا ثم ماذا قال « وما هم منها بمخرجين » وأنت ترى أنه ما اختار من

القرآن الشريف كله الا ما يناسب شهوته

ولزم اعرابي سفيان بن عيينه يسمع منه الحديث فلما أراد السفر قال له يا اعرابي

ما الذي أعجبك من حديثنا قال ثلاثة أحاديث أولها عن النبي صلى الله عليه وآله انه

كان يحب الحلو والعسل والثاني أنه قال اذا وضع الفطور وحضرت الصلاة فابدأوا

بالفطور والثالث قوله ليس من بني سفيان من سفن . وقال بنان حفظت القرآن كله

ثم نسيت الا حرفين وهما « آتنا غذائنا » وقيل لطفيلى من أشعر الناس قال عبد

الله بن المعتز لانه قال :

ولم أر ديباجاً ولم أر سندساً بأحسن في دار الكرام من الخبز

وقيل كان أعشى همدان وهو محمد بن عبد الله أسره عليج في بلاد الديلم وكان

للعليج بنت فأحبته فسارت اليه ليلاً ومكنته من نفسها فأصبح وقد واقعها ثمانى مرات

فقال يا معشر المسلمين أهكذا تفعلون بنساءكم ؟ فقال نعم قالت بهذا العمل نصرتم ثم

قالت أفرأيت ان خلصتك تصطفيني لنفسك ؟ قال نعم فلما كان الليل حلت قيوده وأخذت

به طريقاً تعرفها وهربت معه

وقد تبين من هذه المقدمة أنّ القوة الشهوية اذا غلبت صار العقل مسخراً لها في استحيان ما وافق الهوى واستقباح ما خالفه من قول أو فعل ومن ذلك قول المتنبي:

انما تنجح المقالة في القلـب اذا وانقت هوى في الفؤاد

نقول وحينئذ يستعملها في استنباط الحيل لتوصل الى شهواته وقلنا في هذا المعنى:

وأبلغ ما يؤثر من مقال مقال وفق شهوات النفوس

فلا تحفل بتجميع القوافي وتزويق السطور على الطروس

وكم عظة تضيق ولو وعها النفوس لما انتشت الف النفوس

والانسان اذا صحّ منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جوف السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرج به واذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجها واذا أراد أن يقتنص الوحوش السارحة في البراري والقفار اقتنصها واذا أراد أن يخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات سخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي ويبحث بها أخذها واستخرج الترياق من أجوافها وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الالات فسخر الفرس الركوب والكلب للصيد والبازي لاقتناص الطيور والشبكة لصيد الاسماك وما اكتفى بهذا حتى صار يأتينا بما يمد من قبيل الخوارق فسخر البخار والكهرباء والهواء وأظهر من القدرة على الطبيعة في هذا العصر الا خير ما لو حدث به محدث لا يأتينا لحسبوه هدياناً وما عمل الانسان كل هذا الا لغلبة القوة الشهوية والهوى ولذلك قالوا « همم الرجال تزيل الجبال » وقالوا « الارادة تفعل العجائب » وبمعكس ذلك اذا انصرف الهوى عن الشيء فترت الهمة عنه وأظهر الرجل اليأس واستعظم الامر واستوعز الطريق في أمر لو طلبه برغبة لكان سهل المنال مرجواً وجملة القول ان الباعث أو المحرك هو الهوى النفساني سواء للشر أو للخير

ولما غلب على النفوس البشرية حب الدنيا والعاجل من الشهوات توجهت همهم وعقولهم اليها وانصرفت عن الآخرة وذلك هو الخسران المبين مع أن السائل يجب أن يتأدب بأدب رسول الله صلى الله عليه وآله القائل « اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

ومن الامثال الطيفة ما رواه قالوا ان حداداً كان عنده كلب دأبه التواني والرقاد

ما دام الحداد عاملاً وإذا رفع العمل وجلس مع أصحابه ليأكلوا استيقظ وجعل يهز ذنبه فقال الحداد يوماً يا كلب السوء ما لي أرى صوت المطارق المزعجة التي تصم الأذان لا تنبهك وحس المضع الخفي تسمعه فيوقظك؟ وكذلك الإنسان الذي غلب عليه هواه يتقاعس عن الوعظ إلا إذا سمع ما يوافق ميوله . وقال أبو العيناء رأيت جارية مع النخاس وهي تخاف أن لا ترجع لمولاه فسالها السبب فقالت يا سيدي إنه يواقعني من قيام ويصلي من جلوس ويشتمني بأعراب ويلحن في القراءة فقلت لا أكثر الله مثله في المسلمين وخلاصة الأمر أن الهوى إذا غلب حجب العقل عن المصالح واستسخره في حاجاته

« غلبة الحب النفساني »

ومن حوажب العقل غلبة الحب النفساني فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله « حبك الشيء يعمي ويصم » أي يعمي عن الرشد ويصم عن الوعظ . وقيل إن الحب عن العذل في صمم . وقال الشاعر :

وعين الرضى عن كل عيب كيلة
وقال شاعرنا الانطائي :

انا شر هذا الناس ان كنت ساخطاً
علي وخير الناس ان كنت راضياً
كذلك ياتى الناس كل بعينه
وحب هواه بات فيهم وقاضياً
فمن قد رضوا عنه فذاك أخو حجي
وسوائه الكثرى وأوها أياديا
ومن غضبوا يوماً عليه فانما
ماثره الزهرا وأوها مساويا
وقال بعضهم حبك الشيء سر بينك وبين مساويه وبغضك إياه سر بينك وبين محاسنه
ولبعضهم في هذا المعنى :

وحبك الشيء يعمي عن قبائحها ويمنع الاذن ان تصغى الى العذل

وقال حكيم « اذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن الاختبار » ومن كلام لامير المؤمنين عليه السلام « ومن عشق شيئاً غشى بصره وأمراض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع باذن غير سمعية » ومن هذا الباب حب الوطن فان الإنسان من فرط حبه لوطنه يراه أنضل من كل وطن سواه . ومن هذا القبيل ما حدثنا به شاعرنا عبد المسيح بك انطائي قال « ووجدت في باريس وهي عروس الدنيا قروياً من أهالي تلك كيف وهي قرية بجوار الموصل فتعرفت به فاذا هو راجع لوطنه بعد أن أقام مدة بأميركا فجمع

مبلغاً غير يسير من المال فقلت له اني لا عجب من تركك هذه الديار الزاهرة بعد رآها
ورجوعك الى قريتك الحفيرة فنظر اليّ شذراً وقال ان ساعة أقضيها في تلكيف على
هضبة من هضباتها لأحب الى نفسي من كل ما أسمع وأرى. وروى الانطاكي أيضاً قال
«كنت في المؤتمر الذي عقدت السوريون في باريس فوقف خطيب من نصارى لبنان
يدين عواطف الوطني الساذج فقال ان قريتي في لبنان من أصغر وأحق القرى اذ لا تباع
أكثر من خمسة عشر بيتاً وليس لها ذكر في الجغرافيا ولا هي مصورة في خرائطها
واي اذا حلت أحلم بها واذا جلست أتصورها فأذوب شوقاً وحنيناً اليها وكلما وقعت
عيني على خريطة لبنان وضعت بقلمي اشارة الى موضعها مع اني هاجرتها منذ خمسة
عشر عاماً قضيتها بين أوروبا وأمريكا وأصبت نعمة وخيراً ومع ذلك أحسب نفسي
مهاجراً ولا بد لي من العودة اليها يوماً » فتأمل

ومن هذا القبيل ما يروي عن العشاق وهيامهم بنساء لو نظر اليهن ناظر لما وجدهن
أهلاً لذلك التدله الذي يهلك أصحابه. من ذلك ما روي أن أحد الامراء على عهد ليلى
ومجنونها شاقه ما سمعه من الغزل فيها فاستدعى ليلى اليه ليراها وكانت قصيرة سوداء
بادية القبح فقال مزديراً أنت هي ليلى التي جن قيس في هواها وقال ما قال فيها؟ قالت
لو كان في وجهك عيناً قيس لكنت أنا ليلى فاعجب الامير بجوابها الدال على الحكمة
واعلم أن الحب كما يعمى ويصم عن مساوىء المحبوب فكذلك البغض يعمي ويصم عن محاسن
المبغض على أن الحب والبغض لا يكونان حاجيين للعقل الا اذا تجاوزا حد الاعتدال
« الانانية او من حب الانسان نفسه »

ومن حواجب العقل الانانية وهي محبة الانسان لذاته بحيث يحجب هذا الحب عقله
عن عيوبها. قيل لحكيم ما بال الناس لا يرون عيوب أنفسهم كما يرون عيوب غيرهم
فأجاب ان الانسان عاشق لنفسه والعاشق لا يرى عيوب المعشوق وقال أحد الشعراء :

أرى كل انسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه ويبدو له العيب الذي بأخيه

وقال غيره في هذا المعنى :

قيح من الانسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

وقلنا في هذا المعنى :

وكم عائب أخوانه بالذي به يرى الناس منه ما يراء بغيره
ولو قصد المرأة ينظر نفسه كفى الناس من شر المقال وخيره
وفي الأثر أن أبا العيناء لقي بعض أخوانه في السحر فجعل يتعجب من بكوره وقال
يا عبد الله أترك في مثل هذا الوقت ؟ فقال الرجل أرى أبا العيناء يشاركني في عملي
وينفرد عني بالتعجب منه وأنشد أبو ثابت النحوي لبعض الشعراء :

ومطرفة عيناه عز عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لا بصرا
ولو كان ذا عقل وينصف نفسه لا مسك عن عيب الصديق وقصرا
ولبعضهم في هذا الموضوع :

لكل فتى خرج من العيب ممتلي على كنهه منه رمن أهل دهره
فعين عيوب الناس نصب عيونهم وعين عيوب النفس من خلف ظهره
وأنشد الرياشي :

ألا أيها الأعمى في خليقتي هل النفس فما كان منك تلوم
فكيف ترى في عين صاحبك القذى وتنسى قذى عينيك وهو عظيم
وقال شاعرنا الانطاكي :

أراني كأسمى العالمين خلائقاً وكل أمرى مثلي بفرط زوره
ولولا الهوى ما كنت نخدعاً بما يراه الورى منى ببادي سفوره
ومعرفة الانسان للنفس حكمة تعز عليه في بسيط شعوره

ومن أمثال كلية ودمنه زعموا أن مدينة أغار عليها العدو فقتل وسبي وغنم وانطلق
الى بلاد فاتفق أنه كان يوماً مع جندي من وقع في قسمته رجل حارث ومعه امرأتان
له وكان هذا الجندي يسيء اليهم في الطعام واللباس فذهب الحارث ذات يوم ومعه امرأته
يحتطبون للجندي وهم عراة فأصابته إحدى المراتين في طريقها خرقة بالية فوضعتها على
سوائها فقالت الاخرى لزوجها ألا تنظر الى هذه الفاعلة كيف لا تستحي وتستتر
عورتها فقال لها زوجها لو بدأت بالنظر الى نفسك وان جسمك عار كله لما عيرت
صاحبك بما هو بعينه فيك . وقال بعضهم :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ولحظ الانسان لنفسه وعماءه عن عيوبها نتائج منها الشعور بثقل النصيحة فان النصيحة

من حيث هي تغيب القلوب منها وتنفر النفوس مها كانت على حق لمخالفتها هوى النفس ولذلك قيل في الامثال « الناصح مكروه » ولا جرم أن تنفر النفوس من النصيحة ليلها الى الفساد وهي تدعو الى الرشاد ولان النفوس مطبوعة على الاذى والشر والنصيحة تدعو الى الخير والبر . قال ابن مسعود « ما نصحت لاحد قط الا وجدته يفتش في عيوبى وليس ذلك الا لثقل النصيحة على سمعه » وفي امثال العرب « ان كثير النصيحة يهجم على كثير الظنة » أي اذا بالغت في النصيحة اهتمك ان تسمح له ومن كلام بعض الاذكياء « اذا رأيت انساناً قد أخطأ فلا تصلح خطأه فانه يعلم منك ويغضب عليك » وقد وصف الله الكاذبين بـ « يغضبهم للناصحين » اذ قال تعالى « ولكن لا تحبون الناصحين » وقد آل الامر في عهدنا هذا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصح لنا ويعرفنا عيوبنا بل نشتمه بل بتأبلة الناصح على منابله فنقول له وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغنا الداء معه عن الانتفاع بنصحه . ومن هذا تلطف العقلاء في ايصال النصائح والمواعظ الى النفوس البشرية بضرب الامثال كالذي في كليله ودمنه والصادح والباغم ونحوها اذ النصيح الصريح ثقيل على النفس كما عرفت والنفس تميل الى الله فوضوا لها المواعظ في حكايات ملهية لتنبه البصيرة بها (١)

ومن نتائج محبة النفس والعمى عن عيوبها الظلم وعدم الانصاف كما قال المتنبي :
والظلم من شتم النفوس فان مجد ذا عفة فـالة لا يظلم
قيل وقنت امرأة قبيحة على عطار ماجن فلما نظر اليها قال « واذا الوسوس حشرت » فقالت « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه » قال ابن الجوزي حدثنا أبو الطيب بن هرثمة قال كنت مجتازاً ببغداد ومخنت ممشى وكان حسن البدن فرأته امرأة وقالت ليت علي شحم هذا الخنث فقال لها الخنث مع بغاي فشتمه فقال لها كيف ؟ أنا خنثين الجيد وتركين الردي ؟

(١) وهذا هو دأب سمو مولانا الشيخ المعز حفظه الله فانه عند ما يريد تأديبنا ونصحننا يخاطبنا دائماً بالامثال والقصص . وكذلك فعل سموه حفظه الله في هذا الكتاب اذ اعتمد على بيان أغراضه الشريفة لنفع العالم الانساني على الحكايات والملح والنوادر الشعرية والامثال المنتخبة على ما تري وفي هذا من الدليل على ثاقب نظر سموه ما لا يحتاج الى بيان

ومن محاضرات الراغب قال صبي لمعلمه رأيت في المنام كأنني مطلي بالعدرة وأنت مطلي بالعسل قال هذا عملك السيء وذلك عملي الصالح. قال الصبي فاسمع إمام الرؤيا وكأنني أجلسك وأنت تلمحني فقال له أسكت لعنك الله

ومن كتاب بهجة السرر قال بمض اللوطية خلوت يوماً بغلام حسن في خرابة فاذا شيخ ذو هبة قد دخل علينا فقال لي يا هذا أما تستحي من الجبار وكيف لا تغلو الاسعار وتقل الاثمار وتيبس الاشجار وتنضب الامطار وتجف الانهار ولم يزل يوبخني حتي قت وخرجت وترك الغلام ثم جعلت ألتفت خلفي فم أرة يخرج فأنكرت ذلك ورجعت الى الخرابة فاذا الغلام تحت الشيخ فقلت الان ترخص الاسعار وتكثر الاثمار ونهطل الامطار وتورق الاشجار فقال أنا وان كنت عاصياً أحب منك أن تكون صالحاً

ومن نتائج الغلم وعدم الانصاف المماثلة في حقوق الغير ومن أمثال العرب «الاكل سلبان والقضاء لسان» يضرب لمن يأخذ مال الناس فيسهل عليه فاذا طولب بتمضاء دينه ماطل وصعب عليه الوفاء. ولبعضهم :

وأخوك لا تقرضه شيئاً ان رمت أن تقضي وداده

فلا أخذ مثل النكاح حلوه والرد صبه كالولاده

وقال آخر في عكس ذلك :

وسرك بمده طلب البعاد

فان الفرض داعية الفساد

فشرده بقرض دريهمات

«العجب النفساني»

ومن نتائج حب الانسان لنفسه العجب بها والعجب اما بالنفس أو بالرأي وكلاهما يحجبان البصيرة فاما المعجب بنفسه فانه اسوأ حالا من الكاذب الذي هو في نهاية البعد عن الفضل ومن المرائي الذي هو اسوأ حالا من الكاذب لان هذين يريان نقص نفسيهما ويحاولان الاخفاء بالرياء والكذب وأما المعجب بنفسه فقد عمي عن عيوبها فتظهر أمام عينيه كالفضائل

قيل للحسن عليه السلام من شر الناس قال من يرى أنه خيرهم وقال أمير المؤمنين عليه السلام «عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله» ومعنى هذه الحكمة هو ان الحاسد لا يزال مجتهداً في اظهار معائب المحسود واخفاء محاسنه فلما كان اعجاب المرء بنفسه

كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذي دأبه اظهار عيوب المحسود ونقصه .
 وكان يقال من رضي عن نفسه كثر السخط عليه وهذا صحيح لان برضائه عنها
 رضاء عن كل عمل يمله بهدايتها فيدخله الغرور ويأخذ بالغضب الناس فيسخطون عليه
 وحقيقة العجب ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها . ولهذا
 قال بعضهم لرجل رآه كثير الاعجاب بنفسه يسرني ان أكون عند الناس مثلك عند نفسك
 وأن أكون عند نفسي مثلك عند الناس اذن لكنت سعيداً حكيماً

والمعجب بنفسه هو المعجب برأيه وعمله وعقله ولذلك يمتنع عن الاستفادة من
 الاستشارة والقدوة وقبول النصيحة والاسترشاد فيزداد باستبداده هذا حطة بين الناس
 واحتقاراً . وربما يعجب بالرأى الخطأ ويصر عليه فيخسر به دينه اذا كان متعلقاً بالدين
 أو دنياه اذا كان متعلقاً بالدنيا أو يخسرهما معاً وقد قلنا في هذا المعنى :

قل للذين استبدوا في مذاهبهم عجباً بانفسهم ما استرشدوا أحدا
 ضللتهمو السعي لا رأيا ولا أدباً ولا خفراً ولا كسباً ولا رشدا
 « شدة الغضب »

ومن حواجب العقل شدة الغضب فحيث تظلى نيران الغضب ويقوي اضطرامها في
 صدر انسان فقل قد عمي عن النظر الى عواقب ما يأتيه من الاعمال ويتفوه به من الاقوال
 فاذا وعظ لا يسمع بل قد بزد بالو عظم غضباً واذا سئل أن يستضيء بنور عقله ويرجع
 رشده تعذر عليه ذلك لان معدن الفكر الدماغ وهذا يخيم عليه دخان مظلم يتصادم
 من ثوران صدر الغاضب بنيران الغضب فما السفينة في ملتطم الامواج عند اضطراب
 الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس الغاضبة المضطربة اذ في
 السفينة من محتمل لتسكينها وتديرها والنظر اليها وأما القلب ففي الغضب يفقد حيلته
 ويعجز عن سياسة نفسه

قال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التناير
 المسحورة وأقل الناس غضباً أكثرهم عقلاً فان كان للدنيا كان دهاءاً ومكراً وان كان
 لآخرة كان حليماً وعلماء . وقلنا في مثل هذا :

ان الغضوب اذا في صدره اتقدت نار النفيط قل جنّ الفتى غضباً
 وكم أضاع حقوقاً لاتضيع وكم قد أورت النفس ذلاً عندما اضطربا
 وأعقل الناس من بالحلم لم يقتل الـ مكروه حتى يرى في دفعه سببها

لا يبلغ المجد إلا من يقابل أحـ داث الزمان بصدر بالورى رحبا
وقيل « الغضب عدو العقل » وقيل أيضاً « الغضب غول العقل » وقال ابن المقفع
« اذا حاججت فلا تغضب » فان الغضب يقطع عنك الحجة ويظهر عليك الخصم واحذر
الغضب ممن يحملك عليه فانه مميت للخواطر مانع من التثبت نقول واحذر حين تظهر
العصبية لخصمك حين يعترض عليك ويدعم قوله بالحجة فان ذلك يهيج العصبية فتخاف
كلامك وتضيع بهجة معانيه
« الحجاج والخلاف »

ومما ينبغى الحاقه بحاجية الغضب حاجية اللجاج والخلاف . قال أمير المؤمنين عليه
السلام « اللجاج تسيل الرأي » وهذا مشتق من قوله « لا رأي لمن لا يطاع » وقال
عليه السلام « الخلاف يهدم الرأي »

وكان يقال « اللجاج يشحن الزجاج ويشير العجاج » وكان يقال أيضاً « اهـدى
رأى الرجل ما نفذ حكمه فاذا خولف فسد » ومن كلام افلاطون « اللجاج عسر
انطباع المعقولات في النفس وذلك اما لفرط حدة تكون في الانسان وأما لغلظ طبع
فلا ينقاد صاحبه للرأي » وقال أمير المؤمنين في وصيته للحسن عليهما السلام « اياك
وان تجمع بك مطية اللجاج »

نقول وكل ما مرّ بك من حجب العقل هو نتيجة الافراط في أحوال النفس فتأمل

❦ الروضة الخامسة ❦

(في الامور الكاشفة)

« توطئة »

الامور الكاشفة للنفس عن المصالح والمفاسد هي كثيرة ومنها ما تنكشف عن مساوئ
النفس ومفاسدها ومنها ما تنكشف عن حسن الافعال وقبحها وسنفصل منها في هذه
الروضة ما يسعه المقام على أن تقيس على ما سنذكره ما لم نذكر على سبيل القياس
الصحيح بالعقل الرجيح
« السنة الناس »

فمن الامور الكاشفة السنة الناس اذ قد عرفت ان الانسان يعمى عن عيوبه
ولكنه يتعرض لأن يكون بكل عمل يأتيه بين مباح وقادح فاذا كان ذا بصيرة استفاد

من المدح والقدح معاً كما قال الشاعر :

والعداوات كالمودات في النسا س يستفيد الحكيم من عقباها
قال أمير المؤمنين « المرأة التي ينظر الانسان فيها الى أخلاقه هي الناس لانه يرى
محاسنه من أصدقائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم » وفي الحديث قال رجل يا رسول
الله كيف لي أن أعلم اذا أحسنت أو أسأت قال اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت
فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت واعلم أن لسان العدو أكثر
كشفاً من لسان الصديق لان الصديق قد يكون مداعماً فيخفي عنك عيوبك . صدق
رسول الله صلى الله عليه وآله . وقلنا في مثل هذا :

ان رمت تترف يا كريم بانفع لك صالح ومنزلة عن لوم

فأصخ الى ما قيل فيه فأنما ال احسان ما يجني ثناء القوم (١)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « أعداء الرجل قد يكونون خيراً من اخوانه »
وذلك لانهم يهدونه الى عيوبه فيجتنبها ويخاف شتماتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من
زوالها بغاية جهده قالوا قل هو ما يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فان عين
السيخط تبدي المساوىء ولعل انتفاع الانسان بعدو ومشاحن يذكركه بعيوبه أكثر من
انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه الا أن الطبع الانساني

(١) كنت يوماً في خدمة ولي النعم عظمة الشيخ المعز المفخم واذا بجانب الشيخ
عبد الكريم خامس أنجال ولي النعم داخل علينا فوقف بين يدي أبيه وقال أبتاه أرى
الغلمان بخطرتني ببعض أعمالي وأنا أحسبني مصيباً وقص على مسامعه الشريفة بعض
الأعمال التي أوجبت التخطئة فطفق عظمته بفصاحته يمين لسمو نجاه ما يسترشد به بأعماله
ليكون مصيباً فقال « بني لا تستبذرايك، وكن دائماً محاذراً أتيان ما لا يليق بأهـمالك،
واجعل ميزان أعمالك ما فسد منها ودا حسن، رأي من حولك فيها، فاذا قالوا انك أخطأت
فالقول قولهم، لانهم كثرة وأنت فرد، ولا يمكن أن يكون الرأي الفذاً كثراً صابة من الآراء
الجمعة، وبهذا وحده تصبح حسن الأعمال، محمود الفعال، محبوباً من الناس، ما عليك فيما تأتيه
من باس » واختتم عظمته هذه الكلمات الدرية بالبيتين الممتبين في المتن

وسمو الشيخ عبد الكريم هو اليوم في نحو العشرين من ربيع عمره وهو كاخوانه
الامراء الانجاب ذكاء وأدباً وفضلاً أدامهم الله جميعاً قرة لعين المجد والجلال ولا زالوا
بالعيش الوارف في حمى عظمة مولانا ومولاهم المعز الوارف الضلال

محبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يتأخر عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا بد وان تنتشر على ألسنتهم . وقد قلنا في هذا المعنى :

وشاك شكاً أقوال أعدائه به وما تركوا لوماً عليه ولا ذماً
أقول أحمداً لأعداء أتهم لقد أضافوا إلى ما ساء من خلقك العلماً
عظ النفس فيما قد روه وذلهم بهذيانهم واكسبوا عظمهم الغماً (١)
وقد أحسن الشاعر بقوله :

عدائي لهم فضلاً عليّ ومنّة فلا أذهب الرحمن عنى الأعداء
هم بمحسوا عن زلاتي فاجتنبها وهم نافسوني فاكتسبت المعالي

وبالاجمال نقول ان من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق في ما قال وقصد به النصيح والشفقة واما أن يكون صادقاً لكن قصده الإيذاء والتغنت واما أن يكون كاذباً فهذه ثلاث حالات فان كان صادقاً وقصده النصيح فلا ينبغي أن تذهبه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقدم منه فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغي أن تفرح بارشاده وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها فأما اغماصك لسبب نصحه وكرهه إليك وذمك إياه فانه غاية الجهل . وان كان قصده التغنت كما في الحالة الثانية فان انتفعت بقوله اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلاً به أو ذكرك عيبك ان كنت غافلاً عنه أو قبحه في عينك لينبعت فيك الحرص على إزالته ان كنت مستحسناً له شكل ذلك من أسباب سعادتك وقد اسفدتك من العداوة . واعلم أن جميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنم الانتصاح مما يقولون وأما التغنت الذي هو القصد الاول من عدوك في ذمك فخباية منه على نفسه وهو نعمة منه عليك فلا تغضب لقول انتفعت به وعاد الضرر على قائله

(١) والسبب الذي من أجله نظم عظمة مولانا الشيخ المعز هذه الايات هو ان أحد غلمانه جاءه يشكو بعض الغلمان وقد نالوا منه في حضرة ولي النعم وكما سبق القول أن عظمته يأبى أن يسمع في الخلقين قولاً فلما جاءه ذلك الغلام شاكياً أنشده تلك الايات تطيباً لحاظره وكانت وقتئذ في الخدمة فأصلحت بين الغلامين وانصرفنا للدعاء بطول عمر عظمة مليكننا المحبوب

وقال شاعرنا الانطاكي بهذا المعنى :

لم أدر لا أدري وأنت تدمني ان كنت تقصدني بنصح أو هوان
ان كان نصيحاً اني لك شاكر أو كان لؤماً ما جرى قيه اللسان
أنا أستفيد من الذي قد قلته ولا أنت في حاليه مذموم مهان
أن النصيحة لا تصادف واعياً الا اذا جايت بأقوال حسان

وأما الحالة الثالثة وهو أن يفتری عليك عدوك بما أنت براء منه عند الله تعالى
فيمبغى أن لا تكره ذلك ولا تشغل بدمه بل تنفكر في أنك ان خلوت من ذلك العيب
فلا تخلو من أمثاله وأشباهه وماستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلع
عدوك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت منه بريء ليكذبه الناس وقد قال في ذلك
شاعرنا الانطاكي

أظن أعدائي بأن الكذب في ذمي يحط القدر بي عند الكرام
خايت ظنهم فان راموا لي الا ذلال فليرووا الصحيح من المذام
أنا مثل كل الناس لي شيم لقد حمدت واخرى حق لي عتها الملام
سبحان من أعمى عيونهم عن ال سواءى وقد كذبوا لأنهم لثام
« تنزيل النفس منزلة الغير »

ومن الامور الكاشفة تنزيل النفس منزلة الغير أو أن ينسب الانسان ما فعله أو
يريد أن يفعله الى غيره فينكشف له حينئذ الصالح من الفاسد اذ قد عرفت مما قدمناه
أن الانسان تخفى عليه عيوبه وتتكشف له عيوب غيره فاذا نسب فعله الى غيره تبين له
قبحه من حسنه . قال أمير المؤمنين « كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من
غيرك » وقال عليه السلام « السعيد من وعظ بغيره والشقي من اتعظ به غيره » وقد
أخذ هذا بعض الشعراء فقال :

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر
وقلنا في هذا المعنى :

وأسعد الناس من تلقاه متعظاً بغيره في رزاياء ومحنته
وأنحس الناس من تعمى نواظره فلا يرى عبرة في نفس زلته
وقال الحسن البصري لرجل حضر جنازة « أراهم رجوع الى الدنيا لعمل صالحاً
قال لهم « قال فان لم يكن هو فكن أنت المتعظ » وقيل لبعض الحكماء ممن تعلمت العقل

قال ممن لا عقل له كنت أرى الجاهل يفعل الشيء فيضره فأجنب مثل فعله نقول وهذا
منتهى الحكمة . وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الاخلاق والتأدب مع
الاضياف ؟ فقال كانت الاسفار تحوجني الى أن أفد على الناس فما استحسنته من اخلاقهم
اتبعه وما استقبحتته اجتنبه . وقال طاهر بن الحسين :

إذا أعجبك خصال امرء فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرمات إذا جبتها حاجب يحجبك

وقلنا في هذا المعنى :

تخلق بأخلاق الكريم تتل ثنايا
وخذ عبرة من كل امرئ تشبه
والخلاصة ينبغي للعاقل أن يخاطب الناس فكل ما رآه مذموماً منهم فليطالب به
نفسه ويتفقد فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويلم أن
الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الاقران لا ينفك القرن الاخر
عن الاتصاف به أو بأعظم منه أو بشيء منه فليتفقد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه
الغير به وناهيك بهذا تأديماً فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن
المؤدب . ومما يروى عن عيسى عليه السلام انه سئل من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد
رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته وأخذ هذا المعنى شاعرنا الانطاكي فقال :

تأدبت من جهل الجاهل وخبته
وراقبت من باهوا بشهواتهم وما
وقول الورى فيه : عوه أخا جهل
هم فيه من بؤس المعيشة والذل
مخافة أن يبطو الجنون على عقلي

« تنزيل الغير منزلة النفس »

ومن كواشف الامور تنزيل الغير منزلة النفس قال أمير المؤمنين عليه السلام
« اجعل لنفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ولا تظلم
كما لا تحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن يحسن اليك واستقبض من نفسك ما تستقبض
من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل للناس لا تحب أن
يقال لك » وقال عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام « كما تريدون أن يفعل الناس
بكم افعلوا أنتم بهم »

ومن لطيف الاخبار التي تنطبق على موضوعنا ما روي عن معلم أنوشروان ملك

فارس قالوا لما ترعرع أنوشروان وقرب موعد تركه معلمه ضربه ضرباً مؤلماً بغير ذنب وحمله ثلجاً إلى أن كادت كفه تسقط فلما صار إليه الملك طلب معلمه فلما حضر أحضر له النطع والسياف فقال أتقتلني ظالماً؟ قال ضربتني وحملتني النابح ظالماً يوم كذا قال خذ العذر قال هات قال أما الضرب فاني أردت أنك تعرف طعمه فاذا ضربت فترحم فقال خلصت منها فالثلج؟ قال لانك في بلاده فربما خرجت بالضعفاء إلى صيد أو حرب في ثلج فترفق قال وخلصت من الثانية ولكن لماذا انتهرت فرصة ذنب ارتكبه فتقتص مني عليه فتجمع بين العدل والتعليم؟ قال حتى تعرف مرارة الظلم فلا تظلم أحداً فاستحسن أنوشروان ذلك وأجازه وأدنى مجلسه منه بعد أن كان ناقماً عليه (١)

ومن كتاب رشد اللبيب لمواصلة الحبيب أن أيمن بن فاتك الاسدي كان شيخاً كبيراً أعور وأبرص وكان له امرأة من بني كلب ذات حسن وبهاء وكانت أشد حباً لنفسها من بعلمها فسأها يوماً أتجيبني؟ قالت نعم قال بالله عليك أن تقولي الحق قالت لقد سألتني بعظيم وأكره أن أصدقك فتغضب فقال لا أغضب فأصدقيني قالت له لو كنت عجوزاً شمطاء برصاء وعوراء هل كنت تجبني قال لكنت أطلقك في الحال فقالت له أنت أحببت ذلك

وحدث بعض الشيوخ قال خرجت إلى بعض أحياء العرب فرأيت امرأة ذات حسن فائق رشيقة القد أسيلة الخد فوقعت في نفسي فقلت يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك وبورك لكل منكما بصاحبه فقالت أخاطب أنت؟ قلت لها نعم قالت لقد كثرت الشيب في رأسي أفتقبل على ذلك؟ قال فلما سمعت قولها ثبتت عنان فرسي راجعاً عنها فقالت على رسلك لا ذكر لك شيئاً فوقفت وقلت ماذا تريدن؟ قالت اني لم أبلغ العشرين بعد ولكنني أحببت أن أعلمك اني أكره منك ما تكرهه في ثم ولت عني وهي تنشد :

أرى شيب الرجال من الغواني بموضع شيبهن من الرجال

(١) ما حكم عظمة مولانا الشيخ المعز على مذنب في يوم بضرب أو سجن إلا وجاءنا حفظه الله في مسائه وقص علينا هذه القصة وأشفعها بقوله دقت كثيراً في التثبت من جريمته حتى لا يكون مظلوماً وأوصيت سجاناه به خيراً. وطالما سمعناه يتהל إلى الله سبحانه قائلاً اللهم ألهمني العدل في الناس وجنبي موافق الظلم في الإقتصاص وهكذا فليكن الملوك العادلون الرحماء والأزلاء

وقال رجل لجارية أراد شراءها لا يربنسك هذا الشيب الذي ترينه فان عندي قرّة عين فتالت الجارية أيسرك أنّ عندك عجوزاً ؟ وقال بعض العقلاء لأصحابه يعمد أحدكم الى ابنته فيزوجها القبيح الذميمة ولا ينتبه الى أنّهنّ يحبين ما تحبون . أي أنه اذا زوجها الذميمة كرهت صحبتته وعصت الله فينبغي للعاقل أن ينصف الناس من نفسه ولا يأني اليهم الا بما يحب أن يؤتى به اليه فنفسه مرآة له يستكشف بها ما يحبونه منه وما يكرهون

« مقابلة الشيء بنظيره أو بضده »

ومن الامور الكاشفة مقابلة الشيء بنظيره أو بضده ومن ذلك قالت الحكماء « وبضدها تتميز الاشياء » واعلم هداك الله أنك لا تستطيع أن تحكم على أي شيء جيداً كان أو فاسداً الا اذا قارنته بشيء من نظائره أو اضداده فاذا أردت أن تشتري فرساً مثلاً فقد ترى واحدة تعجبك ولكن هذه التي أعجبك لو قارنتها بنظيرة لها تستطيع أن تحكم على حقيقتها ان كانت صالحة أم لا بالنسبة الى مقارنتها بها . وكذلك تستطيع أن تعرف مزية الشيء من ضده فاذا أردت أن تعرف مزية الثوب الحريري على الثوب الغزلي عليك أن تقرن بين الثوبين وهكذا

وهذا المطلب يكشف عن العقل بكل سهولة وهو من الموازين التي لا تخطيء فعلى الانسان أن يقارن كل ما يريد ابتياعه أو عمله بنظيره أو بضده يسلم من نقد الناس ويكسب حمدهم

ومن قبيل المقارنة على الانسان أن يقارن نفسه بمن هو نظيره في الحسب والمنزلة والادب فاذا رأى هذا النظر بفضله في اكرام الناس وتبجيلهم يحب عليه أن يبحث عما سبب اكرام مناظره دونه ليطلع على ما يجب أن يجتنبه لئلا تسقط منزلته والعكس بالعكس وقد قلنا في هذا المعنى :

ما كنت أعلم قبل معرفتي بمن جهلوا الهوى ان الغرام عناء
حتى رأيتهم وقد حرموا الهنا وبضدها تتميز الاشياء
« الحياء بين الاظهار والكتمان »

ومن الامور الكاشفة الحياء بين الاظهار والكتمان فان كل ما يسبب للمرء حياء من اظهاره للناس لا يخلو من قبيح قال أمير المؤمنين عليه السلام « احذروا كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامة المساهلين واحذروا كل عمل يعمل في السر ويستحي

منه في العلانية واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه « ومثل هذا قول الشاعر »

لاته عن خائئ وتأتي مثله عارٌ عليك اذا فعلت عظيم
وقال شاعرنا الانطاكي :

أنا امرنا بترك الحمر جهراً وتشربها ثبثاً في ثلاث
فذلك منك عين رياء وسفه لعمر الحق ثلاثة الاثافي

وقال بعض الحكماء لابنه يا بني لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية
وقلنا في مثل ذلك :

أعزى كن حراً شجاعاً طيباً اخلاق محمود التعلال مهذباً
وانعل من الافعال ما تعز في ه اذا رواء الناس عزاً طيباً
وتجنب العمل الذي من ذكره يحمر وجهك بالحياء تجنباً
هذي نصيحة والد خبر الزما ن وبات فيه وودباً ومؤدباً (١)

وسئل محمد بن علي الباقر رضي الله عنه عن المروءة فقال أن لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية . وكان مالك بن مسمع اذا سارته انسان قال له اظهره فلو كان فيه خير لما كان مكتوماً . وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له يا بني اذا أردت أن تعمل عملاً ففكر في حسنه وقبحه قبل أن تعمله فان كرهت أن يعلم به الناس فلا تعمله فانه لا يكره علم الناس بشيء الا ما كان قبيحاً . وفي حديث مرفوع « ما أحبيت أن تسمعه أذنك فأت به وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه » ومن هذا فعل الطائي الذي نزل به أمرى القيس ابن حجر فهم بان يغدر به فأتى الجبل فقال ألا ان فلاناً غدر بصاحبه وهو نزيله فأجابه الصدى بمثل ذلك فقال ما أقبح ما تأثم فردد الصدى قوله فقال الا ان فلاناً وفي فأجابه الصدى بمثل ذلك فقال وما أحسن ما وني فردد الصدى قوله فعاد الى بيته ووفي لامرء القيس ولم يغدر به

(١) ان سمو الشيخ عبد العزيز هو رابع أنجال عظمة مولانا الشيخ المعز وهو اليوم في نحو الحادية والعشرين من ربيع عمره وهو أخ شقيق لسمو السردار أرغ الشيخ جاسب خان ويكاد هذا العزيز النجيب يتقد ذكاء وفطانة ويمتاز بر كوب الخيل حتى يقدر المقدرون انه حفظه الله سيكون أول فارس في بلاد العرب ادام الله مع اخوانه الانجباب بحمي عظمة مولانا السردار أقدس وأقرب عيني عظمتهم ووفقنا لخدمته وخدمتهم بالاخلاص

فاذا عرفت هذا فاعلم ان من خواص علم الكون أن كل ما كان يبان . قال النبي
صلى الله عليه وآله « ما أسر المرء سريرة الا ألبسه الله رداءها ان خيراً نخبير وان
شراً فشر » وقال المسيح عليه السلام « كل خفي سوف يظهر » وقال بعض الاعراب:
واذا أظهرت أمراً حسناً فليكن أحسن منه ما أسر
فمسر الخير موسوم به ومسر الشر موسوم بشر
وقال شاعرنا الانطاكي :

كن صريح القول لا تظهر بما خالف السر الذي تضره
واعمل الخير تجد خيراً ولا تطلب الشر الذي تحذره
ان من يعمل هذا صادقاً حق ما بين الوري مفخرة

« الاجماع »

ومن الامور الكاشفة للاجماع والاتفاق آراء العقلاء على امر من امور
الدنيا واجماعهم هذا يكشف عن حسن الشيء اذا كان حسناً أو قبحه ان كان قبيحاً وأما
الاجماع الشرعي فانه كاشف عن قول المعصوم عليه السلام واذا عرفت هذا فينبغي للعاقل
أن يؤاخذ نفسه باجتنب ما هو قبيح عند جمهور العقلاء .
من هذا ما روي عن بعض الفضلاء أنه قال « دخلت على ابن منارة وبين يديه
كتاب قد صنفه فقلت ما هذا ؟ قال كتاب عملته مدخلاً الى التورية فقلت ان الناس
ينكرون هذا فلو أضمت الوقت بغيره لكان عملاً أفضل قال ان الناس جهال قلت
وأنت تعارضهم ؟ قال نعم قلت فينبغي لمعارضهم أن يكون جاهلاً عندهم قال هو كذلك
قلت « قد بقيت أنت جاهلاً باجماع الناس والناس جهال بقولك وحدك » ومثل هذا
قول الشاعر :

اذا كنت تقضي ان عقلك كامل وان بني حواء غيرك جاهل
وان مفيض العلم صدرك كله فمن ذا الذي يدري بانك اقل
وفي أمثال التليمان « اذا كنت بين قوم وأجمعوا على أنك سكران فاذهب وثم اذ
يستحيل اقناعهم بصحوك » وهذا لان الرأي الواحد لا يقاوم الآراء المتجمعة
ويقال الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة وان كانت الجماعة لا تخطيء
والفرقة لا تصيب . وقال في ذلك أحد الشعراء :
اذا اجتمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد

فقد دلّ اجماعهم دونه على عقله أنه فاسد —
 وقلنا في هذا الصدد :
 لا نخالف اجماع قلوبك في ا
 اجمعوه من عادة أو مقال
 فاجتماع الانام هدي صريح
 فاعتبره لو كان لبّ الضلال
 وقال العامة في أمثالها « ان كنت بين العور فأعور نفسك » وهذا من الكياسة
 وحسن السياسة وقال بعضهم :

إذا انعكس الزمان على لبيب
 يحسن رأيه ما كان قبيحاً
 يعماني كل أمر ليس يعني
 ويفسد ما رآه الناس صلاحاً
 ومن أقوال شاعرنا الانطاكى :

من رام كسب ولا الانام وحيهم
 لم ينفرد عنهم برأي لم ينل
 حتى يكونوا عدة لزمانه
 اجماعهم في فعله ولسانه
 « القدرة الحسنة »

ومن الامور الكاشفة الاقتداء بأعمال العقلاء قال الله تعالى « لقد كان لكم في
 رسول الله اسوة حسنة » و يروى أنه ذكر عند عمر بن الخطاب حلى الكعبة وكثرتها
 فقال له قوم لو أخذتها فجهزت بها جيوش المسلمين كان أعظم أجراً وما تصنع الكعبة
 بالحلي ؟ فسأل عمر علياً عليه السلام عن ذلك فقال « ان هذا القرآن أنزل على محمد عليه
 الصلاة والسلام والاموال أربعة أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في اعراض وأموال
 النفيء فقسمها على مستحقيها وأموال الخمس فوضعها الله حيث وضعها وأموال الصدقات
 فجعلها الله حيث جعلها وكانت حلى الكعبة يومئذ فيها فتركها الله على حالها وما كان
 تركه لها نسياناً ولم يخف عنه مكانها فأقرّها حيث أقرّها الله ورسوله » فقال عمر
 اولاك لا فتضحنا يا علي وترك الحلى بحالها

وصعد الوليد المنبر يوم جمعة فسمع صوت ناقوس فقال ما هذا؟ قالوا البيعة يا أمير
 المؤمنين فأمر بهدمها فهدمت فباع ذلك ملك الروم فكتب اليه أن هذه البيعة أقرّها من
 كان قبلك فان كانوا أصابوا فقد أخطأت وان تكن أصبت فقد أخطأوا فأمر بأعادة بنائها
 وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الاندلس من البربر فاتفقوا وعملوا
 الطلسمات في أوقات اختاروا رصدها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه
 في بيت في مدينة طابطة ووضعوا على ذلك البيت باباً أحكموا ايصاده وتقدموا الى كل

ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً تاكيداً لحفظ ما في البيت فاستمر أمرهم على ذلك ولما جاء وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر الى الاندلس وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من الملك الذي عمل هاتيك الطلسمات وكان ملكهم الاخير اسمه لزريق السابع والعشرين فلما جلس على عرش الملك قال لوزرائه وأهل الرأي من رجال دولته قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت المقفل بابه بستة وعشرين قفلاً شيء وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه فانه لم يبن عبثاً فقالوا أيها الملك صدقت ولكن المصلحة أن تلقي عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك وبما أن آباءك وأجدادك لم يهملوا هذا فالواجب أن لا تهمله أنت فقال ان نفسي تنازعني على فتحه فلا بد من ذلك وكان ذلك الملك مهيباً عنيداً فلم يقدر على معارضته فأمر بفتح البيت فلم ير فيه غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليه السلام وكان فوقها ذلك التابوت ومفتاحه معلق عليه ففتحه فوجد فيه رقاً وكان في جوانب التابوت صور فرسان مصورة باصباغ تصويراً محكماً على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربية وبأيديهم القسي العربية وهم مقلدون بالسيوف المحلاة ودمعتلون الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فاذا فيه « متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل الذين تصوروا في التابوت الى الاندلس وذهب الملك من أيدي اليونان ودرست حكمتهم وهذا هو بيت الحكمة » فلما قرأ لزريق ما في الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولته ولم يلبث غير قليل حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه أحد ملوكه ليفتح بلاد الاندلس ولزريق هذا قهره طارق بن زياد المسير على الاندلس من قبل الوليد بن عبد الملك وقتله وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة اليونان على موضع واحد بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً ومعقلاً

والخلاصة نقول ان الافتداء بأعمال العقلاء تؤمن الخطر وتدفع الضرر وتجلب النفع للبشر وفي ذلك قلنا :

خذ في فعال ذوي النهى	فمن اقتدى لقي المسار
ان اليبب اذا اقتدى	بذوي النهى أهن المضار
وحذار من أعمال أه	ل الطيش والجهلا حذار
أبني تلك نصيحتي	اسديكها ولك الخيار

« الاستشارة وقبول النصيحة »

ومن الامور الكاشفة الاستشارة وقبول النصيحة قال بعضهم

وان باب امر عليك التوى فشاور لبيباً ولا تعصه

وقلنا في الاستشارة

ارجع لغيرك واكسب من درايتك في كل مسألة معروضة النظر

وارجع لرأبك حكمه بما سمعت اذناك تأمن وقوع الشر والضرر

وقال بعض العلماء « اذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بعقل » وقال بزرجمهر

« الماقل الحازم اذا أشكل عليه أمر هو بمنزلة من أضاع لؤلؤة فجمع ملحول مسقطها

من التراب ثم التمسها حتى وجدها وكذلك العاقل يجمع وجوه الرأي في ما أشكل عليه

ثم يضرب بعضها ببعض حتى يستخلص الرأي الا صوب »

وقالوا « اجعل سرّك الى واحد ومشورتك الى أئب » ومن شرف المشورة

وعموم نفعها وعلو درجتها وعظم وقعها ان الله سبحانه أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بها

مع استغنائه عنها فقال عزّ من قائل « وشاورهم في الامر » وقال تعالى يمدح من وصفهم

في كتابه العزيز بصفات حميدة لا يحوزها الا الموفّقون والذين استجابوا لربهم وأقاموا

الصلاة « أمرهم شورى بينهم » وكفى ذلك في فضيلة المشورة دليلاً والى نهج فضلها

سميلاً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن كثيرة لأصحابه « أشيروا

عليّ » وقد شاور صلى الله عليه وآله أصحابه في قصص كثيرة وقضايا متعددة . منها

لما أراد مصالحة عتبة بن حصين والحارث بن عوف حين قصده الاحزاب يوم الخندق

أن يعطيهم ثلث أثمار المدينة ويرجعاً عنه بمن معها من غطفان فقال صلى الله عليه وآله

حتى أشاور السعود يعني سعد بن معاذ وسعد بن عباد وسعد بن فزارة فشاورهم

فأشاروا أن لا يعطيهم شيئاً فعمل بمشورتهم . ومنها لما نزل بيدر بأدنى ماء هناك قال له

الحباب بن المنذر يا رسول الله أرأيت هذا المنزل انه لمنزل أنزلك الله تعالى ليس لنا

متقدم عنه ولا متأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل الرأي والحرب والمكيدة

فقال الحباب ان هذا ليس بمنزل فانهم يارسول الله بالناس حتى تأتي أدنى منزل من

القوم فتنزّل على مائه ثم تغير ما وراءه من القلب والابار وتعمل لك حوضاً فتملأه ماءً

ثم تقاتل القوم فتشرب ولا يشربون فقال رسول الله لقد أشرت بالرأي ونهضت ومن

معه وساروا حتى أتوا أدنى ماء من القوم فنزلوا عليه وعملوا كما أشار حباب بن المنذر

وفي قوله تعالى « وشاورهم في الامر » فوائد منها الاقتداء به صلى الله عليه وآله في المشورة . ومنها ان حلوم الناس متفاوتة فلا يبعد ان يخطر ببال انسان من المصالح ما لا يخطر ببال الآخر ولا سيما في أمور الدنيا . وعنه صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بدينكم وأنا أعلم بأخركم » ذكره الرازي في تفسيره الآية . ومنها انه عليه الصلاة والسلام لما شاورهم في الخروج الى أحد فاشاروا عليه بذلك فحصل ما حصل من فرارهم فلم يشاورهم بذلك لتوهموا ان بقاءه من تلك المشورة شيئاً فرفع الله تعالى ذلك التوهم عنه ومنها وهو اهمها وضع أساس الشورى في أحكام المسلمين يوم كانت بلوك الارض بأجمعهم يحكمون الناس بالاستبداد وظلوا كذلك الى نحو مئتي عام من تاريخنا اليوم حيث دخلت الشورى التي وضعها الاسلام أساساً للحكم الذاتي في بلاد أوروبا وبفضلها عمرت ديارهم وأزهر عمرانهم على ما نسمع ونرى . وقلنا في هذا

شورى القضا أخذت عن الفران
لوم يقل باريك شاورهم لما
ومن العجائب أن تكون لنا ولم
ويبيت أهل الغرب فيها منعمية
وقلنا عند ما أعلن ساكن الجنان السلطان مظفر الدين خان الشورى في دولتهم
العلية الإيرانية

أمر المظفر أن تذاع بملكه ال
فتهللت في أمره الباب من
وغدا بذلك عرش كمرى والرعي
فاذا أطال الله في أيامه
واذا قضى قانا أشك بان يطيه
اذ لا تسود مبادي الشورى سوى
أو ان تهذب النفوس على الرقي
وجلت ظلام الجهل أنوار المعاني
وتفقه المتفقهون بسر ما
أمن العدالة أن يسود الناس الا
ولهم شريعة أحمد وبها الهدى

شورى التي يقضي بها الاسلام
عدلوا ولكن هابه الظلام
ة حوله تلهو بها الاخصام
قل ساد في هذي الربوع سلام
ب بيده المصلحين مقام
ان قام فيها عادل قوام
وترقت الأبواب والأفهام
رف والعلوم والألأ الاظلام
جاءت بها في آيات الاحكام
المسلمين ادارة ونظام
وعليه بنیان النظام يقام

وقدنا نخطب الدولة الفارسية ونهنيها بالشورى

يا آل كسرى ناتم الشورى بفض ل مظفر خاقاننا الملك العظيم
فنهنيتم فيها فهبوا واستمعوا دوا مجدكم في شرعة الدين القويم (١)
وقال الحكماء « مادة العقل من العقول كمادة النهار من السيول » ومن كلامهم
ينبغي للعاقل أن يجمع الى عقله عقول العقلاء والى رأيه آراء الحكماء فان الرأي الفذ ربما

(١) مما حير عقول السياسيين في اوروبا وأدهش المهتمين منهم بأمر الشرق على نوع
خاص ما وجدوه في عظمة مليكننا المحبوب الشيخ المنز أعزّه الله من ظهوره بأجل
مظاهر الشورى في ملكه وزادهم حيرة ودهشة ما بذله حفظه الله من المساعي الطيبة الادبية
والمادية لمعاونة الاحرار الايرانيين في اعلان الشورى ثانية بعد أن ارجع عنها الشاه
الخلوع محمد علي خان وأعاد الى البلاد أحكام الاستبداد

فان ساكن الجنان المرحوم السلطان مظفر الدين خان في أخريات أيامه وبعد أن زار
أوروباً غير مرة صحّ رأيه على اعلان الشورى في بلاده على شكلها الاوربي فتخوّف
العقلاء المفكرون من سوء عقبي اعلانها على هذا الشكل لعدم استعداد الامة لها لعلمهم
ان الطفرة محال وكان في مقدمة المتخوفين عظمة مولانا السردار أقدر على ما رأيت في
الايات المثبتة في المتن وقد حققت الايام راحة نظريته وكان من رأي عظمته الراجح
أن تتخذ الدولة الايرانية شكلاً للشورى ينطبق على حالة الاهلين فيؤلف السلطان مجلساً
من اكابر عقلاء الامة يستعين بقراراته على حكم البلاد وفي الوقت نفسه تعمل الدولة على
تعميم التعام والامان في وقت واحد حتى تتدرج الامة الفارسية على الحكم الشورى
واذ كان عظمته أعلم الناس بحالة طهران توقع حدوث حركة رجعية هناك بعد وفاة
السلطان مظفر الدين شاه على ما قاله في قصيدته أيضاً وهكذا كان اذ لم يكدم محمد علي
شاه يتربع على دست ملك الاكسرة حتى بادر فألغى الشورى ورجع الى الاستبداد
القديم وانتشرت الثورة في عرض البلاد وطولها وأسرع الاحرار بالقوة لاسترجاع الدستور
وكان في مقدمة هؤلاء الاحرار الايرانيين قبيلة البختيارية وهؤلاء أهل حرب
وجلاد ونشاط الى العمل وهم بجوار أارة عربستان التي يحكمها عظمة مولانا السردار
أقدس فجاءه زعماء البختياريين طالبين مساعدته الفعلية فشجعهم عظمته وحباهم المال الوفير
الذي أعلنهم على الوصول الى طهران وما اكتفى عظمته بهذا بل انتظر ريثما وصلوا الى
أسوار طهران فأرسل عظمته تلغرافاً الى الشاه محمد علي يطلب فيه اعلان الدستور ثانية

ذل وأن العقل الفرد ربما ضل

وقال شبيب بن شيبه اني لا أعرف أثراً يتلاقى به انسان الاوجب النجح بينهما قيل له وما ذاك ؟ قال العقل فان العاقل لا يطلب ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن ومن أمثال العرب « علمان خير من علم » وأصله أن رجلاً وابنه سداً كاطريقاً فقال الرجل يا بني استمحيث لنا عن الطريق فقال اني علم به فقال يا بني علمان خير من علم وقيل لرجل من بني عبس ما أكثر صوابكم في مباشرة ماتاً، نه ومجانبة ما تعرضون عنه قال نحن ألف رجل وفينا رجل واحد حازم ذو رأي ومعرفة فبحن نشاوره في الجليل والحقير ونعمل برأيه فكأننا اذا صدرنا عن رأيه ومشورته في ألف حازم وجدير بألف حازم أن يصيبوا . وقال الشاعر

تمسك بهداب المشورة واستمع
ولا تجعل الشورى عليك مضاضة
بحزم نصيح أو نصيحة حازم
فريش الخوافي قوة للقوادم

ومن أمثال العرب أول الحزم المشورة وقال بعضهم « المستشير بين خيرين صواب يصيبه أو خطأ يشارك فيه » وهذا من أجود ما قيل في المشورة وقد نظمها شاعرنا الانطاكي فقال :

ما بين خيرين ذو حزم ومشورة
قد استشار سواه في الذي عرضا
فان أصاب فخيراً نال بغيته
والخير مع غيره قد أخطأ الفرضا

وقيل للاحنف بن قيس بأي شيء يكتر صوابك ويقل خطأك فيما تأتيه من الامور وتبشره من الوقائع قال بالمشورة لذي التجارب ومحض زبدة الاراء . وقال لقمان لابنه يا بني اجعل عقل غيرك لك في ما تدعوك الحاجة الى فعله فقال ابنه كيف اجعل عقل غيري لي ؟ قال تشاوره في أمرك . وقال اعرابي ما عثرت قط حتى عثر قومي قلوا وكيف ذلك ؟ قال لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم . وقال بعض النبلاء الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل وأما الرجل فذو الرأي والمشورة وأما النصف الرجل فالذي له رأي ولا يشاور وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا

أو مجرد العرب لنصرة اخوانهم البختيارين فأسقط الشاه بيده عند تسلمه هذا التلغراف وخارت عزيمته عن المقاومة وهكذا دخل البختياريون طهران وأعادوا اعلان الدستور وقد ذكرت هذا الفضل لعظمة مولانا السردار أقدس الجرائد الايرانية والجرائد الانكليزية وأجمعت جميعها على اعلان حمده والثناء عليه وهذا معروف ومشهور

شاور . وقال بعضهم الرجال ثلاثة رجل ينظر في الامور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها
ورجل متوكل لا يتأمل فاذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقبل قوْلهم . ورجل
طائر لا يتم راشداً ولا يطيع مرشداً

واعلم أنه قد يكون المستشار أشد رأياً من المستشار ومع ذلك لا يجوز له أن يهمل شوره
اعتدداً بأفضليته عليه ألا ترى النار ولا نسبة بينها وبين زيت زرداديه نوراً فلا يقذف
في روعك إنك اذا استشرت سواك ظهر للناس ضعف رأيك أو تفوق سواك عليك كلا
وتم يجب أن تعلم ان الاستشارة لا تكون للافتخار بل لزيادة الاطلاع والتوسع بالاختيار
فقد يكون الاقل منك ادراكاً أفطن في مصاحبتك منك نفسك لما هو معلوم من أن محبة
الذات تعمي البصيرة كما مرّ بك ولذلك لا تتفطن لما في أمرك من خير أو شر بدافع الحب
الذاتي كما يتفطن اليه من تشاوره ولا ناقة له في أمرك ولا جمل (١)

وبعد ألا ترى ابراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده عزيمة لا شررى فيها فحمله
حسن الادب وعلمه بموقفه في النفوس على الاستشارة فيه فقال يا بني أنى أرى في المنام انى
أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

وفي الحكم المرفوعة « المستشار على طرف النجاح والمتمتد تلعب به الرياح » وبالجملة
فكما يحلو البيان المتشابه كذلك تجلو المشورة العمى والحية

وقال بعض الحكماء انما خص علم المشورة لان رأي المشير لا هوى فيه ورأى المستشار
مشوب بالهوى أي ان رأي غير ذي الحاجة أسلم وأقرب الى الصواب لخلوص فكر المشير
من كل غرض أو شهوة

وسئل بعض العلماء ما بال العاقل ذو اللب لا تصيب مشورته على نفسه وتقتصر عن

(١) ومن مميزات عظمة مولانا الشيخ المعز أنه حفظه الله يكثر من مشاورة سواه مع
ما عرف فيه من الذكاء والحزم وسداد الرأي بحيث أن الكثيرين من الملوك والامراء
والحكام يرجعون الى رأيه انما قب ويشاورونه في أمورهم حتى صارت المشورة عادة لسعوه
في جميع ما تيه مع أن أمره هو الاعلى ورأيه هو الاشد وكل من تقرب من سموه يعرف
ذلك منه وما زال عظمته يشاور في أمورهم حتى رأيناه وهو خارج من قصره العامر ينادي
بغلمانة ما رأيكم أنا ذاهب لحل كذا وأنت تعلم أن الرأي لعظمته وكنا عبيد ممتثلون
والكن تنازله حفظه الله عجب ورغبته في الاستفادة وهي مصدر الفوائد مدهش فلا عجب
اذا جاءت أعماله كلها قرينة الصواب مقابلة بالاعجاب

أصابة الصواب وإدراك المطلوب ومشورة غيره له سالمة مصيبة فقال إن مشورة الإنسان لنفسه ممزوجة بالهوى ومشورة غيره له سالمة من ذلك ولا إصابة مع الهوى . وفي هذا المعنى قال بعضهم :

إذا عزَّ أمرٌ فاستشر فيه صاحباً وإن كنت ذارأي رجيح على الصحب
فاني رأيت العين تجهل نفسها وتذكر ما قد حلَّ في موضع الشهب
وقال الأرجاني :

شاوَر سواك إذا نابتك نائبةٌ يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر دوماً ما نأى ودنا ولا ترى نفسها إلا بمرآة
وقلما رغب أحد في المشورة وعمل بها الاغنى وقلما زهد فيها أحد واعرض عنها الا غرم وندم

حكى المؤرخون أن محمد الأمين لما قصده عبد الله بن طاهر بعساكر المأمون وحصر في بغداد واشتد عليه الأمر وضاق في وجهه مذاهب النجاة قال من استشار ذا رأي ومعرفة وخالفه وقع في ما يكره وندم على التفريط فاني لما شعرت بتغير أخي عليّ أحضرت الشيخ أبا الحسن القطيفي وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها فحادثته في أخي المأمون وما الذي يجب أن اعتمده حتى يتع في يدي وأطلعته على حقيقة الحال واستشمرته في كيفية العمل في ذلك فقال لي إن استعجلت لم ننتفع من رأي ولا فعل وإن تمهأت وقبلت مشورتي وعملت بما أقوله تمكنت من أخيك وبلغت ما تأمله وذلك أن تدعو حجاج خراسان إذا قاموا ببغداد وتجلس لهم مجلساً عاماً وتقول لهم إن أخي كتب إليّ بمدحكم ويظهر حسن طاعتكم وجميل انقيادكم وحميد مذاهبكم وتجزهم خيراً ثم تقول لهم قد أطلقت عنكم الخراج سنة وAnt تعلم يا أمير المؤمنين أن أخاك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال وليس له في ردّ قولك حيلة وسيناله في ذلك خلل عظيم ثم ينتقض عليه أكثر أمره . ثم إنك تفعل في السنة المقبلة مثل ذلك وتسقط عنهم خراج سنتين فإن لم يؤت في السنة الثالثة بأخيك بوثاق فاضرب عنقي إن كنت حياً قال الأمين فخالفته وما قبلت مشورته وعجلت إلى خلع المأمون وعقدت الأمر لابني حتى وقع ما وقع ومن خالف المشير ندم على التقصير وقال أمير المؤمنين عليه السلام « من استبدَّ برأيه هلك ومن شاوَر الرجال شاركهم في عقوبتهم »

واعلم أن من ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بحاجته صار هدفاً لسهام الاعمين ومضنة في افواه العاذلين والمثل للمالك بن عمرو بن عوف وذلك ان اخاه ليث بن عمرو تزوج امرأة ندمى جماعة بنت فلان فتحمل المنجعة بها فنهاه مالك وقال اني اخاف عليك من بعض اجلاف العرب فابى الاصغاء وسار بأهله وماله فلم يلبث الا يسيراً حتى رجع وقد سلب أهله وماله

وقد قيل ما أعرض أحد عن قبول قول المشير الا واستعشى اليأس والندم على التقصير ومن بعض كتب الهند من أهمل وأعرض عن الاخوان عند المشاورة وعن الاطباء عند المرض وعن الفقهاء عند الشبهة أخطأ منافع الرأي وازداد في ما وقع فيه تورطاً وحمل الزور على منكيه

واعلم أن من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ما عناه فقبل المشورة منهم واقتدى بأرائهم فيها ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها قل أن يخفق مسعاه ويفوت مطلبه فان أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان قد صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجهه ميله اليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتأرق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فأدبه فكرته الى أمر دبّره وكتبه عن جميع حاشيته وسرّه واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى اليه وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان في حضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي فقال عيسى بن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أ.ره ونهيه فقال ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطائته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا نخذه اليك واقتله سرّاً قال ذلك ثم سلمه اليه وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله أئزمه القصاص وسلمه الى أعمامه اخوة عبد الله ليعتقلوه به قصاصاً فيستريح من الاثنين قال عيسى فلما أخذت عمي وأكرهت على قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن اصيب الصواب في ذلك فاحضرت يونس ابن قرة الكاتب وكان لي حسن ظن في

رأيه وعقيدة صالحة في معرفته. فقلت له ان أمير المؤمنين دفع لي عمه عبد الله وأمرني بقتله واخفاء أمره فما رأيك فيه وما تشير به؟ فقال لي يونس أياها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين. فاني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل واحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه اليه وتجعل دونه مغالق وأبواباً. ثم أظهر لامير المؤمنين أنك قتلتهم وأنفذت أمره فيه وانتهيت الى العمل بطاعته فكأنني به اذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الاشهاد فان اعترفت أنك قتلتهم بأمره أنكر أمره لك وأخذك بقتله وقتلك. قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لامير المؤمنين اني أنفذت أمره. ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه اني قتلت عمه عبد الله دس الى عمومته اخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه في عبد الله ففعلوا كما أشار في مجلس حافل. فقال ان حقوقكم تقتضي اسعافكم في حاجتكم. فكيف وفيها صلة الرحم والاحسان الى من هو في مقام الوالد؟ ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت اليك قبل خروجي الى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك الى حين رجوعي. فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال المنصور قد سألتني فيه عمومته وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فاتنا به الساعة. قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة الى ذلك؟ قال كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لاسلمته الى من هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيك مدعياً اني أمرته بقتله وقد كذب علي. قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به. قال عيسى فأخذوني الى الرحبة واجتمع الناس علي فقام واحد من عمومتي اليّ وسلّ سيقه ليضربني به. فقلت يا عم أفاعل أنت؟ قال أي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي. فقلت لهم لا تعجلوا أوردوني لامير المؤمنين فردوني اليه. فقلت له يا أمير المؤمنين انما أردت قتلي بقتل عمك عبد الله والله قد عصمني من دمه وهذا عمك باق حياً سوياً فان أمرتني بدفعه اليهم دفعته الساعة. فاطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت اعصاراً وان انفراده بتدبيره أورثه خساراً ثم رفع رأسه وقال اثنتا به. فضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً. قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحي وزالت كربتي وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها.

ثم ان المنصور أسكن عبد الله في بيت قد بني أساسه على الملح. ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام
ومن مستحسنات ما يطرب عن بعض ساكني يثرب ما رووه عن الاسامي انه قال
ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي الى ما لا بد منه فضاقت علي الارض بما رحبت ولم أهدر الى ما اصنع. فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي فأشار علي بقصر المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت له يمنعني بعد الشقة وتيه المهلب. ثم اني عدلت عن ذلك المشير الى استشارة غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره لي الصديق الاول. فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق. فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له اصلح الله الامير اني قطعت اليك الدهاء وضربت بأكباد الابل من يثرب فقد أشار علي ذوو الحجي والرأي بقصدك لفضاء حاجتي. فقال هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشيرة؟ فقلت لا ولكن رأيك لحاجتي اهلا فان قت بها فأنت اهل لذلك وان يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم اياس من غدك. فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه ما في خزانة ما لنا السباعة. فأخذني معه فوجد في خزانته ثمانين الف درهم فدفعها الي. فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً وأعادي اليه مسرعاً فقال هل واصلك ما يقوم بدفع حاجتك؟ فقلت نعم ايها الامير وزيادة. فقال الحمد لله على نجيح سعيك واجتنائك جني مشورتك وتحقيق ظن من أشار عليك بقصدنا. قال الاسامي فلما سمعت كلامه وأحرزت صلته أنشدته

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عميت عطايك أهل الارض قاطبة	فأنت والجود مخلوقان من عود
من استشار فباب النجح منفتح	لديه في مبتغاه غير مسدود (١)

(١) كذلك يفعل عظمة شيخنا المعز في العراق فان كل من تعذر عليه الرزق أو احتاج الى المعونة أشاروا عليه بالسعي الى رحبات سهو الشيخ خزل خان حيث الجود موفور والصدر رحب والنعم باسم باش والحوائج مقضية. ولم يقتصر جود عظمته أعزه الله على أهل العراق بل تعداهم الى أهل الشام ومصر بل واهل أوروبا ايضاً. وطالما قصده اصحاب الحاجة من الفرنجة الذين يقصدون العراق لمتاجر فتكسب أو صناعة فلا يتوفون فيها فيقعدهم الافلاس عن الرجوع الى أوطانهم فيشير عليهم المشيرون بقصد رحاب الشيخ المعز فينزلهم عظمته

(شروط المستشار)

ويشترط في المستشار شروط أربعة وهي النصيح والشفقة والعقل والتجربة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه « أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم الجرب تورث الحمرة وتعقب الندامة . نقول وهذه القيود الأربعة يجب أن تكون من صفات المشير حتى تكون اشارته معتبرة في حسن الرأي وواجب قبولها . وقد نظم بعض الأدباء في بعضها هذين البيتين :

خصائص من تشاوره ثلاثٌ نخذ منها جميعاً بالوثيقة
ودادٌ خالصٌ ووفور عقلٍ ومعرفةٌ بحالك في الحقيقة
ولعل الناظم جمع النصيح والاشفاق في الوداد فتأمل . ولقد خطر لنا ان ننظم في هذه الشروط فقلنا هذين البيتين :

إذا شاورت شاور رب نصيحٍ واشفاقٍ وتجربةٍ وعلمٍ
لتظفر منه بالغرض الذي قد سعى له بلا ضررٍ وغرمٍ
ولنعد الآن الى بيان هذه الشروط الأربعة بالتفصيل فتقول :

أما النصيح فواجب على المستشار لان الناصح يصدق الفكر ويمحض الرأي . ومن كان غير ناصح فقد يكون رأيه فظيراً فيوقع بالمضرة من حيث يتوخى المنفعة . أما الاشفاق فواجب على المستشار لأن الشفقة تدعو الى النصيح فتحمل الناصح على حسن التروي في الامر وإبداء الرأي بعد التثبت والاجتهاد . والباعث على هذين اما الدين وطهارة الوجدان أو محبة المستشير . وفي امثال العرب اسمع ممن لا يحد منك يدأ يعني اطاب نصيحة من يطلب نفعك كالأبوين ومن لا يستجلب بنصيحك نفعاً الى نفسه بل الى نفسك . وقال أحد الشعراء في مثل ذلك

إذا ما عرا خطبٌ ورمت ردّه فشاور فكم نجيح هدته مشاوره
وانفع من شاورت من كان ناصحاً شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره
أما العلم فواجب على المستشار حتى يكون ملماً بوجه المصلحة في الامر الذي تستشير فيه . ولذلك يجب الرجوع في كل أمر على الملم بخوافيه لأخذ رأيه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وآله « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » وقال

على الرحب والسعة ويعيدهم لاوطانهم مكرمين . لا جرم ان الله جعل الناس عيالاً على عظمته ووفيقه الى اعادة جميع اللاندين بحماه فالحمد لله على ذلك وألف حمد لله

عبد الله بن الحسين لابنه محمد « احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحاً كما تحذر
عداوة العدو العاقل فانه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورطك
شور الجاهل » وقتنا في هذا :

وكم ناصح يرجو لك الخير ناصحاً على نية وضاحة وصفاً قلب
ولكن بجهل قد أضرك نصحه وما كان يرضى أن يسيء بما ينبي
فلا تستشر الا أخا العلم بالذي تشاوره فيه فتتجومن الكرب

أما التجربة فواجبة على المستشار لان العلم النظري لا يكفي ليكون رأي صاحبه
سديداً وشوره صحيحاً اذ أن كل علم لا تنضم اليه التجربة فهو ناقص . وشتان بين
العلم النظري والعلم العملي . وقيل في منثور الحكم « كل شيء محتاج الى العقل والعقل
محتاج الى التجارب » وقال أحد الحكماء « أياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه
قليل التجارب وكبير قد أخذ منه الدهر كما أخذ من جسمه » . نقول ان الكبير اذا
كان سليم العقل كان كثير التجارب ومشورته أنفع من مشورة سواه ولذلك اشترط الحكم
الاعراض عن مشاورة الكبير شرطاً ضرورياً وهو اذا كان الدهر قد أخذ من عقله
كما أخذ من جسمه أي داخله الخرف . وقال لقمان لابنه « يا بني شاور من جرب
الامور فانه يعطيك من رأيه ما كلفه كثيراً فتأخذ منه عفواً »

والخلاصة انك اذا عرفت أن طاعة المشير الموصوف بالصفات الاربعة المذكورة مستلزمة
في الاغلب للسور يحسن ثمرة رأيه والفوز بها فكذلك معصيته في ما يشير عليك أو
الاعراض عن استشارة مثله في أمورك مستلزمة الحسرة مستعقبة الندامة
« الاستخارة »

ومن الامور الكاشفة الاستخارة . وتدل عليها رواية جميل عن الصادق عن آبائه
عليهم السلام . قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله « الامور ثلاثة أمر بين لك رشده
فاتبعه وأمر بين لك غيبه فاجتنبه وأمر يختلف فيه فردّه الى الله ورسوله » وينبغي
للعاقل أن يقدم الاستخارة في جميع أموره فان ذلك أبعد لوقوع المحذور . قال بعض
العلماء استخيروا ولا تتخيروا فكم من رجل تخير لنفسه أمراً كان فيه هلاكه . وفي
ذلك قال الشاعر :

وكم من طالب يسعى لشيء وفيه هلاك لو كان يدري
وقال غيره :

كرهت وكان الخريف ما كرهته وأحببت شيئاً كان فيه شياً قتلي
ومن كلام بعض الحكماء رُبَّ مسرّة هي الداء ومرض هو الشفاء. وإلى هذا نظر
المتنبي في قوله :

لعلّ عتبك محمودٌ عواقبه وربما صحّت الاجسام بالعلل
وهذا مأخوذ من قول أرسطو ليس « قد يفسد العضو اصلاح أعضائه ». ومثله
قول البحري :

وربما كان مكروه الامور الى محبوبها سبباً ما مثله سببٌ
وقال غيره :

كم منّة لا يستقلّ بشكرها لله في طي المكاره كانه
وقال آخر :

كم مرة حنت بك المكاره خار لك الله وأنت كاره
وقال بعضهم :

كم نعمة مطلوبة لك بين أنياب النوائب
ومسرّة قد أقبلت من حيث رتب المصائب
فاصبر على حدثان ده رك فلامور لها عواقب
ولكل كرب فرجة ولاكل خالصة شوائب

وقلنا في هذا المعنى :

لا تياسن لنسكة تمنى بها فلعلمها سبباً لموصول النعم
كلا ولا تفرح بمفجأة نعمة قد تستجر وراءها شر النقم
وارض الذي خار الاله فانه أدرى بتدبير العوالم والام
واليه وجه بالبراة والتقوى قلباً نقياً واستخره يا ابن عم

وهذا كله مأخوذ من قوله تعالى « عسى ان تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى
ان تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

حكى أن عابداً في بقي اسرائيل ضاقت عليه معيشته فخرج الى الصحراء بعبد الله
يسأله أن يعطيه شيئاً . فنودي ذات يوم أيها العايد امدد يدك وخذ فداً يده فوضع
فيها درّتان كأنهما كوكبان ضياءاً . فجاء بهما الى منزله وقال لا مرأته قد أمّنا الفقير . ثم أنه
رأى ذات ليلة في منامه أنه في الجنة وقد رأى فيها قصر أفقيل له هذا قصرك فرأى فيه

أريكتين متقابلتين أحدهما من الذهب الأحمر والأخرى من الفضة وسقفها من اللؤلؤ
وقيل له أحدهما مقعدك والأخرى مقعد امرأتك. فنظر الى سقفها فإذا فيه موضع خالٍ
مقدار درتين. فقال ما بال هذا الموضع خالياً؟ فقيل له لم يكن خالياً وإنما تعجلت أنت في
الدنيا الدرّتين وهذا موضعهما. فانتبه من منامه باكياً وأخبر امرأته بذلك فقالت له ادع الله
واسأله أن يردّها الى مكانهما. فخرج الى الصحراء وهما في كفه فصار يدعو الله
ويتضرع اليه أن يردّها ولم يزل كذلك حتى أخذ من كفه ونودي أن قد رددناها
الى مكانهما فحمد الله تعالى على ذلك وأثنى عليه

وروي أن هلك ابل اعرابي في ذات يوم ففرح وقال ان موتاً تخطاني الى ابي
لعظيم النعمة

وحكي أن رجلاً في البادية كان له ديك يوقظه الى الصلاة وكاب يجرسه من
الصوص وحمار يحمل عليه الماء وخباء يأوي اليه. فبينما كان متغيباً عن موضعه جاءه
خبر بأن ثعلباً افترس الديك. فقال عسى أن يكون خيراً أن شاء الله تعالى. فجاءه خبر
أن الكلب قد مات. فقال عسى أن يكون خيراً أن شاء الله تعالى. فجاءه خبر أن الذئب
بقر بطن حماره فقال عسى أن يكون خيراً أن شاء الله تعالى. فلما دخل الليل مضى الى
رحله فلما أصبح وجد أحياء قومه قد سبها العدو لسبب صياح الديكة ونياح الكلاب ونهيق
الحمير والارحله فسلم بفضل هلاك ديكه وكلبه وحماره فكانت الحيرة فيما اختاره الله له
وروي عن بعض الثقات أن رجلاً كان في بيته أيام القرعة العسكرية في النجف
الاشرف وكان مدعواً للاقتراع فضايق صدره واستخار ربّه أن يفرّج من النجف فخرجت
الاستخارة نهياً. فاستخار الله على أن يخفي في مكان آخر فخرجت نهياً. ثم استخار الله
على أن يلقي نفسه في بئر فخرجت الاستخارة حسنة فألغى بنفسه الى البئر فانكسرت
رجله. فلما جيء بطلبه ذهب ليختبروا صحة بدنه فوجدوه معطوباً فعوفي من العسكرية
وظهر له عند ذلك مصالحة الاستخارة

ومثل هذا ما روي عن رجل ضلّ الطريق وعطش فاستخار الله أن يمشي الى جهة
من الجهات فخرجت الاستخارة نهياً ثم استخار على جهة أخرى فجاءت نهياً وهكذا
استخار على الجهات الأربع فجاءت نهياً ثم استخار أن يقعد أو ينام فجاءت نهياً. فاستخار
على الطيران فجاءت أمراً. فوقف وجعل يهتف بمبائه كهيئة الطيران فلم يلبث أن جاءه
فارسان فأرشداه الى مكان الماء. وسرّ مجيئهما اليه انهما كانا مارّين عن بُعد فلما

رأياه مهفهاً بعباءته ظناً أنه يؤمى اليهما مستنجداً فأسرعا اليه فكان سرّ كشف
كربته الاستخارة

نقول وأشباه هذه الحوادث كثيرة وشرطها أن تكون النية حسنة والقلب منصرفاً
الى الخير . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « انما الاعمال بالنيات وانما لكل
امرى ما نوى »

« هوى النفس »

ومن الامور الكاشفة هوى النفس الامارة . قال بعض الحكماء « اذا عرض
لك امران ولم يحضرك من تثق بمشورته فاجتنب أقربهما الى هواك » وذلك لان الهوى
عند الحكماء عدو العقل ولله درّ القائل :

اذا ما تحيرت في حاجةٍ ولم تدْرِ فيها الخطا والصواب
نخالف هواك فانّ الهوى يقودك قهراً الى ما يعاب

لا جرم ان الهوى وهو رغبة النفس في ما تريده يغشى على العقل حتى يتصور القبيح
حسناً وهذا ما يدعو اليه أحد شئئين اما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفي
عنها ما فيه من قبيح فلا تنظر فيه الا الحسن لشدة ميلها . وفي ذلك قال النبي صلى الله
عليه وآله « حبك الشيء يعمي ويصم » أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعدة وقال
علي عليه السلام « الهوى أعمى ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمضى قلبه فهو ينظر
اليه بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سمعية » وقد قيل أيضاً :

وعين البغض تبرز كل عيب وعين الحب لا تجدد العيوب

واما أن يشتغل الفكر في تمييز ما اشتباه فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل حتى
يظن أن ذلك أوثق أمره وأحمد حاله اغتراراً بأن الاسهل محمود والاعسر مذموم
فلن يعدم أن يتورط بخداع الهوى وريب المكر في كل مخوف يحذر ومكروه يعسر فان
الهوى أسهل محلاً وأصعب مركباً . ولقد جاء في الحديث « اذا اشتبه عليك امران فخذ
أثقلهما عليك ودع أحبهما اليك » وأخذ هذا المعنى بعض العقلاء فقال :

اذا التبس الامران فالخير في الذي تراه اذا كلفته النفس يشقل

خائب هواها واطرح ما تريده من اللهو واللذات ان كنت تعقل

وقال بعض الحكماء اذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وان
كان ساكناً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال الاصمعي أوصى رجل رجلاً ودفع الى

الوصي عشرة آلاف درهم وقال اذا بلغ ابني سن الرشد فأعطه ما أحببت منها . فلما
كبر الغلام طالب الوصي بحقه فأبى أن يعطيه غير ألف درهم فقط . فشكا أمره لأمير
المؤمنين عليه السلام فطالب الوصي وقال له كم تحب أن تعطي الغلام ؟ قال ألف درهم
فقط قال بل أعطه التسعة آلاف درهم وهي التي أحببت وأبقى لنفسك الألف

وحكي عن بعضهم أنه قال اشترينا خروفاً مشوياً من جار لنا لنا كله فقدم علينا
بعض الفقراء فدعونا له لئلا نكل معنا فأخذ لقمة ووضعها في فيه ثم لفظها واعتزل عنا
وقال قد عرض لي عارض منيعي من الأكل . فقلنا له لا نأكل إلا اذا أكلت معنا فقال
أما أنا الفقير فلا آكل وأما أنتم فافعلوا ما تحبون وانصرف . قال الراوي فكبرهنا الأكل
لأجله وقلنا اذادعونا من شواه وسألناه عن أصله فلعله يذكر لنا سبباً مكروهاً فدعونا
الشاوي وسألناه ولم نزل به حتى قال انه ميتة وإن نفسه حرصت على بيعه لأجل ثمنه
فأطعمناه للكلاب . ثم رأينا الفقير بعد ذلك فسألناه عن سبب امتناعه عن الأكل وقد
يكون جائعاً . فقال والله منذ سنتين ما شربت نفسي على طعام فلما قدم لي هذا
الشواء شعرت بشره عظيم اليه فعلمت أن له علة فتركت أكله . قلنا صدقت وأجزناه
وقال بعض الأذكاء :

كم حسنت لذة المرأة قاتلة
من حيث لم يدرك أن السم في الدسم
نخالف النفس والشيطان وأعصهما
وانها محضاك النصيح فاعتصم
ولا تطع منها خصماً ولا حكماً
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقلنا في مثل هذا :

عارض هواك وكن لنفسك قاهراً
فالنفس امرأة بسوء المقصد
تأمن من الاخطار في هذه الحيا
ة ومن هلاك في الجحيم وتسعد
وقال شاعرنا الانطاكى :

بادر الى استرشاد عقلك في الذي
تهواه نفسك ذاك شأن العاقل
واذا رغبت قضاء أمر تشتهي
ه فحاذرن به اقتضاء العاجل
فلرب محبوب لشر عاجل
ولرب مكروه خير آجل
والخير فيما اختاره الرحمن لا
ما اختارته بهوى المشوق الامل
قد يهدي الانسان للحق الصري
ح بؤس ما يشقى بألفي باطل

« حال الهوى مع العقل »

ومن قبيل الشيء بالشيء يذكر نستحسن أن نذكر شيئاً عن حال الهوى مع العقل . فاعلم أن الهوى عن الخير صادمٌ وللعقل مضادٌ وطالما أنتج من الاخلاق قبائحها وأظهر من الافعال فضائحها وجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكة . قال عكرمة في قوله تعالى « ولكنكم فتنتم أنفسكم » يعني بالشهوات « وتربصتم » يعني بالتوبة « وارتبتم » يعني في أمر الله تعالى « وغرّكم الأمانى » يعني بالتسويق « حتى جاء أمر الله » يعني الموت « وغرّكم بالله الغرور » أي الشيطان وقال علي بن أبي طالب عليه السلام « أن أخوف ما أخاف عليكم اثنان اتباع الهوى وطول الأمل . فان اتباع الهوى يصدّ عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة » وروى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك »

وقال العلماء « العقل كالبعل والنفس كالزوجة والبدن كالبيت فاذا سلط العقل على النفس اشتغلت بمصالح البدن كما تشغل المرأة المقهورة بمصالح البيت فصلحت الجملة وان غلبت النفس كان سعيها فاسداً كالمرأة التي قهرت زوجها ففسدت في الجملة » وزعموا ان هذه النفوس في هذا العالم الجسماني وما قد ابتلي به من آفات هذا البدن كرجل حكيم في بلد أو قرية وقد ابتلي بعشق امرأة رعناء فاجر سيئة الخلق وهي في أكثر الاوقات تطالبه بلأ كول الطيب والمشروب اللذيذ والثياب الفاخرة والمسكن المزخرف والشهوات الزوجية وان ذلك الحكيم من شدة محبته بعظم محبتها وعظم بلائه بصحبها قد صرف كل همه الى ارضاء مطالبها وأكثر عنايته الى اصلاح شأنها وقد نسي أمر نفسه واصلاح شأنه وبلدته وأقاربه الذين نشأ فيهم والنعمة التي كان فيها ولاراحة لهذا الحكيم الا بمفارقة هذه المرأة والتسلي عن حبها ولكنه لا يقوى على ذلك

واعلم ان الهوى الذي هو عدو العقل عبارة عن ارادة النفس الناشئة عن قواها الثلاث الشهوة والغضب وحب الاستعلاء . والشهوة شهوتان شهوة البطن وشهوة الفرج . أما شهوة البطن ففيها اخرج الله آدم وخواء من الجنة اذ نهاها عن أكل الشجرة فغلبت شهوتها على أكلها . وآفة هذه الشهوة التخم وما يتبعه من الامراض الجسمية والعقلية . قال علي عليه السلام « مسكين ابن آدم انه أسير بطنه يقول له املأني والا فضحتك فاذا ملأه يقول أفرغني والا فضحتك » وقال الشاعر :

شره النفوس على الجسوم بليّة^١ فتعوزوا من كل نفس تشره^٢
 ما من فتى شرهت له نفس^٣ وان نال الغنى الا رأى ما يكره^٤
 وقال الحكيم اجتنب الشهوة فانها رأس كل مهلكة . ألم تر السباع الضارية والبراة
 العادية كيف تصاد بالشهوة فتصبح بين أيدي الناس أسرى
 وأما شهوة الفرج فأعظم الشهوتين وأعصاهما أمراً فطالما قادت من تغلبت عليه
 الى المهالك وورطته في اضيق المسالك
 وهنا لطيفة لا بأس من أيرادها . قيل ان نصرانياً زنى بمسامة فلما أرادوا أن يقيموا
 عليه الحد أسلم فزوجه بها ثم ختنوه واتفق ان اسلامه كان آخر يوم من صيام النصارى
 وأول يوم من شهر رمضان فصام . فلقيه بعض أصدقائه فسأله عن حاله فقال لهم ما حل
 من قص^٥ رأس ذكره وزوج^٦ بفاحشة وصام خمسين وابتلي ثلاثين ثم رفع جيبه وقال
 مخاطباً ذكره يا مشؤم منك صارت وعلى رأسك وقعت
 و ذكر صاحب كتاب بهجة السرور في غرائب المنظوم والمنثور قال قال المبرد
 حدثني صديق لي قال قصدت كور الاهواز فلما انتهيت اليها ودخلت بين مقابرها اذا
 أنا بسواد في وسط المقابر فتوهمته امرأة حادة . فلما قربت منه اذا هو برجل عليه ثياب
 القضاة وهو بغير سراويل ورأيت أنه ينظر الى ذكره من جيبه ويضحك فوقفت بحذاءه
 متعجباً من صنعه . فقال لي مالك أتدري من أنا ؟ قلت لا قال أنا قاضي هذا البلد قلت
 فما قصتك ؟ قال قصتي عجيبة وهي ان لي زوجة هي ابنة عمي تزوجتها في حداثي ولها من
 الغيرة عليّ ما لا يمكنني ان أتقّس معها بشيء ولها عليّ رقباء وعيون وأنا أجلسها ثم رأيت
 يوماً جارية عند بعض النخاسين فوقعت في قلبي فاشتريتها وأظهرت اني أهديتها اليها
 فأقامت عندها سنين لم أتمكن من النظر اليها فضلاً عن الخلوة بها الا اخلاصاً من بعيد
 حتى كان هذا اليوم لبعض أهل زوجتي عرس في جوار داري فأذنت لها في حضوره
 طمعاً بالوصول الى الجارية والخلوة بها . فخرجت الى مجلس القضاء فجاءني الغلام وأخبرني
 ان زوجتي قد ذهبت الى العرس وخلفت الجارية في الدار . فقمتم فرحاً ودخلت منزلي
 وأغلقت الباب وطابت الجارية فما وجدت لها . فصعدت الى السطح في طلبها وكان بين
 منزلي وبين الدار التي فيها العرس خض سائر بيننا وبينهم فاذا بزوجتي قد أمرت الجارية
 أن تقف حذاء الخصى منكبة عليه لتلاحظها خوفاً عليها مني . فلم أملك ان رفعت ثياب
 الجارية والتصقت بها فان دفع الخصى ووقع فاذا أنا والجارية والخصى في وسط الدار

فصاحت النساء ووثبن عليّ يصفعني. فوالله لقد صُفعت حتى نسيت اسمي ثم خرجت هارباً وهنّ مع ابنة عمي من ورائي يصفعني الى أن تمكنت من الفرار الى هذا المكان ولا أستطيع أن أرجع الى منزلي حياً وأنا الساعة أنظر الى ذكرى قبّحه الله فقد فضحني فتارة أطمه وأدقّ عنقه وألويه وطوراً أضحك من نفسي مما نزل بي. واني حار في أمري ولا أعلم ما الذي سأعمله فهذه قصتي. قال الراوي فضحكت من حديثه وانصرفت عنه

وألطف من هذا مارواه لنا شاعر ناعبد المسيح بك انطاكي قال: حدث في حلب على عهد واليها جميل باشا وكان والياً قاسياً حازماً مرثياً أنه كانت قضية لاحد الاعيان على أراضي تبغ قيمتها نحواً من عشرين الف ليرة رفعت في محكمة الحقوق. واذ كان الحق وقتئذ لا يرجع لصاحبه الا بالرشوة رشا الرجل أعضاء محكمة الحقوق وعجز عن ارشاء القاضي لانه كان نزيهاً. فعند ما بلغ القاضي رشوة الاعضاء داخله الشك في حق الرجل فأبى أن يمضي قرار المحكمة بتسليم الاراضي له. فسار الرجل الى الوالي جميل باشا ورشاه بألف ليرة على أن يجبر القاضي على امضاء الحكم. فاعتزم الوالي فرصة زيارة القاضي له فسأله في عرض الكلام عن قضية الرجل فقال لا تزال موقوفة قال أما حكمتم بها؟ قال الصحيح ان الاعضاء أقروا على ما فيه مصاحته ولكن بلغني أنهم قد ارتشوا منه ولذلك ترجح في نظري بأنه على غير الحق فأوقفت القضية وقررت أن أبتغيها موقوفة الى أن تنتهي مدّي ويأتي القاضي الجديد ويرى رأيه فيها. فأخذ الوالي يحاججه في المسئلة توصلاً لا قناعه بان حكماً كهذا كان بأكثرية الآراء غير مسئول عنه القاضي لا أمام الله ولا أمام الناس. فلم يقبل بل ازداد عناداً لعلمه بأن جميل باشا لا يلتزم أمراً ان لم تكن له من ورائه فائدة. وهكذا انصرف القاضي والوالي غضب فأرسل الى ذلك الوجيه وأرجع له الالف ليرة وهو حزين على ارجاعها بعد أن وصلت اليه. وكان ذلك الوجيه أشدّ حزناً على خيبة آماله واعتقد أن قضيته خاسرة وحقوقه ضائعة ولا أمل فيها لانه قال: بعد أن عجز جميل باشا عن اقناع القاضي على ماله من الهبة والسطوة ما من أحد يستطيع اقناعه ولا شخص السلطان وهكذا رجع الى بيته يئساً مغموماً

وفي اليوم التالي زاره مصادفة رجل من اليهود يدعى عزرا نحات. وهذا الرجل كان كثير الاختلاط بالوالي والاعيان معروفاً بسبك الحيلة في حل المشكلات فحدثه ذلك الوجيه عن قضيته ويأسه من النجاح. فضحك وقال جعلت فداك لماذا لم تخبرني بها

من قبل؟ قال عجباً؟ الامر الذي عجز عنه جميل باشا هل يستطيع مثلك عمله؟ قال وبكل سهولة: فأين الالاب اللىرة؟ قال أنها في كيسها. وأسرع في الحان فاحضرها وساءها اليه. قال وأين الحكم؟ قال هاك هو وقد أمضاه أعضاء المحكمة ولكنه موقوف على ختم القاضي قال سأعود اليك بعد يومين على الاكثر والقاضي قد ختم الحكم رغم أنه

خرج عزرا نجمات من عند ذلك الوجيه والالاب ليرة في جيبه. فأسرع الى سوق الصاغة واشترى زوج أقراط من الماس الفاخر بستائة ليرة وأسرع الى بيته فسلم القرط لزوجته وقال اسرعي لدار القاضي وأنت تعرفين زوجته الحسنة واحتالي عليها لتقبل منك هذا القرط لقاء ختم هذه الورقة. فأسرعت المرأة لما أمرها به زوجها فدخلت بيت القاضي وهو غائب في المحكمة. وبعد ان تبادلت السلام مع زوجته أطلقت لسانها بالثناء على حسنيتها وجمالها وقدّها واعتدالها حتى ازدادت اعجاباً بنفسها. وفي الاخير أخرجت من جيبها ذلك القرط النفيس وقالت ما أحسنه في أذنك؟ قالت انه حسن وفوق الحسن. ولكن من أين لي أن أشتري مثله وزوجي على ما تعلمين عفيف زيه وبالكاد يكفي مرتبه لمصروفنا؟ قالت ولكن تقرّطي به لتكحل محاسنك فيه فنزعت زوجة القاضي قرطها ووضعت مكانه قرط اليهودية وسارت أمام المرأة فنظرته يضيء على وجهها المضيء. فتنفست الصعداء وقالت ليتني لي فقالت اليهودية هولاء يا هانم فلا تزعيه. قالت ولكن من أين أدفع ثمنه؟ قالت ثمنه أن يحتم مولانا القاضي هذه الورقة قالت ان الامر سهل. قالت كلا ليس سهل وحدثتها عن كل ما كان من تعنت القاضي في ختم الورقة بالرغم من وساطة جميل باشا. قالت ومع ذلك فهو سهل غير أنك متى ما ذهبت الساعة أرسلني واحداً من عندك يقف على باب بيتنا ما وقف الى أن أخرج وأسلمه الورقة. قالت حباً وكرامة وانصرفت راجعة الى البيت حيث بشرت زوجها بالنجاح فأرسل هذا أحد أعوانه الامناء من اليهود لينتظر عند باب القاضي وأمره أن يظل واقفاً ولو الى مطع الفجر

أما زوجة القاضي فبعد ان خرجت اليهودية من بيتها أسرع فاستحمت وأصاحت نفسها على أحسن ما يمكن ولبست أجمل ثياب النوم فازدادت بذلك جمالاً وبهاءً وانتظرت موعد رجوع القاضي الى البيت حتى اذا ما دخل استقبلته بتجني ودلال والطيب يفوح من أردانها وأخذت تلاطفه وتؤانسّه حتى نسي نفسه وما زالت كذلك الى أن تعشياً ومضيا الى سريره والقاضي في أشدّ حالات الشوق والهيام وهناك على

السريـر أخرجـت الهانـم تلك الورقة وقالت اختـمها فاعـتـماظ القاضـي وغضب وقال ويل
أهمهم من أشقياء خبـثاء. فمن أوصل اليك هذه الورقة؟ قالت انها وصلت وانك تحتـمها
لا محالة. قال كلاً قالت بل تحتـمها ورجعت عليه تداعبه وتطلب منه بدلال أن تحتـمها
فقال حسناً دعـيها للغد. قالت بل هذه الميلة وفي هذه الساعة. وما زالت حتى تغلبت
عليه وقهرته شهوته فقال في نفسه اني اختـمها الساعة وبعد ان أقضي وطري أعود
فأمزقها شراً ممزق. وهكذا نهض من فراشه وأحضر الحـتم بيد مرتـجفة وختم تلك
الورقة ووضعها تحت الوسادة. فتظاهرت المرأة برغبة الخروج خارجاً لقضاء حاجة
لها وبرشاقة اختلست الورقة من غير أن يشعر زوجها وخرجت ففتحت الباب
وسلمتها الى الرجل الواقف في انتظارها ورجعت مسرورة على أحسن حال الى زوجها.

وكان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر
أما القاضي فقي الصباح طلب الورقة فما وجدها فسأل عنها فقالت الهانم ضاحكة
لقد سلمتها لصاحبها. قال ويـلك وأين كان؟ قالت على الباب. قال تعساً لي ان النـفس
أمارة بالسوء

أما اليهودي نـحـمات فقد أسرع الى ذلك الوجـيه تحت جنـح الظلام ونـبـهه من فراشه
وسامه الحـكم محتوماً من القاضي فطار به فرحاً بعد ان قصّ عليه بكل اسهاب طريقة
نجاحه وما أمهل ان أسرع الى الوالي في الصباح وأراه الحـكم. قال وكيف ختمه القاضي
قال بطريقة كذا فغضب الوالي. وبعد قليل دخل عليه القاضي وأسرع جميل باشا ووضع
يده على كتف القاضي وقال هل عندك من هو أكثر نفوذاً مني فأدرك القاضي أن
جميل باشا علم بأمر الحـتم فتبسم وقال نعم. فقال جميل من هو؟ قال التي تضع رجلها في
مكان يدك وأنشد:

ليس الشفيـع الذي يأتـيك مؤتـزرا مثل الشفيـع الذي يأتـيك عريـنا

وقال بعضهم:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما شئت ولم ينـهـمها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذي دعتـه اليه من حلاوة عاجل

وقال السيد نعمة الله الجزائري كان رجل من القضاة قدم شيراز وكان يقرأ عليّ
في العلوم العربية فبقي مدة طويلة فسأله لم لا تسافر الى بلدك؟ فضحك وقال لا أستطيع
معاشرة أهل بلدي لقضية وقعت عليّ بها فقلت يا هي؟ قال ان المتعة في بلادني حرام

وقد غلبت عليّ العزوبة وشبق الجماع وما كنت قادراً على الزواج. فضيت الى خارج القرية فرأيت رجلاً يرعى حيواناتها فشكوت له حالي. قال في هذه الحيوانات أتان صبور وعينها لي فخذها الى المكان المنخفض واقض حاجتك منها. فاعطيته ما تيسر وأتيت بالحمار الى ذلك الموضع فأوقفتهما لقضاء الحاجة بعد ان نزلت عميتي وشددت المنزر في عنقها وربطت طرفيه في وسطي خوفاً انقلاتها. وما كدت أبدأ في عملي حتى رفستني الحمار وركضت وأخذت تسحبني وراءها على الشوك. فما شعرت الا وأنا في وسط السوق والحمار تجرّني وأنا محلول السراويل والعمّة وقد صاح أهل السوق هذا هو القاضي. ثم خلصوني منها وأنا على آخر رمق. وفي ذلك اليوم خرجت الى شيراز خجلاً فهل أطيق الرجوع اليها ؟

والطاف من هذه القصة مارواه شاعرنا عبد المسيح بك انطاكي قال كان مكاري في نحو العشرين من عمره يشتغل بنقل الاحمال والرجال على البغال بين اورفا وحلب واسكندرونه. ففي ذات يوم عزل عبد اللطيف باشا من متصرفية اورفا فنقله الى اسكندرونه ليبحر منها الى الاسكندرية. والظاهر أنه اعتنى كثيراً بمحنة المتصرف الذي سرّ من نشاطه وشبابه فطلب منه أن يصحبه الى الاسكندرية فما رفض بل امثل مسروراً وخدم التوفيق هذا المكاري فتقدم في الاسكندرية حيث دخل في سلك الوظائف الى أن بلغ الوزارة في عهد عبد الحميد. وفي ذات يوم وكان قد بلغ من العمر نحو السبعين وصار عنده مال وجواري وخدم وحشم طاب فراشه للنوم عند الظهر والوقت صيف والحرّ على أشده وحاول أن ينام بعد تناول طعام الغذاء فما طرق جفنه الكرى. فنهض من فراشه متثاقلاً وأخذ يتنقل في غرف بيته العرفة بعد العرفة وجعل يسرح طرفه في هاتيك الاثاث الفاخرة ويرجع بفكره الى عهد نشأته الاولى حيث كان مكاريّاً فقيراً يتضي أيامه وراء البغال. وكان ينظر الى هاتيك الجواري التركيات الحسنات وهذه مكشوفة الساقين وتلك بادية النهدين وأخرى منسدلة الشعر وكل واحدة أجمل من صاحبتها وهنّ نائمات في تلك القيلولة على أبسطة الغرف ومتمسكاتاً. وكان صاحبنا الوزير يتقف أمام كل واحدة منهنّ متحسراً ويقول آه على زمن البغال. ثم بلغ الغيظ مبلغه منه فاخرج ذكره وبال عليهنّ فجعلن يترن كنض صائحات وهنّ يحسبن أن سيدهنّ أصابه مس من الجنون. فاستيقظت الهائم حرم الوزير على صياحهنّ وسألت عن السبب فقبل لها أن الباشا فعل كبت وكيت فاسرعت اليه فوجدته يضحك وهو

يقول آه على زمن البغال. فسأله عن سرّ تأوّهه وحكاية البغال. فقال لها كنت وأنا في
مقبل العمر مكارياً أسافر بالبغال بين أورفا وحلب واسكندرونه وكنت عند ما أشعر
بالحاجة إلى الجماع اجامع احداها مسروراً ثمّ أسعدني الحظ حتى صرت الى هذه الثروة
وعندي مثلك ومثل جواريك الحسان ولكنني أصبحت غنياً لا أصليح لشيء ولذلك
ترينني أسفاً على زمن البغال وبائلاً على هذا الجمال. فضحكت الهانم من قصته كما ضحك
الباشا من نفسه وسبحان مبدّل الاحوال
والقصارى نقول أن شهوتي الطعام والجماع اذا لم تستعملا بالحكمة انضترا إلى
الامراض والاسقام بل وساقتا صاحبهما الى الموت الزؤام. ولله در الطبيب الشيخ ابن
سيناء حيث يقول :

اجعل غداك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيئك ما استطعت فانه ماء الحياة يراق في الارحام
وقلنا في مثل هذا :

اياك والنهم الكثير من الطعام م فانه يفضي الى الاسقام
أقلل جماعة النساء فانها مفضية الاجسام في الارحام
وفال شاعرنا الانطاكي :

ولربّ تخمة متخّم من أكلةٍ حسنت له قد حرّمتها ما كلاً
ولربّ لذة ساعة مع غادة قد أوصلته للمنيّة عاجلاً
فاقصد ولا تصرف بشهواتك التي توليك من بعد الملاذ شواغلاً
« ثمرات مخالفة النفس »

واعلم أن الدنيا والشیطان عدوان خارجيان للانسان وأما النفس فعِدوّ له بين
جنبیه. ومن سنة الجهاد « قاتلوا الذين يلونكم » وما مقاتلة المبارز بالحاربة كمقاتلة السكين
الذي يخرج على الانسان من حيث لا يشعر . وأقلّ ما تفعل النفس مع صاحبها انها
تمزق العمر بكفّ التبذير والبطالة . وعلى ذلك فاخلُ يا صاح مع نفسك سويعة ثم
انظر هل هي معك أو عليك وبعد ذلك عاملها بما تعامل به عدوّك أو صديقك . قال
بعض الزهاد « ستون من مرّة الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة
وستون قريناً من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس الا مائة بالسوء في لحظة »
فتبصّر في هذا جيداً تفز بما تبتغيه من سعادة هذه الحياة

وخالفة النفس ثمرات نذ كر البعض منها. قال الله سبحانه « ونهي النفس عن الهوى
فان الجنة هي المأوى » وقال تعالى « اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وقال
صلى الله عليه وسلم « ما المجاهد الشهيد في سبيل الله أعظم أجراً ممن قدر فعفَّ
يكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة » وفي حكمة سليمان بن دواد عليهما
وعلى نبيي ناوله الصلاة والسلام « ان الغالب لهواه أعظم من الذي يفتح وحده مدينة »
وقال بعضهم :

الحر يمنع نفسه شهواتها والنذل عبد البطن ثم الفرج
فتراه طول زمانه متعباً مستخدماً في الدخول ثم الخرج
وقلنا في مثل ذلك :

عجبي لحرٍ بات عبداً ملاذيه ولها يضحى عمره فيضيعة
لو كان يعقل لم يبت في ليلته دهماء للنفس الظلوم سميعة
ويروي ان امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد ان ملك خزان الارض
وقعدت على رابية في الطريق يوم موكبته وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء
مملكته « سبحانه من جعل الملوك عبيداً بالمعصية والعبيد ملوكاً بطاعتهم له » فقال
يوسف كما أخبر الله عنه « ان من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ولقد
أحسن من قال :

اذا ما دعيتك النفس يوماً لحاجة وكان عليها للخلاف طريق
نخالف هواها ما استطعت فانما هواها عدو والخلاف صديق
وقال شاعرنا الانطاكي :

عارض مدى شهوات نفسك ان أردت الجد والاقبال والاسعادا
واقم عليها من نباهة عقلك ال وافي الذكا الحراس والارصادا
وروي ان بعض الملوك مر بسقراط الحكيم وهو نائم فرفسه برجله وقال قم . فانتبه
غير مرتاع منه ولا عابيه به فقال الملك أما تعرفني يا سقراط ؟ قال لا ولكني أرى فيك
طبع الدواب فهي ترفس بارجاها . فغضب الملك وقال ويلك أتقول لي هذا وانت عبيدي ؟
فقال سقراط بل أنت عبد عبيدي . قال وكيف ذلك قال فان شهوتك قد ملكتك
فأصبحت عبداً لها . وأنا ملكك شهوتي فأصبحت عبداً لي فأنت إذن عبد عبيدي
فقال الملك يالك من أحقر أنا الملك وابن الملوك وتحت سلاطتي كذا وكذا من الرجال

والاموال . قال أراك تفخر عليّ بما ليس في نفسك وإنما سبيلك أن تفخر عليّ بنفسك . والافضل أن نزرع كلانا ملابسنا وننزل في هذا الماء ، وأشار الى نهر جار قربهما ، حينئذ تتكلم ويظهر من هنا الفاضل ومن المفضول . فضحك الملك وانصرف عنه خجلاً

وقال بعض العلماء « ركب الله تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب الانسان من كليهما . فمن غلب منهم عقله على شهوته شابه الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله شابه البهائم » وعلى هذا فالعقل المدرك من ميز نفسه وعرف قدره ونظر بعين الحقيقة وأنعم الفكر الصحيح وعلم أن جوارحه قد ركبت فيها جميع الشهوات وان طباعه قد جبلت فيها صنوف اللذات فلا يقدر على شرها ولا يتمكن من صرفها وقهرها الا بالمجاهدة لامتلاك الشهوة بخطام التقوى . وما أشد ذلك وما أصعبه ، الا تنظر الى قول النبي صلى الله عليه وآله « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » والطاركون المجاهدة ضد الشهوات هم كالانعام بل أضل سبيلاً ، فان البهيمة لم تخلق فيها المعرفة والقدرة لتستطيع أن تجاهد بهما شهواتها والانسان قد خلق فيه كلاهما . فاذا لم يترك لها السلطة الكافية لردع شهواته فهو الناقص حقاً والمدير يقيماً ، وقد قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام
وسئل بعض العباد عن مسافة الطريق الى الله تعالى فقال قدمان : قدم تضعها على النفس وأخرى تضعها على الدنيا . فسمعه بعض أهل العلم فقال لقد أطال المسافة وإنما هي قدم واحد تضعها على النفس ثم تصل الى الله

ومن خواص مخالفة النفس تسخير النفوس . وذلك ان من حكم على نفسه ومنعها من شهواتها الضارة للشرع والعقل وسخّر لها في الاتقياء للطاعات تسخّرت له النفوس البشرية وغيرها . ومن احتاج الى تسخير النفوس ولم يسخر نفسه لا يطمع في أن تسخر له بهيمة فضلاً عن نفس انسان كريم . قال الشاعر :

أطمع أن يطيعك قلب سعدي وتزعم أن قلبك قد عصاكا
ونحن نذيل قول هذا الشاعر :

اذن لصلت سبل الرشد حتما الى ما ليس يدركه نهاكا
الاعص هواك مع سعدي وخالف رغائب ليس تبلغها قواكا

تفر بسعادة الدارين حيث الينا والين قصى مشتهاكا
ومن هذا القميل ما قاله بعض الحكماء « لا تطلب طاعة غيرك ونفسك ممتنعة
عليك » وروي في الاسرائيليات أن رجلاً خطب امرأة من غير بلده فأرسل عبده
ليحملها اليه فراودته نفسه عليها وطالبته بها فجاهدها واستعصم ولم يمدّ يداً لسيدته
فنبأه الله ببركة تقواه ومخالفة هواه فكان من أنبياء بني اسرائيل
وروي أن امرأة حسناء كانت في سفينة فانكسرت السفينة وخرجت المرأة على
لوح الى جزيرة في عرض البحر فمشت ساعة وكان هناك رجل يقطع الطريق ويعتدي
على السابلة. فلما رأى المرأة قال لها أنت من الانس أم من الجن؟ وما كاد يتم كلامه حتى
جلس منها مجلس الرجل مع زوجته فارتعدت خوفاً فقال لها هم تخافين؟ قالت من الله
تعالى الذي ينظر النيا. قال لها وهل فعلت هذا الفعل قبل الان؟ قالت لا فقام عنها وقال
أنا أحق منك بالتوبة لاني فعلت هذا مراً راراً بالاختيار وأنت لا تعصين الله وقد اضطررتك
الى العصيان وها أنا ذا تائب من هذه الساعة. ثم أخذ المرأة وسار معها الى البلد فلقيا في
طريقهما رجلاً عابداً فراقاه. فلما اشتدت حرارة الشمس قال العابد للرجل تعال ندعو
الله أن يظللنا بغمامة نمشي تحتها. فقال له يا أخي ليس لي وجه أبيض عند الله ولا لي
سابقة عمل أرجو بها قبول الدعاء ولكن ادع أنت فقال أدعو أنا وتؤمن أنت على
دعائي. فدعا الراهب وأمن ذلك الرجل فأظلمت سحابة فساروا تحتها فلما بلغوا مفرق
الطريقين تبعت السحابة الرجل وبقي العابد ماشياً تحت الشمس. فرجع العابد اليه
وقال له يا أخي ألم تقل انه ليس لك سابقة صالحة وهذه السحابة قد سارت معك
فأخبرني بما صنعت. فحكى له ما كان من أمره مع المرأة. فقال انه والله لبرّ خليف به ان
تعال من الله الكرامة لا جله

واعلم ان حفظ الفرج مع التمكن يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق. فقد روى
بعض العلماء عن أبي بكر بن عبد الله المزني ان قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها
أهلها في حاجة لهم الى قرية أخرى فتبعها القصاب وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل
فاني أشد حباً لك منك لي ولكنني أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه قها أنا ذا
تائب من هذه الساعة. وتركها ورجع فأصابه حرّ شديد حتى كاد يهلك فاذا هو برسول
لبعض أنبياء بني اسرائيل. فسأله قائلاً ما بك؟ قال الحرّ كاد يقتلني قال تعال حتى ندعو
الله أن تظللنا سحابة الى ان ندخل القرية. قال ليس لي من عمل صالح فادع أنت. قال

حسناً انا ادعو وانت آمن على دعائي. فدعا الرسول وأمن القصاب فأظلمتا سحابة حتى انتهيا الى القرية فاخذ القصاب الى مكانه فالت السحابة معه. فقال له الرسول زعمت ان ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي آمننت فأظلمتا السحابة ثم تبعتك أفلا تخبرني بأمرك؟ فاخبره فقال الرسول ان التائب عند الله يمكن ليس احد الناس بمكانه وفي الحديث انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا انه لا يتجينا من هذه الصخرة الا ان ندعو الله بصالح اعمالنا. فقال رجل منهم اللهم انك تعلم انه كان لي أبوان شيلخان كبيران وكنت لا أعقب قباهما ولا ادخر مالا فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أذهب اليهما حتى ناما فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ففكرت ان اغبق قباهما اهلاً وعيالا فلبثت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضورون جوعاً حول قدمي فاستيقظا وشربا غبوقهما. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كانت لي ابنة عم من أحب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت عني حتى المت بها سنة من السنين فجاءني فأعطيتها مئة وعشرين ديناراً على ان تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الحاتم الا بحته فتخرجت من الوقوع عليها وانصرفت عنها وهي من أحب الناس الي وتركت الذهب الذي اعطيته لها. اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرت الصخرة عنهم غير انهم لم يستطيعوا الخروج منها. وقال الثالث اللهم انك تعلم اني استأجرت اجراء وأعطيتهم اجورهم غير رجل واحد فانه ترك الاجر الذي له وذهبت فأنميت له أجره حتى كثرت له الاموال فجاءني بعد حين وقال يا عبد الله اعطني اجري فقلت كل ما ترى من الابل والغنم والبقر والريق هو من أجرك. فقال يا عبد الله أهزأ بي؟ فقلت لا أستهزيء بك فخذ فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئاً اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه. فانفرت الصخرة فخرجوا يمشون. فهذا فضل من تمكن من قضاء شهواته فغف

وقال بعض الصالحين رأيت حداداً وهو يخرج الحديد من النار بيده ويقبله باصابعه. فقلت في نفسي هذا عبد صالح فدنوت منه وسألت عليه فرد علي السلام فقلت له ياسيدي بالذي من عليك هذه المنزلة الا ما دعوت الله لي. فبكي وقال يا أخي ما أبنا

من القوم الذين تزعم ولكن أحدثك بأمرى. فاني كنت كثير المعاصي والذنوب فوقفت على امرأة من أحسن الناس وجهاً فقالت لي هل عندك شيء لله فأخذت قلبي وقلت لها امضي معي الى البيت فأدفع لك ما يكفيك . فتركتني وذهبت ثم عادت وهي تبكي وقالت والله لقد أحوجني الوقت الى ان رجعت اليك فاخذتها ومضيت بها الى بيتي ثم أجلستها وتندمت اليها فاذا هي تضطرب كالسفينه في الريح العاصف . فقلت لها مم تضطربين؟ فقالت خوفاً من الله تعالى ان يرانا على هذه الحالة فان تركتني فلا أحرقك الله بناره لا في الدنيا ولا في الآخرة . فقامت عنها ودنعت لها ما كان عندي حسية لله تعالى. فخرجت من عندي وأغمي عليّ فرأيت في النوم امرأة احسن منها فقلت من أنت؟ قالت انا أم الصبية التي جاءت اليك ولكن يا أخي جزاك الله خيراً ولا أحرقك الله بناره لا في الدنيا ولا في الآخرة. فانتهت وأنا فرح مسرور وها أنا ذا من ذلك اليوم تركت ما كنت عليه من المعاصي ورجعت الى الله تعالى وصارت النار عليّ برداً وسلاماً واعلم أن مخالقة النفس خواص عظيمة. وقد حدثني أحد الرواة ان اخوين بلغا في العبادة مبلغاً عالياً وكان احدهما خبازاً والاخر صائغاً فاهدى الخباز الى اخيه الصائغ ماءً في منخل وأهدى الصائغ لاخيه الخباز ناراً في قطنه. فاما الصائغ فانه وضع المنخل عنده في دكانه حتى اذا كان يوم مرّت جارية جميلة على الخباز فراودها عن نفسها وفي تلك الساعة نزل الماء من المنخل الذي عند أخيه الصائغ فعلم ان اخاه تغير عما هو عليه فأتاه فسأله عما صنع فاخبره الخبر ثم قال له لماذا سؤااك؟ قال لان الماء نزل من المنخل فندم الخباز على فعله وحلف ان لا ينظر الى امرأة اجنبية قط . فهذا تأثير مخالقة النفس في الدنيا فكيف تأثير ذلك في اليوم الاخير؟؟

وورد في الخبر ان رجلاً من اهل الكفر كان يجتمع عليه الناس في ميدان بغداد وكان يخبرهم عما أضمره في قلوبهم وعما اذخروه في بيوتهم. فمني خبره الى الامام موسى بن جعفر عليه السلام فأتى اليه متنكراً وأمر من كان معه ان يضم امرأ غريباً فاظهره ذلك الكافر . فدهش الامام واستدعاه الى خلوة من الناس وسأله قائلاً ما أتيت من الطاعات حتى أعطيت هذه المرتبة العظيمة وهي من مراتب النبوة؟ فقال لا عمل لي سوى مخالقة النفس . فقال الامام عليه السلام أعرض الاسلام على نفسك فتعشى الكافر بثوبه. وتفكر طويلاً ثم قال ان نفسي لا تميل الى الاسلام. فقال الامام ما أعطيت الا بفضيلة مخالفتها مخالفاً . فقال نعم وأسلم فحسن اسلامه وكان يحضر مجلس

أبي الحسن عليه السلام نأمر رجلاً أن يضر شيئاً في نفسه وقال لذلك الرجل أتعرف ما أضمر؟ ففكر طويلاً ثم قال كلا ثم عطف فقال يا ابن رسول الله كنت كافراً وما كان يمجزي ما في الضمائر أما الآن وقد صرت مسلماً فعمجت فما سر ذلك ياترى؟ فقال عليه السلام انك أعطيت ثواب ذلك العمل في الدنيا لكفرك حيث لاحظ للكفار في الآخرة ولكن بعد ان اسلمت ذكر الله لك جزاء عملك لا آخرة وقطعه عنك في دنياك لان الدنيا أقل من ان تكون ثواب عمل المؤمن

ومن خواص مخالقة النفس ما روي عن ابن أبي الدنيا انه كان في بني اسرائيل رجلاً بلغتهما العبادة ان مشياً على الماء . فبينما هما يمشيان عليه اذا بهما رجل يطير في الهواء فقالا له يا عبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة فقال ييسير من الدنيا فقد فطمت نفسي عن الشهوات . وبالجملة فمخالقة النفس لها شأن عظيم . جميع مصالح الدنيا والآخرة تتوقف عليها وأما مصالح الآخرة فموقوفة على تأدية التكليف وكلها شاقة على النفس ومن ذلك سميت تكاليف وهذه لا يتوقف اليها الانسان الا اذا كفر بنفسه وخالفها في مشتهياتها وأما مصالح الدنيا فكذلك ايضاً اذ منها ما يحتاج للتواضع وحسن الإدارة . وذلك صعب على النفس . ومنها ما يرجع الى الكد والتعب وكل ذلك شاق على النفس اذ النفس من مشتهياتها الكبر والانفة وطلب الراحة واللذة والفراغ ومن لوازمها الجزع والغضب عند عروض الاسباب المفضية لذلك والله أعلم

﴿ الخاتمة ﴾

هذا آخر ما رأينا ضرورة تحريره من الكلام على ادراك العقل ومعلوماته وعروض الاسباب الحاجبة له والامارات الكاشفة عنه . وقد جئنا على أقوالنا بكثير من الامثال والقصص زيادة في التفكهة والتسلية وتوصلاً الى التأثير على النفوس وترغيبها في مطالعة ما كتبناه بروية اغتناماً لما فيه من الفوائد

وخلاصة ما نرعى اليه هو ان الانسان العاقل من الواجب عليه ان يعمل جهده في تعويد نفسه على الابتعاد عن الامور الحاجبة للعقل والتمسك بالامور الكاشفة لتنمو بذلك مداركه وتتسع معارفه ويستطيع ان يستخدم عقله الى ما لا حصر له من فوائد الدنيا والآخرة بحيث يعيش ما عاش سعيداً ويموت صالحاً شهيداً . ولهذا خلق الله الانسان وبه مميّزه عن الحيوان والسلام في مسلك الختام والحمد لله اولاً وآخرأ

﴿ المورد الثالث ﴾

﴿ في أحكام العقل ودواعيه وموانعه ومحظوراته ﴾

﴿ وهذا المورد يشتمل على مقدمة وست رياض وخاتمة ﴾

المقدمة في ان من شأن العقل النظر الى العواقب

الروضة الاولى في وجود الدواعي وعدمها

الروضة الثانية في جهة الشرائط

الروضة الثالثة في الموانع والمحظورات

الروضة اربعة في تقدير النفع والضرر

الروضة الخامسة في ما هو ساقط عن درجة اعتبار العقل

الروضة السادسة في بيان الراجح من المرجوح

الخاتمة كلمة فيما تقدم

﴿ مقدمة ﴾

﴿ في ان من شأن العقل النظر الى العواقب ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الذين
شادوا الدين . وبعد فاعلم ان من غلب عليه العقل فهو لا ينفك عن التفكير في عواقب
الامور . قال بعض العلماء « ما زال العاقل يشقى بعقله لحسن نظره وصحة تفكيره وما
زال الجاهل ينعم بجهله لضعف نظره وقلة تفكيره » وقال ارسطو ليس « العاقل
لا يلازم شهوة الطبع لعلمه بزوالها والجاهل يظن انها خالدة فهو يتلذذ بها ويبقى
عليها فهذا ينم بجهله وذاك يشقى بعقله » وأخذ هذا أبو الطيب المتنبي فقال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
وأخذه عبد الله بن المعتز فقال

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقلنا في هذا المعنى :

لا تحسد العاقل في عقله فانه والله مشقيه

بل فاحسد الجاهل في جهله فانه والله مهنيه

ذو العقل يشقى لو يكون له ملك سليمان وما فيه

اما الجاهل فهانيء أبداً لو كان في فقر وفي يمه

وقال البحري :

أرى العلم بؤساً في المعيشة للفتى ولا عبث إلا ما حباك به الجهل
فالعاقل لا يزال مهموماً من جهة ما جبل عليه من التفكير في العواقب. ولبعضهم :
ولما تعرض لي زاراً ولم يك عندي له موعد
سهرت انكباً على وصله لعلمي به أنه ينفد
وما هذا السهر إلا للتفكير الذي هو من عوامل العقل . وقد قال شاعرنا
الانطاكي :

طوبى لمن ترك ألهوم بأسرها وصبا إلى رغد المعاش وصفوه
متناسياً في جهله العقل الذي يقصيه في أحكامه عن هوه
ان المفكر لا يزال بكربه وأخو الجهالة لا يزال يزوهه
وفي كتاب الحيوان انه قيل للببل لا نعجب بصغيرك قبل مشاهدة الورد ولكننا
نعجب لعدم سكوتك بعد مشاهدته والوصول اليه . فقال أما صغيرى قبل مشاهدة الورد
فعن شوق اليه وأما بعد وصاله فالتمتع به خوف فراقه . ومغزى القصة أن العاقل يجب
أن يفكر قبل الوصول الى أغراضه للحصول عليها وبعد الوصول اليها للمحافظة عليها
وهذا أيضاً شأن العاشق الذي عناه بقوله :

ويكي ان نأى شوقاً لليلي ويكي ان دنا خوف الفراق
وما بكاء العاشق في الحالين الا من نتيجة العقل الذي يدعوه الى التفكير دائماً
بما سيكون . وقال بعضهم :

يمثل ذو العقل في ناسه مصائبه قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم يرع لما كان في نفسه ممثلاً
رأى الامر يفضي الى آخر فصير آخره أولاً
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فان فأجأته صروف القضا ببعض مصائبه أعولا
ولو قدّم الحزم في نفسه لعلمه الصبر عند البلا

وفال أحد الحكماء « ان الناس طائفتان طائفة جاهلة تنظر الى شاهد حال الدنيا
وتستمسك بأمل طول العمر ولا تتفكر في العواقب . وطائفة عاقلة تجعل العواقب أمام أعينها
فتنظر الى ما سيكون وكيف تخرج من الدنيا وتفارقها . وهؤلاء هم العاقلون الذين على

سلامة إيمانهم ينظرون الى ما سيدخل معهم الى قبورهم من دنياهم وما الذي سيعتريهم
الى أعدائهم من بعدهم ويتبعهم وباله ونكاله

« الفرق بين حكم العقل وحكم النفس »

واعلم أن الانسان اختص بالارادة العقلية دون سائر الحيوان وان شاركته في القوى
الغضبية والشهوية. ثم ان الارادة العقلية هي غير الارادة المنبعثة عن الشهوة والغضب
فانه اذا أدرك الانسان بعقله عاقبة الامر وطريق الصلاح انبعث فيه من ذاته شوق
الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة التي هي
ارادة الحيوان الاعجم. بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تميل الى لذائذ الأطعمة
في حين المرض والعقل يجد في نفسه زاجراً عنها رغبة في الشفاء

وخلاصة الكلام أن كل مقصود في الذهن اذا كانت الغاية منه مجرد اللذة من
دون ملاحظة مصلحة أو مفسدة فهو نفساني. وان كان الغرض منه المصلحة فهو عقلي
وحينئذ فالمقصود النفسي هو ما كان لقضاء الشهوة النفسية. والعقلي هو ما كان لجلب
نفع أو دفع ضرر. يصرف النظر عن ملاحظة تلذذ النفس أو عدم تلذذها. وعلى ذلك
يكون بين المقصود النفسي والعقلي اشتراك من وجه بحيث يجتمعان على ارادة الغذاء
واللباس والنوم ونحو ذلك من حاجيات الانسان الضرورية التي يحكم العقل بلزومها
والنفس تتلذذ بها. وتفرق بما فيه اللذة دون المصلحة كالسكر والتدخين والميسر ونحو
ذلك من المحرمات التي تطلبها النفس ويمنعها العقل أو كالكد وراء العلم أو العمل ونحو
ذلك مما فيه المصلحة ولكن تأباه النفس لعدم تلذذها فيه أو لما تلاقي في سبيله من
الكد والجهد. وحينئذ فيكل قصد نفسي محض يأباه العقل فهو محرم عقلاً لان الحكم
العقلي موضوعه ما كان متصفاً بترتيب المصلحة عليه. وكل عقلي محض تأباه النفس فهو
محرم نفساً لحرمانها من لذتها في معاناته. بقي الاعمال المشتركة بين العقل والنفس
فان غلب في الانسان هوى النفس كان نفسياً وخرج عن قصد العقل وحكمه. وان غلب فيه
قصد العقل كان عقلياً وخرج عن قصد النفس وحكمها وذلك كعلم الطب وتحصيله فانه
مشارك بين العقل والنفس لما فيه من لذة الكمال التي تطلبها النفس ولما فيه من رتب
المنافع التي يحكم العقل بوجوب تحصيلها وقس على هذا كل ما جمع بين اللذة والفائدة
فاذا عرفت هذا فاعلم أن كل أمر فيه مصلحة يحكم العقل بحسبه ووجوب تحصيله
من أي سبب كان وفي أي مكان كان وفي أي زمان كان وعلى أي حالة كانت فيظهر

حينئذ . من ذلك ان تحصيل العلم الذي يحكم العقل به ما كان تحصيله لمنفعته فلا يلاحظ فيه هوى النفس أو نفرتها حباً باغتمام المنفعة التي هي غرض العقل الأسمى والتي عليها تترتب المصالح الدنيوية والاخروية

ومما تقدم تبدو جلياً صعوبة الطاعات على النفس لخلوها من اللذة واستقلال العقل بحسنها لما فيها من المصالح ومنه يظهر قوله تعالى « ان النفس لأمارة بالسوء » لأنها لا تطلب غير ملاذها ولو خالفت بذلك العقل . والقدر الجامع بينهما هو ما اجتمعت فيه المائدة والمصلحة ويحكم بنسبته الى احدهما بحسب القصد من تحصيله .

وسنفصل هنا الفوارق بين أحكام النفس التابعة لدواعي قواها الغضبية والشهوية والروحانية وبين حكم العقل التابع للمصالح والمفاسد على ما ستري

« في ان النفس تميل للنهها والعقل لمنفعته »

اعلم ان النفس من طبعها النفرة مما تكره والميل الى ما تشتهي خلافاً للعقل الذي مناط حكمه على المنفعة والمضرة . فان الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم قربه وأدناه أو تقرب منه وتزلف طمعاً بالانتفاع منه أو الأمن من ضرر عداوته ومن ذلك قول الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بدّ
فيا نكد الدنيا متى أنت مقصّر عن الحر حتى لا يكون له ضدّ
وقال في مثل هذا شاعرنا الانطاكي :

وأصعب ما عانيته صحبة امرء ونفسي تأبى أن تميل اليه
أصاحبه قصد انتفاعي بقربه ولولا انتفاعي ما مررت عليه
وه مثل ذلك رغبة الرجل في الدواء يتعاطاه على بشاعته متكرهاً قصداً للانتفاع به ولو خيروه لما اختارت نفسه الا لذيد الأطعمة

وربما أحب الرجل الرجل حتى عز عليه أن يفارقه لحظة ولكن تقضي عليه مصالحه بإبعاده واقصائه لمصاحبة من المصالح كفارقة الوالد الولد قصد التعلم أو الاتجار أو كاقصاء الملوك بعض حواشيهم سياسة . وربما قضت الظروف باهلاك بعض من يحبون تلافياً لاضرار تحقيق بوجودهم كالذي تلدغه الحية في أصبعه فيقطعها ويتبرأ منها أو تدوى يمينه فيبترها ليسلم ساره على حد قول الشاعر :

الم تر أن المرء تدوى يمينه فيقطعها عمداً ليسلم سائره

فمن هذا تعلم أن حكم العقل تابع للمصالح والمفاسد وكثيراً ما ينافي شهوات النفس
الراغبة في ملاذها

« في أن النفس تتعجل ملاذها والعقل يخالفها »

قد علمت أن من لوازم النفس الشهوية ميلها إلى التعجل بملاذها ولكن العقل
بخلاف ذلك يلاحظ الإصلاح . قال أمير المؤمنين عليه السلام « خير الأعمال عند العاقل
أحمدها عاقبة وخيرها عند الجاهل أعجبا نفعاً »

وقال أحد العلماء « يستدل على عقل الماقل بسكونه وسكوته وحفظ بصره
وحركاته في أماكنها اللائقة بها ومراقبته العواقب فلا تستفزّه شهوة عاجلة عقباها
ضرر وتراه ينظر في الغضاء فيتخير الأفضل والاحمد عاقبة بمن مطعم ومشرب وملبس
ومنكح وقول وفعل وكذلك يترك ما يخاف ضرره مهما كانت في ذلك لذته ويستعد لما
يمكن وقوعه » وقلنا في هذا :

ان رمت تدري قدر عقل الفتي وحزمه فانظر الى فعله
لا يطلب الامر الذي يشتهي ان لم يوافق مقتضى عقله
وعنده أفضل أعماله ما دلّ في الناس على فضله

وروي أن اعرابياً خلا بامرأة فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قام عنها
مسرعاً فقالت له ولم فقال ان امرأاً باع جنة عرضها السماء والارض بمقدار أصبع من
بين نخذك لقايل معرفة بعلم المساحة

وذكر ابن الجوزي في كتاب الاذكياء قال : هرب رجل من أسد فوقع في بئر
فوقع الاسد خلفه فاذا في البئر دب فقال له الاسد منذ كم يوم لك ههنا ؟ قال منذ
ايام وقد قتلتني الجوع فقال له الاسد أنا وأنت تأكل هذا الانسان وقد شبعنا فقال له
الدب واذا عاودنا الجوع ماذا نصنع ؟ وإنما الرأي أن نحلف له أن لا تؤذيه ليحتال
في خلاص نفسه وخلاصنا فانه على الحيلة أقدر منا فتقدمنا منه وحلفا له فتثبت حتى وجد
أثقاباً استعان بها على الخروج من البئر فتخلص وخلصها وهذا أجمل مثال على وجوب
تفضيل حكم العقل على شهوة النفس

قيل ومثال من استعجل الخير في الدنيا وأعرض عن ثواب الآخرة مثل رجلين
لقطا من الارض حبتى غنّب فأما أحدهما فجعل يمسّ الحبة تلذذاً بها وأما الآخر فانه
زرعها فلما كان بعد زمن التقيا فاذا الذي زرع الحبة رآها قد صارت شجرة وكثر ثمرها

والتذ بها طويلاً فأسف صاحبه على تعجله بلذة زهيدة أعقبها حسرة طويلة هي حسرة
حسد صاحبه وتغييطه

« في أن العقل ينافي القوة الغضبية »

قد علمت أن القوة الغضبية تقتضي التشفي والانتقام وأما العقل فبخلاف ذلك
إذ أنه ينظر دائماً إلى الأصلح وعلى ذلك فالعقل ينافي الغضب لأنه يذهب بصاحبه
عن الحلم . جاء أن أمير المؤمنين عليه السلام عندما ظفر بعمر بن عبدود لم يضربه
مباشرة بل عمهل مدّة والناس ينظرون اليهما ثم ضربه فوشى الوشاة بعلي إلى النبي
عليهما الصلاة والسلام بأن حذيفة فقال له يا حذيفة إن علياً سيدك سبب وقفه فلما
جاء علي سأله النبي عن ذلك ؟ فقال كان هذا الرجل قد شتم أمي وتفل في وجهي فخشيت
لو أسرعت بضربه أن أضربه لحظ نفسي فتركته حتى سكن ما بي ثم ضربته في الله
وأنا ذا كر قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة »

ومن هنا قالوا ولما كان الغضب يهيج في صدر كل إنسان وجب على السلطان
وعلى كل من يتولى أمور الناس أن لا يعاقبوا أحداً في حال الغضب لكي لا يتعدوا
الواجب من جهة وحتى لا يكون هناك تشفي نفساني من الجهة الأخرى . فإن العاقل
ما تصرف بغضبه على حسب ما تقتضيه المصلحة سواء كان عمله دنيوياً أو أخروياً
فيكتمه إذا وجب ويظهره إذا وجب وملاحظة المصلحة تنحصر إما في دفع ضرر
أو في جلب نفع أو حفظ مصلحة عامة أو قضاء حاجة للمسلمين
فأما عن أطراح الغضب لدفع الضرر فقد قيل «العاقل يصلح عدوه إذا اضطر إليه
وبصانعه ويظهر له وده ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بداً ثم
يعجل بالانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً » وقيل في ذلك :

أني أحيي عدوي عند رؤيته لا دفع الشر عني بالتحديات

فأحزم الناس من يلقي أعاديته في جسمه حقد وثوب من مودات

وفي بعض كتب الهند : العاقل إذا رجا نفعاً من عدوه أظهر له الصداقة . وقال
بعضهم كان محمد بن الفضل يجالس أعداءه ويلاطفهم بلين الكلام ويواكلهم فقيل له
في ذلك فقال لتخمد نار عداوتهم . وقال عقاب بن شيبه التيمي « كنت ردف أبي
فلقيه جرير بن الحطفاء على بغلة فحياه أبي ولاطفه فلما مضى قلت لأبي أبعده أن قال
فينا ما قال لا لطفه ؟ فقال يا بني أتوسع جرحي ؟ . وكان محمد بن الحنفية يقول قد

يدفع بالمكروه ما هو أعظم منه
وأما اطراح الغضب لحفظ مصلحة فقد قيل ان رجلاً أتى بعض الحكماء فشكا اليه
صديقه وعزم على مقاطعته والانتقام منه فقال له الحكماء اتفهم ما أقول لك فأكلت أم
يكفيك ما عندك من فورة الغضب التي تشغلك عني؟ فقال اني لما تقول لواع فقال أرجو
نفعه بحفظ مودته واحتمال خطيئته أم لا؟ فقال بل أرجو فقال أظن مضرته بإبعاده
وعداوته أم لا؟ فقال بل أظن فقال فاحتمل مؤونته لرجاء منفعة واطرح عنك الغضب
والانتقام لظن حاجتك في قلب الليالي والايام ولله در القائل :

وان أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن كتاب الجواهر السنية للشيخ محمد الحر العاملي يرفع الاسناد الى أبي عبد الله
الصادق أنه قال لما رأى ابراهيم الملاكوت التفت فرأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات ثم رأى
آخر فدعا عليه فمات حتى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا فأوحى الله عز وجل اليه يا ابراهيم
ان دعوتك مجابة فلا تدع على عبادي فاني لو شئت لم أخلقهم، اني خلقت خلقي على
ثلاثة أصناف عبداً يعبدني لا يشرك بي شيئاً وعبداً يعبد غيري ولن يفرتني وعبداً يعبد
غيري فأخرج من صلبه من يعبدني

ولامت فاطمة أمير المؤمنين عليها السلام على قعوده عن الخلافة وأطالت تعنيفه وهو
ساكت حتى أذن المؤذن فلما بانغ الى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » قال لها أتخمين أن
نزول هذه الشهادة من الدنيا؟ قالت لا قال فلهذا قعودي

ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان وا ابتاه فقال معاوية
يا ابنة أخي ان الناس أعطونا طاعة واعطيناهم أماناً وأظهروا الناس كونا تحت حقد فظهرنا
حلماً تحت غضب ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكانه فان نكمتنا بهم نكثوا بنا وما
ندري علينا تكون الدائرة أم لنا؟ وان تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من ان تكوني
امراًة من محرض المسلمين

وأما حكم العقل باطراح الغضب لجلب المصلحة فيسمى « سعة صدر » وان كان
للدنيا سمي دهاء ومكراً

ومما نقل عن دهاء معاوية ما حكى أن أهل الكوفة وفدوا عليه حين خطب
لابنه يزيد من بعده بالعهد وكان في الكوفيين هاني بن عروة الرازي وكان سيداً في
قومه فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله العجب لمعاوية يريد أن يقسمنا على

بيعة يزيد وحاله حاله وما ذلك والله بكان في القوم غلام من قريش جالساً فحمل
الكلمة الى معاوية فقال له أنت سمعت هانياً يقول؟ قال نعم قال فاخرج فانت حلقته
فاذا خفف الناس عنه فقل له أيها الشيخ قد وصلت كلمتك الى معاوية ولا أحب أن
تتكلم بهذا الكلام فانهم بنو أمية وقد عرفت جرأتهم ولم يدعني الى هذا القول لك
الا النصيحة اشفاقاً عليك وانظر ما يقول فائتني به فأقبل الى مجلس هاني فلما خفف
من عنده دنا منه فقص عليه الكلام وأخبره مخرج النصيحة له فقال هاني والله
يا ابن أخي ما بلغت نصيحتك كلما أسمع وان هذا الكلام لكلام معاوية أعرفه فقال
الفتى وما أنا ومعاوية والله ما يعرفني قال فما عليك اذا لقيته فقل له يقول لك هاني
مالي الى ذلك من سبيل انض يا ابن أخي راشداً فقام الفتى فدخل على معاوية
فأعلمه فسكت ثم قال معاوية بعد أيام لوفد أهل الكوفة ارفعوا حوائجكم وهاني فيهم
فعرض عليه كتابة فيها ذكر حوائجهم فقال يا هاني ما أراك صنعت شيئاً زد فام هاني
فلم يدع حاجة عرضت له الا ذكرها ثم عرض عليه الكتاب فقال قصرت فيما طلبت
زد فقام هاني فلم يدع حاجة لقومه ولا لاهل مصره الا عرضها ثم عرض عليه الكتاب
فقال ما صنعت شيئاً زد فقال يا أمير المؤمنين حاجة بقيت قال ما هي؟ قال ان أتولى
أخذ البيعة ليزيد ابن أبي المؤمنين بالعراق فان افعل فما زلت لمثل ذلك أهلاً
ومن الكرماء أوس بن حارثة وكان يضرب به المثل في الجود وكان بشر بن
حازم الاسدي أو لا يهجو أوساً وكان أوس نذر لن ظفر به ليحرقه فلما تمكن منه
أطلقه وأحسن اليه فمدحه بمدة قصائد وسبب هجاء بشر لاوس هو حكا المبرد في
الكامل ان أوس بن حارث بن لام الطائي كان سيداً فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو
ابن هند وأبوه المنذر بن ماء السماء فدعا أوس فقال له أنت أفضل أم حاتم؟ قال أبيت اللعن لو
ملكني حاتم ووالدي وحمي لجاد بنا في غداة واحدة ثم دعا حاتم فقال له أنت أفضل أم أوس؟
فقال أبيت اللعن انما ذكرت أوساً ولا أحد ولده أفضل مني وكان النعمان بن المنذر دابة
وعنده وفود العرب من كل حي فقال احضروا في غد فاني ملبس هذه الحلة أكرمكم فحضر
القوم جميعاً الا أوساً فقيل له لم تتخلف؟ فقال ان كان المراد غيري فأجل الاشياء ان لا أكون
حاجزاً وان كنت أنا المراد فسا طلب ويعرف الناس مكاني فلما جلس النعمان لم ير أوساً فقال
اذهبوا الى أوس فقولوا له احضر آمناً مما خفت فحضر فلبسه الحلة فحسده قوم من أهله فقالوا
للحطية أهجه ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطية كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي شيئاً

ولا مالا الا من عنده فقال لهم بشر بن أبي حازم أحد بني أسد بن خزيمه أنا أهجوه
لكم فأخذ الابل وفعل فأغار أوس عليها فاكتمسحها فجعل بشر لا يستجير حياً الا
ويقول قد أجزتك الامن أوس فلما ظفر به أوس دخل على أمه وكان بشر هجاءها
أيضاً مع أوس فقال قد أتينا ببشر الهاجي لي ولك قالت أوطيعني ؟ قال نعم قالت أرى
أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه فانه لا يغسل هجاءه الا مدحه فخرج فقال ان أمي
سعدى التي كنت هجوها أمرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله لا مدحت أحداً
غيرك حتى أموت فرد عليه ماله وأكرمه وأطلقه وجعل بشر يمدح بعد ذلك أوساً
بمكان كل قصيدة هجاء فيها فهجاء بنخمس ومدحه بنخمس وكان من قوله فيه :

الى أوس بن حارثة بن لامٍ ليقضي حاجتي فيمن قضاه

فما وطىء الثرى مثل بن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

أقول هذه ثمرة الصفح وبجانبه الغضب والانتقام فلو قتله لخسر مدحه وبقي عليه
هجاءه الى يوم القيامة اذ لا ثمرة في الانتقام الا التشفي ولا ثمرة للتشفي الا بقاء
المدارات في الصدور الى يوم النشور . وقال في مثل ذلك شاعرنا الانطاكي :

لانتقم واصفح تفز بولاء من عاداك واترك العدو صديقا

والانتقام يؤرث الاحقاد فاه جرها تبت بالحمدات خليقا

كان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية فدخل عبيد معاوية أرض
عبد الله بن الزبير وخصبوا منها ما غصبوا فكتب هذا الى معاوية : أما بعد يا معاوية فان
عبيدك غصبوا أرضي فأمرهم أن يكفروا عنها والا كان لي ولكم شأن فلما وقف معاوية
على كتابه دفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه قال ما ترى يا يزيد ؟ قال أرى أن تبث له
جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه فيريحك منه فقال معاوية عندي خير
من ذلك يا بُني قال ما هو يا أبت ؟ قال علي بدواة وقرطاس فكتب فيه : قد وقفت
على كتاب ابن حواري رسول الله فساءني والله ما ساءك والدنيا وما فيها هينة في حبك
ورضاك وقد كتبت على نفسي سطوراً أشهدت الله فيها وجماعة من المسلمين على أن
الأرض والعبيد الذين فيها ملكك فضعها الى أرضك وضم العبيد الى عبيدك والسلام . قال
فلما قرأه عبد الله بن الزبير كتب اليه يقول قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين لأعذمني
الله بقاءه ولا أعذمه هذا الرأي الذي أحله هذا الحل والسلام فلما وقف معاوية على
الكتاب ناوله الى ابنه يزيد فلما قرأه همل وجهه فرحاً فقال له معاوية يا بُني اذا

بليت بشيء من هذا الداء فداؤه بمثل هذا الدواء . هذا قليل من دها معاوية (١)

(١) أما سعة الصدر والدهاء المقرون بالحكمة فخلتان مميزتان لجناب مولانا معز السلطنة سردار اقدس عظمة الشيخ خزعل خان حفظه الله تعالى ولعظمته من النوادر والحوادث من هذا القبيل الشيء الكثير

فمن سعة صدر عظمته أنه لا يغضب على أحد من خدمه وأعوانه بل يعامل الجميع بمنتهى الحلم والشفقة ويقابل اساءتهم بالاحسان وقد قيل يوماً لعظمته في ذلك فقال ان علماني مني بمنزلة الاولاد البررة من الوالد الرؤوف فان عاملتهم بالشدة قهرتهم على طاعتي وخدمتي فيخدموني باجسامهم ويكرهوني بقلوبهم أما وأنا أعاملهم بالحلم واللين فانهم يخدموني بقلوبهم وأجسامهم معاً وفوق هذا فما دمت منهم بمنزلة الاب من أبنائه فيجب أن أعاملهم بشفقة الاب فيعاملوني معاملة الابن البار لانيه فهذا عظمة مولانا حفظه الله مع غلمانه اما غلمانه فهم شاعرون بحلم مولانا ومولاهم وعطفه عليهم ولذلك ما فيهم الا الذي يتمنى أن يفتيه بنفسه و تراهم يتسابقون على عمل ما فيه رضاؤه العالي من غير أن يطلب منهم عملاً فيكمل أمر يعلمون أنه يسره يبادرون الى عمله من عند أنفسهم وطاماً برهنوا على حبهم الا كيد لعظمته بما فيه الدلالة الساطعة على أنهم مقدرين قدر حلمه وعطفه وشفقته حفظه الله تعالى

ولا يقتصر سعة صدر عظمته على غلمانه فقط بل على الابعدين ممن يتحرشون بعظمته بدسيسة البعض من حاسديه وهم كثيرون من قبيل « كل ذي نعمة محسود » فهو يقطع ألسنتهم بحلمه وسماحه حتى يستأصاها من جذورها فيكم من مغرور في الناس أطلق لسانه على عظمته ثم احتاج اليه فلقى منه عطفاً ورحمة وأحساناً فعاد شاكرًا حامداً يوبخ نفسه بنفسه على ما فرط منه مع أن كل هؤلاء المغرورين لا يباوون قلادة ظفر من اظفاره فضلاً عن أن يستحقوا من لدنه عناية ولو شاء ففني أقل اشارة تصدر منه يصبحون هباءً منثوراً فلا يكونون شيئاً مذكوراً ولكن هو صدره الواسع يسع الجميع

هذه اشارة الى سعة صدره وحلمه أما دهاؤه السياسي فقد أبدى فيه من المدهشات ما يخداه التاريخ لعظمته في بطون الاوراق الى يوم القيامة

تولى عظمة السردار اقدس اماره عربستان وهي ضيقة النطاق وأكثر القبائل العربية الخيمة فيها منتقضة على الامارة فاضطر الى اشهار الحرب عليها لتأديبها واعادتها الى الطاعة تجديداً لما كان الجنان والوالد الكثير المحامد نصره الملك الحاج جابر خان رحمه الله تعالى

وبالجملة فإن ذا العقل يتصرف بغضبه على حسب مصالحه فيكتمه ويظهر ضده من
البشاشة واللطف اذا اقتضت الحال. ومن هذا القبيل قول الشاعر :
كم عايد رجلاً وليس يعود الا لينظر هل يراه يموت
وقيل ايضاً :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ومستخبرات والعيون سواكب
وقلنا في هذا المعنى :

وأغضي عن الأعداء حلماً وحكمة وألقاهم والشعر بالبشر باسم
وقد عرفوا أنني أشتت شملهم بيوم الوغى والسهل عندي لقاهم
وما الحلم الا بعد قدرة قادر والأضعف لم يسوغه حازم
ونفسي تأبى أن تكون غضوبة وان غضبت هانت عليها العظام
واعلم أن للغضب أحوالاً لا يجوز فيها اخناؤه والا كان ذلك ضعفاً وخواراً. فمن
كلام بعض الحكماء « اذا رجا الحازم نفع العدو أظهر له الصداقة واذا خاف ضرر

واذا كان عظمته خلد الله ملكه وأطال عمره من الدهاء على الجانب الأعظم كان
يشهر الحرب ويدعو جيوشه الجراراً الى القتال ويسير في مقدمتها غازياً محارباً. على انه
كان يبادر الى الصفح والرحمة متى ما شعر من أعدائه بخوار العزيمة والميل الى المسالمة فكان
يبادر الى الصفح ويعامل رؤساء أعدائه بالأكرام والهدايا فيخضعوا لرايائه ليس بدافع
الخضوع للقوة فقط بل وبدافع الاعتراف بالجميل وهكذا ملك قلوب جميع القبائل المنتقضة
عليه فأصبحوا له عبيداً وهم أحرار. وما زال عظمته أعز الله ملكه على هذا الدهاء وهذه الحكمة
حتى سالمته جميع قبائل عربستان والتفت حول رايته باخلاص وحب أكيد لا
يكونان عادة في نفس المغلوب نحو الغالب

واذا كراني كنت في سنة ١٣٢٩ في خدمة عظمته في الاهواز وقد جرّ دجيوشه
الظافرة لحرب البختيارية في شوشتر فاجتمع هناك أكثر رجال العشائر وكان فيهم
العدد الأكبر من الروساء الذين حاربهم وقهرهم فوجدت من جبههم واخلاصهم لعظمته
ملا يكاد يصدق وقد كانوا يدعون بطول بقاء عظمة مولانا الشيخ المعز ويقولون جهرة
لولا عظمته لاهلك بعضنا البعض فهو الذي جمع قلوبنا وجعلنا بنعمة الله اخواناً ومن هذا
القول يتضح جلياً فضل عظمته وحسن دهائه في ادارة أمارته التي اتسعت بمحمد الله
هذا الاتساع العظيم حتى عمّت اليوم جميع عرب عربستان ولا تزال في نمو ان شاء الله

الصديق أظهر له العداوة ألا ترى صغار البهايم تتبع أدهانها رجاء ألبانها فإذا قطعت انصرفت عنها « وقد قال الشاعر :

وربّ تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام

وقال شاعرنا الانطاكي :

تفطن لمن يلقاك واحذر ظواهره تغرّك لا تطوي عليها الجوارح
فكم من عدو قد يلاقيك باسمه وما هو الا مبغض القلب كاشح

وقال بعض البخلاء فيما لا يتجاوز ما نحن في صده :

وانا لنجفو الضيف من غير عسرة مخافة أن يدري بنا فيعود

وكما ينبغي اظهار الغضب للمصلحة ولو بغیر حقد كذلك ينبغي اظهار الحلم والدهاء للمصلحة ولو بغیر رضاء. وهذا هو الدهاء الواجب أن يكون في الزعماء وذوي الرئاسة أكثر من سواهم

« في منافاة العقل للقوة الروحانية »

سبق لنا أن أوضحنا أن دن لوازم الروحانية الانفة وعزة النفس، وقد تصل الى التكبر الذي هو نتيجة التغالي فيهما. على أن العقل الذي يلاحظ دائماً المصلحة دون العواطف يحكم بضد ما تحكم به القوة الروحانية اذ أن التكبر يمنع من حصول المنافع المتوقعة على التواضع وكسر النفس في مواطن شتى على حد قول العامة « الارض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها » وقولهم « الرجال عند أغراضها نساء » ومثل ذلك أيضاً حب الاستعلاء والانفة من الذل وهي من القوة الروحانية

قال احمد بن حنبل كنت في مجلس أبي يوسف حين أمر ببشر المرسي فجرّوه يرحله الى أن أخرجه ، ثم رأته في المجلس فقيل له كيف رجعت الى المجلس فقال لست أضيع حظي من العلم بما فعل بي في الامس

وفي كتاب كيلة ودمنه ان من احتمل مشقة يرجو نفعها ونحى عن نفسه الانفة والحمية ووطنها على الصبر حمد غبّ رأيه كما صبر الاسود على حمل ملك الضفادع على ظهره وشبع بذلك وعاش. وذلك على ما زعموا أن أسوداً من الحيات كبر وضعف بصره ودهبت قوته فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام وانه انساب يلتمس شيئاً يعيش به حتى انتهى الى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتها قبل ذلك فيصيب من ضفادعها رزقه فرمى نفسه قريباً منهنّ مظهراً الكآبة والحزن. فقال له ضفدع مالي أراك أيها الاسود

كئيباً حزيناً قال ومن أخرى بطول الحزن مني إنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت ببلاء وحرمت عليّ الضفادع من أجله حتى اني اذا التقيت ببعضها لا أقدر على امساكه فانطلق الضفدع الى ملك الضفادع فبشره بما سمع من الاسود فأتى ملك الضفادع الى الاسود فقال له كيف كان أمرك؟ قال سمعت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررته الى الالتجاء الى بيت ناسك ودخلت في أثره في الظلمة وكان في البيت ابن للناسك فاصبت أصبعه فظننت أنها الضفدع لدغته فأت فخرجت هارباً فتبعني الناسك ودعا عليّ ولعني وقال كما قتلت ابني البري ظمأ وعدواناً كذلك أدعو عليك أن تذلل وتصير مركباً لملك الضفادع فلا تستطيع أخذها ولا أكل شيء منها الا ما يتصدق عليك به ملكها فأتيت اليك لتركني مقراً بذلك راضياً به فرغب ملك الضفادع في ركوب الاسود وظن أن في ذلك خيراً له وشرفاً ورفعة تدر فركه واستطاب ذلك فقال له الاسود قد علمت أيها الملك اني محروم فاجعل لي رزقاً أعيش به قال ملك الضفادع لعمري لا بد لك من رزق يقوم بأودك ما دمت مركباً لي وأمر له بصفدين يؤخذان في كل يوم ويدفعان اليه فعاش بذلك ولم يضره خضوعه للعدو الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة

ويجب أن تعلم أن الغرض من هذا المطلب هو أن لا يتسفل الانسان وينذل نفسه ويهينها في كل مطلب سعيماً وراء مصاحته فإن هذا ليس من العقل في شيء وانما يجب على الانسان أن يخفض من غلوائه ويخلي بعض خيالاته في تلافي مصالحه بين دفع ضرر وجلب منفعة

الروضة الاولى

(في ان من شأن العقل النظر في العواقب)

« تمهيد »

اعلم أولاً ان الله تعالى لما خلق النفس وركب فيها قوى الغضب والشهوة وغيرها من الاخلاق البائنة لها على التورط في المهالك واقتحام الاهوال كالطمع والحرص جعل العقل قائداً لها ورقياً عليها يمنعها عما لا ينبغي ويرغبها في ما ينبغي . ولهذا سمي عقلاً اشتقاقاً من عقل الناقة فهو يعقل النفس ويمنعها من التورط من جهة وينبها في أعمالها الى الشرائط الواجب أن تتبعها من الجهة الثمانية ويحذرهما من اقتحام الموانع والمحظورات

من الجهة الثالثة

واعلم ان لبعض الاعمال البشرية دواعي قاهرة أو غير قاهرة تسوق الناس اليها كالحاجة أو الانتفاع أو دفع الضرر أو الالتزام أو المناسبة أو مقتضى الحال وبعضها لا يوجد دواعي وهذه يقبح التكليف بها بنظر العقل خلافاً لتلك فإن معاناة ما لا حاجة اليه عبث والاهتمام بدفع ما لا يضر سفاهة والناس ما لا ينفع جهل والاشتغال بما لا يعني فضول والتكاف لما ليس له شأن جنون فهذه أمور خمسة نرى من الواجب تفصيلها والله الموفق

« معاناة ما لا حاجة اليه »

قيل لامير المؤمنين عليه السلام انك مطلوب فلو اتخذت طرفاً سابقاً فقال عليه السلام اني لا أفرّ ثمّن كرّ ولا كركرّ على من فرّ فالبغلة تكفيني . وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن :

فصنع ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

وما تصنع بالسيف اذا لم يك قتالاً

قال عبد الله فما لبست سيفي قط ورأيت انساناً يلحظني الاظننت أنه يحفظ قول أبي العتاهية . وقلنا في هذا المعنى :

لا تعب النفس في ما لا يفيد ولا ردّ ضرراً ولا تعمل لذاك سدى

وأجهد النفس في ما أنت تكسبه أو فيه تدفع عنك البؤس والتكدأ

وفي الاثر أن جندياً من جنوده خرج مع أمير المؤمنين عليه السلام الى حرب الكفار فنظر الامير اليه فاذا قوسه بغير سهام فقال أين نشابك الذي ترمي به؟ قال ليس عندي نشاب ولكن أرمي بالنشاب الذي يرمى به نحوي فقال لعله لا يرمى أحد اليك نشاباً قال اذن لا حاجة الى الحرب

وحكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب مرّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر ما لك لا تهرب مع أصحابك؟ فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على رية فأخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك فأعجب عمر بجوابه وروي أن المأمون قال ما أعياني جواب أحد قط مثل جواب رجل جاءني زاعماً أنه نبي الله موسى فقلت له ان الله أخبرنا عن موسى عليه السلام أنه يدخل يده في جيبه فيخرجها بيضاء من غير سوء فقال متى فعل ذلك؟ أليس بعد أن لقي فرعون فاعمل

أنت كما عمل فرعون حتى أعمل أنا عمل موسى فأجازه واستتابه
وقيل أيضاً تنبأ رجل وادّعى أنه موسى بن عمران وبلغ خبره الخليفة فأحضره وقال
له من أنت؟ قال موسى بن عمران قال وأين عصاك التي صارت ثعباناً؟ قال قل أنا ربكم
الاعلى كما قال فرعون حتى أصيرها ثعباناً كما فعل موسى فضحك الخليفة وأجازه
والخلاصة أن أحسن الاعمال ما كان له سبب يدعو اليه وأسفه الاعمال ما كان بلا سبب
وقال في ذلك شاعرنا الانطاكي :

عجبت لمن يسعى ويعنى بأمره ولا حاجة تدعو الى ذلك العنا
فما ضرّه لو كان يعنى بحاجة وينذل فيها السعي كي يباع المني
« في الاهتمام بما لا يضر »

حكى أن رجلاً اسمه دمية كان قبيح الصورة فقيل له في ذلك فقال أنا لا أرى
صورتي إنما التعب على غيري . وقيل

إذا السكب لا يؤذيكَ عند نبيحه فدعه الى يوم القيامة ينبه
ومما زعمته العرب على لسان الحيوان: ان ابن آوى دخل بيتاً فأخذ دجاجة فصاحت
المرأة صاحبة البيت «أخذ ابن آوى الدجاجة التي وزنها رطل» فوقف ابن آوى فقال له
رفيقه من بنات آوى مالك وقفت؟ قال أما تسمع هذه الكاذبة تقول وزن الدجاجة التي
في في رطل وهي أقل من أوقية فقال أعطينها وهي عليّ بعشرين رطلاً
وقلنا لواقعة حال :

دعوا صحف الرقاعة وهي زوي روايات الحماقة والسفاهة
فقد هزأ الحكم بناصرها وسفها الأديب على البداهة
وسفه القول يقصر ماتناهي عن التأثير في أهل النباهة (١)

(١) عند مازرت بغداد في سنة ١٣٢٨ على عهد المرحوم ناظم باشا لمعاونته على
نشر الاصلاح بايقانه على حقائق أميال العرب الصادقة للدولة العثمانية أساء بي الظن
وأمر بتفتيش أوراقه في حديث يطول واذ لم يجد عليّ علة يتمسك بها أمر باخراحي
من بغداد فعموم العراق بلا سؤال ولا محاسبة. فهبت بعض الصحف المنفعة للطعن بي
تزلزلاً الى الوالي شأن ذوي النفوس الصغيرة، فقالت في مقال مالك في الحمر فاعتنم بعضهم
الفرصة وأرادوا النيل مني فعرضوا هذه الصحف على مسامع عظمة مولاي وليّ النعم

﴿ في ما لا نفع فيه ﴾

قيل في الآثار « أطلب أربعة من أربعة فاطلب من الموضع الذي تنزل فيه السلامة ومن الصديق الصدوق الزيادة ومن المال الفراغة ومن العلم المنفعة فاذا لم تجد من موضعك السلامة فالسجن خير منه . واذا لم تجد من صاحبك الكرامة فالكلب خير منه . واذا لم تجد من مالك الفراغة فالمدبر خير منه . واذا لم تجد من العلم المنفعة فالموت خير منه . »
فهذه أربعة أمور وليسانها نقول : أما الموضع الذي لا سلامة فيه فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ليس بلد بأحق بك من بلد وخير البلاد ما حملك وقال الشاعر :

لا يصدقك عن أمر تحاوله فراق أهل وأحباب وحيران
تلقى بكل ديار ما حللت بها أهلاً بأهل وأخواناً بأخوان
وأحسن منه قول الفرزدق :

وفي الأرض عن دار القلي متحوّل
وقال البيطار :

يقولون هذي أم عمرو قريبة
ألا إنما قرب الحبيب وبعده
ومثل ذلك لبعضهم :

بكل تدأويننا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع
وقال المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
وقال شاعرنا الانطاكي :

يلوموني اذ طال هجري ولم أعد
وما علموا اني بهم قد هجرته
الى موطن فيه معاشر اخواني
ولو أنصفوا ما كنت أترك أوطاني

السردار أقدس المعظم ظناً منهم أن مثل هذه الكتابات تؤثر على مكانتي عند ولي نعمتي وأنا عبده المملوك فما كان من عظمتي جعلني الله فدائه وإطال بقاءه إلا ورعى بها الأرض احتقاراً وأناشد هذه الأبيات فكانت سبباً لرد كيده الكايدين إلى نحرهم أطال الله بقاءهم ولانا وأدام عطفه العالي على عبده الامناء

أضاعوا حقوقى اذ لها قد تجاهلوا وما علموا في ذادعوني لهجران
تركتهم بالرغم منى لغيرهم كما تركوني بين حمل واطمان
وان الفلا رحب وما ضاق رحبه على كل من يسعى بحزم وعرفان
ومن كان مجهول المسكن بمرجع وظل به قل بات يرضى بأهوان (١)
وأما صاحب الذي لا يرجى اكرامه فقد قيل فيه ونعم ما قيل « خير الناس من
يرجى خيره ولا يخشى شره ، وشر الناس من يخشى شره ولا يرجى خيره ، وأما من
لا يرجى خيره ولا يتقى شره فهو خارج عن حكم الانسانية » وتقول العامة في أمثالها
« ان الصديق اذا لم ينفع صديقه في الدنيا فلا حاجة الى الانتفاع به في الآخرة »
وقال الشاعر :

اذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذودين ففرجوك للدين
ولا أنت ممن يرتجى الكريمة عما نأمل امثلا مثل شخصك من طين
وقال الصفدي لو كان لي في البيتين حكم لهدمت القافيتين وقلت :
اذا كنت لا علم لديك يفيدنا ولا أنت ذو جود ففرجوك للقرى

(١) تركت موطني حلب في سنة ١٨٩٧ مسيحية وبعد ان تجولت في سوريا
رحلت الى مصر فأقمت فيها الى سنة ١٩٠٠ حيث رجعت لسوريا فلب فأقمت هناك أربعة
أشهر ثم تركتها راجعاً الى مصر ولم أعد اليها وربما لا أعود أبداً. وحدث أن بعض
محبي في الوطن المحبوب انتهزوا فرصة وجودي في خدمة ولي نعمتي عظمة الشيخ المعز
روحي فداء سنة ١٩٠٨ فكتبوا لعظمته يلوموني لهجراني وطني ويلتمسون من
عظمته أن يصدر أمره الكريم الي بالرجوع من الخدمة بطريق البر الى حلب فانشدت
عظمته هذه الابيات وكان في ذيلها قولي :

انا اليوم في نعمى أجر ذبولها ومجد واقبال وعيشة هنان
بخدمه مولاي المعز وظله وخدمته الزهرا التي رفعت شاني
رأيت به عزاً وفخراً وسؤدداً ومصدر عرفان ومورد احسان
بنفسي وأمي أنتديه ووالدي وأهلي واصحابي وغنهم أغناني
فلا أنا ثاوي في مذلة غربه ولا أنا شاك من تراحم اقران
ومالي رجوى ارتجيمها سوى بأن تعيش عميد العرب في رفعة الشأن
لتحيي به آمال أمة أحمد ويحيي لها ذخراً بواسع سلطان

ولا أنت ممن برنجي لكريمة
وقال حكيم « اذا كنت في الدنيا لا تنفع وفي الآخرة لا تشفع ثم ترفعت فأخلق بك
أن تصفع » وقال بعضهم:

يقول أنا الكبير فعظموني
الا ثكلتك أمك من كبير
اذا كان الصغير أعم نفعاً
وأجلد عنه نائبة الامور
ولم نجد الكبير يوم نفع
فما فضل الكبير على الصغير

وقال بعض العقلاء « من لم ينل الخير في حياته ، فلا تبك عينك عليه يوم وفاته ،
ومن لم يسأل عنك بالغدوات ، ويصلك بالعشيات ، فاعدده من الاموات » وقال بعض
العلماء « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة من لا ينفعه »
وقال بعض البلغاء « ليكن غرضك في اتخاذ الاخذان واصطناع النصحاء تكثير العدد ،
لا تكثير العدد ، وتحصيل النفع ، لا تحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد ، خير من
ألف تكثير بهم الاعداد » وقال بعضهم « اذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره
ثانية فلعله أن يكون قد نسي فان لم يقضها فكبر عليه خمس تكبيرات واقرا أو الموتى يبعثهم الله »
وقلنا في هذا المعنى:

اذا لم اخدم الدين القويما
ولم اشر بمملكتي العلوما
ولم اصنع بذى الدنيا عظيما
فلمست العادل الحكم العظيما
وان لم اورث الملك النعيما
ولم اسعف على الدنيا كريما
ولم احمّل عن الناس الهموما
فلمست المالك الفطن العزوما
وان اقيت في ملكي ظلوما
ولم اردع باحكامي الاثيما
واهممت اليتيمة واليتيما
فلمست السيد السند الحكيم (١)

وقيل ان ابن شبرمة قضى يوماً لبعض اخوانه حاجة كبيرة فجاءه بهدية فقال ما هذا ؟
قال مكافأة ما أسديته اليّ فقال خذ مالك عافاك الله واعلم أنك اذا سألت أخاك حاجة
فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضاً للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى

(١) نقول هذا قول عظمة مولانا السردار أقدم برك الله فيه ومتعنا بشريف
وجوده وقد طبقه على افعاله في امارته العامرة على ما يشهد الناس أجمع فهل بعد ذلك
من زيادة لمستزيد ؟ أولاً يحق ان ننشد مع الشاعر :

لنا والد لو كان للناس مثله
أب آخر اغناهم بالمناقب

وقد قيل الناس كالشجر فمنها ماله ظلّ وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع منه في الدنيا دون الآخرة . ومنها ماله ظلّ وثمر وهو مثل الذي ينتفع منه في الدنيا والآخرة ومنها ما ليس له ظلّ ولا ثمر وهو مثل الذي عناء الله تعالى في قوله « يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه المولى ولبئس العشير » وقال بعض الأذكياء :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهمُ لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هنا له ثمرٌ حلوه مذاقته وذلك ليس له طعمٌ ولا ثمرٌ

وقال شاعرنا الانطاكى في الصديق :

إذا لم ترَ عطفاً ووداً ورحمة وجوداً واحساناً من الخلّ خالسه
وان صديق الخير من كان دائماً يجدُ الى خير الصديق بفعله

ومن هذا القبيل المال فان المال وجد لينتفع به الانسان ويعتزّ أما اذا لم يجد فيه نفعاً وعزة فهو والعدو سبيان وقد قلنا في هذا :

إذا كان مالي لا يخفف كربة عن الناس أو يولى خيراً ويبذل
فلا كان في صندوقه متكر دساً ولا كان من فيه يشحّ ويمخل
أرى المال عزاً أن يعزّه الفقى على الناس بالاحسان اذ يتفضل
والا فان المال هون لمن به اذا سئل الاحسان يأبى ويمطل
وقال أحد الشعراء :

المال مال المرء ما قضيت به الشهوات أو دُفعت به الاحداث
ما كان فيه فاضلاً عن قوته فليعلمن بأنه مـيراث

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « انما لك من دنياك ما أصلحت به مشواك » وأما العلم الذي لا ينفع فقد قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام « ان خير القول ما نفع » واعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع به وما كان كذلك لا ينبغي تعمله لانه ضياع وقت وتعب فكري من غير مقابل . ومن العلم ما ينفع في الدنيا والآخرة كعلم الدين ومتفرعاته ومنه ما ينفع للدنيا كالعلوم الادبية والفنون العصرية وكل هذه تعلمها واجب وبقدر ما يستفيد منها الانسان يستفيد في دنياه وأخراه . أما العلوم التي لا تنفع ولا يندب صاحبها لتعلمها فهي كتعلم اللغات الماتية أي التي لا تستعمل أو هي غير معروفة ومثل ذلك تعلم العلوم القديمة التي أبطلها العلم الحديث ونحو ذلك

ومن منافع العلوم الدينية ان الانسان يعرف كيف يتقرب بها الى الله عزّ وجلّ بصالح

عمله ككاري عن امير المؤمنين عليه السلام اذ قال يوم عيد انما هو عيد من قبل الله صيامه وشكر قيامه وكل يوم لا يمضى الله فيه فهو عيد . وقال شارح نهج البلاغة عند تفسيره هذا القول الرشيد ان المعنى ظاهر وقد نقله بعض المحدثين الى الغزل فقال :

قالوا اتى العيد فلت أهلا
ان جاء بالوصل فهو عيد
من ظفرت بالمنى يدها
فكل أياها سـعود
وسمع أحد الصوفية هذين البيتين من فم مغني ينشد هما فطرب وصفق وأخذها بالمعنى الذي عنده . وقد قال شاعر الانطاكي في هذا المعنى :

وما العيد الا أن أراك بجاني
كلانا محبٌ مغرمٌ وودود
اما وهلال الوجه منك قد اختفى
فليس هلال العبد عندي عيد
وقال آخر في هذا المعنى .
قالوا اتى العيد والأيام شرقية
وأنت باكٍ وكل الناس مسرور
فقلت ان واصل الاحباب كان لنا
عيداً والا فهذا العيد عاشور
وقلنا في العيد أيضاً :

وما العيد يهينني اذا لم أر به
رعاياي في بشرٍ ويمن وايناس
وما أنا في الاضحى أضحي رعيتي
وما أنا فيه للرعية بالناسي (١)
وقال النبي صلى الله عليه وآله « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »
وقال عليه السلام « خير نساءكم الولود الودود » وقال « سوداء ولود خير من
حسنة لا تلد » ومثل هذا ما نقل عن المسيح عليه السلام اذ شبه المرأة العاقرة بالشجرة
التي لا تثمر وقال خير لها أن تقطع وتلقى في النار . وقال موسى عليه السلام مثل
ذلك . وهو اجماع من انبياء الله عليهم الصلاة والسلام في تفضيل الولود على العاقر
وأشرف المأمون يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً ومعه خمة يكتب بها على
حائط قصره فقال لاحد غلمانه انزل الى ذلك الرجل وامسك يده واقراً ما كتبه ففعل
الغلام كما أمر سيده وقرأ :

(١) تفضل عظمة مولانا المعز أعزّه الله فأنشده هذين البيتين في عام جذب بينهما
كانت وفود المهنيين بحضرته يدعون لعظمته بطول العمر وأمر أمين ماله يومئذ
بتوزيع مبالغ كبير من المال على المعوزين . فانظر الى هذه الاخلاق العالية والعواطف
الشريفة من هذا الملك الرؤوف حفظه الله وجعلنا فداه

يا قصر جمّع فيك اللؤم والشؤم متى يعيش في أركانك اليوم
يوم يعيش فيك اليوم من فرحي أكون أول من دعاك مرغوم
فقال للرجل أجب أمير المؤمنين فجزع الرجل واشتد به الوجل وقال سألتك
بالله يا غلام لا تذهب بي إليه فقال انه يراك من القصر فأخذه وأوقفه بين يدي المأمون
وقال وجدته كتب كذا وكذا فقال المأمون ويلك ما حملك على هذا ؟ فقال يا أمير المؤمنين
انه لم يخف عنك ما حواه قصرك من خزان الاموال والحلي والحلل والطعام والشراب
والامتنعة والفراش والجواهر فررت عليه وأنا في غاية من الجوع والفاقة فوفقت مفسكراً
في أمري وقالت هذا القصر عال عامر وأنا جائع لا فائدة لي منه فلو كان خراباً
ومررت به لم أعدم منه حجراً أو خشبة أو مسماراً أبيعته وأتقوت بشئ منه. أو لم يعلم أمير
المؤمنين بقول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرء نصيب ولا حظٌ تمنى زوالها
وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه يرجي سواها فهو يهوى انتقالها
فقال المأمون لحازنه أعطه ألف دينار ثم قال هي لك في كل سنة مادام قصرنا عامراً (١)
ودخل أبو دلالة على المنصور فأنشده قصيدة فقال يا أبا دلالة ان أمير المؤمنين
قد أمر لك بكذا وكذا من صلة وكسائك وحملك وأقطعك أربعمائة جريب مئتان عامرة
ومئتان غامرة. فقال أما ما ذكر أمير المؤمنين من الصلة فقد عرفته وعرفت العامر فما
العامر قال الذي لا نبات فيه ولا شجر فقال لقد أقطعت أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب
غامرة قال ويحك أين ؟ قال فيما بين الحيرة والكوفة فضحك منه وجعلها كلها عامرة
وجاء شيخ عربي يسمى خليفة الى اصفهان وكان رجلاً صالحاً وكان الامراء
يعظمونه والعظماء يكرمونه بالمدح لا غير ويطلبونه الى منازلهم على أنهم ما كانوا يصلونه

(١) روى لنا عظمة مولانا المعز هذه القصة في ذات ليلة وشفعها قائلاً انتا من
فضل الله فتحنا ديوانيتنا في وجوه الناس لكي لا يدعوا علينا أحد . فقلت مولاي جعلت
فذاك بل ان هذه الديوانية قد سارت الركبان بنائها الى بلاد الغرب فأصبح شكرك
متلواً بكل لسان فمنذ يومين مررت بالديوانية وجعلت اتفقد غرفها المملأ بالضيوف
وبينما أنا كذلك وإذا بثلاثة من بلاد الروس قد نزلوا فيها واذ كانوا لا يحسنون
العربية تعذر عليهم التفاهم مع عاملك عليها فاستدعاني لترجمة فاذا بهم يحسنون الفرنسية
فأخذت بمخاطبةهم فقالوا لقد نزلنا هذا المكان منذ الصباح وجاؤنا بنار وشاي وسكر

بشيء يستعين به على حوائجه فأنشد قصيدة فارسية قال في جملة أبياتها :

هواهم بارد والاب سرداست تواضعهم خليفة خرب مراسست

واعلم أن قرابة النسب اذا عريت عن مبادلة المنافع فسدت ولذلك قال العرب في أمثالهم « رب أخ لم تلده أمك » وقال أمير المؤمنين « لا خير في قرابة من دون مودة » وسئل أحد الأذكياء أيما أحب اليك أخوك أم صديقك؟ فقال أخي اذا كان صديقي فالقربى تحتاج الى مودة والمودة مستغنية عن القربى

وقال أمير المؤمنين عليه السلام أن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ثم تلا « أن أولى الناس إبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي » الآية ثم قال عليه السلام أن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحنه وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته ومثل هذا الحديث المرفوع « لا تأتوني بأعمالكم وتأتوني بأنسابكم أن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال أبو فراس الحمداني .

كانت مودة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

وقال شاعرنا الانطاكي :

ليس القرابة ان تنمى الى نسب بنافع لذوي القربى على الزمن

ان القربى الذي يعنى بعترته في جلب منفعة أو مدفع الاحن

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « الكرم أعطف من الرحم » وقال مثل هذا

ونحن لا نملك الثمن وما نحن الا فقراء نقصد بغداد عسى أن نجد فيها عملاً يسد الهنذية والمال الذي معنا بالكاد يكفيننا لنصل اليها فقلت قروا عينا أنتم هنا بضيانة أمير العرب الأكبر وسيدهم الأشهر قولوا كيف ونحن لا نعرفه؟ قلت انه يضيف الناس ولو كانوا لا يعرفونه ولكنكم أن تقيموا هنا ما شاء الله أن تقيموا ومتى أزمعتم على الرحيل اشتري لكم تذاكر السفر ونفدكم بالعطايا قالوا وهل يفعل ذلك مع كل الناس ولو كانوا من غير جنسه ودينه؟ قلت نعم قالوا اتنا ما عهدنا ذلك في أوروبا بأسرها قلت ان الكرم العربي الذي عظمه مولانا الشيخ المعز أفضل مثال له هو من مميزات هذه الامة النجبية ففرحوا ودعوا فقال مولانا اذن وجب علينا زيارتهم لتطيب خواطرهم وبالفعل شرف عظمته في اليوم التالي الديوانية وزار ضيوفه وفي جملةهم هؤلاء وكنت في الخدمة فجعلوا يشكرونه ويثنون عليه وهم يقولون مارأينا مثل هذا في زماننا ولا رآه قومنا قلت انه كرم العرب فانشروا نبأه في بلدكم ليعرف قومه من نحن

أبو تمام لا بن جهيم :

ألا يكن نسب يؤلف بيننا أدب أقتناه مقام الوالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
ومن أمثال العرب « بعد الدار كبعد النسب » أي إذا غاب عنك قريبك فلم ينفعك
فهو كمن لا نسب بينك وبينه . وقال بعض الأدباء :

فما الخدن إلا من صفالك ودّه ومن هو ذو نصح وأنت مغيب
وقال آخر :

ولقد وصلت الناس ثم خبرتهم وعرفت ما بلغوا من الأسباب
فاذا القرابة لا تقرب نائياً وإذا المودة أقرب الانساب
وقال آخر :

كم من أخ لك لم يلده أبوكا وأخ أبوه أبوك قد يحفوكا
صاف الكرام إذا أردت إخوانهم وألم بأن أخا الحفاظ أخوكا
كم أخوة لك لم يلدك أبوهم فكأنما آباؤهم ولدوكا
لو جئت تحملهم على مكروهة يخشى الخيوف بها لما خذلوكا
وقال آخر :

رأيت غريب الدار خيراً وإن نأى من المبعد الودّ القريب المناسب
وكم من أخ لم يدنه لك والد تراه كبن العم عند النوائب
وربّ بعيد حاضر لك نفعه وربّ قريب حاضر مثل غائب
وقال آخر :

أخوك أخو الحب الذي إن دعوته إلى حديث ألفتته منك دانيا
وليس أخو القربى الذي إن دعوته إلى حديث ألفتته عنك نائياً
وقال آخر :

تمسك بوصل المظهر الوصل واجتنب لوصل سهو - واه من قريب وشاسع
فذو الودّ أدنى الناس منك قرابة فصله فما ودّ البعيد بضائع
ولا تغتر بالودّ من ذي قرابة فما قرب ذي البغض النسيب بنافع
فكم من بعيد صادق الودّ مخاص وذو رحم داني القرابة قاطع
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « ربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من

بعيد « وقال بعض البلغاء :

لعمرك ما يضر البعد يوماً
وقلنا في هذا المعنى

إذا لم يكن عطفٌ وحبٌّ ورحمةٌ
وإذا لم يكن عطفٌ وحبٌّ ورحمةٌ
فلا خير في القربى ولا خير فيهم
وكم من أخ أصفى فؤاداً على الولا
يواليك بالنعمة وبالبرّ مخلصاً
وتلقاه في الحالين أفضل صاحب

ومن أمثال العرب ربّ ابن عم ليس بابن عم وهذا يحتمل معنيين أحدهما أن
يكون شكاية من الأقارب أي ربّ ابن عم لا ينصرك ولا ينفعك فكأنه ليس بابن عم
والثاني أنه يريد ربّ انسان من الأجانب عن نسبك يهتم بشأنك ويستحي من خذلانك
فهو ابن عم معنى وإن لم يكن ابن عم نسباً . وقالوا إن أخاك من وأسائك وقيل لرجل
ممن أنت ؟ قال ممن برني وهو على حسب قول الاعشى

فإن القريب من يقرب نفسه
لعمرك أملك الخير لا من تنسباً

وقال بعض البلغاء :

أعاذلة كم من أخ لي أودّه
أعاذلة كم من أخ لي أودّه
إذا ما التقينا لم يرني أكيدة
ولكنني مثنى عليه وزايدة
وأخر أحلى في التناوب ناره
يباعدني في شأنه وأباعدته
يودّ لو أني كنت أول فاقده
وأيضاً أودّ الودّ أني فاقده

ومن أمثال العرب « حميم الرجل وأصله » وذلك أن الخاس بن الابقع وكان سيداً
في زمانه وأن رجلاً من قومه يقال له كلاب بن قارع وكان في غم له بحميها فوقع فيها
ليث ضار وجعل يخطمها فانبرى كلاب وجثم عليه الاسد فوافق ذلك من رجاله رجلان
أحدهما يسمى الخنابر بن مرة والآخر يقال له الحوشب وكان الخنابر حميم كلاب فاستغاث
بهما كلاب فحاده قريبه وخذله وأعانه حوشب فحمل على الاسد وعارضه الاسد فأمكن
سيفه من جفنيه فمر بين الاضلاع والكشفين فخر صريعاً وقام كلاب الى حوشب حتى
أتى قومه وهو أخذ بيد حوشب يقول هذا حميمي دون الخنابر ثم هلك بعد ذلك فاختم
الخنابر وحوشب فقال حوشب أنا قريبه وحميمه فلقد خذله فنصرته وقطعته فوصلته
وصممت على ندائه فأجبتة واحتكما الى الخنابس وشهد القوم أن الرجل قال هذا حميمي

دون الخنابر فقال الخنابس عند ذلك « حميم الرجل وأصله » وقضى لحوشب بتركته وصارت كلمته مثلاً

وعلى هذا فينبغي للعاقل أن يقتصر من أقواله وأفعاله على ما يفيد . قيل لا نوشر وان ما الذي لا خير فيه ؟ قال من ضرني ولم ينفع غيري أو ضر غيري ولم ينفعني فلم أعلم فيه خيراً وقال ابن حجر :

لا تفعلن شيئاً بغير فائده فانما من السجايا الفاسده

ولما بشروا هشام بن عبد الملك بالخلافة سجد وسجد من حوله شكراً لله الا البرش الكبي فقال له هشام ما منعك عن السجود ؟ قال اني معك ليلاً ونهاراً وغداً يرتقي الى سماء المجد فلا أعود أراك قال أصد بك معي فقال الان أسجد عشرين سجدة وقال الشاعر :

إذا لم أنل في دولة الخلل غبطة ولم تغشني احسانه ورعايته

فسيان عندي موته وحياته وسيان عندي عزله وولايته

وقال الحسن عليه السلام « لا تأتي رجلاً الا أن ترجو نواله أو تخالف يده أو ترجو بركته أو تصل راحاً بينك وبينه . » وروى عن الأصمعي قال وجدني أبو عمرو بن العلاء ماراً في بعض أزقة البصرة فقال الى أين يا أصمعي ؟ فقلت لزيارة بعض اخواني فقال يا أصمعي ان كان لفائدة أو عائدة فخذنا سعيك والا فلا وأنشدني في ذلك شعر أليوسف الحلبي :

يا أيها الاخوان أوصيكم وصية الوالد والوالده

لا تنقلوا الاقدام الا الى من لكم عندهم فائده

اما لعلم تستفيدونه أو لكريم عنده مائده

ومن كلام الأصمعي قوله « خير العلم ما اطنأت به الحريق وأخرجت به الغريق » وروى عن بعض النبهاء انه قال « الجلوس ثلاثة جليس تستفيد منه فالزمه وجليس تفيد فأكرمه وجليس لا تفيد ولا تستفيد منه فاهرب عنه » ول بعضهم في هذا المعنى :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس الا لأخذ العلم أو اصلاح حال

ونقل ان أبا العيناء كان يختلف الى أبي الصقر وكان يمدد بالمال فقطع عنه العطاء فانتطع عنه مدة ثم دخل عليه فقال ما أبطأ بك عنّا ؟ فقال ابنتي قال وكيف ذلك ؟ قالت لي كنت تأتينا قبل هذا بالجوائز السنية والخلع الفاخرة والان تأتينا غموماً أصفر

اليدن بخفي حنين فالى من تختلف ؟ فقلت الى أبي صقر قالت أفيرفع مجلسك ؟ قلت لا
 قالت أفيصغى الى حديثك ؟ قالت لا قالت أفتنفع منه لاخرتك ؟ قلت لا قالت يا ابت لم
 تعبد من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ فأمر له بجائزة سنينة وكسوة ثمينة
 وقال احمل هذا الى ابنتك لئلا تقرّ عنا بقوارع القرآن ولم يقطع عنه العطاء بعد ذلك
 ودعا الرشيد البهلول ليضحك منه فلما دخل دعا له بمائدة فقدم عليها الخبز وحده
 فولى بهلول هارباً فقيل له الى أين ؟ فقال أجيئكم يوم الاضحى لعلّ عندكم لحماً
 « النظر الى القول دون القائل »

واعلم أنه تشترط في تحصيل المنافع من النصائح النظر اليها بجدّة بصرف النظر عن
 شخصية قائلها فقد قال علي بن الحسين عليها السلام « لا تحقرّوا اللؤلؤة النفيسة التي
 تجتلب من الامكنة الحسيسة فان أبي حدثني قال سمعت أباير المؤمنين عليه السلام يقول « ان
 الكلمة من الحكمة لتجلبج في صدر المنافق نزاعاً الى مظانها حتى يلفظ بها فيسمعها
 المؤمن فيكون أحق بها وأهلها فيلقفها » ولله درّ من قال :

لا تحقرنّ الرأي وهو مطابق حكم الصواب اذا أتى من ناقص
 فالدرّ وهو أجلّ شيء يقتنى ما حطّ قيمته هوان الغائص

وحدث بعض العلماء بحديث فقيل له يا شيخ وعمن هذا الحديث ؟ قال وما صنع بعمن
 يا ابن أخي ؟ أما أنت فناتك موعظتنا وقامت عليك صحبتنا . وقال زياد أيها الناس
 ما يمنعكم سوء ما ترون منا أن تنفعوا بأحسن ما تسمعون عنا ؟ وقال بعضهم :
 أعمل بعقلي وان قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري
 وقال آخر

خذ من علومي ولا تنظر الى عملي أجن الثمار واخل الجذع للنار

وقلنا في هذا الموضوع :

بحقك عبد الله كن ناهياً ولا يغرك ما يبدو على الناس ظاهراً
 قرب كريم خانه الدهر فانجلي بأهون ما يجلي العباد مظاهراً
 وربّ لئيم قد تظاهر بالولا فتحسبه اسمى الانام ما ثراً
 وربّ مقال قاله اسفه الورى وكان سديداً بالغ النصيح فاخراً
 فاضع لقول الحق لو جاء مبطل به وانتم ما فيه تلقى المفاخراً

الى القول فانظر دونه قائله تفز باحسن ما تحبني العقول بلا مرا (١)

وجاء في مقدمة أقوم المسالك ينبغي تحذير ذوي الغفلات من عوام المسامين من تهاديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة القوم غير الموافقة لشرعنا بمجرّد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتب ينبغي أن يهجر وتاليهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر حتى أنهم يشددون التكبير على من يستحسن شيئاً منها وهذا على اطلاقه خطأ محض فان الامر اذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للدلالة فلا وجه لانتكاره وإهماله بل الواجب الحرص على قبوله واستعماله وكل متمسك بدياته وان كان يرى غيره ضالاً فذلك لا يمنعه من الاقتداء به في ما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الدول الانرجية فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعمالهم حتى بالغوا في تقويم نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشأن الناقد البصير تميز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروف عليه قولاً كان أو فعلاً فان وجده صواباً قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق يعرف الرجال والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها «

وتصديقاً لهذا نقول أن سلمان الفارسي لما أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله بان عادة الفرس أن يطوفوا مدنها بخنادق حين يحاصرونها والعدو اتقاء هجومه عليهم أخذ رسول الله برأيه وحفر خندقاً للمدينة في غزوة الاحزاب وعمل فيه بنفسه رغياً للمسلمين وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال » واذا ساغ للسلف

(١) أنشد عظمة الماز هذه الابيات مخاطباً بها سموّ ولده الهمام الشيخ عبد الله وقد جاء يوماً يشكو له مؤدبه فيقول انه يقول لي كيت وكيت وهو يفعل بالعكس كيت وكيت فقال سموه يا بنيّ أوصيك أن تنظر الى الاقوال دون الافعال ولا تحتقر بظاهرها الرجال فرب درّة بمزلة تنال وقلّ من طبّق الافعال على الاقوال وأنشده الابيات المثبتة في المتن الدالة على ما لعظمة شيخنا المحبوب من سديد الرأي وبعد مواقع النظر حفظه الله وسموّ الشيخ عبد الله حفظه الله هو سادس أنجال عظمة مولانا الشيخ المعزّ الانجاب وهو اليوم في نحو التاسعة عشرة من ربيع عمره ولكن هذه الحادثة كانت منذ عشرة اعوام وكان وقتئذ في التاسعة من عمره وقد عهدناه من ذلك الوقت مثال الرزاة والادب والذكاء كابن الثلاثين أو يزيد ولا عجب في ذلك فهو ابن عظمة السردار أقدس وحسب الابن سرّايه أداه الله مع اخوانه النجباء في حمي أكرم الابه وأعظم الامراء

الصالح أخذ علم المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من اللغة اليونانية لما رأوه من الفنون النافعة لهم حتى قال الغزالي من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج ممن لا يدين بديننا توصلنا إلى دفع المكاييد وجلب الفوائد

وبعد فأننا نرى كثيرين من الجامدين يقاومون فكرة الاسترشاد بالفرح في أمور هذه الدنيا من علم وعمل وهذا في الواقع مخالف لأصول ديننا الحنيف ولمصالحنا أيضاً فإن الله سبحانه وتعالى يقول « هل يستوي الدين يعلمون والذين لا يعلمون » وهذه الآية الشريفة ترمي بالعلم إلى العلوم الدنيوية والآخرية بحيث لا يمكن أن تتساوى مع الفرنجة في عزتهم الدنيوية إن لم تتلق عنهم العلوم العصرية التي أوجبت إراءهم وعزتهم معاً ولكن يقتضي أن تنقل عنهم من عاداتهم وآدابهم وعلومهم ما لا يخالف ديننا ولا ينافي عاداتنا وكذلك فعل الذين كانوا قبلنا من أمتنا حيث نقلوا علوم الفرس واليونان والسريان وبنوا عليها تمدنهم العربي الذي كان أساساً لتمدن الفرنجة الزاهر اليوم وهكذا الدهر دولات. وقد قال الله تعالى « وتلك الأيام نداؤها بين الناس »

الاشتغال بما لا يعني

ان الاشتغال بما لا يعني قبيح عقلاً وشرعاً وهو يدل على النقص والفضول قيل كان للاحنف بن قيس جالس كثير الصمت فاستنطقه يوماً فقال أتقدر يا أبا بحر أن تمشي على شرف المسجد فقال الاحنف: سكت ألفاً ونطق خلفاً. ومرة بالشعبي حمال على ظهره دنّ خلّ فوضع الدنّ وقال ما كان اسم امرأة ابليس؟ فقال الشعبي ذلك نكاح ما شهدناه

وقال بعض العلماء كنت يوماً في مجلسي وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل عليّ رجل قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال قد قصدتك في مسألة مهمة اخترتك لها فقلت أسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال أخبرني عن نجم ابليس ونجم آدم ماهما؟ فإنّ هذين لعظام شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر إليه قوم منهم بالاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثل سؤاله فاقبلت عليه فقلت يا هذا انّ المنجمين ليزعمون انّ نجوم أهل الارض لا تعرف إلا بمواليدهم فان ظفرت بمن يعرف مولد آدم وابليس فاسأله. فحينئذ أقبل عليّ وقال جزاك الله خيراً ثم انصرف مسروراً. فلما كان بعد أيام

عاد فقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين . فانظر الى هؤلاء الناس كيف أبانوا عن نقصهم بالتكلف لما لا يعينهم واهتموا به اهتماماً عظيماً
وكان من الحمقى عيسى بن صالح ولاء الرشيد قنسرين . قال بعضهم أتاني رسوله بالليل فامرني بالحضور فتوهمت ان كتاباً جاءه من الخليفة فلما وصلت قال ادخل فوجدته على فراشه فقال اني بت الليلة متفكراً في أمري قلت وما هو أصلح الله الامير؟ قال اشتبهت ان يصيرني الله حورية ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكري فقلت فهلا اشتبهت ان يكون زوجك محمداً فانه سيد الانبياء فقال لا تظن اني لم أفكر في هذا فاني قد فكرت ولكن كرهت ان اغيظ عائشة

ووقف نحوي على قصاب فقال له هذا من الضأن الفتي أم الماعز الثني؟ فقال له القصاب هو من خيار الضأن فقال النحوي ذبحت لغرض أم لمرض؟ قال لا عتاش منه أنا وعيالي قال أفكان ذكراً ذا خصيتين أم انثى ذات حلمتين؟ قال كان ذكراً ينطح الحائط فيرميه قال أفكان يبيع الماء مجاً بشقيقه أم يمسه مصاً؟ قال كان يضع خرطومه في الماء ويشرب حتى يروي قال أفكان مرعاه الشيخ والعيرزان أم العصف والريحان؟ قال كان يرعى من نبات الارض قال سننت مديتك وحددت شفرتك وذبحت؟ قال جعلتها لو نزلت على رقية لبرتها أسرع من لمح البصر قال أفبدأت بالبسملة التي هي على وزن فيعلة وقيل على وزن فعلملة؟ فقال القصاب لغلامه يا غلام هات الجلد حتى ابقره من وسطه واضعه في عنق هذا القرنان الذي عطلنا عن البيع وقطع رزقنا هذا اليوم فبادر الغلام ليأتيه بالجلد فانهمز النحوي هارباً وهو يلتفت الى خلفه

وحكي عن الفضل بن الربيع قال قال لي الرشيد يوماً اطلب حجاماً اسكت من الحجر فقلت ان لي حجاماً سكوتاً فقال ابعثه لي فبعثته وأكدت عليه بالسكوت وعدم النطق وان يتهياً احسن حياة ثم دخلت بعد ذلك على الرشيد فوجدته عبوساً مغضباً فقال يا فضل ان لذلك شأنًا وانك لن تر حجامك بعد فلم ارد عليه شيئاً ثم سألت فراشاً مختصاً به عن خبره فقال ان حجامك لما ابتداء بعمله قال يا امير المؤمنين اسألك عن شيء فقال ما هو؟ قال لم قدمت محمد الامين على المأمون والمأمون اسن منه؟ فقال أرد لك الجواب اذا فرغت فلم يلبث الا يسيراً حتى قال واسألك يا امير المؤمنين عن شيء آخر قال قل فقال لم اخترت الرقة على بغداد وبغداد اطيب هواءً وافضل مناخاً؟ فقال له جوابك عن ذلك اذا فرغت فلما فرغ دعا مسروراً خادمه وقال له لا تشرب

الماء البارد بدون ان تقتله فانه يسألني عن امور لو سألتني المنصور عنها ما أحبته قال
الفضل فبينما أنا قاعد اذ دخل أبو دلامة على الرشيد باكية وقد تواطأ مع أم دلامة على
ان يدخل على الرشيد وينعيها اليه وانها تذهب الى زييده وتمعيه اليها فلما رآه الرشيد
باكية قال له مالك تبكي فقال

وكنا كذا زوجي قطا في مفازة من الامن في عيش رخي وفي رغد
فشردنا ريب الزمان بصرفه ولم أر شيئا قط أوحش من فرد
ثم أعلن النحيب والعويل ثم قال يا أمير المؤمنين دانت أم دلامة وأنا محتاج الى
تجهيزها فأمر له بمال وعزاه . وكانت أم دلامة دخات على زييده وهي باكية فقالت
لها ان أبا دلامة نضى الى سبيله وأنا احتاج الى مال لتجهيزه فاطمأنتها ما طلبت وعزتها
وذهبت وبعد قليل دخل الرشيد على زييده مغضبا من أسئلة الحجام وأخبرها بموت
أم دلامة فضحكت وقالت الان خرجت أم دلامة من عندي لتجهيز أبا دلامة قال
الفضل فخرج الرشيد علي وهو يتهقه بالضك فعجبت منه دخل غاضبا وخرج
مسرورا فاستخبرته فحكى لي ما جرى فشفت حينئذ بالحجام فاطمأنته بعد ان كانت
منيته قاب قوسين أو أدنى

وحكي عن السندي بن شاهك قال بعث الي المأمون يريد أبا دلامة فخراسان فطويت
المراحل حتى أتيت بابه وقد هاج بي الدم فوجدته نائما فأعلمت الحاجب بقصتي وقدمت
اليه عذري وما هاج بي من الدم وانصرفت الى منزلي فقلت احضروا لي الحجام قالوا
له محموم قلت فها توارى حجاما غيره لا يكون فضوليا فأتوني به فما هو الا أن دارت يده
على وجهي حتى قال جعلت فداك هذا وجه لا أعرفه فمن أنت؟ قلت السندي بن شاهك
قال ومن أين قدمت؟ فاني أرى أثر السفر عليك قلت من خراسان قال وأى شيء
أقدمك قلت وجه أمير المؤمنين الي يريد أبا دلامة ولكن متى فرغت سأخبرك بالقصة على
وجبه قال وتعرف في المنازل والسكك التي جئت عليها قلت نعم فما هو الا ان فرغ حتى
دخل رسول المأمون ومعه كركي فقال ان أمير المؤمنين يقرؤك السلام وهو يعذرك
في ما هاج بك من الدم وقد أمرك بالتخلف في منزلك الى أن تغدو عليه ان شاء الله
ويقول ما أهدى الينا اليوم غير هذا الكركي فشأنك به قال فالتفت السندي الى جلسائه
فقال وما يصنع بهذا الكركي؟ فقال الحجام يطبخ سكباجا قال السندي فليطبخ كما قال
وحلف علي الحجام ان لا يبرح فحضر الغداء فتغذينا قال السندي ثم قلت يعلق الحجام

من العقبين فعلق فقلت له سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها وأنا مشغول في ذلك الوقت وهما أناذا أقص عليك الآن فاستمع: أخرجت من خرسان وقت كذا ونزلت كذا يا غلام أوجع فضربه عشرة أسواط ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة حتى انتهى الى السبعين سوطاً فقال لي الحجام باسيدي سألتك بالله الى أين تريد أن تبلغ؟ قلت الى بغداد قال لست الثمانين أن تبتين قلت فأتتركك على شرط أن لا تعود الى فضولك قال والله لا أعود أبداً قال فتركته وأمرت له بسبعين ألف درهم فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبر قال وددت أنك بلغت به أن تأتي على نفسه الاخير وتريح الناس من ثرثته وحكي أن سلطان الهند قال لرجل من أنقص الناس عقلاً؟ قال قرأت في السكتب ان من اسمه يحيى ويكون طويل اللحية ومعلم صبيان فهو أنقص الناس عقلاً فقال له السلطان فتش في هذا البلد لعلك تقع على من يجمع فيه هذه الصفات فتمتحنه حتى نرى صحة ما في الكتاب فسار الرجل وأخذ يفتش كما مر السلطان وبعد السعي الكثير وقع على رجل يطابق تلك الصفات فأتى به الى مجلس السلطان فأقعه مع الناس حتى يخرج السلطان فاتفق جلوسه على كرسي مشبك بالخيزران فأدخل احدى خصيتيه في فرجة من فرجه والاخرى في فرجة ثانية وهكذا أصبح لا يستطيع القيام ثم خرج السلطان فنهض الحاضرون وفيهم الرجل الا انه قبض على الكرسي بيديه وحمله واسرع الى السلطان للسلام عليه فقال لماذا تحمل الكرسي؟ فقال كنت جالساً بانتظارك فلاجل تضيق الوقت أدخلت خصيتي في فرجتين من فرج الكرسي وعندما حضرت لم أستطع اخراجها بسرعة فحملت الكرسي وأتيتك فما الذي تريده مني فأرسلت تطابني؟ فضحك السلطان حتى استلقى على ظهره وقال حسبك فقد تم الامتحان

وكان في بني أسد مجنون يسمى لفدان فرّ بقوم من تيم الله بن ثعلبة فعبثوا به فقال يا بني تيم والله ما ألد خيراً منكم قالوا وكيف ذلك؟ قال لان بني أسد ليس فيهم مجنون غيري وقد قيدوني وسلسلوني وأما أنتم فكلكم مجانين وليس فيكم مقيّد وقال المبرد دخلت دار المجانين فوقفت تباه أحدهم وأخرجت له لساني فحول وجهه عني الى ناحية أخرى فجئت اليه وفعات مثل ذلك فلما أبرمته رفع رأسه الى السماء وقال انظر يارب من حلوا ومن ربطوا. وقال رجل ليهلول قد أمر الأمير لكل مجنون بدرهمين فقال امض وخذ نصيبك لئلا يفوتك. وقلنا في هذا المعنى:

ومن عجيبي إن يرسل المرء قوله جزافاً بلا رجوى استهزاة منفعه

واعجب منه أن يعاني مشقة بما لا يفيد الخير أو يجلب السعة
واعجب من هذا وهذا فعائل بلا غاية تجني على ربها الضعة
« تطوع الانسان لما لا يدعى اليه »

ومما يلحق بالفصل المتقدم تطوع الانسان لما لا يدعى اليه وهو نوع من الفضول
القيح قالوا ثلاثة من الافعال هي من علامات الحق: كثرة الالتفات من غير مناد ولا
متكلم وسرعة الجواب عن انسان والمسؤل غيره والضحك في غير محله . وقيل دخل
فضولي النار فقال الحطب رطب فقبل له: احترق واسكت .

ومن أمثال كليله ودمنه : زعموا ان غدير آكان عنده عشب وكان فيه بطتان وكانت
سلحفاة بجوارهما بينهما وبينهما مودة وصداقة فاتفق ان غيض ذلك الماء فجاءت البطتان
لوداع السلحفاة وقالت السلام عليك فاتنا ذاهبتان من هذا المكان لسبب نقصان
الماء عنه فقالت انما يعظم نقصان الماء على من كانت مثلي كالسفينة لا أقدر على العيش الا
بالماء فاتما تقدران على العيش حيث كنتما فاذهبا بي معكما قاتما لها حباً وكرامة قالت
فكيف السبيل الى حملي؟ قالت ناخذ بطرفي عود واتعلقين بوسطه ونطير بك في الجو
واياك اذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو فقال الناس
عجباً سلحفاة بين بطتين قد حماتهما فلما سمعت السلحفاة ذلك قالت فقاً الله اعينكم
أيها الناس فلما فتحت فاهها بالنطق وقعت على الارض فماتت

وحكي ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المرزوي: منذ كم سرت الى العراق
يا أبا عبد الله؟ قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم قال يا أبا
عبد الله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين

وقال بعض الحكماء ثمانية اذا أهينوا فلا يلوموا غير أنفسهم من يأتي مائدة لم يدع
اليها . والمتأمر على صاحب البيت في بيته . والداخل بين الاثنين في حديث لم يدخله
فيه . والمستخف بالسلطان . والجالس في مجلس ليس له . والمقبل بحديثه على من
لا يسمعه . وطالب الخير من أعدائه . ومن يرجو الفضل من عند اللئام . وأخذ
الشاعر هذا فنظمه بقوله .

لا لوم في واحد منهم اذا صفعا	يستوجب الصفع في الدنيا ثمانية
وداخل الدار تطفيلاً بغير دعا	المستخف بسلطان له خطر
وجالس مجلساً عن قدره ارتفعاً	ومنفذ أمره في غير منزله

ومتحفٌ بحديث غير سامعه وداخلٌ بحديث اثنين مندفعاً
وطالب الفضل ممن لا خلاق له ومبتغي الود من أعدائه طمعاً
ومن كلام بعض الحكماء لا تقعد حتى تقعد فاذا أقعدت كنت أعزَّ مقاماً .
ولا تنطق حتى تستنطق فاذا استنطقت كنت الاعلى كلاماً . وعن أمير المؤمنين عليه
السلام أربع من خصال الجهل من غضب على من لا يرضيه . وجلس الى من لا يدينه .
وتفارق الى من لا يغنيه . وتكلم في ما لا يعنيه . ولشاعرنا الانطاكي في هذا المعنى :
إذا كنت ذا رأي وحزم وفطنة فلا تك ما بين الأحمدة مبتذل
ولا تدنُ ممن ليس يدنيك عن ولا ولا تظهر الاعسار يوماً لمن نخل
ولا تدخلان في شأن غيرك مرّة ولو كنت تبغى الخير في التول والعمل
واياك ان تسمي وتصبح غاضباً على صاحب لا يرتضيك على عجل
تصون بهذا النفس عن هونها فلا تذلل وتسمي في مقام به تجل
واعلم انه لا ينبغي على العاقل أن يشير قبل أن يستشار الا عند مسيس الحاجة ولا
أن يتبرع بالرأي قبل أن يسأل الا عند الاضطرار فمن يتبرع فضولاً بشوره ورأيه
يتهم بالغرض فيطرح قوله ويمتهن . وانما يكون الرأي مقبولاً اذا كان عن رغبة وطالب
أو كان لباعث وسبب

وقال الاخنف ثلاث ما أقولهن الا ليعتبر بهن معتبر : لا أختلف جليسي بغير ما أحضر
به ، ولا أدخل نفسي فيما لا مدخل لي فيه ، ولا آتي السلطان أو يرسل الي . وقال ايضاً
ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلاني في أمرهما ، ولا اجلس الا مجلساً اعلم اني لا اطرد
منه ، ولا أقف على باب اخاف ان احجب عن صاحبه .

أقول فاذا عرفت هذا أيها القاريء اللبيب فالعلم ان العاقل هو ما اقتصر على ما يعنيه
واجتنب ما لا يعنيه . ومن الامثال قولهم « الحزم حفظ ما وليت وترك ما كفيت »
وقال أبر هلال « لا أعرف شيئاً أشد على الاحمق من تركه ما يعنيه واشتغاله بما
لا يعنيه على ان فيما يعني شغلاً عما لا يعني » . قال الشاعر :

يكفي الفتى ما كان من شأنه وتركه ما ليس يعنيه
وقلنا في هذا المعنى :

ان اخذ الحزم الذي قد أبى ان يشغل النفس بأمر السوى
ويعتني في أمره راشداً بالعقل لا يسعى بسبل الهوى

وقيل كان في مجلس مالك بن أنس جماعة يأخذون عنه العلم فقال قائل قد حضر فيل فخرج أصحابه كلهم لرؤيته الا يحيى بن يحيى الليثي الاندلسي فانه لم يخرج فقال له مالك لم لا تخرج لترى هذا الخلق العجيب فانه لم يكن في بلادك؟ فقال انما جئت من بلدي لانظر اليك وأتعلّم من هديك وعلمك ولم أجيء لانظر الى القيل فأعجب مالك به وسماه عاقل أهل الاندلس

وروا عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه خرج يوماً لاصحابه وهم يتجادلون ويتخاصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقيه بوجهه حب رمان حمرة من الغضب وقال ألهذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟ أن تضربوا كتاب الله ببعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا

ومن الامثلة على دخول الانسان في مالا يعنيه ما روي عن لقمان قال دخل على داود وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه فلما فرغ منها داود قام ولبسها ثم قال عليه السلام نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله

وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك؟ قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف مالا يعنيني وقال رجل للاحنف بما سدت قومك؟ فقال بتركي من أمرك مالا يعنيني كما عنك من أمري مالا يعينيك .

وقيل مر بجاسع بن مسعود السامي بقرية من قرى كرمان فسأل أهلها كيف أميركم؟ فأشاروا اليه اذ رأوه وضحكوا منه وكان ذميماً وازدروه فلعنهم وقال ان أهلي لم يريدوا محاسنتي وانما ارادوا المدافعة عني

وحكي أن السلطان محمود كان قبيح الصورة فنظر يوماً في المرأة الى وجهه فغضب ورمى بها فقال له وزيره ما سبب غضب جلالتكم فخكي له ما أغضبه من رؤية قبيح صورته في المرأة فقال الوزير ان المقصود من حسن الصورة أن يكون صاحبها محبوباً من القلوب والسلطان اذا كان حسن السيرة عادلاً في الرعية يكون محبوباً من قلوب رعاياه مع انه لا يراه الناس الا نادراً

وقيل لسقراط ان الكلام الذي قلته لاهل مدينة كذا لم يقبلوه فقال لا يهمني أن يكون مقبولاً وانما يهمني أن يكون صواباً

وأما السبب الباعث على اشتغال الناس بما لا يعنيههم فهو الحرص على معرفة ما لا حاجة

الى معرفته من قبيل حب الاطلاع أو المباشطة بالكلام لقتل الوقت . قال بعض البلغاء

سهوت وغرني أمني وقد قصرت في عملي
ومنزلة خلقت لها جعلت لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني وينحوني على عجل
وأيامي تقرّبي وتدينني الى أجلي

وحكي ان الاسكندر ذهب الى أفلاطون فوجده في مشرق الشمس وقد اسند ظهره الى حائط فقال له الاسكندر هل من حاجة قال حاجتي أن تزيل عني ظلك فقد منعت عني أشعة الشمس . ونجعل ختام هذا الفصل نصيحة أمير المؤمنين عليه السلام وهي « اقصر رأيك على ما يعنيك »

« التكليف لما ليس من الشأن »

يقال في الامثال لكل مقام مقال ولكل زمان دولة ورجال وهذا لا يخرج عن موضع هذا المقال فان العاقل يجب أن يطبق أعماله على حالتي عمره وحالته ملاحظاً في ذلك قدر نفسه كي لا يهان

واعلم زادك الله علماً أن لكل وقت من الاوقات أدب لازم . ولكل زمن من أزمان العمر عمل راتب حازم . فيجب على الانسان أن يتجنب وهو في سن الكهولة ما اعتاده في سن الصبوة والشباب من المزاح والضحك والاسترسال في اللعب الى آخر ما يزين الصبي والشباب وينقص في الكهولة التي هي مفتاح سن الكمال . قال بعضهم

يا لابساً ما لا يليق لقد عدلت عن الطريق
ان المفارق زيه بلقيت في الدنيا خليق
لا سيما ان كان في أوج صوته غريق
كيف التظاهر بالعفا فوانت معلوم الفسوق

وفي حديث الاصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام « للمسرف ثلاث علامات : يأكل ما ليس له ويشترى ما ليس له ويلبس ما ليس له » ومعنى هذا القول أن المسرف « يأكل ويشترى ويلبس فوق طاقته فـكـانه يأتى هذه الامور الثلاثة وهي ليست له . وفي الدروس المروءة تنزيه المرء نفسه عن الدنيا التي لا تليق بأمثاله كالهزء بالناس وككشف العورة التي يتأكد استحباب سترها في الصلاة والاكل في الاسواق والتزيي بما لا يليق الى غير ذلك مما لا يخفى على اللبيب

وليعلم العاقل ان اكل حين من احيان عمره خلقاً ولكل وقت من اوقات دهره عملاً فان تخلق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر واحتقره من هو أحقر وقد قال الله سبحانه «ومن يهن الله فليس له من مكرم» وكان المعنى بقول الشاعر :

قل للذي يخرج عن شكله ليرتقي أسباب أوعار
كيف ترجي أن تمال العلى ولم تبال الدهر من عار
من فارق المعهود من زيه فذاك لا كاسي ولا عاري
وقال آخر :

من تردى برداء مارآه لا يسه
سوف يأتيه زمان يتمنى الموت فيه

ومن أمثال العرب « شب عمرو عن الطوق » يضرب مثلاً لتزوي الكبير بزي الصغير والمثل لجذيمة الابرش في عمرو بن عدي وكان عدي ينادم جذيمة فعشقه رقاش أخت جذيمة فلما خشيت الفضيحة قالت اذا سكر الملك فأسأله أن يزوجه مني ففعل فسمح بذلك ودخل عليها من ليلته وأصبح هارباً من جذيمة فلما استبان حملها قال جذيمة :

حدثني رقاش لا تكذبيني الحر حملت أم لهجين
أم لعبد فأنت أهل لعبد أم لدون فأنت أهل لدون

فكانت حملت ممن زوجتني منه فولدت عمرو ففقد مرة ثم ظفر به مالك وعقيل القبيسان فأتيا به الى جذيمة فحكهما فسألاه منادته فأجابهما اليها وأرسل عمرأ الى أمه فزينته وألبسته طوقاً فقال جذيمة « شب عمرو عن الطوق »

واعلم أن الازياء تختلف باختلاف أصحابها بالمرتبة والعمر والثروة فان عدل الموسر الى زي المعسر كان شحاً وبخلأ وان عدل الرفيع الى زي الوضيع كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زي الموسر كان تبذيراً وسرفاً وان عدل الدني الى زي الرفيع كان جهلاً وتخلفاً ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قالت العامة في أمثالها « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » وقال الشاعر :

ان العيون رمتك اذ فاجأتها وعليك من خز الباس لباس
أما الطعام فكل لنفسك ماتشا والبس لنفسك ما اشتهاه الناس

واعلم أن التقليد الاعمى في الملبس والمأكل وأسباب الممايش الاخرى هو الذي يقصم ظهور الناس وهذا اذا كان تأثيره قليلا في بلاد العراق لميل الناس الى البساطة في معاشهم. فان تأثيره عظيم في البلاد التي أخذت قسطها من التمدن الا فرنجي فقد حدثنا كثيرون ممن جاسوا بلاد الفرنجة ومصر والشام والهند بان أوساط الناس هنالك هم من أتعس الناس اذ يكسبون اليسير ويضطرون الى انفاق الكثير تشبهاً بالاغنياء الموسرين وأصحاب الوجاهة والمكانة ولذلك لا ترى بينهم الا من يشكو دهره . وقال في ذلك شاعرنا الانطاكي :

حالي كما اشتهدت العواذل فاعذروا حال الفقير وقد تظاهر بالغي
رزقي أقل من القليل وعيشتي كالاغنياء ولست أدري من أنا
هذا هو التقليد والموت الزوا م وانه والله عيش بالغا
قالوا الظهور وأحسنوا قاصم الظهو ر ألا ترون فديتمو ظهري انحنى

ويظن الواهمون ان هذا التقليد الاعمى من المروءة أو التجلد أو عزة النفس بحيث يظهر الانسان بين اخوانه انه بنعمة ويسار ويخفي عنهم حقيقة ما هو عليه من الاعسار وقات مثل هؤلاء ان من تعدى طوره وتجاوز قدره كان عرضة لهزء الناس وأبعث على ذمهم له واحتقارهم اياه . وقد قال في ذلك المتنبي :

لا يمجبنك نظيماً حسن بزته وهل يروق دفيناً جودة الكفن
وقال آخر :

البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها
ومن الامثال على التقليد الاعمى ما زعموا أن قرداً رأى نجاراً يشق خشبة بين وتدين وهو راكب عليها فأعجبه ذلك ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتكلف ما ليس من شغله فركب الخشبة وجعل ظهره قبل الوند ووجهه قبل الخشبة فتدلت خصيتاه في الشق ونزع الوند فلزم الشق عليهما فخر غشياً عليه ثم ان النجار وافاه فرآه على هذه الحال فأقبل عليه يضربه فكان ما اتى من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة

ومن أمثال العرب « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد مصلوم الاذنين » قال الثعالبي يزعم العرب في أحاديثها ان حماراً ونوراً كانا على معلف وكان الثور ينطح الحمار فيمنعه طعامه فأصبح الحمار مهزولاً فشكى ذلك الى بعض اخوانه فقال انك لوأكلت كثيراً حتى سميت

نبئت لك قرنان فقدرت على مناطق النيران فترصد الحمار غفلة أصحاب احدى المزارع
وأقبل يا كل من عشبها فأخذ وصلمت أذناه

وقال البيهقي كان لرجل من الاعراب ابنة و غلام فراود الغلام الصبية فوعده
ليلتها وأعدت له شفرة ووجدتها فلما جاء في المياد بادرت الصبية بشفرتها فزقت أحشاءه
وخرج يموي فسمعه مولاه فقال من فعل بك ؟ قال ابنتك فدخل عليها وسألها الخبر
فقالت يا أبت ان العبد من نوكة يشرب من سقاء لم يوركه ومن ورد غير مائه صدر بمثل
دائه فقال لها لاشلل

وقال المبرد كان يسار الكواعب عبداً لانس من بنى الحرث بن سعد بن قضاة
وكان راعياً في ابهام فبعث ببعض نساءهم وكان اسود فخرته امرأة منهم وواعدته ليوم
فعلم به بعض أصحابه من الرعاة فنهاه عنها وقال له يا يسار كل من لحم الحوار واشرب
من لبن العشار ودع عنك بنات الاحرار . فقال له يسار اني اذا جئت زحكت أراد
ضحكت ولاعبتها فلاعبتني وانبسطت فأتاها في موعدها فقال مكانك حتى أطيبك فعمدت
اليه فجذعت أنفه وصلمت أذنه فرجع الى صاحبه الذي كان قد نهاه فأكره وقال من أنت وبيك
قال يسار قال فيسار كان له أنف واذنان قال فما ترى ويحك ويبض العينين فذهب
قوله مثلاً وسمي يسار الكواعب

ومن أمثالهم على لسان الحيوان ما زعموا من أن خنفسة قالت مرة لنحلة لو أخذتني
معك لسلت مثلك وأكثر فأجابتها النحلة الى ذلك ولما لم تقدر على وفاء وعدها ضربتها
بجملتها وفيها هي تموت قالت في نفسها لقد استوجبت ما نالني من السوء فاني لأحسن
عمل الزفت فكيف بالعسل

واعلم أنه كما ينبغي للانسان أن لا يتكاف ما ليس من شأنه كذلك ينبغي أن
لا يكلف غيره ما ليس من شأنه أيضاً والا فقد نادى على نفسه بالنقص
من ذلك أن رجلاً شهد حلقة الشعبي فلما قام قال له اني أجد في قفاي حكيمًا
أفترى لي أن احتجم ؟ فقال الشعبي الحمد لله الذي نقلنا من الفقه الى الحجة
وحكي أنه تنبأ رجل فجاءوا به الى المأمون فسأله عن معجزته فقال ماشئت وكان
بين يديه قفل فقال خذ هذا القفل فافتحه فقال له أصلحك الله لم أقل لك اني حداد
فضحك المأمون واستتابه وقال الشاعر :

حسد القطا فأراد يمشي مشيها فإصابه ضرب من العقال

الروضة الثانية

(في جهة الشرائط)

اعلم أن الشروط الواجبة لمعاناة الامور كثيرة والممتبرة منها هي المعرفة والقدرة
والامكان

« المعرفة »

أما المعرفة فان معاناة الامور بدونها اضرار بالنفس واذلال لها وأنت تعلم أن كل
أمر من الامور حقيرها وجليلها يحتاج الى معرفة لا بد منها وبدونها يكون العمل
ناقصاً وهذا شرب الماء على سهولته اذا لم يكن المرء عارفاً بكيفية تناول الكأس وادناؤه
من فيه لئلا يثابه ماء أبدون أن يروى كما ترى في الصبي المتزعزع عند ما يتناول كأس
الماء ومحاول أن يشربه فتتداركه أمه وتعينه على تعلم مسك القدح حتى يتقن عمله هذا
الذي تراه أنت بسيطاً

ومن أمثال العرب « لا تقع في البحر الا وأنت سابح » يضرب لمن يباشر أمراً
لا يحسنه . وفي الاثر نظر حكيم الى معلم رديء الكتابة فقال له لم لا تعلم تلاميزك
المصارعة؟ قال لا أحسنها قال هوذا أنت تعلم الكتابة ولا تحسنها وقال بعض الأدباء :
ان تكن ناسكا فكن كأويس أو تكن شاعراً فكن كابن هاني
كل من يدعي بما ليس فيه كذبه شواهد الامتحان

ومن الفكاهات ما قيل سمع الحسين بن علي عليه السلام رجلاً على كرسي يقول سلوني
عما دون العرش فقال له الحسين يا هذا شعر لحيتك زوج او فرد؟ فسكت متحيراً ثم قال
أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله أنه زوج لقوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين »
وقال مقاتل بن سليمان وقد داخله زهوء العلم سلوني عما تحت العرش الى اسفل من الثرى
فقام اليه رجل من القوم فقال ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل الثرى ولكن نسألك
عما كان في الارض وذكره الله في كتابه العزيز فأخبرنا عن كلب أهل الكف ما كان
لونه ؟ فأخذه . وروي أن مقاتل بن سليمان جلس يوماً فأعجبته نفسه فقال سلوني عما
دون العرش فقال له رجل آدم لما حج من حلق رأسه ؟ وقال آخر أمعاء النملة في
مقدمها أم في موخرها ؟ فلم يدر ما يقول ثم قال هذا ليس من عملكم ولكن أعجبني
نفسي فابتليت

ودخل اعرابي بلداً يوم جمعه فقبل له أدخل الحمام واغتسل وتطهر فدخل حماماً

فرلقت رجله ووقع فانشج رأسه وسال دمه وهو ينشد
 وقالوا تطهر انه يوم جمعة فرحت من الحمام من غير مطهر
 تزودت منه شجتي بمفرقي بفلسين يا خسران ما كان متجري
 وما تحسن الاعراب في السوق مشيها فكيف بأرض من رخام ومرمر
 ومن أمثال كليله ودمنه زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفيق وعلم وكان ذا
 فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره وكان ملك
 تلك المدينة ابنة فز وجها لابن أخ له فعرض لها ما يعرض للحوامل من الاوجاع فخيء
 بهذا الطبيب فلما حضر سأل الجارية عن وجهها وما تجد فأخبرته فعرف داءها وقال
 لو كنت أبصر لجمعت الادوية على معرفتي بأجناسها ولا أثق في ذلك بأحد غيري وكان
 في المدينة رجل سفيه فبلغه الخبر فأتاهم وادعى علم الطب وأعلمهم انه خير بمعرفة اخلاط
 الادوية والعقاقير عارف المفردة منها والمركبة فأمره الملك ان يدخل خزانة الادوية
 ليأخذ من أخلاط الدواء حاجته فلما دخل السفيه الخزانة وعرضت عليه الادوية وهو
 لا يدري ما هي ولا له بها معرفة أخذ في جملة ما أخذه منها صرة فيها سم نافع وخلطه
 في الادوية وسقى الجارية منها فماتت لوقتها فلما عرف الملك ذلك دعا بالسفيه فسقاها من
 ذلك الدواء فمات لساعته .

وحدثنا شاعرنا عبد المسيح الانطاكي قال استدعى الشاعر المعروف جبرائيل
 الدلال الحلبي حلاقاً ليحلق لحيته فألمه وجرحه فنظم فيه هذين البيتين
 يا بنس حلاق بليت به اذاقني مر العذاب الأليم
 يمينه كالطور ثقالوفي بنانه موسى وخدي الكلبم
 وفي البيت الثاني من الاستعارة ما يطرب الالباء . وقلنا في هذا المعنى :
 لا تبشر عملاً تجهله خوف خسران وذل وهوان
 وارجمن في كل أمر للألى يحسنون الصنع عند الامتحان
 كل أمر من أمور الناس في هذه الدنيا له سر يصان

(القدرة)

واعلم أن القدرة على ما تريد من الاعمال شرط لازم لها وبدونها يظهر عجزك
 ويضيع تعبك وما تنفق سدى فانك لو أردت مثلاً أن تشتري حقلاً أو جريباً من
 التخييل يجب أن تنظر الى ما عندك من المال لترى هل في قدرتك مشتري ما تريد

أم لا وكذلك إذا أردت أن تحمل حملاً فانظر إلى نفسك هل تطيق ذلك الحمل أم لا
وهلم جراً

قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه بأن يتعرض
من البلاء إلى ما لا يطيق » وقال أبو أمامة « من آذى الناس بلا سلطان فليصبر على
الهلوان » وقيل « من خاصم بغير حجة وقتال بغير نجدة وصارع بغير قوة فقد أعظم
الخطر واكثر الضرر » ومن أمثال العرب قولهم « عند النطاح يغلب الكباش الاجم »
يضرب مثلاً للرجل يمارس الأمور بغير عدتها فيخيب والاجم الذي لا قرن له . ومن
أمثال كليله ودمنه يقال « أن من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوى عليه
حمل نفسه على حتفها » :

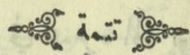
ومن أمثال العرب على لسان الحيوان زعموا أنه وقع بين السنور والارانب حرب
قضت الارانب إلى الثعالب تسومها الحلف والمعاضدة على السنور فقالت لها لولا اننا
عرفناكم ونعلم من تحاربون لفعلنا . ويقال أن الفرزدق مر بالفضل وهو يستقي وينشد
من يساجلني يساجل ما جداً . يملأ الدلو إلى عقد الركب
فزع الفرزدق ثيابه عنه وقال أنا أساجلك قال هذا ثقة بنسبه فقيل له هذا الفضل ابن العباس
بن عتبة بن لهب فرزدق ثيابه عليه وقال ما يساجلك الا كذوب . وقال بعض النبلاء :
هي العنقاء تكبر ان تصادا . فعاند من تطيق له عن ادا

وسأل أحد الابناء أباه وكان حكيماً ما الفرق ؟ قال ان تكون ذا أناة فتلاين الولاية
قال فما الحق قال ؟ معاداة امالك ومنازاة من يقدر على ضررك . وقالت الحكماء « مغضب
القادر كمجرب السم في نفسه فان هلك فقتيل حق وان نجح فطابق خنق » . وقالوا
الا تستبد بتدبيرك ولا تستخف بأمرتك فمن استبد بتدبيره ذل ومن استخف بأمره
ذل وقيل . من تعلق بنخصم هو أقوى منه فقد سعى في هلاك نفسه برجله ووضع تراب
لدمار على رأسه بيده . وقال شاعرنا الانطاكي في واقعة حال :

تجاوزت في هذه الحماقة حداها	وأنت تسمى ياسف فيه سليمان
فهل كنت كفواً للذي دون فضله	سيوف ومن حوله صعب وأعوان
وما فيهمو الا المنادي بنفسه	ليسلم من في فضله المجد ينصان
فيهنك خذلان وهينك حطّة	وهينك اذلال وهينك خسران
وكننت كوعلي يضرب الصخر قرنه	ويكسره والوعل مثلك حيوان

وقال الحارث بن همام حين قتل أخوه أبو جهل يوم بدر وآثر الفرار وغيره على فراره :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا كرشي بأشقر مربد
وشممت ريح الموت من تلقائهم موتاً ولا يؤذي عدائي مشهدي
ففررت منهم والاحبة فيهمو طمعاً لهم بآياب يوم مفسد
وذكروا ان أحد الاكاسرة كان يسمع حكيم العرب وأقوالهم ويروي أشعارهم
وأمثالهم فلما سمع هذا الشعر قال قاتل الله العرب لقد حسنوا كل شيء بأشعارهم حتى
حسنوا الفرار بهذا القول فلم يعد مكروها كما كان . ومن أمثال العرب « اذا رأيت
الريح عاصفاً فطامن » أي اذا رأيت الزمان غالباً لك فاخضع له وقال أبو الطمعان
بني اذا ما سامك الضيم قاهر عزيز فبعض الذل أوقى وأحرز
ولا تخش من بعض الامور تعزراً فقد يورث الذل الكثير التعزراً
ومن مثله قول صاحب كيلة ودنه « لا يرد العدو القوي بمثل الخضوع له ومثله
مثل الريح العاصف يسلم منها المشب للينه لها وانتنائها معها وتقصف فيها الاشجار الضخمة
لا تصابها » وقال بعض الاذكياء :
ومن يتشبث بالعداوة كفه با كبر منه فهو لا شك هالك
وما مثل هذا الامثل النملة الخفيفة التي نبتت لها أجنحة خفيفة فتحرر بها دواعي
الطيران فتتصور انها أصبحت كالنسور والعقبان وبمجرد ما ترتفع من الترى الى الهواء
تلتقمها عصفورة أو تحطفها أصغر الطيور وقد قال في ذلك الشاعر
اذا ما أراد الله إهلاك نملة سمت بجناحيها الى الطيران
وقال أحد الادباء في هذا المعنى :
يقول لك المقل الذي استوضح الهدى اذا انت لم ترد العدو فداره
وقبل يدالجاني الذي لست واصلا الى قطعها وارقب سقوط جداره
وهذا من قول العامة « اليد التي لا تستطيع عضها فقبها » وقال آخر في هذا المعنى :
اذا ما عدوك يوماً سبها الى حالة لم تطق وضعها
فقبّل ولا تأنّن كفه اذا أنت لم تستطع قطعها



وقلنا في تكليف النفس فوق طاقتها ما نجمله خاتمة لهذا المقال :

بني خذوا الامر عدته ولا تهملوا بأمر لا تطيقون فعله
فما كلف الانسان من فوق وسعه اذا باشر القرض الوجيب ونقله
وما الفضل في الاقوال ان لم يتمها بافعاله من رام يشهر فضله
وبعد فان الانسان اذا كلف نفسه ما تطيق عجز عن القيام بما تكلف على التحقيق
وقد قيل ما الحيلة فيما أعيا الا الكف عنه ولا الرأي في مالا ينال الا اليأس منه وقد
قال الشاعر:

وانزل اذا لم تجد للمر تقى سبياً فباسق العود برجو نازل السيل
ومن أمثال العرب « اذا ادعيت الباطل ألح بك » يضرب لمن يدعي الباطل
فيدال منه وأصله ان امرأة من العرب كانت تحت شيخ فرأت شباناً ينتعلون وهم قيام
فتمنّت أن تكون لاحدهم فقالت حبذا المنتعلون من قيام فقال زوجها أنا أنتعل قائماً
فلما باشر ذلك شرط فقالت المرأة « اذا ادعيت الباطل ألح بك » أي خصمك
فضرب قولها مثلاً

ومن أمثالهم « أرق على ظلمك واقدر بدرعك » يقال للرجل الذي يجاوز طوره
في الامر ومعناه ارفق بنفسك فانك ظالم لا تحمّلها مالا تطيق وذلك لان الظالم لا يكلف
بما يكلف به الصحيح وقولهم اقدر بدرعك أي تسكف ما تطيق ونحوه قال الشاعر:

فاعمد لما تقوى فمالك بالذي لا تستطيع من الامور يدان

وقال عمرو بن معدي كرب
اذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وقال الخليل كان يتردد اليّ شخص بليد يتعلم العروض ولم يعلق بخاطره منه شيء
فقلت له يوماً قطع هذا البيت « اذا لم تستطع ألح » فشرع في تقطيعه ثم نهض ولم يعد
فتعجبت من فطنته مع بلادته

ومن أمثال العرب « اشقي من راعي الضأن وهي ثمانين » لان الضأن تنفر من كل
شيء فيحتاج راعيها الى جمعها في كل وقت خلافاً للابل التي تتعشى فتربض
واعلم انه كما يقبح التكليف للنفس مالا يستطيع من المشاق كذلك يقبح تكليفها
لما يستطيع من الانفاق قال حبيب بن ثابت ما احتجت الى شيء استقرضه الا واستقرضته
من نفسي. أراد انه يصبر على نفسه في عمره الى يوم يسره . ومثل هذا قول الشاعر:

واذا غلا شيء علي تركته فيكون ارضى ما يكون اذا غلا

ولبعضهم في مثل هذا الممى :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقاً
فسل نفسك الأقراض من كنز صبرها
فان فعلت كنت الغني وان أبت
ومثله أيضاً

لا كلّف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يدك إلا بما تجود

وقال شاعرنا الانطاكى يعتذر عن كثرة انفاقه فاجاد :

ما احتيالى ومصر تطلب منى
وقعود بالبيت تطلب منى
وصغار لم يعرفوا غير هاتوا
وظهور في الناس هذا فلان
فاعذروني لا أنفق القرش الا
لدواع قهارة ورواغم

واعلم أن العجز وعدم القدرة من الاعذار العقلية والشرعية والعرفية فن أمثال
العرب « يتي ييخل لا انا » يريد أن ليس من اخلاقه البخل ولكن ليس في بيته ما
يجود به . وقال بعض الاذكياء

يرى المرء أحياناً اذا قلّ ماله
ولم يك ذا بخل ولكن ماله

ومن أمثال العرب قال الجدار للوتد لم تشقني قال سل من يدقني . ومن أمثالهم
على ما زعموه على لسان الحيوان : وقف جدي على سطح فرّ به ذئب فشتمه فقال له
الذئب ليس أنت الذي تشتمني ولكن يشتمني مكانك

ومن الاعذار المقبولة الاضطراب في ما لا مفر منه قال الخطيب في أربعينه ان امرأة
شهد عليها اليهود أنهم وجدوها في بعض مياه العرب مع رجل يطأها ليس ببعل لها
فامر عمر برجمها فقالت اللهم أنت تعلم اني بريئة فغضب عمر وقال وتجر حين اليهود
أيضاً فأمر أمير المؤمنين عليه السلام ان يسألوها فقالت كان لاهلي ابل فخرجت في ابل
أهلي وحملت معي ماءً ولم يكن في ابل بن وخرج معي خليط وكان في ابله لبن فنقد
مائي فاستسقيته فاني أن يسقيني حتى أمكنه من نفسي فايت الى ان كدت أهلك ظمأً
فأمكنته من نفسي خوفاً لهلكة . فقال عمر الله أكبر من اضطر في مخمصة غير متجانف

لائم فلا اثم عليه

وفي قصص العرب يحكى أن بائعة لبن كانت جميلة فمرت يوماً على شاب طائش فأراد أن يواقعها فطلب منها فأبت فاحتال عليها بأن تظاهر بأنه يريد أن يبتاع منها لبناً ولكن بعد أن يفحصه . ففتح نحياً وذاق اللبن ثم قال لها امسكي فم النحي حتى أخفص آخر ، وحاذري ان ينسكب اللبن على الارض ثم فتح نحياً ثانياً وفعل كما فعل بالاول . فلما رآها قد أمسكت بكلتا يديها فم النحين تمكن من مواطأتها قهراً لان خوفها على اللبن وهي فقيرة جعلها تتمثل صاغرة حتى قام عنها وساعدها على سد فم النحين (القربتين) فضربت العرب مثلاً « أخير من ذات النحين » . وفي هذا يقال الضرورات تبيح المحظورات

الامكان

ومن شروط اتيان الامور أن تكون في حيز الامكان فان كان الامر ممتنعاً أو مستحيلاً فلا معنى للتعني في سبيله والتكلف لاجله ولا عجب اذا كان السعي مثله خائباً

قال أمير المؤمنين عليه السلام « من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحق » وقال بعض العقلاء ما رددت عن حاجة قط ف قيل له وكيف ذلك ؟ فقال لاني لا أطلب الحال ومن أمثال العرب « طلب الابلق العقوق » يقال أعقت الفرس فهي عقوق ولا يقال حصان معق وذلك اذا حملت والابلق لا يحمل . وقال رجل لمعاوية افرض لي قال نعم قال ولولدي قال لا قال ولعشيرتي فتأمل معاوية بقول الشاعر

طاب الابلق العقوق فلما لم يجده أراد ييض العقوق

وقال رجل لمعاوية زوجني هنداً يعني أمه فقال انها قعدت عن الولد فلا حاجة لها الى الزواج قال نواني ناحية كذا فادار وجهه وتمثل بالبيت المذكور

وقيل مات مجوسي وعليه دين وترك ولداً له دار فقال بعض الغرماء وكانوا مسلمين لولده لم لا تبيع دارك وتسدد دين أبيك وتخفف عنه ؟ فقال لهم اذا بعثت داري وقضيت دين الي هل يدخل الجنة فقالوا لا فقال دعوه اذا في النار وأنا في الدار وقال الفضل بن عبد الرحمن لرقية بنت عتبة بن أبي لهب « أنظري لي امرأة معروفة بالنسب ، كريمة الحسب ، فائقة الجمال ، مليحة الدلال ، ان قعدت أشرفت ، وان قامت أضعفت ، وان مشيت ترفرت ، تروع من بعيد ، وتقر من قريب ، وتسمر من عاشرت ،

وتكرم من جاورت ، ودود ولود ، لاتعرف الا اهلها ، ولاتسمر الا بعلمها ، فقالت له يا ابن
العم اخطب هذه من ربك في الآخرة فانك لاتجدها في الدنيا
وقال أبو موسى المكفوف للنخاس الحميز اطلب لنا حماراً ليس بالصغير المحتقر ، ولا
بالكبير المشتهر ، ان خلا الطريق تدفق ، وان كثرت الزحام ترفق ، لا يدم في السواري
ولا يدخل بي تحت البواري ، اذا كثرت علفه شكر ، واذا قل عنه صبر ، وان ركبته هام ،
وان ركبته غيري نام ، فقال له النخاس اصبر أعزك الله فعسى الله أن يسخ القاضي حماراً
فتشتره وتبلغ حاجتك . وكما ان معاناة المحال محال كذلك تكليف الغير بعمل المحال هو
محال أيضاً . قيل وقف البهلول على رجل وقال أخبرني عن قول الشاعر « واذا نبا بك
منزل فتحول » كيف هو عندك ؟ قال جيد قال فاذا كان في الحبس فكيف يتحول ؟ فوجم
الرجل اما بهلول فقال ان الصواب قول غيره

اذا كنت في دار يسوءك أهلها
ومن هذا القليل قول الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقاله
وقلنا في هذا المعنى

لا تكلف سواك أمراً محالاً
لا تطيق اذا تكلفت فعلاً
وتفطن في كل أمر تنيط الـ
ناس فيه هل ممكن ذاك أم لا

وهذا كثير ما يحدث من ذوي المراتب العالية لنوابهم فيصدرون لهم الاوامر من
غير أن يتفطنوا ان كان في الامكان تنفيذها أم لا فيقع أولئك الاتباع في الاضطراب
وقد يتعدى الامر الى طرد بعضهم من الخدمة الى أن يفهم الأمر ان ليس الذنب على
من تهاون في تنفيذ أمره بل الذنب الاكبر على نفس الامر الذي أمر بما هو غير
قابل التنفيذ (١)

ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب قبج التصديق بالمستحيل أو الممتنع وهذا يوصل صاحبه

(١) انظر أيها القارئ الكريم الى هذا الامير الجليل وماله من النظر البعيد في
شؤون الاجتماع حتى ألم بقريب الامور وبعيدها ووقف على حقائق ما يجري حتى على
العلماء والعبيد واعبط معي من أتيح لهم ان يلتفتوا بحضرته ويتشرفوا بخدمته ويكونوا
في حاشيته حيث لهم سيد يعذرهم اذا قصروا ولا يكلفهم فوق وسعهم ليعتدروا ادام الله
عظمته بداراً في افق الكمالات ووقفه الى الابد من العزة والخيرات

الى الاعتقاد بالالوهام فيحسبها حقائق ويصبح على أثرها كثير الوساوس .
قال بعض العقلاء اذا أردت أن تعرف عقل الرجل في مجلس واحد فخذته في خلال
حديثك بما لا يكون فان أنكره فهو عاقل وان صدق فهو أحمق . ومن وصية لقمان
لابنه يا بني ان المغرور من وثق بثلاثة أشياء الذي يصدق ما لا يراه ، والذي يركن الى
من لا يثق به ، والذي يطمع في ما لا يناله . وقال علان الوراق رأيت العتابي يأكل خبزاً
على الطريق فقلت أما تستحي تأكل أمام كل هذه الخلائق ؟ قال رأيت لو كنت في دار
فيها بقر وأنت جائع أكنت تأكل أماءها أم لا فقلت نعم فقال هؤلاء بقر وان شئت
أنتك بالبرهان فانظر . قال هذا وعلا دكان بزاز وجعل يوعظ فاجتمع الناس من حوله فقال
روي من غير وجه ان من بلغ لسانه ارنبة أنفه أدخله الله الجنة فلم يبق أحد الا أخرج
لسانه وهو يحاول إيصاله لارنبة أنفه كما تفعل البقر ثم نزل فقال لصاحبه كيف رأيت ؟
ومن هذا الباب ما رواه لنا شاعرنا عبدالمسيح بك أنطاكي . قال عندنا في مصر بعض
أصحاب الجرائد تتلاعب بنشرياتها على ما تشاء وهي لا تحسب حساباً لقراءها في كذب
تخيلقه أو أفك تلفقه فتصور البياض سواداً والباطل حقاً . قال الانطاكي فدخلت مصر
وأنا حديث في حرفة الصحافة فوجدت الصحف على هذه الحالة فاجتمعت على بعض
رصفائي وسألتهم أما تخافون تكذيباً وتشهيراً بما تنشرون ؟ قالوا ومن ؟ قلت من الرأي
العام قالوا انك حديث في هذه الصنعة أفتهن بوجدشي اسمه رأي عام ان الرأي العام نحن
نسكونه بنشر يأتنا على الشكل الذي نريده قال الانطاكي وبعد أن قدمت في صنعة الصحافة
انضح لي أن مقاله الرصفاء هو الحق وظهرت لي عظمة الصحافة وسرر تخوف الحكومات
من الصحفيين الذين هم في الحقيقة قادة الرأي العام اه
ومن هذا الباب أيضاً ما حكى من أن رجلاً من جنود السلطان كان كلما دخل حماماً
يدّعي على أهله بالباطل من سرقة ثوب أو مال حتى يغرمهم فاتفق أهل الحمامين على
منعه من الدخول فأتى حماماً وأظهر التوبة والندم على أن لا يعود الى ما كان عليه
فسمحوا له فدخل وخام ثيابه فأمر صاحب الحمام خاديه أن يسرق بعض ثيابه سوى
سيفه وخنجره ومنطقته . فلما خرج ليلبس ثيابه لم يرها . على أنه لم يتجاسر على الكلام
غير انه تمنطق بمنطقة وشك سيفه وجعل يتجول في الحمام ويقول يا صاحب الحمام أنا
لا أتكلم ولكن أين الانصاف هل جئت الى حمامك على هذه الهيئة فضحك صاحب
الحمام وأعاد اليه ثيابه

الروضة الثالثة

« في الموانع والمحظورات »

تحدث موانع ومحظورات تستلزم ارتكاب أمور لولاها لما ارتكبت . منها اطراد الامر حتى لا يمكن معه الاستثناء أو التبعيض كما قيل أن هام بن مرة الشيباني أغار على بني أسد وكانت أمه أسدية فجعل يسبي النساء فقالت امرأة منهن أبخالاتك تفعل هذا يا هام فقال كل ذات صدار خالة وغي بذلك أن النساء سواء في نظره فلو اجتنب نسوة بني أسد لاضطر أن يجتنب غيرهن وبذلك يمتنع عن الغزو

ومن هذه المحظورات استلزام تغيير عادة كما روى الميداني في المجمع ان امرأة من بنات بعض الملوك كانت تسمى أرقش فسافر الملك وكان لهم موضع اذا فزعوا دخنوا فيه فاذا أبصره الجند اجتمعوا وان جواربها عثنت ليلة فدخلوا وجاء الجند فلما اجتمعوا قالت لها نصائحها انك ان رددتهم ولم تستعملهم في شيء ودخنت مرة أخرى لم يأتك منهم أحد فأمرتهم فبنوا بناءاً دون دارها فلما جاء الملك سأل عن البناء فأخبروه فقال على أهلها جنت براقش

ومن الموانع لزوم النقص من انكار المنكر مع ارتكابه بعد انكاره ومن الاول ما جاء في الحديث « أحق الناس من أنكر من غيره ما هو مقيم عليه » وقول بعض الحكماء « لا تبكتن أحداً في الظاهر بما تأتية في الباطن » وقال ابن عباس « اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذا ذكر عيوبك » وقال بعض العلماء يا ابن آدم انك لن يكمل عقلك حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصاحبه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا ومن بعض كتب القدماء ليس للحكيم أن يعيب امرءاً بشيء فيه مثله ويكون كالاعمى الذي يعير الاعمى بعماه ومن الثاني قالوا من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم ارتضاها لنفسه فذلك هو الاحق بعينه . وقال الشاعر :

لا تلم المرء على فعله فأنت منسوب الى مثله

من ذم شيئاً وأتى مثله فأما دل على جهله

ومن أمثال العرب قولهم « لا تنه عن خلق وتأتي مثله » أخذه الشاعر فقال :

لا تنه عن شيء فتأتي مثله عار عليك اذا فعلت ذم

وقال آخر :

إذا أنت عبت المرء ثم أتيت به فأنت ومن تروي عليه سواء
 وقلنا في هذا المعنى :
 من عاب بالسواآت اخوانه فليكُ ممن لا يحجب المعاب
 ومن أطال عتب اخوانه فليتوقع مؤلمات العتاب
 ومن يداري الصحب بات ومن حوله رهط من وفي الصحاب
 وقال أبو الدرداء « علامة الجاهل ثلاث العجب وكثرة المنطق واتيان ما ينهي عن
 اتيانه » وأخذنا هذا فقلنا :

وأجهل الناس امرئ معجب بنفسه ومكثر للكلام
 ومن إذا تنهأ لا ينتهي عن غيبه ولو أطلت الملام
 ومثله أخلق بان يزدرى بأمره وشأنه كالطغام
 وقال بعض العلماء إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكُن أول من يعمل به والا هلك
 وأن لا ترضى لنفسك ما نهيت سواك عنه. وقال شاعرنا الانطاكي
 ويضحكني من يكثر النصح لأئمة ويأتي بأسوا ما يلوم وينصح
 ولو كان ممن ينصف الناس عادلاً لبات وفيما ينصح الناس يمدح
 ومن الموانع التنبيه والالتزام. من ذلك ما أوصى لقمان ابنه فقال له يا بني إذا سألت
 الناس فقل لهم لا أدري فانك إذا قلت لهم أدري سألوكم حتى لا تدري وان قلت لهم
 لا أدري لا يسألونك حتى تدري
 وقال بعض العلماء لا ينبغي للعاقل ان يصف لاهله طعاماً لا يريد أن يطعموه أو
 لباساً لا يريد أن يلبسوه

ويكفي اللبيب عظة ما قيل أن امرء القيس الذي بنى قصر الخورنق للنعمان كان
 واقفاً يوماً بين يدي الملك وذكر القصر وحسن بنائه فاعتز وقال والله أقدر أن أبني
 قصراً بديعاً كلما مضت ساعة من النهار تلون بلون الشمس فغضب امرء القيس وقال
 قصرت في حقي فأمر به فألقي من أعلى القصر فراح ضحية غروره وهو القاتل
 لنفسه بعدم ترويه وتدبر لوازم ما يصدر عن فيه

ومن الموانع عود الضرر فان من لا يتصور ما يعود عليه من الامر الذي يعمله
 يعود ضرره اليه. ومن ذلك ما في أمثال العامة قولهم « لا تبُل على أكمة » ومعناه لا تفعل
 شيئاً يعود ضرره عليك وأصله أن يبول الرجل على أكمة فيردّ الريح بوله فينضح عليه

أو ترده الائمة لصلابتها والائمة الجبل الصغير

قال الشرقي بن النظامي كان لقمان من بني صدق تزوج امرأة تسمى براقش وكانوا لا يأكلون لحوم الابل فأصاب من براقش غلاماً فنزل مع لقمان في بيت أبيها فأولموا ونحروا الجزر فراح بن براقش الى أبيه بعرق من الجزور فأكله لقمان فقال يا بني ما هذا فما تعرفت طيباً مثله فقال جزور نحرها اخوالي فقال وهل لحوم الابل في الطيب كما أرى؟ فقالت براقش جئنا أي أطعمنا الجمل واجتمعت أي أنت نفسك كل الجمل وكانت براقش أكثر قومها ابلا فأقبل لقمان على ابائها فأسرع فيها وفي ابل قومها وفعل ذلك بنو أبيه لما أكلوا لحوم الجزور فقبل على أهلها تجني براقش وأصبح القول مثلاً ولا تنس لقد مرت بك قصة هذا المثل على وجه آخر ويراد من الشاهد المعنى

وفي كتاب العرائس لأبي الفرج الجوزي ان بعض طلبية العلم خرج من بلاده فرافقه شخص في الطريق فلما اقتربا من المدينة قال الرفيق للطالب قد صار لي عليك حق وذمة وأنا رجل من الجان ولي عليك حاجة قال وما هي؟ قال اذا أتيت مكان كذا وكذا فأنت تجد فيه دجاجات بينهن ديك أبيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتي اليك قال فقلت يا أخي وأنا أيضاً أسألك حاجة قال وما هي؟ قلت فاذا كان للانسان مارد لا تعمل فيه العزائم وألح بالآدمي منا مادواؤه؟ قال يؤخذ له وتر قدر شبر من جلد اليعمور ويشد به ايهام المصاب من يده شداً وثيقاً ثم يؤخذ له من دهن السداب البري ويقطر في أنفه الايمن أربعاً وفي الايسر ثلاثاً فان الماسك به يموت ولا يعود الى أحد من بعده قال الطالب فلما دخلت المدينة أتيت الى ذلك المكان فوجدت الديك لعجوز فسألتها بئعه فأبت فاشتريته منها بأضعاف ثمنه فلما اشتريته وتملكته تمثل لي صاحبي من بعيد وقال اذبحه اذبحه فذبحته فخرج عليّ عند ذلك رجال ونساء وجعلوا يضربونني ويتولون يا ساحر فقلت والله لست بساحر فقالوا انك منذ ذبحت الديك أصيبت شابة عندنا بجني وانه منذ ذاك مسكها ولم يفارقها فطابت منهم وقرأ قدر شبر من جلد يحمور وشيئاً من دهن السداب البري فأثوا بهما فشددت ايهام يدي الشابة شداً وثيقاً وفي الحال صاح صاح من داخلها قائلاً قاتلك الله أنا علمتك على نفسي ثم قطرت من الدهن في أنفها الايمن أربعاً وفي الايسر ثلاثاً فخرّ الجني في الحال ميتاً وشفى الله تلك الشابة ولم يعاودها بعده شيطان ولا جان

وأعجب ما يحكي في هذا المعنى أن رجلين كانا متجاورين بيت بيت احدهما تاجر

والآخر نجار ثم ان التاجر دخل الحمام فوجد جاره النجار فسلم عليه وترحب به وقيام
 النجار بخدمة جاره التاجر فوقعت عين التاجر على حين غفلة على قبل النجار وهو بلا
 فوطه واذا قبله كبير ضخيم يشبه آلة الحمار فتمعجب التاجر ولما جاء الى بيته قال لزوجته
 يا لله العجب كيف لا تنفري زوجة النجار منه فقالت على أي شيء ياسيدي؟ فقال رأيت اليوم
 في الحمام فأنكشفت عورته فرأيت قبله كبيراً وافرأ يشبه آلة الحمار في الطول والغلظ
 فقالت اسكت « جبه القرف » لو كان هذا زوجي ما قدمت معه ساعة. قالت هذا ولكن
 صار في نفسها شوق الى النجار وما صدقت ان خرج زوجها الى دكانه حتى عمدت الى
 مفتاح الباب ففكسرتة وأرسلت خلف جارها النجار فجاء فقالت له أصلح لنا مفتاح هذا
 الباب فقال سمعاً وطاعة ياسيدي ثم جلس لتصايح المفتاح فاذا بها قد لبست أنفخراً عندها
 وجاءت بلا لباس فمشت بين يديه ووقعت عمداً فأنكشفت عورتها فرأها النجار ثم عمدت
 الى قفقه ومسكت المبرد وقالت له ما هذا؟ فقال مبرد فقالت بردك المبرد ثم مسكت المنقب
 وقالت ما اسم هذا؟ قال منقب قالت ثقبك المنقب وهكذا جعلت تأخذ ما في القفة وتسأله
 عن اسم ما فيها وهو يرد عليها وتضحك منه الى أن ابرمته فأخرج ذكره وقال وهل
 تدرين ما اسم هذا؟ فأظهرت الاستحياء تصنعاً وأدارت وجهها فلم يخف ذلك على النجار
 ثم ان النجار اختط على الارض حلقة واسعة وقال دعيني أعمل المفتاح ولا تكلميني
 ومن دخل هذه الحلقة وطئته لاحالة. فأسرعت الى الحلقة وقعدت في وسطها فأسرع
 النجار وطرحها على قفاها ونال أربه منها فوقعت محبته في قلبها. فلما قام عنها وأراد
 الانصراف أعطته أضعاف أجرته فانصرف داعياً لها وقال ياسيدي لقد أصبحت من
 جملة عبيدك ولا أحول عنك أبداً فمضى وجدت غفلة من الرقيب ارسلني لي وانصرف
 تاركا حلقة في مكانها. قال الراوي وكان لتلك المرأة ولد صغير فانتبه لما كان فلما جاء
 أبوه أسرع اليه وقال له اياك والحلقة فان يدخلها يطأه جارا النجار فانتبه التاجر
 الى ما حدث في بيته وندم على ما كان منه بحكايته عن قبل النجار لزوجته وطلقة في الحال
 وذكر صاحب عيون التواريخ وغيره ان المأمون مر يوماً على زيده أم الامين فرأها
 تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه فقال لها يا أماه أتدعين عليّ لاني قتلت ابنك وسلبته ملكه
 فقالت لا والله يا أمير المؤمنين قال فما الذي قتله قالت يعقيني أمير المؤمنين فألح عليها وقال
 لا بد ان تقولي قالت قلت قبّح الله الملاححة قال وما سبب ذلك قالت لقد لعبت يوماً
 الشطرنج مع أبيك الرشيد على الحكم والرضا فغلبني فأمرني أن أتجرد من ثيابي

وأطوف القصر طرية فاستعفيتها فلم يمضي فامتلئت وتجردت من ثيابي حائقة وطفقت القصر ثم عاودنا اللعب فغابته فأمرته أن يذهب الى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوها خلقه فاستعفاني من ذلك فلم أعفه فبذل لي خراج مصر والعراق فأبيت وقلت والله لتفعلن ذلك فأبى فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به الى المطبخ فلم أر جارية أقبح وأقذر وأشوه خلقه من أمك مراجل فأمرته أن يطأها فوطئها فعلمت منه بك فكنت سبياً لقتل ولدي وسلبه ملكه . فولى المأمون هاربا وهو يقول لعن الله الملاححة فلو لم ألح عليها لما أسمعني ما سمعت

ومن هذه الحكايات يتنبه العاقل الى التحرز من فعل كل ما يمكن أن يعود عليه بضرر على قدر امكانه كما يتنبه الى وجوب حفظ لسانه فانه ليس كل ما يعلم يقال ومن المحظورات لزوم الاشتراك في الضرر قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل رآه يسعى على عدو له بما فيه الاضرار بنفسه « انما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفه » والردف هو الذي تردفه خلفك على فرس أو ناقة

ومن لطائف المنقول كان في بعض البلدان رجلان عدلان من العدول وكان بينهما من الحسد والعدوان ما يود كل واحد منهما قتل الآخر . فمرّ أحدهما مع فاجرة كان يحبها فأبصرهما الشرطي واستاقهما الى الحبس . فلما سمع العدل الثاني أسرع الى زوجة الحبيس وقال لها أيتها المسكينة ان زوجك الحبث في الحبس مع احدى العواهر فخفي عنك الغيرة وأسرعني اليه فخلصيه . فقالت له ويلى وماذا أصنع ؟ قال بادري الى باب السجن وأظهري الشماتة به وأعطي السجن شيئا ليدخلك عليه على أنك تصفيعه فاذا دخلت فخذي ثياب الفاجرة وأعطيها ثيابك فتخرج كأنها أنت وتجلسين عند زوجك ثم تحتالين بعد ذلك في خلاصه من ورطته . ففعلت المرأة ما أمرها حتى اذا ما بلغت السجن رشت الشرطي وطلبت منه أن تدخل على زوجها لتصفعه فدخلت وخرجت البغية بثيابها ثم مضى ذلك العدل وجمع عدول البلد وهو ينادي ان قد زالت حرمة العدالة فليل له ولم ذلك ؟ قال فلان العدل أراد أن يخلو بأهله في بستان فظلمه الشرطي وأتهمه وحبسه هو وزوجته فأسرع العدول الى القاضي وشرحوا له الحال فغضب القاضي غضباً شديداً وسار بهم الى باب السلطان وشكوا حال العدل مع الشرطي وما ابتلي به من النعمة فأمر السلطان بالكشف عن المرأة فتبينت عند كل الناس أنها زوجته فأطلق من السجن وعوقب الشرطي عقاباً شديداً . فقال العدل للعدل الذي حبس وأهين : اعلم اني انصرتك

حجاً بك ولا قربة لله تعالى والعداوة بيننا على ما تعهد بل هي الآن أعظم وأشد وأما نصرت جنسي ودفعت الضرر عن نفسي للقدر المشترك بيني وبينك من اسم العدالة . نقول وهكذا يجب على كل قوم يشتركون في القدر أو الصنعة أن يكونوا متضامين في دفع الضرر الذي يقع على أحدهم فينالهم جميعاً

ومثل هذه الحكاية ما رواه أحد الثقات قال قبض على رجل من البابية وحي به الى نجيب باشا والي بغداد فقال الوالي لا أقتله الا بفتوى المذاهب الخمسة . حكمت المذاهب الاربعة بقتله فأمر الوالي باحضار الشيخ موسى بن الشيخ جعفر النجفي فلما حضر أفتى بجرمة قتله وأبطل ما أفتي به على المذاهب الاربعة بأدلة واضحة فلام الناس الشيخ بعد ذلك فأجابهم لقد لاحظت من شر العواقب فيما لو قتل الرجل ما لم تلاحظوه فان هذا البابي عليه اسم التشيع فلو حكمت بقتله وقُتل يشيع الخبر بأن عالماً من علماء الشيعة قتل لظهور كفره ولا يقولون بأنه كان بابياً فتحاشياً من أن تلبسنا هذه السمعة السيئة أفتيت بجرمة قتله محانظاً على عرض الشيعة لا حفظاً لحياة البابي

نقول كما ينبغي للعاقل ان يدفع الضرر عما يلزم منه الاشتراك ولو كان عدواً لدوداً ينبغي أيضاً أن يجلب النفع لمن يلزم منه الاشتراك في النفع ومنه قولهم في الامثال « احلب حلباً لك شطره » وعلى هذه القاعدة وضع الفرنجة في هذا العصر قاعدة التضامن بين اصناف الناس المشتركين في المنافع والمضار بحيث ترى اصحاب كل حرفة متضامين على جلب المنافع ودفع المضار فيعتصبون ويتوقفون عن العمل اما طلباً لزيادة أجورهم أو لانقاص ساعات عملهم أو لدفع ضيم عليهم من حكومتهم وتقرأ في الجرائد أنباء اعتصابهم حيث يفوزون غالباً باغراضهم

ومن الموانع أيضاً انتظار سوء العقبى . قال بعض الحكماء « لا تصغر أمر من حاربت فانك اذا ظفرت به لم تحمد وان عجزت عنه لم تعذر » وحكي عن الاسكندر انه قصد موضعاً حاربت به النساء فكيف عنهن وقال هذا جيش ان غلبناه فما لنا من خفر وان غلبنا كان ذلك علينا فضيحة الدهر .

ومن الموانع سوء الذكر قيل ان المهدي قعد قعوداً عاماً للناس فدخل عليه رجل وفي يده نعل ملفوف في منديل فقال يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله قد أهديتها اليك فقال هاتها فدفعها اليه فقبّل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم . فلما أخذها وانصرف قال المهدي جلسائه أترون اني لم أعلم أن رسول الله صلى

الله عليه وآله لم يرها فضلاً عن ان يكون قد لبسها. واسكن لو كذبناه لخرج وقال للناس اتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله فردها علي وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره لما تعلمون من جهل العامة وميلهم الى تصديق ما يسمعون والانتصار للضعيف على القوي وان كان ظالماً. ولهذا اشترينا لسان الرجل وقلنا بتصديقنا قوله وقبولنا هديته وحكي ان المأمون بلغه ما كان عليه كسرى من العدل فقال في أحد مجالسه بلاني أن الارض لا تبلي أجساد الملوك العادلين وقد عزمت على أن أختر هذا القول بكسرى. فتوجه الى بلاد الاكاسرة وفتح قبر ذلك الملك ونزل اليه وكشف عن وجهه فاذا هو في غاية الرطوبة والنياب التي دفن بها باقية على جدتها لم تتغير وكان في أصبعه خاتم من الياقوت الاحمر ليس في خزان الملوك مثله وعليه كتابة فارسية فاندعش المأمون مما رأى وقال هذا رجل مجوسي يعبد النار ولم يصيغ الله ما كان يفعله من العدل. وكان مع المأمون غلام خصي فغافله وأخذ الخاتم المذكور فلما علم المأمون أمر بضرب الغلام ونفيه الى السند واعادة الخاتم الى أصبع كسرى كما كان وقال ان هذا الغلام يريد أن يفضحنا بين ملوك العجم حتى يقال كان المأمون نباشاً للقبور ثم أمر أن يسبك على قبر كسرى بالرصاص حتى لا ينتج بعده.

وقال ابو الاسود الدؤلي لبنيه اني احسنت اليكم صغاراً وكباراً وقبل ان تولدوا فقالوا يا أبانا قد علمنا احسانك الينا صغاراً وكباراً فما احسانك الينا قبل ان نولد؟ قال طلبت لكم موضعاً في النساء لئلا تـُـسـيـروا واعلم كما ان ملاحظة سوء الذكر مانعة فملاحظة حسن الذكر باعثة. فقد حكي أن المغيرة بن شعبه لما ولي الكوفة سار الى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها فقالت من انت؟ قال المغيرة بن شعبه انفقني قالت ما حاجتك؟ قال جئت خاطباً قالت انك لم تكن قد جئتني لمال ولا جمال ولكن اردت ان تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر او يقال عنك ان ابنة النعمان تزوجها المغيرة والا فأني خير في اجتماع عمياء واعور؟ ومن هذا الباب ملاحظة أحياء الذكر في الافعال، كما يقال أن معاوية غرس نخلا في مكة في آخر خلافته فقال ما غرسها طمعاً في ادراكها ولكن ذكرت قول الاسدي: ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا تكون له في الارض آثار ولما كان عبد الله بن جعفر عند معاوية في الشام أخبروه بولده فآخبر معاوية

فأعطاه خمسمائة ألف درهم على أن يسميه معاوية فسماه وقال معاوية أشترى بها اسمي حتى لا يضيع

واعلم أن الناس عموماً من أكبر الملوك إلى أصغر الصعاليك يدأبون في تخليد آثارهم كل على قدر طاقته واجتهاده وما خلفات الغابرين العظيمة كاهرام مصر وتماثيل آشور وبابل إلا من هذا القبيل وقد قال الشاعر :

تلك آثارنا تدلُّ علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار
وقلنا في أحياء الذكر :

إذا استبحال على الناس الخلود بندي
دنيا وكان الفنا يدنو لهم عجلاً
مالوا لتخليد آثار تذكر من
يحجيء بعدهم ما فقد مضى وخلا
ان السعيد الذي يبقى لامسته
ذكر أحمداً فلا يعدو عليه بلى
ومن يبيت على كرر الليالي إلى الأ
حسان والبر فيهم تضرب المثالا

الروضة الرابعة

في مقدار النفع والضرر

اعلم أن ما يعالج من توطئة الأمور إما أن يكون نفعاً صرفاً أو ضرراً محضاً أو أن يكون فيه نفع وضرر . أما ما كان صرف نفع أو محض ضرر فهذا لا كلام عليه والمراء يأتيه أو يمتنع عنه وهو على بينة من أمره أما ما اشترك فيه النفع والضرر فهو موضع البحث في هذه الروضة . فمن الأمور ما يزيد ضرره على نفعه وبالعكس ما يزيد نفعه على ضرره أو ما يتساوى فيه النفع والضرر فهذه ثلاثة أقسام يجب أن نبحث فيها ونضرب عليها الأمثال عبرة وذكرى لقوم يذكرون فيعتبرون

(ما يزيد ضرره على نفعه)

اعلم أن كل أمر يزيد ضرره على نفعه ومؤنته على ثمرته وتعبه على لذته لا يأتيه عاقل يقدر العواقب . قال الضحاك بن مزاحم لرجل ما تصنع بشرب النبيذ ؟ قال يهضم طعامي قال أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر ؟ وقيل لبعض الأذكياء ما تقول في فلان وفلان قال هما الحمر والميسر انهما أكبر من نفعهما . ومن أمثال العامة « من قلة تدبيره حنطته أكلت شعيره » وأصل المثل أن رجلاً كان عنده حنطة وشعير فباع الحنطة واشترى بها فرساً ثم علف الشعير الفرس حتى نفد

ومن نوادر أبو الاسود الدؤلي أنه اشترى حصاناً بتسعة دنانير ومضى إلى داره

ونام فلما استيقظ سمعه يعضم فقال ما هذا؟ قالوا الحصان يأكل شعيره فقال لا أترك في مالي من أنام وهو يتلفه وأعرض عما يزيد وينميه. وفي اليوم التالي باع الحصان واشترى أرضاً للزراعة

وذكر الميداني في مجمع الامثال ان قوماً من اللصوص استحضروا احدي الفواجر فقصوا منها أوطارهم ثم أعطوها قربة زيت كانت عندهم اذ لم يحضرهم غيرها فقالت المرأة لأريدها لاني أحسبني علفت من أحكم وأكره أن يكون مولودي ابن زنا زيت. فذهب قولها مثلاً لكل ما يزيد ضرره على نفعه

وقال أيضاً فيه: ان فاقوة امرأة مرّة الاسدي كانت من أجمل النساء في زمانها وان زوجها غاب عنها أعواماً فهويت عبداً عندها حايماً كان يرعى ماشيتها فلما هممت به أقبلت على نفسها فقالت يا نفس لا خير في الشره ، فانه يفضح الحره ، ويحدث العره ، ثم أعرضت عنه حينئذ هممت به فقالت يا نفس مودة مريجة ، خير من الفضيحة ، وركوب القبيحة ، واياك والعار ، ولبوس الشنار ، وسوء الشعار ، ولؤم الدثار ، ثم هممت به وقالت ان كانت مرّة واحدة ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم الائدة ، ثم جسرت على أمرها فقالت للعبد احضر يتي الليلة فأتاها فواقعها وكان زوجها فائقاً مارداً وكان قد غاب دهر أتم أقبل آيما فيينا هو يا كل اذهب غراب فأخبره ان امرأته لم تفجر قط الا تلك الليلة فركب مرّة فرسه وسار مسرعاً رجاء ان هواحسها منعها فاتمى اليها وقد قام العبد عنها وندمت وهي تقول خير قليل وفضحت نفسي فسمعها مرّة فدخل عليها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له ما يرعدك؟ قال خير قليل وفضحت نفسي فعلمت انه علم بفجورها فشبهت شهقة وماتت فقال مرّة:

لحي الله رب الناس فاقد ميتة وأهون بها مفقودة حين تفقد
لعمرك ما تعتادني منك لوعة ولا أنا من وجد عليك مسهد

ثم قام الى العبد فقتله وذهبت كلمتها مثلاً « وهي خير قليل وفضحت نفسي »
ومن هذا الباب ما قاله بعضهم رأيت مجنونين يتنازعان رغيفاً يؤثر كل واحد منهما صاحبه به وهما يتقاسمان عليه. فقالت لهما وأنا اظن ان اربح عليهما انا آكله ان لم تأكلاه فقال احدهما يا أحق ان معه اداما لا يسوغ الا به قلت وما هو قال ضيق الخناق ووجيء العنق فوليت عنهما فقالا با مجنون لولا غضاضة الادام لا كنا منذ حين
ومن هذا القميل ما قيل « من طمع من الناس بذره طمعوا منه بيدرة وان اخذت

منهم دينارا اقتطعوا من مالك قنطاراً «
 واحسن ما يرسم في هذا الباب قول امير المؤمنين عليه السلام من وصيته للحسن
 عليه السلام « واكرم نفسك عن كل دنيئة وان ساقتك الى الرغائب فانك لن تعتاض
 مما تبذل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خير خير لا ينال
 الا بشرويس لا ينال الا بعسر » ومن الطف ما يرسم في هذا الباب قول أبي حيان :
 خلقنا لامرٍ لوعلمنا خفيته لما حببنا المرء ليلي ولابلنا
 ولكن جهلنا فاستراحت نفوسنا وما تلك الا راحة تعقب الحزن
 واعلم ان أكثر مشتهيات النفوس يغلب ضررها على نفعها وشرها الزنا الذي
 انتشر انتشاراً مخيفاً في البلاد التي دخلت التمدن الحديث على أسلوبه الا فرنجي فجعل
 الشبان يتأخرون في الزواج ويتلهون بالفواجر ونجم عن ذلك انتشار الامراض النسائية
 كالزهري والسيلان . قالوا ان في مصر والاسنانة لا يسلم شاب من مئة من أحد هذين
 المرضين وهكذا قل عن بلاد أوروبا حيث بلذة وقتية يكسب الانسان آلاماً واسقاماً
 طويلة وقد يفضي به الامر الى الموت ولهذا بحث طويل ليس موضعه هنا . وقلنا في
 الموضوع هذين البيتين :

لا تبأشر عملاً ان لم تكن عارفاً ما النفع منه والضرر
 واذا بأشرته جهلاً به فتوقع يا ابن وددي منه شر
 « ما يزيد نفعه على ضرره »

واعلم ان كل أمر يزيد نفعه على ضرره فهو مرغوب فيه لالوم على السير فيه لان
 مالا نفع منه ولا ضرر قل أن يوجد في أمور الناس
 قالوا ان جيشاً كان فيه الفرزدق فقال صاحب الجيش من جاءني برأس فله خمسمائة
 درهم ثم برز صاحب الجيش فقتل فبكى أهله عليه . فقال الفرزدق أما ترضون رأس
 برأس وزيادة خمسمائة فذهب قوله مثلاً
 وذكري في الكشف في تفسير قوله تعالى « ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة »
 ان بعض جفأة الاعراب سرق ناختة مسك فتليت عليه هذه الآية فقال اذن احملها طيبة
 الريح خفيفة المحمل
 وقالوا في أمثالهم « بمنل جارية فلتزن الزانية » وجارية هو ابن سليط وكان حسن
 الوجه فرآته امرأة فمكنته من نفسها وحملت فلما علمت أمها بحملها لامتها ثم رأت الام

جمال ابن سليط فعذرت ابنها وقالت بمثل جارية فلترن الزانية في السر أو العلانية
وقال الشاعر :

ان تهو بدراً فليكن ابن الخليفة ذي السرير
وابناً لسلطان الوري أودا الوزارة أو أمير
وتجنب الاوغاد وال غوغا وذا القدر الحقيق
ان الخطير هو الذي قد قام بالامر الخطير

وهذا الموضوع لا يحتاج لبحث طويل لانه من البديهيات التي لا تحتاج الى تفكير
« ما يشترك بين النفع والضرر »

أما ما يشترك فيه النفع والضرر فاليه يجب أن يتنبه الفكر بحيث ان المرء عندما يقدم
على العمل ويجد فيه خيراً وشرّاً ان يراجع فكره ويعمل رويته فاذا رجح خيره على
شره أقدم عليه واذا رجح شره على خيره احجم

قالت الرب في الامثال « حبذا التراث لولا الذلة » يضرب لشيء فيه خصال محموده
واخرى مذمومة. وذلك ان الرجل اذا مات أقاربه ورث أموالهم واستغنى الا انه في
الوقت نفسه يذل لهلاك أنصاره فهو والحالة هذه يحب التراث ولكن يكره الذلة التي
تعقبه بفقد أنصاره وقال الغزالي من هذا القبيل

ذهب الكرام فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردى بالسؤدد
ومن أمثالهم « شقيت نفسي وجدعت أنفي » أي من جهة نلت مرادي ومن الجهة
الآخرى لقيت ما أكره وأنشد أبو تمام لقيس :

فان أكُ قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم الا بناني
وقال الآخر :

ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كانا لانبالي
وقلنا في هذا الموضوع :

تدعون لو انا نقاسمكم حيا تكم وأعوام الاله كثير
ماضر لو انا نعيش وأنتم عيشاً يصاحبه هنا وسرور (١)

(١) كنا يوماً في خدمة ولي النعم الشيخ المعز المعظم فجاء عيد رمضان المبارك فاخرج
عظمته لكل واحد منا ونحن في بابيه معاشر العلماء والادباء والشعراء الكساوي والمنحوما

وروي أن أعرابياً باع شيئاً من أعرابي آخر إلى نسيئة وزاد في الربح كثيراً فقال المشتري :

يلوي بنان الكف يحسب ربحه ولا يحسب المطل الذي أنا ماطله
ومن دون ما يرجو غناء مبرح أو آخره ما تنقضي وأوائله
ومن أمثال العرب « ثمرة الجبن لاربح ولا خسر » وهذا كقول العامة « الجبان لا رابح ولا خسران »

وضل لأعرابي بعير خلف أن وجدته ليبيعه بدرهم واحد فوجده فلم يحتمل قلبه أن يبيعه بذلك الثمن فعمد إلى سنور وعلقه في عنقه وأخذ ينادي على الجمل بدرهم والسنور بخمسمائة درهم ولا يبيعهما إلا معاً فمر أعرابي به وقال ما أرخص الجمل لولا القلادة

وكان يقال مثل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسداً مثل الماء العذب الصافي فيه التماسح لا يستعاضع الإنسان وإن كان ساجداً وإلى الماء ظمأً دخوله حذراً على نفسه وشكى رجل إلى أبي العيناء سوء حاله فقال له ابشر فإن الله رزقك الإسلام والعافية فقال أجل ولكن بينهما جوع يقاقل الكبد

اكتفى أعزه الله بذلك بل أنعم علينا بعطايها محوالة إلى المصارف في بلادنا لترسلها إلى عيالنا فلم يبق منا إلا من شكر وحمد ودعا ثم وقفت بين يدي عظمته حفظه الله وقلت اتنا يا مولاي نعيش مع أهاليينا وأولادنا بفضلك ونجز عن قضاء واجب شكرك وحمدك فمالنا إلا أن نسأل الله عز وجل أن يضيف إلى عمرك السعيد من أعمارنا وان يديمك مصدراً للجود والاحسان على مدى الأزمان. فتبسّم عظمته حفظه الله على ما هو معلوم من بشاشته وقال أما أن تدعونا بطول العمر فهو محبوب مرغوب فيه لأنه يعذب على السمع ولو كان ينكره العقل وقد قال سبحانه وتعالى « فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » وأما أن يضيف الله سبحانه من أعماركم إلى عمري فهذا لا أراضه فما ضر أن نعيش سوياً وواهب الأعمار الهي والهكم سبحانه بيده الأعمار والارزاق وعنده منها الكثير وهل تظنون أنه يلذني أن أعيش دونكم لا والله. وأنشد عظمته بعد ذلك مرتجلاً بيتي المتن فعجبنا من هذه المبادئ السامية والتنازل الكبير في جبر خواطرنا وازدنا إلى الله دعاءً بطول بقائه ذخراً للإسلام ومجداً للعرب وسبحانه بحبيب الدعوات

وقال النبي عليه الصلاة والسلام « شرب الدواء » للجسد كالصابون لاثوب ينقيه
ولكن يخلقه وأنشد بعض الأدباء في أحد الفضلاء :

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثل مايرتضي
فقلت لما لم يكن ذا تقى تعارض المانع والمقتضى

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات
بصفين ومنعوه من الماء « قد استطعموكم القتال فاقروا على مذهبه وتأخير محله أو رروا
السيوف من الدماء ترويه من الماء فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين »
فساوى عليه السلام بين الموت بالعز والحياة بالذل ومن هذا أخذ الشاعر معنى قوله فقال
فموت الفتى في العز مثل حياته وعيشته في الذل مثل مماته

وقال غيره :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
طيب الحياة بذلة كجهم وجهم بالعز أنخر منزل

ومن هذا الباب قول العرب في أمثالهم « اتق خيرها بشرها وشرها بخيرها »
والضمير يرجع للقطعة قاله رجل لصاحبه وهو يشكو مضض القطط وأوساخها ويحمد
صيدها الفار فلا تعيث في البيت فساداً

ومن هذا الباب أيضاً نكتة لا بأس من إيرادها وشاعرنا عبد المسيح بك أنطاكي
قال كان شيخ هرم من وجوه حلب قد تزوج صبية حسناء ثم حدث بينهما نفرة في
ساعة غضب خلف عليها بالطلاق ثلاثاً فخرمت عليه . واذ كان لتلك الصبية وقع في نفسه
شديد أرسل فاستدعى القاضي وطلب منه حيلة شرعية يستعيد بها زوجته فقال القاضي
ان لا سبيل الى ذلك الا ان تزوجها من اجنبي زواجاً شرعياً ثم يعود هذا فيطلقها
فتنتظر قضاء عدتها ثم تزوجها ثانية فارتضى الشيخ رأي القاضي مرغماً ولكن حار
في الحصول على رجل يأتمنه على زوجته . وفيما هو غارق في بحار حيرته اذا بفلاح
شاب من فلاحيه العاملين في أرضه داخل عليه فقال أزوجها من هذا الفلاح
وهو طوع يدي يطلقها رغم أنفه . وبغير تردد استدعاه اليه وعرض عليه الزواج
بمطلقته مشروطاً بطلاقها في صباح اليوم التالي فقال سمعاً وطاعة . وفي الحال كان
القاضي حاضراً فكتب الكتاب وشهد الشهود وفي المساء دخل الفلاح على الصبية
مطلقة المعجوز الهرم واذ اراد ان يدخل عليها أسرعت الى طشت فوضعتة على

الفراش فقال لها الفلاح ولم هذا؟ قالت له أليس من عادة الرجال اذا ارادوا اتيان نسائهم يضعون الطشت من ورانهم للبراز؟ ففهم الفلاح بأن ذلك العجوز كان لضعفه لا يستطيع عند الجماع ضبط نفسه. فضحك وقال لها ليس كل الرجال كما تعهدين ودخل بها فشعرت بلذة لم تعهدها بجماع ذلك الهرم وبقي الى الصباح بين لف وعناق وجماع وعند ما أصبح الصباح أخذ الفلاح يعول ويكي فقالت الصبية ولم تبكي قال لفراقك قالت كيف ألم تزوجني وقد حمدت الله على الخلاص من ذلك العجوز القذر؟ قال نعم ولكن تزوجت في المساء على أن أطلقك في الصباح والان ينتظرنني زوجك والقاضي والشهود لاحلف بالطلاق ثلاثاً أمامهم. قالت ولكن أنت لا تطلقني قال وهل يستطيع ذلك والباشا سيدنا ونحن نشغل في أرضه وله نفوذ كبير فهو يستطيع أن يزجني في السجن أيضاً لدين له في ذمتنا. قالت اصغ فان أمر الطلاق بيدك وأنا لا صبر لي على فراقك ولا أريد الرجوع الى ذلك العجوز القذر فاذا رفضت طلاقي فليس في استطاعة أحد كراهك عليه. أما الدين الذي عليكم فان أبي وهو من أغنياء البلد يوفيه عنك قال سمعاً وطاعة وعاداً فتمعنا وبيناها كذاك واذا بباب غرفتهما يقرع والخدام ينادي يا فلان ان الباشا يدعوك قال حباً وكرامة وخرج الفلاح من غرفة زوجته تاركا بها قلبه وتوجه الى حيث الباشا فوجد عنده القاضي وطائفة من الاعيان فقال له القاضي أما طلقت زوجتك فلانة؟ قال كلا وأنت مرة كلا قال الباشا كيف ويملك قال ألم أزوجها بشريعة الله ورسوله أو ليس الطلاق لمن أخذ بالساق؟ فأنا لا أطلق امرأتي ولو قتلتموني فغضب الباشا واضطرب وأخذ الحاضرون يرجون الفلاح تارة ويعرضون المال عليه طوراً ليطلق فأبى فتهددوه بالسجن هو وأبوه فلم يؤثر فيه التهديد وهكذا خرج غاضباً وأسرع الى المحكمة الشرعية طالباً زوجته فلم يسع القاضي الا تسليتها له على رغم أنف الباشا وظلت معه على هناء وسرور كل حياتها

وأنت ترى من هذه القصة ان الباشا اذ عرض عليه أمر تزويج مطقته موقتاً ليحل له الزواج بها ثانية كان يجب عليه عند ما اختار الفلاح زوجاً موقتاً أن ينظر الى النفع والضرر من هذا الزوج أما النفع فهو تحليل زواجه بها أما الضرر فهو معرفة زوجته وهي صبية صغيرة بان في الرجال من هم أقوى وأكفأ منه على الجماع فلو عرض على نفسه النفع والضرر لوجد اطلعته زوجاً في مثل عمره ولو فعل ذلك لما أضاع امرأته التي كان شديد الشغف بها وفي هذا كفاية

﴿ الروضة الخامسة ﴾

﴿ في الأمور الساقطة عن اعتبار العقل ﴾

« توطئة »

ان الأمور الساقطة عن اعتبار العقل هي اما لقلة أثرها وضعف تأثيرها أو لامتناع موضوعها وتكون عبارة عن أربعة أمور وهي استدراك الفائت . والعناية بالمدير والاهتمام بالمقبل . وتحصيل الحاصل . وسنفرد لكل منها فصلاً يوضحها أحسن توضيح « استدراك الفائت »

اعلم أن استدراك الفائت يقسم الى قسمين . أحدهما الفائت بنفسه . والثاني الفائت بوقته والاهتمام بكليهما من متاعب النفس بما لا يفيد أما الفائت بنفسه فان استدراكه جهل وخرق بالرأي والاهتمام بذلك عبث وغرور وقلنا في ذلك :

غرور وحمق ان تعاني متاعباً لا رجاء ما ندفات بالأمس ضائعاً
اذا كنت ذا حزم وحسن دراية فأحرص على ما زلت من بعد جامعا
وكان أبو الاسود حاضر الجواب جيد الكلام مليح النادرة روي أنه دخل يوماً
الى السوق يشتري ثوباً فقال له رجل هلم أقاربك في هذا الثوب ؟ فقال له ان لم تقاربني
باعدتك ثم قال له بكم هذا الثوب ؟ قال قد أطوي به كذا وكذا قال انما نخبرني عما فاتك
ومن أمثال العرب قولهم « الفائت لا يستدرك » مثل محدث وديته قوله الشاعر :

ندمت على سبي المشيرة بعد ما مضى واستنبتت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع رداً لما مضى كما لا يرد الدر في الضرع حالبه
ومثل هذا قول النابغة :

والياس عما فات يعقب راحة ولرب مطمعة تكون ذباحا
وقال شاعرنا الانطاكي :

ولكم ندمت على الذي ضيعته ولقد أضحت وما عقلت كثيراً
هيهات ليس تفيدني يا ليتني كنت الحريص لما غدوت فقيراً (١)

(١) أنشدت هذين البيتين وأنا في القصر الخزعي العالي بين أصحابي وكنت أحدثهم
بما مر علي من اليسر وما أصبحت فيه بأسرافي من العسر فنقله أحدهم لمسامع مولاي
ولي النعم بنيران أعلم نارتجل عظمت هذين البيتين معانياً فنقلهما لي صاحبي وهما

وقال أحد الحكماء لا ينبغي ان يعمل الانسان الفكرة في ما فاتته ولكن ليعملها في حفظ ما بقي لديه فلا ينفع النصيح بعد العمل ولا الاستنابة بعد الفوت
حكى ان ضبة بن أركان كان له ابنان احدهما يسمى سعد والثاني سعيد فخرجا الى سفر فهلك سعد ورجع سعيد فخرج والداهما مفتشاً عن ابنه الهالك في الاشهر الحرم ومعه الحارث ابن كعب فبينما هما ذات يوم ساران يتحدثن اذ درأ بمكان فقال الحارث لقيت بهذا المكان شاباً صفتة كذا وكذا فقتلته وهذا سيفه فقال له ضبة « الحديث ذو شجون » أي حديثك محزن فذهب قوله مثلاً ثم ان ضبة قتل الحارث فلامه الناس على استحلال الاشهر الحرام فقال « سبق السيف العذل » فأصبح قوله مثلاً . ومن هذا الباب قول حاتم الطائي

ألا لا تلوماني على ما تقدم ما كفى بصروف الدهر المرء محكما
فانكها لا ما مضى تدركه كانه ولست على ما فاتني متسديماً
وقيل للاخنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم رأيته في أحد الايام قاعداً في فناء داره متقلداً بحمايل سيفه يحدث قومه فيهما هو كذلك اذ أتى له

تشكو العساو أنت شاعر خزعل وتبيت في ما ضاع منك فكورا
وتقول ليت وليت لا تغني الفقى ان لم يكن من قال ليت شكورا
فرفعت جوابي لعظمته بالاعتذار في الحال وقلت

عذراً أبا الاحسان لا أشكو ولن أشكو ولي دولى أراه نصيرا
أغنيتني عن كل أهل الارض منذ أحسنت لي فعدوت فيك نفورا
« فلا شكرنك ما حيت وان أمت » فتذيع شكرك أعظمي مقبورا
ولئن أساء الدهر لي فأضامني حيناً فلاقيت المماش عسيرا
فالدهر كفر عن اساءته فاس عدني فبت الى المعز سميرا
فأنا بفضلك يا أمير العرب في نعمى بلغت بها الهنا الموفورا
نافست في نعمائك الشعراء والا دبء حيث لهم غدوت أميرا
وأذعت ما بين الانام مدأحي ونشرت منها في البه لاد عطورا
والفخر لي اني بيباك لائذ لا أن أكون مسوداً ميسورا
والله أسأل أن يديمك لي وللا عراب يا خير الملوك دهورا

فسمر عظمته من جوابي وأمر لي بنفحة سنية حسب عادته الملوكة

برجلين أحدهما مقتول والآخر مكثوف ف قيل له هذا ابن أخيك قد قتل ابنك قال
 الراوي والله ما قطع قميص كلامه ولا اغتاض
 ثم التفت الى ابن أخيه وقال يا ابن أخي أئمت برّك ورميت نفسك بسهمك
 وقتلت ابن عمك ثم قال لابنه الآخر يا بني قم فادفن أخاك وحلّ قيود ابن عمك وسق
 لامك مئة ناقة دية ولدها فانها غريبة عنا
 وقال أرس تطاليس الايام لا تديم الفرح ولا الترح والاسف على الماضي تضييع
 للعمر لا غير وقال المتنبي :

فما يدوم سرورٌ ماسررت به ولا يرد عليك الفات الحزن
 وقاله شاعرنا الانطاكي :

فدى وألف فدى قارون مأخذت من درّة فقدتها أصبع الملك
 قد أصبحت بمياه النهر سابحة من بعد دورتها في فبة الفلك
 فلا عليها يقال اليوم وأسفا ولو غدت طمة الحيتان والسماك
 ما دام صاحبها في غبطة وعلى وسودد ونخار آمن الهلاك (١)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام « ان كنت جازعاً على ما تفات من يديك فاجزع
 على كل ما لم يصل اليك » أي لا فرق بين ما فقدت وبين ما لم تحصل عليه وكلاهما
 في حكم العدم . وقال الشيخ عايش الكبير الذي قسم لك حائل لديك والذي لغيرك
 لا يحل اليك

أما ما فات زمانه فالندم عليه كالندم على ما فات وكلاهما في حكم العدم لا ينفع فيهما
 ندم وقد قال الشاعر :

(١) كان عظمة مولانا أعزنا الله بشريف وجوده على ظهر نخته « بهمشير » في
 مباه قارون في قرب محلة المظفرية وكان بأصبه خانم من الماس كبير الحبم غالي الثمن
 وكان هذا الخاتم من الفضة مركبة عليه الحجر على دائرة من الذهب تلتصق بالفضة
 ببريم لينزعها عظمتها عند الصلاة صلاحاً وتعبداً فينما كان عظمتها مرة مستنداً على حازر
 اليخت يستعرض جيشه وقعت الماسة في النهر وهو في أبان ازدياده فتقدم الغلمان
 للغوص رغبة في ايجادها فقال حفظه الله مبتسماً لا تتعبوا فوجودها عسر المأل وهي
 فدى على كل حال وكنت وقته في الحضرة فأنشدت هذه الايات فتبسم عظمتها وقال
 فدى وألف فدى وأجازني بكرمه الحاتمي

ما مضى فات والمؤمن غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

وأكثر الندم على ما فرط من الزمن ندم الكهول على تضییع الشباب سدى
وذلك لأن الشاب يتضيى شبابه باللهو والطرب والتشبيب والنزل فلا يدخر ما لا ولا يكسب
علماً ولا يحني مجداً حتى إذا ما أدبته تجاربه وعرف خطأه وأراد محاولة تدارك ما فات
وجد عزيمته قد خارت وقواه قد ضعفت فيندم على شبابه الضائع ويقول مع الشاعر :
الآليت الشباب يعود يوماً لا خبره بما فعل المشيب

ولهذا تقول العامة في أمثالها « لو كان الإنسان عمران لقضى أحدهما بالتجربة
والآخر بالآمل » وإذا عرفت ذلك فالسعيد من الشبان من اعتبر بندم الكهول
والشيوخ على تضییع شبابهم سدى وحرصوا على زهرة شبابهم فكسبوا بها مالا وعلماً
وجاهاً مما يكون لهم ذخيرة عند ما يكملون فيصبحون بحالة لا تساءلهم عقولهم بها على
تحصيل العلم ولا قواهم على تحصيل المال وكلاهما على تحصيل الجدة. وفي ذلك قلنا :

ندم الشيوخ على الشباب وقد مضى باللهو ما علماً جنوا أو مالا
ندماً لقد عضوا البنان عليه اذ في هو لهم قد ضيعوا الآمالا
فأيمته شبابنا بشيوخنا وليحسنوا زمن الصبا الرعملا

من هذا البيل أيضاً الندم على ضياع الفرصة فكم وكم تمنح لاحدهم فرصة
لانيان عمل ينم منه رجاً كثيراً أو جاهاً وفيراً فيتغافل عنها فتفات من يديه فيندم
ولات ساعة مندم وهذا النوع من الندم لا يخلو منه أحد من الناس لأن ما من الناس
من لم تصبه فرصة خير فيضيعها وهيمت أن تعود الفرص ان هي أفلتت والسميد
من اغتتمها

« معاناة المدبر »

والقسم الثاني من الامور الساقطة عن الاعتبار معاناة المدبر والمدبر هو ما أشرف
على الفوات ومن أمثال العرب قولهم « خذ الامر بقوابله » أي خذه عند استقباله
قبل أن يدبر فإنه اذا أدبر أتعب طلابه . وقال الشاعر ما في هذا المني :
اذا رأيت بعيد أمر مقبلاً فقريب ما استدبرت منه بعيد
وقال آخر :

نخذلن وجه الارض مادام مقبلاً اليك ولا تكلف به حين يدبر

رقال الانتظامي .

وخير الامر ما استقبلت منه وائس بأن تتبعه اتباعاً
وقال بعض الحكماء « ما كان عنك معرضاً فلا تكن له معرضاً » ومن كلام بعض
الوعاظ « أيها العاقل مالك تعرض عن الآخرة وهي قبلة عليك وتقبل على الدنيا وهي
معرضة عنك » وقال بعض الشعراء :

ألا أما الدنيا غضارة أيككة اذا خضرت منها جانب جف جانب
فلا تكتحل عينك منها بغيره على ذاهب منها فانك ذاهب

وقال الشاعر :

نفسى التي تملك الاشياء ذاهبة فكيف أخشى على شيء اذا ذهبها
والزهد كله بين كلمتين في القرآن الشريف « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم » ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ لزهد بطرفيه
وقال الشاعر :

اذا عاش الفنى ستمين عاماً فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري لغفاته يمينا من شمال
وباقى العمر يصرفه بكدة وهم بالمصائب والعيال
فماذا ترتجي من عيش عمره وقسمته على هذا المثال

وقال أحد الاكابر « ما أمتع بدنيا ان بقيت لها لم تبق لي وان بقيت لي لم أبق
لها » وكان يقال يا ابن آدم لا تأسف على مفقود لا يردده عليك الفوت ولا تفرح
بوجود لا يتركه عليك الموت »

ومن هذا الباب معاناة الرجل تجديد مجد دارس أو تجارة بارة أو تعمير بيت
تداعى للخراب ولو عقل لاشفق على نفسه وماله فاشتغل لكسب مجد جديد من
وراء عمل جديد على أسلوب جديد أو خرب بيته المتداعي وعمر على انقاضه
بيتاً جديداً

ومن هذا القبيل عناية الامم بتجديد شباب دولها الشائخة فانهم يتعبون أنفسهم
في ما لا ينمى والدول على ما قرر ابن خلدون كالافراد لها نشأة فشباب فكهولة
فشيخوخة فموت والامة التي تكون في دولة شائخة عايتها أن تفكر باحداث دولة جديدة
تقوم على انقاضها خيراً لها من أن تفكر بتجديد شباب دولتها فتموت معها . الا أن

رشيدات الامم كراشدين من الرجال قليل ولذلك ترى كثيراً من الامم قد أضاعت
مجدها وسوددها ودخلت في حكم أم أخرى غريبة عنها
« الاهتمام بالمقبل »

واعلم أن الاهتمام بالمقبل هو عبارة عن الاهتمام بما قرب حصوله أو أشرف وهذا
وان كان يحكم به العقل بالمداهة الا أن اعتباره كالحاصل نوع من أنواع الوهم الواجب
أن يتنزه عنه ذو العقل السليم وقد قال الشاعر :

كل ما ترتجيه سهل ولكن عثرات الامال ليست بسهلة

قيل ان شاباً زاحم شيخاً في الطريق فقال الشاب كم تمنى القوس وأراد في ذلك
تعبيره بأنحاء ظهره حتى بات يشبه القوس فقال الشيخ يا ابن أخي ان طال بك الاجل
فانك مشترها بغير تمن

ومن أمثال العرب « أنت على المجرب » أي أنك مشرف على ماتجربه . قيل ان
أصل هذا المثل أن رجلاً حاول وصال امرأة فلما دنا منها قال أبكر أنت أم ثيب ؟
فقال أنت على المجرب ويضرب هذا المثل لمن يسرع في السؤال عن شيء هو قادم
على معرفته

ومن أمثالهم « اليك يساق الحديث » يضرب مثلاً للرجل يهياً له الامر وهو
مستعجل يلتمس الوصول اليه قبل أو انه. وأصاه أن رجلاً خطب امرأة فجعل يصف لها
نفسه حتى انتصب ذكره من تحت ثوبه فضربه بيده وقال « اليك يساق الحديث »
فذهب قوله مثلاً

ونظر اعرابي الى القمر حين طلوعه فأبصر به الطريق وكان خائفاً أن يضل
فقال ما عسيت أن أقول فيك ان قلت حسنك الله فقد فعل أو رفعتك الله فقد فعل
وقال المتنبى :

والهجر أقتل لي مما أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل

ووعده بعض الرؤساء بعض الادباء وعداً فاقتضاه عليه مرة بعد أخرى وكان في
كل مرة يجدد له الوعد فكتب اليه لست ألتبس باقتضاء وعدك تجديده لان هذا قد
أحرزته وإنما ألتبس منك انجازه

وسأل بعض الخلفاء رجلاً عن شيء فقال الله أعلم فقال قد شقينا ان كنا لا نعلم
أن الله أعلم فاذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل لا أعلم بكل صراحة

وقيل استأجر رجل حملاً لا يحمل له قفصاً فيه قوارير على أن يعلمه ثلاث خصال
ينتفع بها فلما بلغ ثلث الطريق قال هات الخصلة الاولى فقال من قال لك الماشي مثل
الراكب فلا تصدقه قال نعم . فلما بلغ الثالث الثاني قال هات الثانية قال ومن قال لك
الجوعان مثل الشبعان فلا تصدقه قال نعم . فلما انتهى الى باب الدار . قال هات الثالثة
قال من قال لك انه يوجد حمال أجهل منك فلا تصدقه . فرمى الحمال القفص على الارض
مغناظاً وقال من قال لك انه بقي في القفص قارورة صحيحة فلا تصدقه

وسمع ابن الجصاص آية من القرآن في بعض المجالس فقال حسن والله هاتوا دواة
وقرطاساً أكتب هذا قالوا هذا من القرآن وفي داركم خمسون مصحفاً فلم يثن القول
عزيمته فكتبها وقال لكل جديد طلاوة

ونظر ابن الجصاص وجهه في المرأة فقال لمن حوله هل طالت لحيتي ؟ فقيل له ان
المرأة في يدك قال نعم الا أن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب
وقال أحق لابنه أي يوم صلينا فيه الجمعة في مسجد الرصافة ؟ فقال لقد نسيت
ولكني أظنه يوم الثلاثاء فقال صدقت كذا كان

« في بيان الامور العديمة الفائدة »

ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب هو بيان الامور المعدومة الفائدة المتساوية العائدة
منها وصف الشيء بنفسه كقول بعضهم :

كأنتا والماء من حولنا قوم جـ لوس جـ لوهم ماء
وقال في ذلك ابن الوردي :

وشاعرته وأقدته طبع الذكاء له فكاد يحرقه من فرط اذكاء

أقام يجهد أياماً قريحة وشبهه الماء بعد الجهد بالماء

ومنها تخصيص الشيء بما لا يختص به أو يشاركه فيه ما هو أقل منه كما يحكى انه
تعرفت مدينة لكثير فقالت له هل أنت القائل :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جنباتها وعراها

بأطيب من أردان عزة موهناً وقد أوقدت بالمدل الرطب نارها

قال نعم قالت لله درك فلو أن زنجية أوقدت النار بالمدل وتعطرت لطاب من أردانها
الشذا. ولكن هلاً قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تطيب

نخجل منها وقال صدقت يا خالة . وسمع بعضهم قائلاً يقول شعراً :
ومن لا يودّ المدح أن مدأحي نوافق عند الاكرمين نواحي
نوافق عند المشتري الحمد بالندی نفاق بنات الحارث بن هشام
قال يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام ؟ قال كن حسان الوجوه
وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن وهورتهن الى بعولتهن فقال يا ابن أخي لو فعل
ابليس ببناته ما فعل الحارث لتنافس فيهن الملائكة المقرّبون . ومن ذلك قول شاعرنا
الانطاكى لواقعة حال :

أقول وقد لاحت وأنضت خباءها جميلة هذي أم شبيهه جميلتي
فاني اليها شيق دائم الهوى وليت فؤادي كان يعشق بالتي
فقلنا له وما معنى شبيهه جميلة أتريد أنها كانت أقل مما تعهد لها جمالا أم أن الهوى
أثر عليها كما أثر عليك ؟ فقال :
فاني رأيت البعد أثر في بها محاسنها
ثم توقف فقلنا أتم قولك :

فلا أنا فيها واصف زهر حسنها ولا هي في ذا الحب ذات صباة
ومن هذا الباب ترجيح الشيء على نقيضه أو ضده بالرجحان ضرورة وبداهة
فان في ذلك نقصاً لاراجح فضلاً عن عدم فائدة الترجيح كتفضيل الماس على الفحم
والنور على الظلمة وهلم جرا قال الشاعر :
إذا أنت فضلت امرءاً ذا نباهة على جاهلٍ قد كنت فيه منقصاً
ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا
وقلنا في مثل هذا الواقعة حال :
وما مدح فينا الحسين مفضل محامده الفرأ على ابن معاوية
سوى كالذي قد قارن الشمس بالدجى وذا مظلم من حيث هاتيك زاهيه (١)

(١) ومما عرف به عظمة الشيخ المعز أطال الله بقاءه برّه وتقواه وتمسكه في حب
آل البيت على زعيمهم وعليهم سلام الله ولذلك كثيرون من الشعراء يقصدون عظمته
بتمداح المصطفى وآل بيته الاخيار. ففي ذات يوم جاءه أحد الشعراء مدحاً سيّد الشهداء
وكان في جملة ما قال :

ومن ذلك ترتيب الآثار على غير الآثار على موضوعها. من ذلك انه قيل لاعرابي اشترى غلاماً انه يقول في الفراش فقال ان وجد فراشاً فليبل عليه . وقيل لاعرابي ما تسمون المرق؟ قال السخين قال فاذا برد؟ قال نحن لا نتركه حتى يبرد . وثلثه قعدصي مع قوم على طعام فأخذ يبيكي فقيل له وما يبكيك؟ فقال ان الطعام حار قالوا فاصبر حتى يبرد قال واسكنكم لا تصبرون . وقال الشاعر :

عجبت لمن يقول ذكرت حي
وقال المتنبي مخاطباً المؤذن :

ألا أذن فما أذكرت ناسي ولا ليئت قلباً وهو قاسي
ومنها أيضاً التعريف بالجمل والمبهم وذلك كما يحكي أن رجلاً قصد بشار فقرع الباب فقيل من الباب؟ قال أنا فقال يا أنا ادخل . وقرع الباب رجل على عمر بن عبید فقال من هذا؟ فقال أنا، فقال لست أعرف أحداً من اخواننا المسلمين اسمه أنا وقيل قرع رجل على الجاحظ الباب فقال من؟ فقال أنا فقال الجاحظ أنت وقرعك سواء لا فرق بينكما

وروى شاعرنا عبد المسيح بك أنطاكي حادثة من هذا القبيل نذكرها على سبيل الفكاهة . قال ان السادة الاشراف في اليمن كثيروا التباعد حتى على الامراء فبينما كنت مرة بضيافة سموت سلطان لحج المرحوم أحمد بن فضل محسن وكنت بخدمته في مجلس وباب الغرفة مغلقاً واذا به يقرع فنادى السلطان رحمه الله من الباب؟ فقال الطارق افتح أنا سيدك قال ان أسيادنا كثيرون فأيتهم أنت؟ قال سيدك محمد قال ان أسيادنا بهذا الاسم كثيرون فأيتهم أنت؟ فقال سيدك محمد البار قال أهلاً ومرحباً تفضل فدخل السيد وتصدر المجلس ثم طلب مالا فنذحه السلطان ما طلب فانصرف . قال الانطاكي وبعد انصرافه قال السلطان المرحوم انظر هذه الحالة أنا سيدك فلان وهات احسان مع اني لو كنت قادماً لبيتي وقرعت الباب وسألني عبدي الذي هو ملك يدي

وان حسيناً ما يزيد بكفئه وقد فاقه في المكرمات الزواهي
فتبسّم عظمته حتى اذا انتهى من نشيده قال له ألا ترى حسناً أن تلحق بقصيدتك هذين البيتين وارجل عظمته يدي المتن في الحال فنجعل الشاعر واضطرب فسكن عظمته اضطرابه باحسانه اليه وأجازه على شعره وقال متطافاً ما أردت تخرجيلك ولكن سيد الشهداء لا يجوز أن يفضل على غير الاكفاء والا فيكون ذلك منقصة له عليه السلام

من الطارق ؟ فقلت له أنا فلان من غير أن أقول له سيدك نقول ان أشراف العراق على غير هذا

ومن هذا الباب التعريف بالتنوع وذلك كما يحكي أنه أرسل السراج الوراق غلامه الى السوق ليشتري له زيتاً فلما أحضره صب عليه عسلاً وأكل لقمة فوجده زيت سراج لا يصلح للأكل فذهب الى الزيات وعاتبه فقال يا سيدي لا ذنب لي فقد قال عبدك اعطني زيتاً للسراج . ومن ذلك ما يقال انه سئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال لا أدري الآن الا أن أمها ذكرت لي انها ولدتها في أيام البراغيث والعامه في هذه البلاد أكثر تواريحها من هذا القبيل فمنهم من يقول لك ان مولده في سنة الوباء أو في سنة الجذب وانه تزوج في ولاية الامير فلان وهلم جرا

الروضة السادسة

في بيان الراجح من المرجوح

« توطئة »

غرسنا هذه الروضة لبيان الراجح والمرجوح أو هي موازين العقل في مقام التعارض أو التردد بين أمرين متنافيين لا يمكن اجتماعهما . وهذه الموازين على ثلاثة أقسام أولها ما كان بين أمرين متعارضين وكلاهما نافع . والثاني ما كان بين أمرين متعارضين واحدهما يراد به جلب منفعة والاخر يراد به دفع مضرة . والثالث ما كان في تعارض ضررين وسندكر هذه الاقسام الثلاثة بالتفصيل ان شاء الله

« في الأمرين المتعارضين وكلاهما نافع »

اعلم أن موازين هذا القسم سبعة وسندكرها واحدة فواحدة الميزان الاول رجحان الانفع من الامرين — وذلك كما حكي انه أكل السلطان محمود يوماً مع بعض ندمائه باتيجاناً وهو جائع فقال انه طعام لذيذ . فأفرط النديم في مدحه ثم شبع السلطان فقال ولكن الاكثر منه يضر فبالغ النديم في عد مضاره فقال السلطان مدحته لي الآن فكيف تعود الى ذمه ؟ فقال أنا نديمك لانديم الباتيجان فأتكلم بما يطيب لك

وقيل سجع بعض المغنلين فلما رأى الكعبة قال اللهم اغفر لها اللهم عافها . فقال له رجل يسمعه : ومن هذه التي آثرتها على نفسك ؟ فقال امرأتني فاني صحبت كثيراً من الخلق فما وجدت من يلذني وأقضي معه حاجتي سواها فكيف لأدعوها ؟

وحكي أن رجلاً حمّس بعض الصوفية طعماً إلى طحان يدّاحنه. فقال الطحان أنا مشغول فقال الصوفي اطحنه والا دعوت عايك وعلى حمارك ورحاك. قال فهل أنت مجاب الدعاء؟ قال نعم قال اذن ادع الله عز وجل أن يصير حنطتك دقيقاً فهو أنفع لك واسلم لدينك

ولما أخذ محمد بن سليمان صالح بن عبد القدوس ليتوجه به إلى المهدي قال له أطلقني حتى أفكر لك فيولد لك ولد ذكر ولم يكن لمحمد بن سليمان غير بنت واحدة فقال بل اصنع ما هو أنفع لك حتى تفلت من يدي. قال وما هو؟ قال ان تفكر في أن تصبح بنتي غلاماً وهكذا ضاعت حيلته

قيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه هل داويتها؟ فقال أني عنهما لمشغول فليل له هلا سألت الله أن يما فيهما؟ فقال أسأله في ما هو أهم من ذلك

الميزان الثاني في رجحان الأرجح من الأمرين الناعمين — فمن أمثال العرب قولهم: بطني تعطري. أصله ان امرأة كانت تعطر رجلاً ولا تطعمه فكأنه يقول لها اشبعي بطني ولا تعطريني

وحكي أن رجلاً أتى امرأته وهو جائع فتهيات له فلم يلتفت إليها ولا إلى أولادها فلما شبع دعا أولاده فقرّبهم إليه إلى أن شعر بحاجته إلى امرأته فسعى إليها فقالت بطنه يعدو الذكر. فذهب قولها مثلاً. وقال بعض الأذكياء:

إذا استعنت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

اذ ما لا حاجة إليه لا يسدّ عما إليه الحاجة والافتقار. وقال محمد بن عبد الرحمن دعا مغنٍّ مرة أخاً له فأقعده إلى العصر فلم يطعمه شيئاً فاشتدّ جوعه فأخذه مثل جنون ولم يعد يستطيع العمل. فأخذ صاحب البيت العود وقال بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال صوت المقلبي والمشوي

وحكي أبو الرمقمق قال كان لي اخوان أربعة كنت أنادهم في أيام الاستاذ كافور قال فضاقت ماني يدي وقلّ ما عندي وجلست في بيتي مفكر آفي أمري. فبينما أنا كذلك اذ جاءني رسولهم وكان يوماً بارداً ولم يكن عندي كسوة أتقي بها البرد فقال لي الرسول ان اخوانك يقرؤنك السلام ويقولون لك اننا قد ذبحنا شاة سميّة فإذا تشتهي أن نطبخها وعجل بالقدوم إلينا فكتبت إليهم

اخواننا قصدوا الصبوح بسهرة وأتى رسولهم إليّ خصيصاً

قالوا اقترح شيئاً نرى لك طبعه قلت اطبخوا لي جبنة وقيصا
قال فدفعت الرقعة الى الرسول فذهب بها اليهم وبقيت أنتظره وما شعرت الا وعود
الي ومعه أربع خلع كاملة وأربع صرر في كل صرة مشرقة دنانير وفرج الله عني فأخذت
أحسن الخلع فلبستها وتوجهت اليهم فصحبتهم اليوم بطوله وكان من أهنأ أيامي
الميزان الثالث في رجحان الأسهل من الأمر على الأصعب والميسور على المعسور —
فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خيّر بين أمرين الا اختار أيسرهما
ما لم يكن آثماً . وقال أحد الأدباء لصاحبه على سبيل الدعابة من الأولى بان يعشق الجارية
أم الغلام ؟ فقال أرى الأولى بأهل المدارس عشق الغلام ذي الطرف الناعس فان
الميسور أولى من المعسور ثم أنشد

حبّ الغواني ذوات الدلّ والحفر
فلمرد في كل وقتٍ لاحجاب لهم
وقال أحد الحكماء من فطنة الكلب انه اذا عاين الضياء قريبة كانت أو بعيدة
عرف العليل منها والصحيح والذكر من الانثى فلا يقصد في صيده الا الذكر وان
علم انه أشدّ عدواً وأبعد وثبة ويدع الانثى على نقصان عدوها وذلك لعله ان الذكر
اذا كان مطارداً فزناً وعدداً شوطاً أو شوطيين حقن بوله وكذلك كل حيوان اذا
اشتمّ فزه فانه يدركه الحقن واذا حقن الذكر لا يستطيع البول مع شدة العدو
فتثقل حينئذ خطواته فيلحقه الكلب ويصيده والانثى ليست كذلك . وقال بعض الشعراء
فاذا تعسّرت الامور فأرجها
وعليك بالامر الذي لم يعسر
وقلنا في هذا :

لا تعب النفس بالامر العسير اذا
لم ترج ان تكافا في تيسره
وكن نشيطاً بتدبير العسير اذا
عراك يوماً وأحزم في تدبره
الميزان الرابع رجحان الاقرب من الامرين على الابدع منهما ومعالجة الموجود خير
من انتظار المفقود

حكى أن ملك الهند أرسل رسولا الى أنوشروان فلما انتهى اليه جميع أرباب
دولته وأعيان مملكته أذن له بالدخول . فلما دخل عليه قال اسمع جواب رسالتك : ان
سلطان الهند يدعوني لطاعته فقل له أن يصلح مملكته أولاً ثم ينظر الى مملكة سواه
واذا أبى أن يرضخ لسلامي فالحسام بيننا وبينه والسلام وأنشد

فعاجزه من ترك الموجود طماعة وطلب المفقود

وربما تتبع الانسان لنفسه ما بعد عنها استهانة بما قرب منه وطلب ما صعب مناله
احتقاراً لما سهل وانتقل الى من لم يخبره مللاً من خبره وعلى الاكثر ان مثل هذا لا يحصل
على فائدة ولا يغفر بمائدة. واعلم ان العاقل من لا يترك ما يقربه التماساً للبعد ولا يستهين
بالأسهل طمعاً بالأصعب ولا ينتقل مما له فيه الخيار الى مالا خيار فيه. وبهذا يامن
الضرر ويسلم من الخطر. وقال أحد الحكماء لست منتفعاً بما تعلم ما لم تعمل بما تعلم، فان
زدت في علمك بغير عمل فأنت كالرجل الذي حزم حزمة من الحطب وأراد حملها فما
استطاع فوضعها على الارض وأزاد عليها. وسئل بعض الحكماء ما الحزم؟ قال هو أن
لا تطلب المفقود بفقد الموجود. وقال داود الطائي رأيت المحارب اذا أراد أن يذهب
الى الحرب أليس يجمع عدة الجلاء فاذا قضى عمره بجمعها فتي بحارب؟

الميزان الخامس ربحان ما لم يكن عنه بدل ولا عوض على ما عنه بدل وعوض —
من ذلك ان بعض الامراء قال لمعلم ابنه علمه السباحة قبل الكتابة فانه قد يجد من
يكتب له ولكن لا يجد من يسبح عنه

وحكي أن نحويًا ركب في سفينة فقال للملاح هل تعرف النحو؟ قال لا قال ويلاه
فقد ذهب نصف عمرك. وبعد قليل هاج البحر واضطربت السفينة حتى أشرفت على
الغرق فقال الملاح للنحوي هل تعرف السباحة؟ قال لا قال ويلاه قد ذهب كل عمرك
واعلم ان الانسان اذا وجد بين أمرين أحدهما له بدل وعوض وآخر ليس له بدل
ولا عوض رجع الاول بالضرورة العقلية كما حكي ان الضحاك بن قيس كان ملكاً من
أحسن الملوك سيرة وأصفاهم سريرة فترى له ابليس بصورة انسان ودخل عليه وزعم
انه يجيد طهي الدعام فضمه الملك الى حاشيته ووكله على طامه وصار كل يوم يطهي
له أطيب الاطعمة ولذائذ الاغذية مما يوجز عنه غيره. فلما أعجب الملك بطهيته قال له
يوماً اقترح ما تريد عليّ كفاً لك على حسن طعامك. فقال له ابليس آمني عليك ان
تسمح لي بتقبيل كتفيك. فلم ير الملك ما يمنعه من تلبية طباخه فخر عن بدنه فأقبل
عليه ابليس وقبّل لحي كتفيه وفرّ من بين يديه؟ فخرج من موضعي قبليته ساعتان
كأنهما حيتان، فعلم الملك انه ابليس، وقال قد قتلتنا يا لعين، فادواؤهما؟ قال ادمغة
الادميين، فد الملك يد الفتك، ولاجل ادمغة استعمل السفك، فضج الناس من
ذلك، وأبتموا بالمهاك، ثم تم الاتفاق بالاجماع، على أن تؤخذ الناس بالاقتراع، فمن

وقعت القرعة عليه ذبحه وأخذ دماغه بالحين ، وغذوا به الحيتين ، ففي بعض الادوار خرجت القرعة على ثلاثة انفار ، فخذوا وحبسوا لوقت الاضطرار ، فوقفت للضحاك امرأة وضية الوجه مستغيثة قائلة ثلاثة من دار ، لا صبر لي عنهم ولا قرار ، حاشى السلطان أن يرضى بهذا العدوان ، ولدي كبدي ، وأخي عضدي ، وزوجي معتمدي والكل مسجون ، ليسقى كأس المنون : فرق لها الضحك ، وقال لا يعمهم الهلاك فاختاري واحداً من الثلاثة فقالت اختار أخي الشقيق : فسأها الضحك عن سبب اختيارها ل أخيها ، دون ابنها ووالد بنيتها . فقالت اني مرغوبة ، وللزواج مطلوبة ، فان راح زوجي فعنه لي بدل ، واذا وجد الزوج وجد الولد وحصل ، فتهيأ الغرض ، ووجد عنه العوض ، وأما الاخ الشقيق ، فما عنه عوض في التحقيق ، لان أبوينا ماتا وفاتا ، وأصبحت تحت الارض رفاتا ، فهذا ما أدت اليه أفكاري ، ووقع عليه اختياري ، فاستحسن الضحك منها هذا الكلام ، ووهبها الثلاثة مع زيادة انعام . وقال بعضهم :

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وانما مثلنا لك بالاخ لتقيس عليه سائر الامور القوتية على حسب درجاتها . واذا خاف الانسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والاهل والوطن فانه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفاً . ولذلك قيل لجحى متى تقوم القيامة ؟ قال يوم أموت أنا . وقيل له متى القيامة الصغرى ؟ قال يوم موت الناس أجمعين

الميزان السادس رجحان اليقين على الظن ورجحان الظن على الوهم - ومن هذا قولهم كوخ في العيان خير من قصر في الوهم . وما كان أحسن من لو كان . وعصفور في الكف خير من كركي في الجو . ولئن تعطف خير من أن تقف . وقالوا أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس . ومن أمثال العرب مس الثرى خير من السراب أي اقتصارك على قليلك خير من اغترارك بما لغيرك . وقال أمير المؤمنين عليه السلام « حفظ ما في يدك أحب من طلب ما في يد غيرك » قال بعض الشراح هذا مثل قولهم في المثل المأثور: البخل خير من سؤال البخل . وليس مراده عليه السلام الوصاية بالبخل والامساك بل يريد النهي عن التفريط والتبذير . قال الله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . قالوا وأحق الناس من أضاع ماله اتكالا على مال الناس وظناً انه يقدر على الاستخلاف . وقال الشاعر

إذا حدثتك النفس أنك قادرٌ على ما حوت أيدي الرجال فكذب
ومن الأمثال في ذلك ما جاء لبعضهم في الصياد والسمكة

اتفق الحال مع الصياد	في بلدة من اصغر البلاد
ان حكم الطوى على السناره	من بعد ما ان عمل استخاره
فغطست في الماء بعض أذرع	وشبكت سُميكة كالاصبع
قالت له وهل لمثلي منفعة	يا ليما بدلتني بصفده
اني حقيرة وليس بي طمع	اذ ليس لي طعم ولا مني شبع
أترك سبيلي سنتين أكبر	وبعد في هذا المكان أحضر
وارم الى البحر لصيدي شبكة	حتى تقول الناس صاد سمكة
فقال بل أكون عين الجاهل	اذا تركت عاجلاً بأجل
وعاجز من ترك الموجود	طماعة وطلب المفقود

ومن أمثال العرب قولهم لا أطلب أثراً بعد عين والعين المعاينة ومعناه لا أترك
الشيء وأنا أعاينه ثم اتبع أثره حين يفوتني . وقيل العين ههنا نفس الشيء يقول لا
أترك الذي أطامه ثم اتبعه اذا فات . والمثل للمالك بن عمر العاملي وذلك ان بعض ملوك
غسان طاب رجلاً من عماله نفاته فاخذ رجلين وهما مالك بن عمر وأخوه سمك فقال
اني قاتل أحكما فقال كل واحد منهما اقتلني مكان أخي فعزم على قتل سمك فقال هذا
وهو مقدم على القتل :

فاقسم لو قتلوا مالكا لكانت لهم جنة راصدة

فقتل وخلي مالك فانصرف الى أهله فلبث زماناً ثم ركب مرة مع أمه في سفرة
فسمعا بأحدهم يعني « فاقسم لو قتلوا مالكا » فسمعت أم سمك فقالت يا مالكا قبح الله الحياة
بعد سمك أخرج في طلب دم أخيك فخرج فلقي قاتل أخيه يسير في نفر يسير من قومه فلما
رأوه عرفوا الشر في وجهه فقالوا له لك مائة من الابل وكف فقال « لا أطلب أثراً بعد
عين » وحمل عليه فقتله

وقال ابن الجوزي في الاذكياء بإسناده عن المبرد قال حدثني أحمد بن المعدل البصري
قال كنت جالساً عند عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون فجاءه بعض جلسائه فقال
أعجوبة قال ماهي ؟ قال خرجت الى حائطي بالمأبسة فلما ان أصحرت وبعدت عن
بيوت المدينة تبرّض لي رجل فقال اخلع ثيابك فقلت وما يدعوني الى خلع ثيابي ؟

قال أنا أولى بها منك قلت ومن أين؟ قال لاني أخوك وأنا عريان وأنت مكسو. قلت فلمواساة قال كلا قد لبستها برهة وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها قلت أفتعزيني وتبدي عورتني؟ قال لا بأس بذلك قد رويننا عن مالك انه قال لا بأس للرجل أن يغتسل عرياناً قلت فيلقاني الناس فيرون عورتني قال لو كان الناس يرونك في هذا الطريق ماتعرضت لك فيها فقلت أراك ظريفاً فدعني حتى أمضي الى بيتي فانزع هذه الثياب وأوجه لك بها قال كلا أردت أن توجه الي أربعة من عميدك فيحملوني الى السلطان فيحبسني ويمزق جلدي ويضع القيد في رجلي قلت كلا أحلف لك ايماناً اني أوفي لك بما وعدتك ولا أسيتك قال كلا انا رويننا عن مالك انه قال لا تلزم الايمان التي يحلف بها للصوص قلت فاحلف اني لا أحتال في ايماني هذه قال هذه ايمان مركبة على ايمان للصوص قلت فدع المناظرة بيننا فوالله لا وجهن اليك هذه اثياب طيبة بها نفسي فاطرق ثم رفع رأسه وقال هل تدري في من فكرت؟ قلت لا قال تصفحت أمر للصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله الى وقتنا هذا فلم أجد لصاً أخذ سرقته نسيئة وأكره ان ابتدع في الاسلام بدعة يكون علي وزرها ووزر من عمل بها بعدي الى يوم القيامة فاخلع ثيابك قلت فخلعتها ودفعتها اليه فآخذها وانصرف

الميزان السابع رجحان الباقي على الفاني والدائم على المضمحل - قال الشاعر :

ولقد أقول لحاجب نصيحاً له خلّ العروض وبيع لنا أرضاً

اني رأيت الارض يلقى نفعها والمال يأكل بعضه بعضاً

وقيل مرّ سليمان بن داود عليه السلام في مركبة على راعي غنم فقال قد أوتي سليمان ملكاً عظيماً فألقت الرمح تلك الكلمة في أذن سليمان فنزل عن عرشه وجاء الى الراعي وقال له ان تسبيحة واحدة في صحيفة عيد أفضل ألف مرة عند الله من ملك سليمان لان ملكه لا يلقى والتسبيحة لصاحبها ينتفع بها في يوم القيامة وقال بعض الحكماء صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح أسقام البدن لفصل النفس على البدن لانه آلة للنفس والنفس باقية والبدن فان مضمحل وصليحة الباقي والعناية به وتعديله أفضل من اصلاح الفاني ومع ذلك فان صلاح أنفسنا أسهل وأخف من مؤونة اصلاح أبداننا . وقال الفخر الرازي ان حسن السيرة أفضل من حسن الصورة لان حسن الصورة زائل وحسن السيرة دائم الاحدوثة . ومن كلام بعض الاعلام : الويل لمن أفسد آخرته بصلاح ديناه ففارق ما عمر غير راجع اليه وقدم على

ما خرب غير منتقل عنه وقال الشعبي سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه اليه احد سمعته يقول أما بعد فان الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الامل بقصر الاجل . وقال ابن عباس لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يمتلئ لا اخترنا ما يبقى على ما يفنى فكيف وقد اخترنا ما يفنى على ما يبقى . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من محرمكم لمقرمكم » وقال عليه السلام « الغنى والفقر بعد العرض على الله » أي لا يعد الغنى غنياً الا من حصل ثواب الآخرة الذي لا ينقطع أبداً ولا يعد الفقر فقيراً الا من كتب عليه حرمان الآخرة وذلك هو الفقر حقيقة . فأما غنى الدنيا وفقرها فأمران عرضيان زوالهما سريع وانقضائهما وشيك والذي يستحق اسم السعادة على الحقيقة هو السعيد في آخرته حيث البقاء بلا فناء والعلم بلا جهل والقدرة بلا عجز والغنى بلا فقر . وقال الشاعر في مثل ذلك :

ليس السعيد الذي دنياه تسعده بل السعيد الذي ينجو من النار
حكى أن أحد الأغنياء سمع ذات ليلة هاتفاً يقول له في المنام : غداً سيموت أسعد رجل في المدينة . فلما صبحا من نومه ساوره الغم الشديد لانه يعلم ان لا رجل في المدينة أغنى منه . وكان في المدينة رجل حجار فقير فدنا أجله في ذلك اليوم . وجاء بعض الغلمان لذلك النني وأخبروه ان فلاناً الحجار مات في صبيحة ذلك اليوم . قال فاصبروا الى آخر النهار لنرى من يموت غيره . وظل الغني قلقاً على نفسه بعد الدقائق بفروغ صبر حتى انقضى النهار فلم يسمع بموت احد غير الحجار . فقال حقاً أن الحجار أسعد مني لانه كان رحمه الله رجلاً صالحاً طيب السريرة لا يسعى الا في الخير قانعاً راضياً مرضياً . ولا بد أنه انتقل اليوم الى السعادة الابدية وانا هنا في هم وشقاء لسبب حشد الاموال وظلم العباد . فما يمنعني ان اتعظ بذلك واغير سلوكي فاكون اسعد رجل بمعنى الكلمة ؟ اني قادر بأموالي ان اكون سعيد الدارين وكان الله يحب التائبين
وقال عليه السلام « الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور » وقال عليه السلام « شتان ما بين عاملين عمل تذهب لذته وتبقى تبعته وعمل تذهب مؤنته ويبقى أجره »
أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار
ومن كلامه عليه السلام « ان تمعّب في البر فان التعب يزول والبر يبقى » ومن

كلامه أيضا « عجيبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء »

« في تعارض النافع والضار »

واعلم ان القسم الثاني من أقسام الموازين يتعلق بتعارض مصلحة ومفسدة والتردد بين جلب نفع ودفع ضار وهما ميزانان سنذكرهما تفصيلا

الميزان الاول في رجحان دفع المفسدة على جلب المنفعة - قال بقراط الاقلال من الضار خير من الاكثار من النافع . وأوصى عبد الملك بن صالح أميراً قدمه على سرية أرسلها الى قتال عدو له فقال كن كالتاجر الكيس أن وجد ربحاً انجروا ولا حفظ رأس ماله ولا تطلب الغنيمة حتى محمد السلامة . وقال شبيب بن شيبه أن ابنيت بمقام لا بد لك فيه من الاطالة فقل أحكام البلوغ في طلب السلامة من الخنظل قبل التقدم من أحكام البلوغ في سرف التجديد ثم اياك ان تعدل بالسلامة شيئاً فقليل كاف خير من كثير غير شاف وينبغي أن يؤخر القتال ما وجد بداً فإن النفقة عليه من الانفس وعلى غيره من المال

الميزان الثاني رجحان رفع المفسدة وازالتها على جلب المنفعة - والفرق بينه وبين الميزان الاول دفع والدفع قبل الوقوع وهذا وقع وهو بعد الوقوع وكلاهما راجع على طلب المنفعة من ذلك ما رووا ان رجلاً سأل أحد العلماء أسبغ الله أم أستغفره فقال أن الثوب الوسخ أحوج الى الصابون من البخور أي أن الاستغفار يجب أن يقدم على التسبيح . وقال بعضهم :

لا يعجبنيك من يصون ثيابه خوف الغبار وعرضه مبذول

فلربما افتقر الفتى فرايته دنس الثياب وعرضه مغسول

وأما رجحان الرفع على النفع فطلق من غير تقييد اذ لا مصاحبة مع وجود مفسدة نال بزهر لا ينبغي للملك أن يكون في حفظ مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه فإنه اذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قطع الحشيش لئلا يضبط أما كن الريحان . وقال يحيى بن معاذ انكسار العاصين أفضل عندنا من صولة المصلين ومن كتاب الدر المنثور « شر لا يدوم خير من خير لا يدوم »

« في تعارض الضررين »

والقسم الثالث من الموازين تعارض الضررين والاضطرار الى ارتكاب أحدهما وهو ميزان فقط

الميزان الاول رجحان ارتكاب أقل القبيحين وأهون الضررين — فاعلم انه كما يجب عقلا في تعارض المنافع تحري الانفع والاكثر والابقى وكذلك يجب عند تعارض ضررين اختيار الأهون الأقل ضرراً . من ذلك أن بعض الاذكياء سئل ما الماقل ؟ فقال هو العالم بخير الخيرين وشر الشررين فالعاقل اذن من عرف خير الشرين وألف بين الضدين وجمع بين المتباينين كما في قصة سليمان بن داود عليهما السلام في أمر الغنم والحارث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون هو :

دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما غنام والآخر صاحب حرث فقال الحارث دخلت غنم هذا الرجل بالليل على حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً فقال داود الغنم للحارث عوضاً عن حرثه فلما خرجا من عنده مرا على سايان وكان في الحادية عشرة من عمره فقال لهما ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال غير هذا رفق بفريقكما فعادا الى داود وأخبراه بما قاله ولده سايان فدعاه اليه وقال له ماهو الاوفق ؟ فقال أن تسلم الغنم الى الحارث فيأكل ابنها وينتفع بدهرها ونسلها ويسلم البكرم الى الغنم ليقوم فيه فاذا عاد البكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخل الغنم اليه سلم البكرم الغنم لصاحبها واستلم كرمه كما كان فقال داود العدل ما قلت وحكم بذلك وقد نزلت الآية « وداود وسليمان اذ يحكما في الحرث اذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين »

وقال صاحب الاذكياء عن عقبة الازدي انه أتى بجارية قد جُنبت في الليلة التي أراد أهلها أن يدخلوها الى زوجها فجاءوا بمزام فعزم عليها فاذا هي قد سقطت فقال لأهلها خلوني بها ففعلوا فدنا من أذننها وقال ليس عندنا أحد فأصدقيني عن نفسك وأنا أخلصك من ورطتك فقالت كان لي خليل وأنا في بيت أهلي فافترض بكارتني وعند ما أراد أهلي ادخالي الى زوجي خفت الفضيحة وتظاهرت بالجنون فهل لك أن تصون شرفي وشرف أهلي حسبة لله تعالى قال نعم ثم خرج الى أهلها وفيهم زوجها وقال ان الجني قد أجابني الى الخروج منها فاختاروا من أي عضو تريدون اخراجه واعلموا ان العضو الذي سيخرج الجني منه لا بد أن يفسد فاذا خرج من عينها عميت أو أذننها أو فمها خرست أو يدها شلت أو رجلها عرجت أو فرجها ذهب عذرتها فقال أهلها ما نجد أهون من ذهاب عذرتها فأخرج الشيطان من فرجها فتركهم ودخل على الصبية وعزم وحرق البخور وأوهمهم أن الجني خرج من فرجها وأدخات المرأة الى

زوجها وصين شرفها وشرف أهلها وقال الشاعر في هذا الباب :
 رضيت ببعض الذل خوف جميعه كذاك بعض الشرا هون من بعض
 واما ارتكاب اقل الضررين فقد قال بعض الثقات حدثني رجل له قدر قال ارسل
 الي السلطان ان طلق امراتك وارادها لبعض اصحابه فأبيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة
 فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلاً فانه لا حيلة لك اذ أن السلطان لا يخاف عاراً ولا
 في الآخرة ناراً تفارقها

وذكر بن الاثير وغيره ان أبا جعفر المنصور لما حاصر ابن هبيرة قيل له انه يخندق
 على نفسه كالنساء فبلغ ذلك ابن هبيرة فأرسل اليه انت القائل كذا وكذا فبرز الي اترى
 فأرسل اليه المنصور ما أجد لي ولك مثل في ذلك الا كاسد لقي خنزيراً فقال له الخنزير
 بارزني فقال الاسد ما أنت لي بكفو فان نالني منك سوء كان عاراً علي وان قتلتك قتلت
 خنزيراً ولا نخر لمثلي بقتل خنزير فقال له الخنزير ان لم تبارزني لاعرفن السباع انك
 جبنت عني فقال الاسد احتمال عار كلامك أيسر من تلطيش راسي بدمك

وقيل انهزم دروين من بهرام جويت وقال هربت وان كان الهرب عيباً لا خلع
 بهربي ارواح جماعة من أصحابي لاني ان هلكت هلك بسببي ألوف من الخلائق
 ومن أمثال العرب «لئن يقولوا فرّ خزاه الله خير من قتل رحمه الله» ومن أمثالهم
 «سوء الاستمسك خير من حسن الصرعة» وقال بعض الفرس لئن ادعى جباناً وأنجو خير
 من أن ادعى شجاعاً وأقتل» وقال بعض المعمرين «يا بني ان الحياة خير من الموت فلا
 تموتن وأنت تستطيع أن تحمل نفسك على الهلكات»

وحكي ان الخليفة المنصور ظهر عليه في بعض الغزوات عالج فقال من برز لهذا
 وكفاني مؤنته أعطيته عشرة آلاف درهماً فطمع في ذلك أبو دلامة فبرز اليه فلما رأى
 منه مالا طأته له به تركه وهرب فقيل هرب أبو دلامة من خصمه فلما بلغ الخليفة خبره
 وكان أبو دلامة عنده قال هربت قاتلك الله فقال أبو دلامة قاتله الله أحسن عندي من
 رحمه الله فضحك الخليفة من جوابه

وقيل لا سلم بن زراة أن انهزمت من أصحاب مرداس بن أذينة يغضب عليك
 الامير عبد الله بن زياد قال يغضب هو وأنا حي احب الي من أن يرضى وأنا ميت
 وقيل انه انهزم رجل في حرب فشتمه أميره وقبح عليه عمله فقال لان تشتمني
 أصلحك الله وأنا حي خير من أن ترحم علي وأنا ميت

ومن ارتكاب أقل القبيحين ما حكى انه ادعى رجل في أيام المأمون انه ابراهيم خليل الله فقال له المأمون ان معجزة الخليل الالقاء في النار فنحن نلقيك في النار لنرى حالك قال اريد معجزة أخف من هذه قال فمعجزة موسى فانه القى العصا فاذا هي حية تسعى فقال هذه أصعب من الاولى قال فمعجزة عيسى احياء الموتى قال مكانك قد وصلت أنا اضرب رقبة القاضي يحيى بن اكنم واحييه لكم في الحال فقال يحيى أما أنا فأول من آمن بك وصدق نبوتك فضحك المأمون واجاز المتنبي على ان لا يعود الى هزيانه

وادعى آخر النبوة في زمن المأمون ايضاً فأمر تمامه ان يسأله ما علامة نبوته ؟ فسأله عنها فقال نبوتي ان اضاجع امرأتك بحضورك فتلد ولدأ يشهد لي وقت ولادته اني نبي فقال له اما انا فاشهد انك نبي من غير معجزة فقال له المأمون ما أسرع ما آمنت به ؟ فقال ما اهون عليك ان يفعل بأمرأتي وانا أنظر اليه فضحك المأمون واجاز المتنبي على أن يتوب

ودعا رجل لسايمان الشاذ كوني فقال أرانيك الله على قضاء اصبهان قال ويحك ان كان ولا بد فعلى خراجها فان اخذ اموال الاغنياء اسهل من اخذ اموال الايتام واستأذن الجاحظ والسكاك وهما من المتكلمين على رئيس فقال الخادم لولاه الجاحد والشكاك بالباب فقال المولى هذان من الزنادقة لاحالة فصاح الجاحظ ويحك قل الحديقي في الباب وكان يعرف بهذا الاسم فصاح الخادم الخلقى بالباب فصاح الجاحظ ويحك ارجع الى الجاحد ارجع الى الجاحد فانه أهون من الخلقى

واما رجحان ارتكاب اقل الضررين بمقابلة رجحان اقوى المنفعتين . فمن ذلك قيل ان هاروت وماروت لما اقترفا الذنب ههما بالصعود الى السماء فلم تطاوعهما اجنحتهما فعلمما ما حل بهما وقصدا ادريس نخيرهما الله تعالى بلسانه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاخترارا عذاب الدنيا لانه غير أبدي من قبيل انه اهون الشرين

وقال امير المؤمنين عليه السلام « العجب ممن يخاف عقوبة السلطان وهي وقتية ولا يخاف عقوبة الديان وهي دائمة » وورد في الحديث عنه عليه السلام قوله « عجببت ممن يحتمي عن الطعام مخافة المرض كيف لا يحتمي عن الذنوب مخافة النار وقد اخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

جسمك قد افنيته بالحمى دهرأ من البرد والحر

وكان اولى بك ان تحتمي من المعاصي عذر النار
وقال ابن حباوه انا نظرنافوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب
الله تعالى لان الاول غير دائم والاخر دائم
وهكذا يجب على الانسان في جميع أمور دنياه واخراه اذا وقع بين ضررين
زمانين أن يختار أهونهما والاحكام الشرعية قد قررت ذلك وكذلك النظمات الموضوعة
ألا ترى ان أحدهم يحكم عليه بحبس طويل ثم يرى الحكام ما يوجب على ذلك السجين
لشفيع له استبدال مدة الحبس المحكوم بها بأقصر منها فيستبدلونها بأمر الملك اختياراً
لاهون الضررين كما ان المحكوم عليه نفسه يسعى وراء ذلك اختياراً لاهون الضررين
بكل ماله من وسائل الشفاعة

الميزان الثاني رجحان فوات البعض على فوات الكل — قال الله تعالى «فان لم
يصبها وابل فطل» ومن أمثال العرب «لا يسقط الميسور بالمعسور» وقولهم «من لم
يجد الحميم رعى الهشيم» ومثله «من لم يجد ماءً تيمم» ومثله «اذا لم يكن ما تريد
فأرد ما يكون» ومثله قول الشاعر :

ومولى رفدت النصيح حتى يردّه عليّ وحتى يعذر الرأي عاذره
اذا كان لا يرضى برأيك صدره ولا أنت ان لم يرض رأيك قاصره
فصبراً جميلاً ان في اليأس راحة اذا الغيث لم يطر بلادك ماطره
وقلنا في مثل ذلك :

عجبت لمن يأبى القليل طماعةً بنيل كثير لا ينال فيخسر
فما ضره لو يفتح النفس بالذي تيسر ممّا بعد لا يتيسر
وقيل ان الهدهد قال لسليمان عليه السلام أريد أن تكون بضيا فتى فقال له أنا وحدي ؟
قال أنت وعسكرك في جزيرة كذا في يوم كذا فضى سليمان وجنوده الى هناك وصعد
الهدهد الى الجوّ وصاد جرادة وكسرها ورمى بها في البحر وقال يا بني الله كل ومن
ملك فان من فاته اللحم لم يفقه المرق . فضحك سليمان وجنوده . وأخذ هذا بعض
الشعراء فقال :

وكن قنوعاً فقد جرى مثله ان فاتك اللحم فاشرب المرقه
وقال شاعرنا الانطاكي في معرض غزل :
جفت وما رحمت صباً أخا وله يبكي ويشكو الجوى في ظلمة الغسق

يعالج الشوق حتى كاد يحرقه زفيره وهو لم يأمن من الغرق
 وهام في وجهه من لوعة وجوى بين الشوارع والساحات والطرق
 فاشفقت كرمًا اشفاق ذي كرم على مقيمها في آخر الرmq
 وأرسلت رسمها فيه تقول له ان فائك اللحم فاطلب سائل المرق
 ما كان يقنعني جسم أعانقه فصرت أقنع في رسم من الورق
 ورأى أحدهم امرأة حسناء في طاقة فاحبها ولازم المقام ببابها والمرور تحت طاقتها
 الى أن أعى وقل صبره فقرع عليها الباب فخرجت جارية تسأله عن حاجته فدفع لها
 صحيفة وقال دعي صاحبك تبول في هذه الصحيفة فلما بلغ الحسناء طلب الرجل ضحكها
 وبالت وقالت للجارية اتبعيه وانظري ماذا يفعل فلم يزل الى أن دخل بعض الخرابات
 فوضع ذكره في ذلك البول وجعل يقول يا مشئوم اذا فائك اللحم عليك بالمرق
 ومن نوادر جحا أنه رأى في نومه رجلاً أعطاه تسعة دراهم فقال سبحان الله في
 طبعك اجعلها عشرة فما رضي صاحبه وتخانقا خناقاً شديداً وفي أثناء الخناق انقبه جحا
 من نومه فما وجد في يده شيئاً فندم لانه لم يرض بالتسعة وظن أن صاحبه غدر به
 لطمعه فأغض عينيه وجعل يصيح لا بأس هات التسعة الفرق بيني وبينك ميسور
 وفي الامثال « زوج من عود خير من قعود » وأصل المثل كان رجل من عدوان
 وله أربع بنات وقد عضلن غيرة فسمعهن يوماً يتحدثن في خلوة فأصغى فاذا احداهن
 تقول لاخواتها فلتقل كل منا في نفسها وتصدق المقال فتمنت الكبرى زوجاً مثيلاً
 والثانية كريماً ورئيساً والثالثة ابن عم لها والرابعة سكنت ولم تقل شيئاً فألحت عليها شقيقاتها
 فقالت « زوج من عود خير من قعود » فعرف حينئذ الاب شر العضل وزوجهن
 وقال كسرى لمغني له قد قتل الفلهذ تلميذي وكنت استريح منك اليه ومنه اليك
 فاذهب بمقتاه حسدك له ولكن ذهب بشطر لذتي قال هذا وأمر أن يطرح المغني تحت
 أرجل الفيلة فتدوسه فقال المغني مولاي جعلت فداك أنا أذهبت شطر لذتك بمقتل
 تلميذك وأنت الساعة تذهب الشطر الاخر فتكون جنايتك على نفسك أعظم من جنايتي
 عليك فضحك كسرى من حسن تلخيصه وعفا عنه . وقال بعضهم :

روح النفس بالسلو عليها لا تكن جالب الهموم اليها

واذا مسك الزمان بضر لا تكن أنت والزمان عليها

وقلنا مثل هذا في واقعة حال :

لا تطل لوم من دهره الليالي وانشى بعدها بعيش كريبه
كان في عزه فأمسى ذليلاً تاركا عهده لكبر وتيه
من يجر دهره عليه فحاذر لا تكن أنت والزمان عليه (١)
ورأى بعضهم رجلاً يصلي ولا يركع فقال هذه ليست بصلاة فقال اني رجل عظيم
البطن فاذا ركعت ضرطت فاختار صلاة بغير ركوع أو ركوع بضراط . قال بعضهم :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً وأعقبه يوم عليك شهيد
فان تك بالامس احترمت اساءة فبادر باحسان وأنت حميد
وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله « اجتهدوا في العمل فان قصر بكم
ضعف فكفوا عن المعاصي » وقال ارسططاليس « من لم يقدر على فعل الفضائل فلتكن
فضيلته ترك الرذائل » وقال رجل لمورق العجلي أشكو اليك نفسي انها لا تريد الصلاة
ولا تستطيع الصبر على القيام قال بئس الثناء أثنت على نفسك فاذا ضعفت عن الخير
فضعف عن الشر . وقال الشاعر :

احزن على أنك لا تحزن ولا تسيء ان كنت لا تحسن
واضعف عن الشر كما تدعي ضعفاً عن الخير وقد يمكن
وقلنا في مثل هذا :

اذا كنت لا ترجى خيراً تنيله سواك فحاذر أن تكون أخاشر
فان أشر الناس من كان عائماً فساداً وخير الناس من جد للبر
وقال الله عز وجل « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا
كل الميل فتذروها كالمعلقة »

واعلم أزدك الله علماً أن من يعجز عن الاتيان بكل الخير لا يجوز له أن يتهاون
بعضه كما أن من لا يستطيع دفع الشر كله لا يجوز له أن يغفل عن دفع بعضه فان

(١) أنشد عظمة مولانا الشيخ المعز أعزه الله هذه الايات في مجلس عرض فيه أحدهم
بأحد ولادة البصرة بعد عزله وكان أحرق سيء السيرة وقد ترك في الولاية أقبح الآثار
وهذه الايات فيها الدلالة الصريحة على أخلاق عظمة مولانا الشيخ خزل الشريفة
ومبادئه السامية من حيث الترفع عن سماع ملامة الناس واعتياهم في مجلسه العالي ولو
كانوا من المسيئين والتساحم والاغضاء عن المذنبين

بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض
ومن أمثال العرب قولهم « ادفع الشر عنك بعود أو عمود » أي ادفع الشر بما
تستطيع من قوة أو ضعف . وقال بعضهم « اذا أتاك سائل فلا تردّه بغير عطية قلت
أو كثرت فتسلم من ملامه وتحظى باكرامه » وقال حكيم « ادفع الشر بما تقدر عليه »
وفي الامثال « من حقر حرم » أي من احتقر اليسير وهو قادر عليه حرم من الكثير
الذي يصير اليه . وفي الحديث « لا تردوا السائل ولو بظلف محرق فان من حقر
يسيره ومنع منه أعجزه كثير وامتنع عنه »

واعلم أن فعل قليل الخير أفضل من تركه فمن ادراك أن هذا الخير القليل لا يحتاج
اليه خلق كثير ؟ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله « لا يمنعكم من المعروف
صغيره » وقال عبد الله بن جعفر « لا تستح من القليل فان المنع أقل منه ولا تحين
عن الكثير فانك أكثر منه » وقال بعضهم :

اذا تكرهت أن تعطي القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بثّ النوال ولا تمنعك قلته فكلّ ماسدً فقراً فهو محمود
وقلنا في هذا المعنى :

ابذل من المال ما تقوى عليه ولا تكن بخيلاً به ان قلّ أو كثرا
فربّ مال يسير قد أجدت به على فقير قضى من حاجه وطرا
وقال شاعرنا الانطاكي :

قل للذي يمنع المحتاج مكرمة قلت ولم يستطع بالجود اكنارا
لا تحتقر كسرة يقوى الفقير بها على الحياة ولا تمنعه مختارا
وقال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان أقل
منه » وقال عليه السلام « افعلوا الخير ولا تحتروا منه شيئاً فان صغيره كبير وقليله كثير
ولا يقولن أحدكم ان فلاناً أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك القليل من الخير خير
من عدم الخير » وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا ن قليلاً فلن تحيط بكله
ومنى تفعل الكثير من الخير اذا كنت تاركا لاقله

حكى ان رجلاً كان بسمرقند فنذر ان شفاه الله يتصدق بجميع عمله في أيام الجمع
عن والديه فعاش زماناً طويلاً وهو يفي بنذره ففي أحد الجمع طاف النهار كله ولم يحصل

على شيء يتصدق به فاستفتى بذلك عالماً فقال له أخرج في طلب قشر البطيخ المرعي في الشوارع واغسله بالماء وأخرج به على طريق الرساتيق واطرحه بين حميرهم واجعل ثوابه لوالديك فتخرج من نذكرك ففعل ذلك وفي المساء نام في فراشه فرأى في الحلم والديه يمانقانه ويقولان له يا ولدنا عملت معنا كل شيء من وجوه الخير حتى اطعمتنا البطيخ وكننا نشتهيه فرضي الله عنك

قال أمير المؤمنين عليه السلام « اتق الله بعض التقى وان قل واجعل بينك وبين الله سترأ وان رق » ويقال في المثل « ما لا يدرك كله لا يترك أمله » فالواجب على من عسرت عليه التقوى باجموعها أن يتقي الله في البعض وأن يجعل بينه وبين الله سترأ وان كان رقيقاً

وفي أمثال العامة اجعل بينك وبين الله « دوزنة » والدوزنة لفظة صحيحة معربة أي لا تجعل ما بينك وبين الله سداً مظلماً

الخاتمة

هذا ما أثبتناه في هذا المورد وعسى أن يكون عذبا سلسالا لواردية وفيه النفع لقارئيه والحمد لله أولا وآخراً

وكان الفراغ من تسويد المجلد الاول من الرياض الخزعلية في غرة ربيع الثاني سنة ١٣١٨ للهجرة النبوية على مهاجرها أفضل صلاة وأزكى تحية
ثم أعدنا النظر فيه وأزدنا في مبانیه وانتهينا منه في شعبان سنة ١٣٣٠ ولله الحمد في البدء والختام

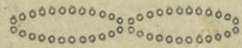
﴿ انتهى المجلد الاول ويليه المجلد الثاني ﴾

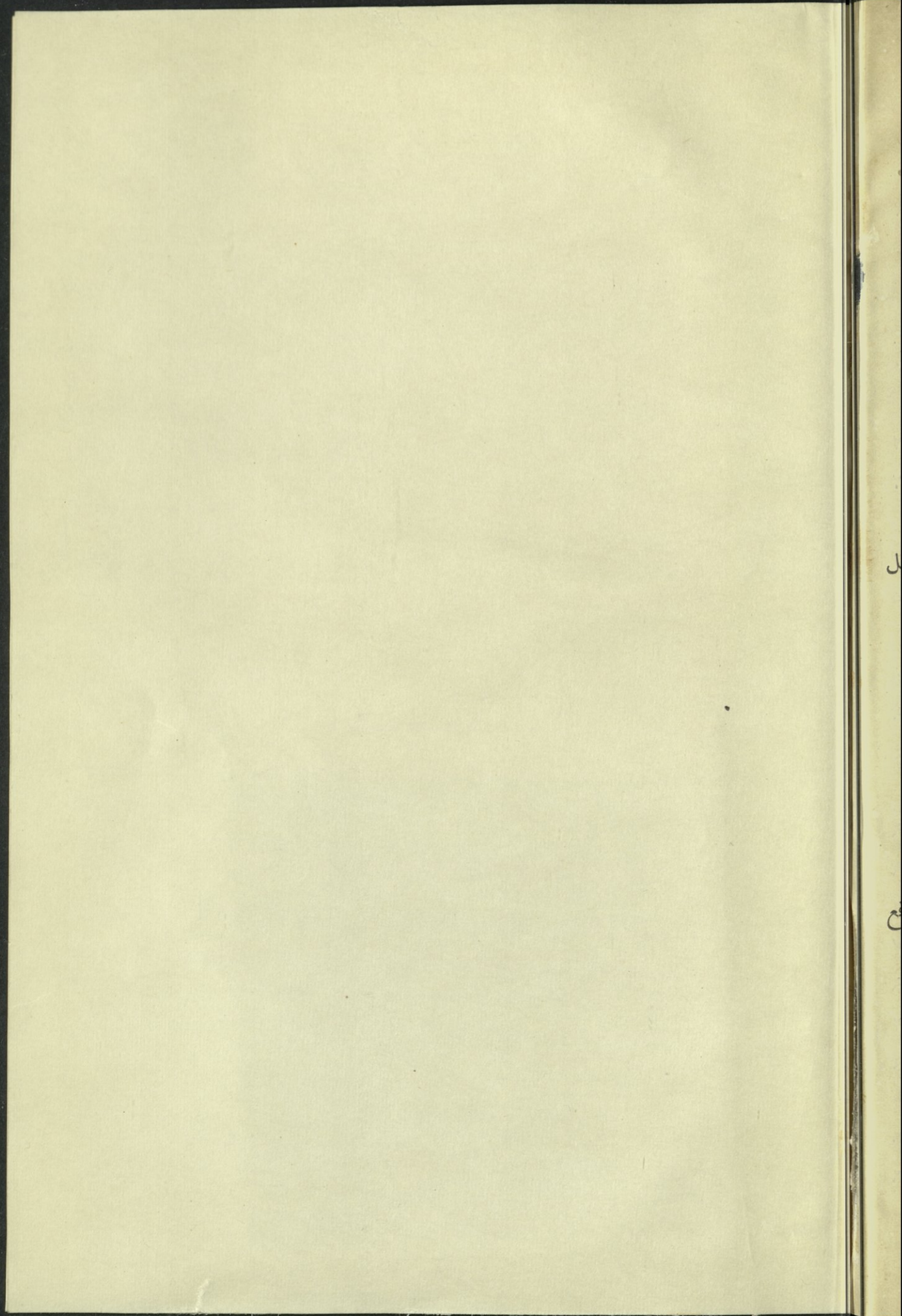
صفحة	صفحة
٢	رسم صورة عظمة السردار أقدس
٣	مؤلف الكتاب اعزه الله
٤	توطئة المجلد الاول بقلم العبد المملوك
٦	رسم آخر لعظمة السردار أقدس
٦	القصر الخزعلي كما هو اليوم
٨	عربستان
١٠	القصر الخزعلي كما كان سنة ١٩١١
١٢	رسم المحمرة
١٤	رسم الشارع الخزعلي في المحمرة
١٦	رسم صاحب السمو الامير السردار
١٦	أرفع الشيخ جاسب خان
١٨	رسم صاحب السمو الامير السردار
١٩	أجل الشيخ عبد الحميد خان
٢٠	(الفياية)
٢٢	رسم آخر لعظمة السردار أقدس
٢٣	المحمرة
٢٤	رسم الاميرين الجليلين
٢٦	رسم أصحاب السمو السردار أشرف
٢٨	والسردار أرفع والسردار كشور
٢٩	ناصرية الاهواز
٣٠	رسم صاحب السمو نصرت الملك
٣١	الشيخ عبد العزيز خان
٣٢	رسم سمو السردار لشكر الشيخ
٣٣	عبد الكريم خان
٣٤	رسم بقايا قلعة الاهواز
٣٥	القصور الخزعية في الاهواز
٣٦	رسم جلاء الملك سعادة ميرزا عبد
٣٧	الصمد خان
٣٨	عبادان
٣٩	رسم عبادان الجديدة
٤٠	رسم مشير التجار الحاج أبو الحسن
٤١	ختم القول
٤٢	العائلة الفخمة الجاسبية
٤٣	رسم عظمة معز السلطنة في يوم
٤٤	ولايته السعيد
٤٥	الحضرة السنية الخزعية
٤٦	رسم مظفر الدين شاه ايران
٤٧	رسم الحاج مصطفى فهمي معتمد
٤٨	عظمة السردار أقدس في البصرة
٤٩	رسم عبد المسيح انطاكي بك شاعر
٥٠	عظمة السردار أقدس ونديمه
٥١	امارة عظمة السردار أقدس
٥٢	رسم الموسيقى الخزعية
٥٣	سياسة عظمة السردار أقدس
٥٤	جلالة الشاه احمد خان في موكبه
٥٥	رسم ثلاثة من الجيش الخزعلي
٥٦	رسم فصيلة من الجيش الخزعلي
٥٧	رسم ثلاثة من الحرس الخزعلي
٥٨	احكام عظامته
٥٩	العسكرية في عربستان

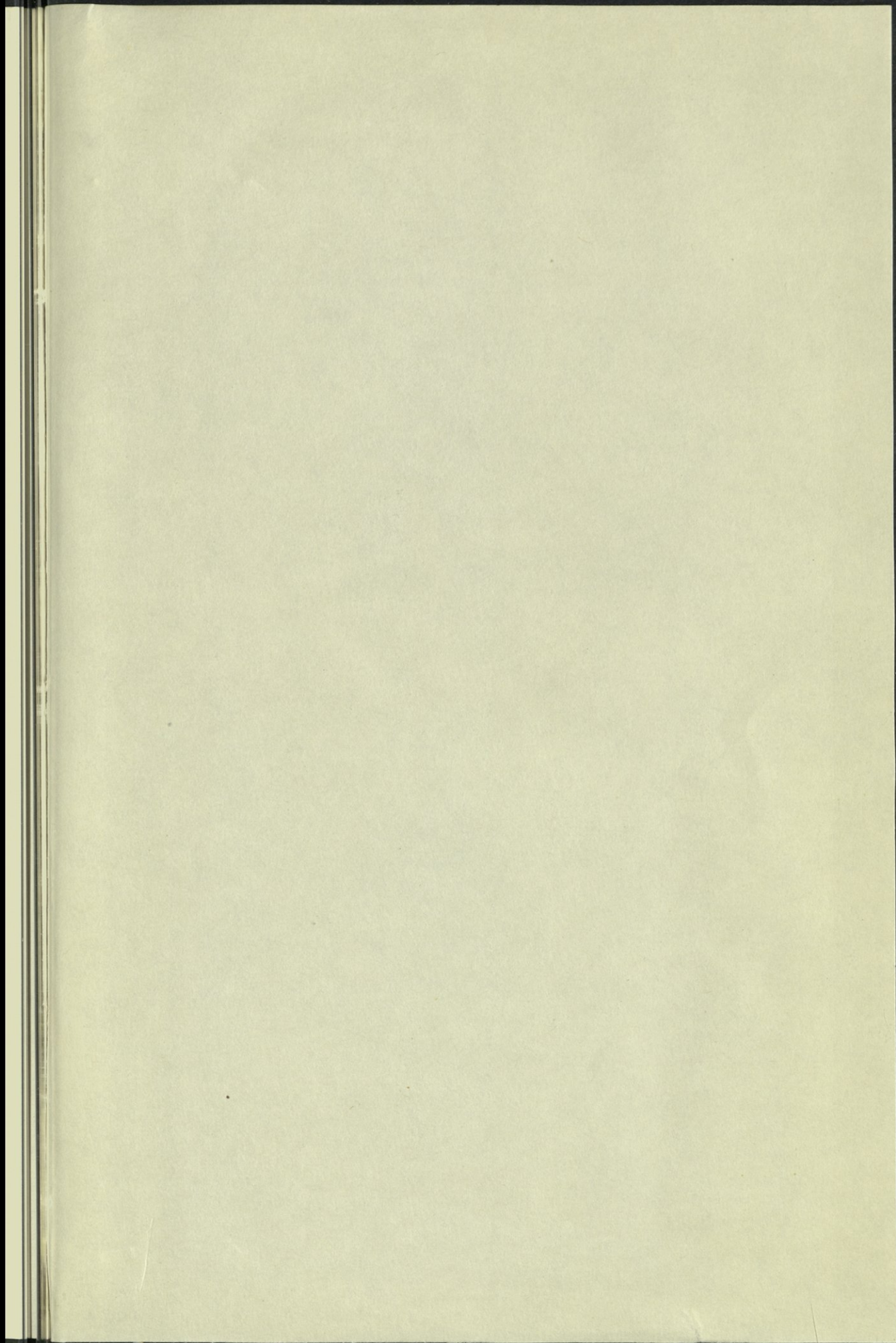
صفحة	صفحة
الروضة الثالثة	٦١ رسم فرقة الحرس الخزعلي
١١٥ توطئة	٦١ معيشة عظمته
١١٦ السكاه لله ١٢٠ حب الجاه	٦٢ الامراء الانجبال النظام
١٢٢ حب المدح واثناء	٦٢ رسم الخرس الخزعلي الايراني
١٢٧ العجب والرهو	٦٣ اخلاق عظمته و مناقبه
١٢٩ اقسام العجب	٦٤ الرياض الخزعلية
١٣٢ العجب يدعو الى التقصير	المورد الاول
١٣٣ الكبرياء	٦٨ المقدمة
١٣٦ حقيقة الكبرياء وآفها	٦٩ وحدة النفس — ماهي النفس
١٤٥ العفة ١٤٦ الوفاق والصدق	٧٠ شوائب النفس الانسانية
١٤٨ الخاتمة	٧٠ في الاحوال النفسية
١٤٩ الطبع والتطبع	٧٢ الملوك النفسية
١٥٢ الافعال الظاهرة تدل على الاخلاق	الروضة الاولى
الباطنة	٧٢ بين الاجل والآجل
١٥٥ في العادة	٧٤ ما أضيق العيش لولا فسحة الامل
١٦٠ الطبع سراق	٧٨ الشح
١٦٣ التأسى بالامثال	٧٩ التشوق الى المال
١٦٧ ميل النفس لشكلها	٨٢ الحرص على الممتع
١٧١ جهل الاشياء	٨٤ التهاون بالمتنل
١٧٢ رضى الناس لا يدرك	٨٩ الملل من الوجود
١٧٤ بين اللؤم والكرم	٩١ الدنع والجذب
١٧٩ الطمع	الروضة الثانية
١٨٢ العين أو النظرة	٩٤ توطئة ٩٧ الحقد
١٨٤ الاعتقاد	١٠١ حسد الاقربين والمتناظرين
١٨٥ الوهم	١٠٤ حب المائلة
١٩١ تأثير الكلام	١٠٥ الغيرة ١٠٩ الحمية

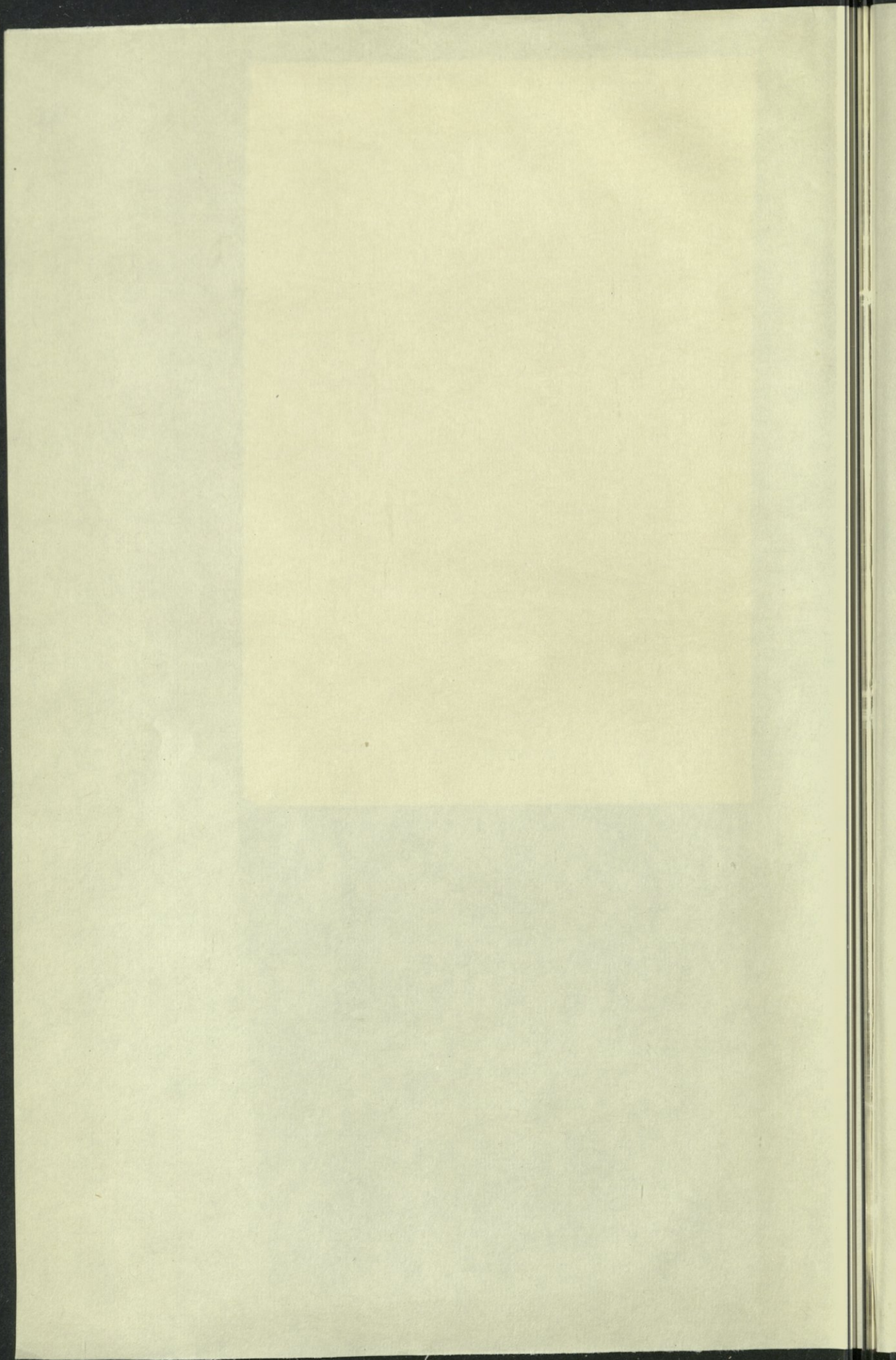
صفحة	صفحة
البطنة ٢٣٧	١٩٢ تأثير الشعر
الانهماك بالمعاصي ٢٣٨	١٩٥ التطير
غلبة الطبع والعادة ٢٣٩	١٩٨ التفاؤل
الحرص والاماني ٢٤٢	٢٠٠ تنمة
شدة الطمع ٢٤٤	٢٠٠ في تأثير اللسان والمكان
الجشع في الكسب ٢٤٦	المورد الثاني
غلبة الشهوات ٢٤٧	٢٠٢ مقدمة
غلبة الحب النفساني ٢٤٩	٢٠٢ في العقل وأحكامه علماً
الانانية وحب الانسان لنفسه ٢٥٠	الروضة الاولى
العجب النفساني ٢٥٠	٢٠٣ في فضل العقل وثمراته
شدة الغضب ٢٥٤	٢٠٥ تعريف العقل
الحجاج والخلاف ٢٥٥	الروضة الثانية
الروضة الخامسة	٢٠٨ في ذم الجهل والغباوة
في الامور الكاشفة ٢٥٥	٢٠٩ الجهل البسيط
توطئة — ألسنة الناس ٢٥٥	٢١٤ الجهل المركب
تنزيل النفس منزلة الغير ٢٥٨	الروضة الثالثة
تنزيل الغير منزلة النفس ٢٥٩	٢١٩ في الاستدلال بالعقل السليم
مقابلة الشيء بنظيره أو بضده ٢٦١	٢١٩ القياس
الحياء بين الاظهار والكتمان ٢٦١	٢٢٦ الاستدلال بقرائن الاحوال
الاجماع ٢٦٣	٢٢٧ الاستقراء
القدوة الحسنة ٢٦٤	٢٢٩ التمثيل
الاستشارة وقبول النصيحة ٢٦٦	٢٣٢ الاعتبار بالامثال
شروط المستشار ٢٧٥	٢٣٤ علة الحكم
الاستخارة ٢٧٩ هوى النفس ٢٧٦	الروضة الرابعة
حال الهوى مع العقل ٢٨١	٢٣٦ في الامور الحاجبة للعقل
ثمرات مخالفة النفس ٢٨٧	٢٣٦ توطئة

صفحة	صفحة
٣٣٨ الامكان	٢٩٣ الخاتمة
الروضة الثالثة	المورد الثالث
٣٤١ في الموانع والمحظورات	٢٩٤ المقدمة
الروضة الرابعة	٢٩٤ من شأن العقل النظر الى العواقب
٣٤٨ في مقدار النفع والضرر	٢٩٦ الفرق بين حكم العقل وحكم النفس
٣٤٨ ما يزيد ضرره على نفعه	٢٩٧ النفس تميل لذتها والعقل لمنفعته
٣٥٠ ما يزيد نفعه على ضرره	٢٩٨ النفس تمنع من ملاحها والعقل يخالفها
٣٥١ ما يشترك بين النفع والضرر	٢٩٩ العقل ينافي القوة الغضبية
الروضة الخامسة	٣٠٥ في منافاة العقل للقوة الروحانية
٣٥٥ في الامور الساقطة عن اعتبار العقل	الروضة الاولى
٣٥٥ توطئة	٣٠٦ في أن من شأن العقل النظر في العواقب
٣٥٥ استدراك الفئات	٣٠٦ تمهيد
٣٥٨ معاناة المدبر	٣٠٧ معاناة ما لا حاجة اليه
٣٦٠ الاهتمام بالمقبل	٣٠٨ في الاهتمام بما لا يضر
٣٦١ في بيان الامور المديمة الفائدة	٣٠٩ فيما لا نفع فيه
الروضة السادسة	٣١٩ النظر الى القول دون القائل
٣٦٤ في بيان الراجح من المرجوح	٣٢١ الاشتغال بما لا يعني
٣٦٤ توطئة	٣٢٥ تطوع الانسان لما لا يدعي اليه
٣٦٤ في الامرين المتعارضين وكلاهما نافع	٣٢٨ التكليف لما ليس من الشأن
٣٧٢ في تعارض النافع والضرر	الروضة الثانية
٣٧٢ في تعارض الضررين	٣٣٢ في جهة الشرائط
٣٨٠ الخاتمة	٣٣٢ المعرفة
	٣٣٣ القدرة









This image shows a single sheet of cream-colored paper designed for handwriting practice. It features two solid black vertical lines that create three columns of equal width. Horizontal dashed lines are spaced evenly across the page, providing guides for letter height. The paper is otherwise blank, with no text or markings other than the printed lines.

170:K451rA:v.1:c.1
خزعل خان (امير المحمرة)
الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002002

170:K451rA

V.1

خزعل خان (امير المحمرة)

الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية

APR 10 A751

170
K451rA
V.1

